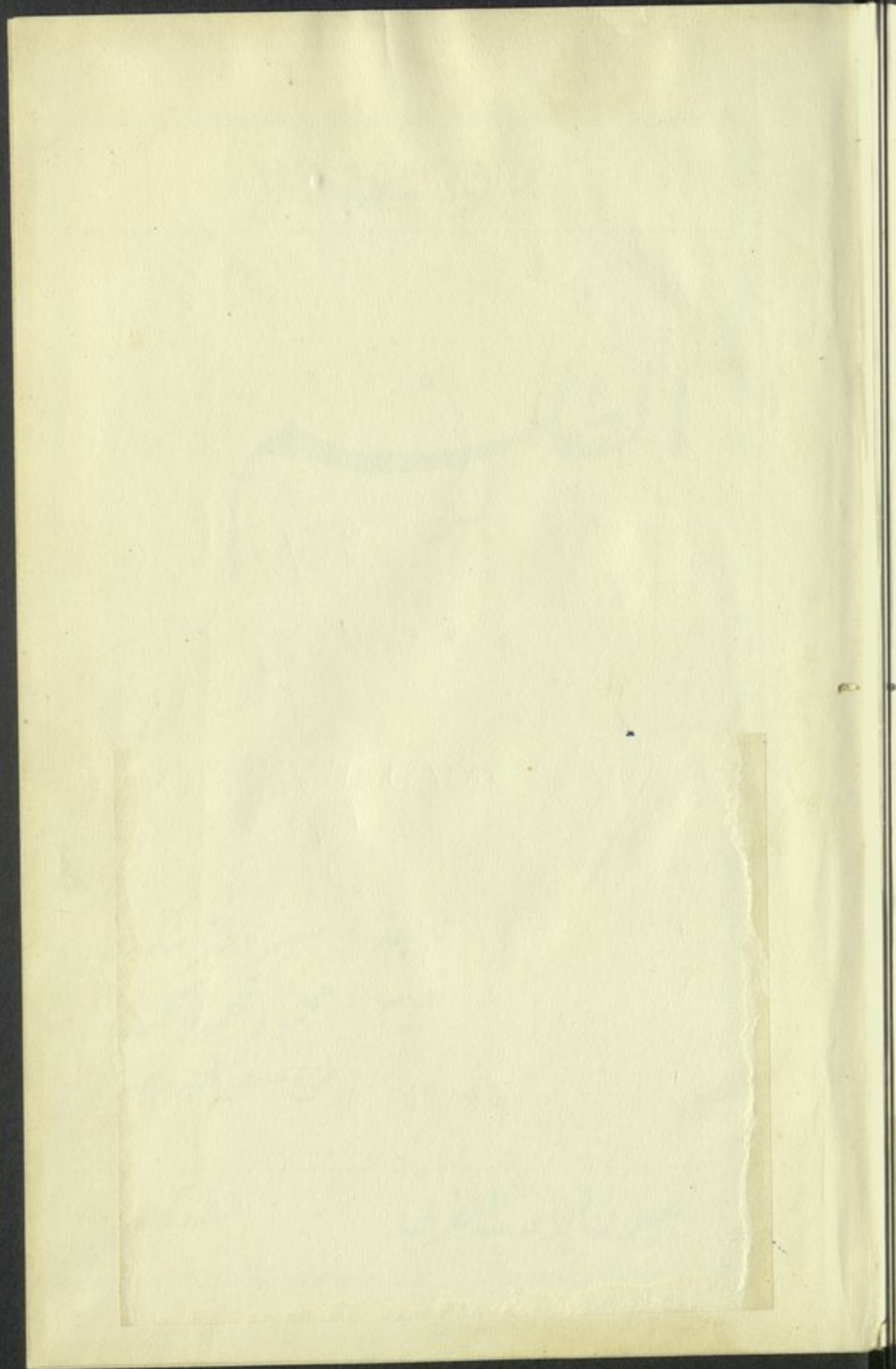


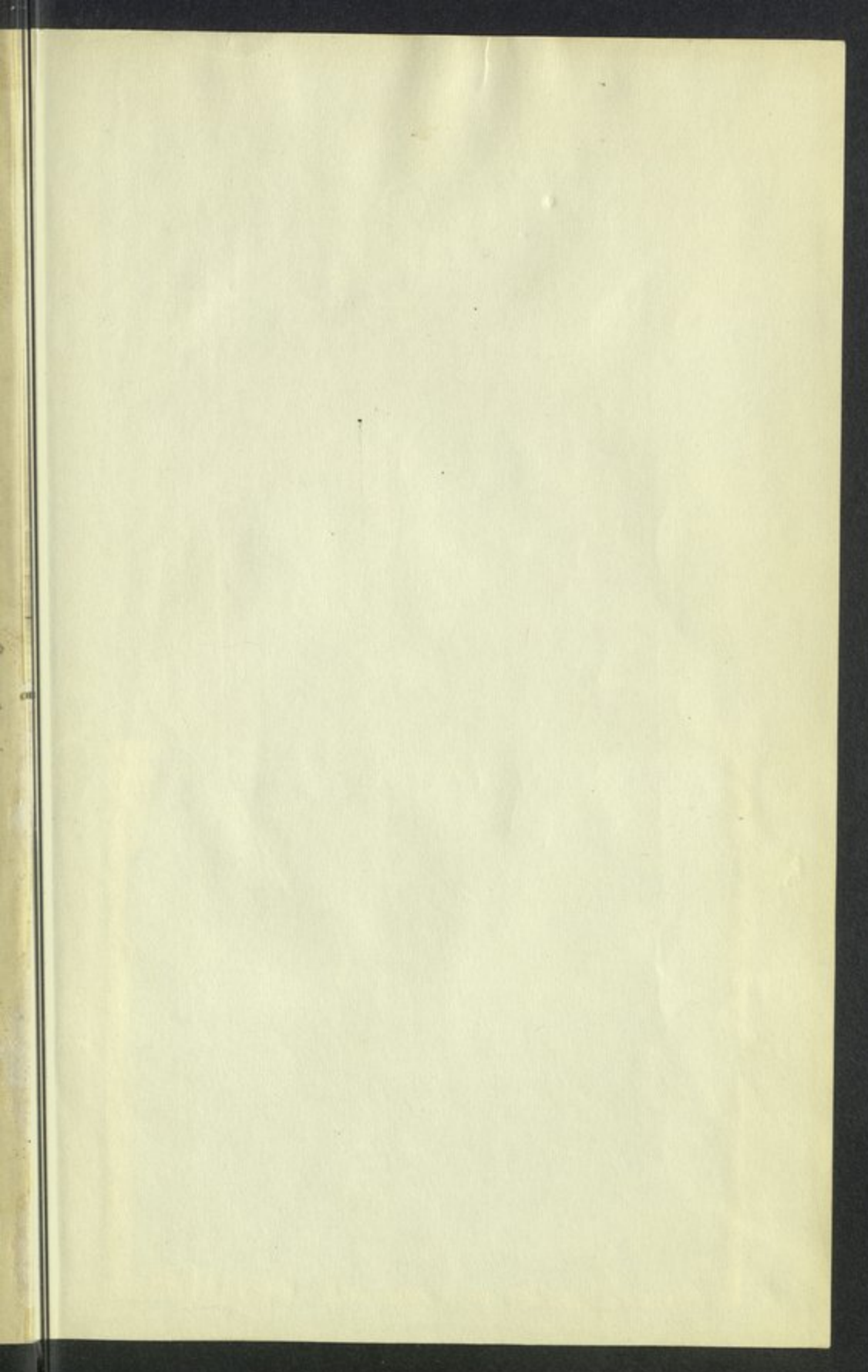
82

F

82
Sc
C

تجلد صالح الدقر
تلفون ۳۳۹۷۷





بجته التأليف والترجمة والنشر

الطاهر

تأليف : سير ولترسكت
تقريب : محمود محمود محمد
فخرج جامعة أكستر بإنجلترا

67746

العدد الثاني

عيون الأدب الفربي

East. Dept. 1948



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

نقد المصرب

كان من أثر الثورة الفرنسية أن تحرر الفكر الأوربي ، وانطلق من قيوده ، وظهرت الحركة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، وأخذ أتباع هذا المذهب الجديد يتنادون بحرية اللفظ وإطلاق الخيال من أسر التقليد .

ومن زعماء هذه الحركة في الأدب الإنجليزي « السر والتر سكوت » Sir Walter Scott صاحب هذه الرواية التي نحن بصدد نقلها إلى قراء العربية . بدأ حياته الأدبية بكتابة الأغاني الشعبية ، التي سرعان ما ترددت على كل لسان ، وذاعت بين الناس جميعاً ؛ وكان يسوق في هذه الأغاني طرفاً من القصص التاريخي القديم ، مشيداً بذكر الأبطال الأقدمين ، وما وقع في سالف الأيام ؛ ولكنه لم يلتزم الصدق والدقة في رواية التاريخ ، بل كثيراً ما كان يطلق خياله العنان ، فيخلق شخصاً من العدم ، ويذكر أحداثاً لم تقع ؛ وكانت أحب فترات التاريخ إلى نفسه العصور الوسطى . كان يستهويه منها روح الفروسية ، وميوها العسكرية وحروبها التي لم تنقطع .

وظل سكوت في أعين الجمهور زعيم الشعراء ، حتى ظهر اللورد بيرن ، وبزءه ، واجتذب منه كثيراً من المعجبين بأناشيده الشعبية ، فانصرف سكوت من الشعر إلى النثر ، وهجر الأغاني إلى الرواية ؛ وكان في قصصه الروائي — كما كان في شعره — يعتمد على إحياء التاريخ الأوسط ، ويرى فيه مجالاً واسعاً لإرسال الخيال وابتداع القصص ؛ ومن بين القصص التاريخية العديدة التي كتب قصة « الطلسم » التي نقدمها اليوم إلى القراء الناطقين بالضاد ، وقد وقع اختيارنا عليها دون غيرها لأن موضوعها يتصل بالقارى الشرقى ، ويتناول موقفاً من المواقف المشهورة في الحروب الصليبية بين رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا

وصلاح الدين الأيوبي ؛ والقصة تبسط لنا كثيراً من مميزات العصور الوسطى ، وتبين كيف كان أبناء الغرب من المسيحيين ينظرون إلى أهل الشرق من المسلمين ، كما تبين الروح العسكري السائد في تلك العصور ، والاستماتة في الدفاع عن الدين ، والاعتقاد في الخرافة والسحر ، وطرفاً من حياة الرهبان المسيحيين وقسوتهم على أنفسهم في أسلوب توبتهم إلى الله وتكفيرهم عن ذنوبهم .

وترى في الرواية كذلك لونين متباينين من الحب : لوناً شهوانياً مجرداً يعزوه « سكت » إلى أهل الشرق عامة ، وآخر أفلاطونياً عذرياً ، ويعزوه إلى الغربيين في ذلك الزمان ، وهو حب لا يمس العاشق فيه معشوقته ، ويكاد يسجد لها من دون الله .

ولعل أدق ما ترويه لنا الرواية تحليلاً مفضلاً لشخصي رتشارد وصلاح الدين . يعرض لنا « سكت » « رتشارد » رجلاً قوى البنية ، غليظ الطبع ، شديد النفوذ على أتباع الصليب جميعاً ، سريع الغضب ، سليم الطوية ، صريح العبارة ، لا يعرف إلى المداراة أو التواء المقصد سبيلاً . أما صلاح الدين فيمثل المكر والدهاء ، والصبر وطول الأناة ؛ يعرضه لنا المؤلف في مستهل القصة متخفياً في شخص مقاتل من المقاتلين المسلمين ، مقداماً شجاعاً ، لا يتهيب ولا يخاف ، ثم يخلع عنه زى المحارب ، ويأتى لنا به ثانية متنكراً في لباس الطبيب أو « الحكيم » ، كما يجب سكت أن يسميه عامداً ، لأنه يريد أن يرمى إلى أن العرب كانت تخلط بين « حكمة » الطب و« حكمة » الفلسفة ورواية الحكم والأمثال ؛ وفي محتتم القصة ينزع صلاح الدين كل معالم التنكر ويبرز لنا في شخصه الحر الكريم ، جواداً ، سياسياً محنكاً ، وحكماً عدلاً بين الصليبيين .

وكأن « سكت » يمتذر لنا في مقدمة الرواية عن مسخه لحقائق التاريخ وتغييره وتبديله فيها ، ويقول إن في ذلك الفارق بين القصص التاريخي وعلم التاريخ ؛ فنحن نعتذر إلى القارىء المسلم عما قد يجد في القصة مما يسيئه ونلتمس

لسكت المعذرة في ذلك ، لأنه يكتب عن حرب دينية بين الصليب والهِلال وعن
عصر كان التعصب الديني فيه على أشده ، فن الطبيعي أن يسخر المسيحي من دين
المسلم وأن يهزأ المسلم بعقيدة المسيحي .

والآن أنتقل بالقارىء إلى ما كتب سكت ، آملاً أن يجد في القصة لذة
ومتعة ؛ وأن يتسامح في شرود المؤلف وهفوات العرب .

المعرب

نوفبر سنة ١٩٣٧

مقدمة المؤلف

لم ترق قصة « المخطوبة » كثيراً لصديق أو صديقين ، وظننا أنها لا تتلاءم كل اللامعة وما أخرجنا أخيراً من قصص تحت عنوان « الصليبيين » ، وأكداً لي أن هذا العنوان : « قصص الصليبيين ^(١) » دون الإشارة المباشرة إلى أخلاق قبائل الشرق ، وإلى الخصومات الخيالية في ذلك العهد ، يكون بمثابة اللوحة تعلن عن مأساة « هاملت » ولا تذكر شخصية أمير الدنمارك ^(٢) . ولكنني ، من ناحية أخرى ، أدركت المشقة في رسم صورة حية لجزء من العالم أجهله كل الجهل ، وليس لدى عنه إلا ذكريات باكرة لقصص ألف ليلة وليلة ؛ ولست أعاني من قصور الجهل فحسب ، ذلك الجهل الذي أحاطت بي غيومه كثيفة فيما يتعلق بأخلاق الشرق ، كما تحيط الفيوم بالمصرى ، ولكن هناك كثيراً من معاصريّ على بينة من الموضوع كأنهم من أهل أرض « جوشن » المكرومة ، فلقد تغفلت حب الأسفار بين جميع الطبقات ، ودفع بأبناء بريطانيا إلى أنحاء العالم طراً ، وتطلعت عيون البريطانيين في العهد الأخير إلى بلاد اليونان ، التي تجذب النظر بما فيها من آثار الفنون ، وبجهادها في سبيل الحرية في وجه حاكم مسلم طاغية ، بل وباسمها ذاته ، حيث لكل عين أسطورتها القديمة ، كما تطلعت إلى فلسطين التي تحببها إلى الخيال ذكريات أكثر من هذه قداسة ، والتي وصفها الرحالة في العصر الحديث . ولذا فإنني لو حاولت هذا العمل الشاق : وهو أن أبدل بأساليب من بنات خيالي أزياء الشرق الحقيقية ، فإن كل رحالة ألاق ممن ضربوا في الأسفار إلى وراء ما كان يعرف قديماً « بالرحلة العظمى » ، يحق له بشهادة العين أن يأخذ على

(١) هي مجموعة قصص أخرجها «سكت» كلها يدور حول الحروب الصليبية ومنها قصة

«الطلمس» هذه وقصة المخطوبة التي يشير إليها هنا .

(٢) إحدى شخصيات رواية (هاملت) لشكسبير .

ما زعمت لنفسى ، وكل عضو من أعضاء « نادى الرحالة » يزعم أنه وطأ بقدميه أرض « آدم » له أن يقف منى موقف الناقد الشرعى ويراجعنى فيما أقول . ولما كان مؤلف « أناستاسيوس » ، وكاتب « الحاج بابا » ، قد وصفا عادات الأمم الشرقية ورذائلها وصفاً صادقاً صحيحاً ، تمازجه فكاهة « لى ساج » ومقدرة « فيلدنج » على إثارة الضحك ، فقد عنى أن رجلاً كهئلى ، الموضوعُ غريب عنه كل الغرابة ، لن يصدر ، وهو راغم ، إلا عما يباينهما مباينة غير مستساغة ؛ أضف إلى هذا أن شاعر البلاط فى قصته الفاتنة « تَلَبَّأ » قد بين لنا كيف أن رجلاً علياً موهوباً مثله يستطيع أن يبلغ فى بحثه بطريقة الاستقراء وحدها شأواً بعيداً فى معرفة العقائد القديمة — وتاريخ الشرق وعاداته ، وبلاد الشرق هى المجال الذى ينبغى لنا أن نبحث فيه عن مهد الإنسان . وسار « مور » على الدرب عينه موقفاً فى كتابه « لَلَّأ رُوح » كما سار « بيرون » وضم تجاربه مشاهداته إلى واسع اطلاعه ؛ وكتب بعضاً من قصائده الخلابة الفاتنة . وقصارى الكلام إن موضوعات الشرق قد عاجلها من قبل علاجاً ناجحاً أناس أقرُّ لهم بالبراعة فى هذا الفن ، فبت أستحى من المحاولة فى هذه السبيل .

كانت هذه العقبات شديدة علىّ ، ولما أمسيت أفكر فى الأمر جادا لم تفتّر ولم تهن ؛ ولكنى قهرتها فى نهاية الأمر ؛ وما أملت أن أبارى من ذكرت من المعاصرين ، ولكنى رأيت ، من ناحية أخرى ، أن أخلص من الأمر الذى شغل خاطرى زمناً ، دون أن أدخل مع أحد فى ميدان المناقصة .

واستقر بى الرأى أخيراً على تلك الفترة التى تتصل بالحروب الصليبية اتصالاً وثيقاً ، والتى التقى فيها صلاح الدين برتشارد الأول ، ذلك الملك المقاتل ، ذلك الرجل الساذج الكريم ، ذلك المثال الصادق للفروسية بكل ما فيها من إسراف الفضائل ، وما فيها من رذائل لا تقل عنها إسرافاً ؛ وقد أظهر الملك المسيحى الأنجليزى كل قسوة وعنف ، وهما من صفات السلطان الشرقى ، بينما أبان صلاح الدين عن الحكمة والسياسة البعيدة ، وهما من مميزات الملك الأوروبى ؛

وتباريا أيهما يفضل الآخر في صفات الفروسية والشجاعة والكرم . هذا التباين الفريد بين الرجلين أمد المؤلف ، كما يظن ، بالمادة التي ينسج منها قصة خيالية لها لذة فائقة ؛ وكان من الشخصيات الثانوية التي أدخلت على الرواية فتاة زعموا أنها من ذوات قربي رتشارد قلب الأسد ، فكان في ذلك مسخ لحقائق التاريخ استاء له المستر « ملز » مؤلف « تاريخ الفروسية والحروب الصليبية » ، وما نحسب إلا أنه لا يدري أن القصص الخيالي له ، بطبيعة الحال ، أن يتدع مثل هذا الابتداع ، وإنها حقاً لضرورة من ضرورات الفن .

وضمت قصتي كذلك الأمير « داود الاسكتلندي » الذي التحق بالجيش فعلاً ، والذي لعب دور البطولة في بعض المغامرات الخيالية وهو في طريق العودة إلى وطنه ، وقد جمعت منه شخصية من شخصيات الرواية .

وحقا لقد أنزلت من قبل قلب الأسد إلى ميدان القصص ، ولكنني عرضت فيما مضى لصفاته الخاصة أكثر مما عرضت هنا في « العليسم » . كان في القصص السالفة فارساً متتكرراً ، أما هنا فهو بصفته الصريحة ، صفة الملك الغازي ؛ ولذا فإسرب إلى الشك في أن اسماً كاسم الملك رتشارد الأول ، عزيزاً على الانجليز ، ربما عمل على إدخال السرور إلى نفوسهم أكثر من مرة .

وعالجت كل ما كان يمتدد القدماء ، من صدق ومن خرافة ، بشأن هذا المقاتل العظيم الذي كان أكبر نحر لأوروبا وفرسانها ، والذي ألف العرب — حسب ما يقول مؤرخ من بلادهم — أن يسبوا خيولهم إذا ذعرت باسمه المخوف ، فكانوا يقولون « هل تحسبين أن الملك رتشارد في طريقك فتحديدن عنها أبدة ! » . وأعجب سجل لتاريخ رتشارد الملك قصة خيالية قديمة ترجمت عن أصل نورماندي ، وقد كانت أول أمرها أقرب ما تكون إلى رواية عمل من أعمال الفروسية ، ولكنها حُشيت فيما بعد بأعجب الأساطير وأشدها فزعاً ، وربما لم تتوارد على الأيام قصة خيالية منظومة يختلط فيها التاريخ الحق العجيب بمحادثات أكثر من هذه مبالغة

وأشد عبثاً ؛ ولقد سقنا في ملحق بهذه المقدمة عبارة القصة التي يظهر فيها رتشارد بمظهر الغول يأكل بالفعل لحم البشر .

ومن الأحداث الهامة بالقصة ذلك الحدث الذي استمددنا منه العنوان ، وربما كان الفرس من بين جميع الأمم التي عاشت أكثرها شهرة بعقيدتهم التي لا تزعم في التمام والرقى وما إليها من التعاويذ ، التي كانت تُؤلَّفُ ، كما قيل ، تحت تأثير كواكب خاصة ، وكانت لها قدرة طيبة فائقة ، كما كانت الوسيلة التي تسيطر على جدود الرجال ؛ وكثيراً ما ترددت في غرب اسكتلندا أقصوصة من هذا الضرب ، تتعلق بمحارب صليبي من المحاربين المبرزين ، وما يزال الطلسم الذي يشار إليه موجوداً ، بل وما يزال له احترام وتقديس .

وكان السر « سَيْمُنْ لُكْهَارْتْ » صاحب « لى » و « كلارتلاند » ، شخصية لها وزنها أيام حكم « روبرت بروس » وابنه « داود » ، وكان أحد زعماء تلك العصابة الاسكتلندية من الفرسان التي صحبت « جيمس » أو اللورد « دوجلاس » الطيب ، في حملته على الأرض المقدسة مؤيداً من الملك « روبرت بروس » ، وكان « دوجلاس » يتمجّل الفتك بالعرب ، فاشتبك في حرب مع أهل أسبانيا ولاقى حتفه هناك ، أما « لُكْهَارْتْ » فقد استأنف مسيره إلى الأرض المقدسة مع من نجا من الفرسان الاسكتلنديين مما أصاب قائدهم ، واشترك مدة من الزمن في الحروب المشتعلة ضد العرب .

وتواتر الخبر على أنه اشتبك في المعامرة التالية : أُسْرَ يوماً في الحرب أميراً ذا ثروة طائلة ونفوذ كبير ، فأنت إلى معسكر المسيحيين أم الأسير المجوز كي تخلص ابنها من أسره ، وحدد « لكهارت » ، كما قيل ، قدرآ ما لبقاء السجين ، فأخرجت السيدة كيساً كبيراً مطرزاً وشرعت تمد نقد الفدية ، كأمر لا تقيم للذهب إلى حرية ابنها وزناً ، وإذ هي كذلك ، سقط من الكيس حجر موثوق بقطعة من النقد ، يقال إنه من العالم السفلى ، فأظهرت الأم العربية عجلةً شديدة في التقاطه ، مما جعل الفارس الاسكتلندي يعتقد في نفاسته وعلو قيمته ، إذا

قيس بالذهب أو بالفضة ، فقال : « إني لن أرضى باطلاق سراح ابنك إلا إن ضمنت إلى فديته هذا الحرز » ، فقبلت السيدة ، بل وشرحت للسر « سيمن لكهارت » فضائل التميمة وطريقة استخدامها ، وقالت إنها إذا غمست في ماء استحال الماء دواءً يوقف نزيف الدم ، ويخفف الحمى ، وأصبحت له خصائص أخرى كثيرة كتميمة طبية .

وبعدما اختبر السر « سيمن لكهارت » العجائب الكثيرة التي تفعلها هذه التميمة ، أتى بها إلى بلده ، وتركها لورثته ، فمزوها ، هم وأبناء « كليدزديل » عامة ، وما يزالون يميزونها باسم « لى بنى » نسبة إلى وطنه « لى » .

وربما كان أعجب فصل في تاريخها أنها نجت خاصة من النقمة ، حينما أرادت الكنيسة في اسكتلندا أن تصب سخطها على كثير غيرها من أسباب العلاج ، التي كانت لها صفة الإعجاز وفعل السحر ، وأنكرت الكنيسة على الناس الالتجاء إليها جميعاً « ما خلا التميمة المعروفة باسم « لى بنى » فقد أراد الله أن يخصها ببعض فضائل الشفاء التي لا تزعم تحريمها الكنيسة » ، وهى ، كما قيل ، ماتزال موجودة ، ويلوذ بسطانها الناس أحياناً ؛ وأخيراً انحصر فعلها خاصة في علاج من يعضه كلب مسموم ؛ ولما كان المرض في مثل هذه الأحوال كثيراً ما ينشأ عن الوهم ، فليس ثمت ما يدعو إلى الشك في أن الماء بعد أن يصب على « لى بنى » ، تصير له قوة العلاج الناجع .

هذا ما تواترت به الأخبار عن التميمة (أو الطلسم) ، وقد استباح المؤلف لنفسه الحرية في تحويره ، وهو يستخدمه في أغراضه الخاصة .

واستبحنا لأنفسنا كذلك كثيراً من الحرية في حقائق التاريخ فيما يخص حياة « كتراد منتسرا » ومماته ؛ أما أن « كتراد » كان عدواً لرتشارد فهو ما يتفق عليه التاريخ وقصص الخيال . وتستطيع أن تقدر العقيدة التي سادت بين الناس بشأن ما كان بينهما من صلة ، من الاقتراح الذى تقوم به العرب ، وذلك أن يُولى « مركز منتسرا » على أنحاء معينة من سوريا تنازلوا عنها للمسيحيين ، ولكن

رتشارد ، كما جاء في القصة الخيالية التي تحمل اسمه « لم يستطع بعد هذا أن يكتم غضبه ، فقال إن الركيز خائن اغتصب من فرسان « الاسبتارية » ستين ألف دينار ، وهي عطية من أبيه هنرى ، وقال إنه مرتد ، نجح عن غدره ضياع « عكا » ، وختم حديثه بيمين غليظة أقسمها ليمزقنه إربا إربا بالخيول الآبدة ، لو أنه اجترأ يوماً على تدنيس معسكر المسيحيين بمثوله هناك ؛ وحاول « فيليب » أن يتوسط لجانب « الركيز » فرمى بقفازه وقدم نفسه رهينة لإخلاقه للمسيحيين ، ولكن هذا العرض لم ينل قبولا ، واضطر « فيليب » إلى أن يخلى السبيل لرتشارد وسورته « - من « تاريخ الفروسية » .

و « كتراد منتسرا » شخصية هامة في هذه الحروب ، وقد ألحق به الموت في آخر الأمر ، واحد من أتباع « الشيخ » ، رجل الجبل العجوز ، ولكن رتشارد لم يخجل من ريبة الناس في الإيعاز إليه بالقتل .

ويمكننا على الجملة أن نقول إن أكثر الحوادث المساقاة في القصة التالية هي من خلق الخيال ، وأن الحقيقة ، حيثما توجد ؛ لا أثر لها إلا في أشخاص الرواية .

أول يوليو سنة ١٨٣٢

ملحوظة بالمقدمة

أصيب رتشارد بالحملى وهو يحارب فى الأرض المقدسة ، وعجز خير أطباء
المسكر عن وصف الدواء الناجع لعلته ، بل لقد كان دعاء الجيش له أنجمع علاجا
فنقه من مرضه ، وكانت أولى علامته شفائه رغبة شديدة فى أكل الخنزير ،
ولكن لحم الخنزير لم يكن من الميسور أن يتوفر فى بلد أهله بمقتونه .
« (١) ولو استمات رجاله لم يجدوا فى هذا البلد لحم الخنزير ولو وجدوه لشروه
بالذهب والفضة والمال ، ولحلوه إلى رتشارد الملك ، فبأكل منه ما تيسر ؛
وكان يقم مع رتشارد فارس عجوز ، لما نما إليه هذا الخبر ، وعرف أن رغبة
الملك لم تجب ، قال للحاجب سرا ، لقد اشتد المرض بمولانا الملك ، وأنا أعلم أنه
يتوق إلى لحم الخنزير ، ولكنك لن تجده هنا فتشريه ، وليس من بين الرجال
من تبلغ به الشجاعة أن يخبره بهذا ، ولئن فعل ، لكان فى قوله حتفه ، والآن
ينبى لكم أن تفعلوا كما أقول لكم ، ولكن بربكم لا تجربوه بشيء منه : خذوا
عريبا شابا سمينا ، وتمجلوا بقتله ، وافتحوا جوفه ، واسلخوا جلده ، واسلقوه
بأسره سريعا بالدقيق والتوابل ، وبالزعفران الزاهى ، فإذا ما اشتم الملك
نكهته فستزول عنه الحملى ويشوب إلى رشده ، وإذا ما استساغ الطعام وأكل
أكلة طيبة وتعمشى بالحساء ثم استغرق فى النوم وابتل بالمرق ، فإنه بمون الله ،
وبمشورتى ، سوف ينتعش عما قريب ويشقى ؛ وإليك صدق ما تم فى موجز من
اللفظ : قتل الكافر الزنيم ، ثم سلق وحىء به إلى المليك ، وقال له رجاله ، مولانا ،
لقد آتيناك بلحم الخنزير ، فكل واطعم من حلو الحساء ، وبفضل الله وبركته
ليكون لك فيه الشفاء ، وقبل أن يشرع رتشارد الملك ، شرّح اللحم فارس ،
وأخذ يلتهمه التهاما ، وأكل الملك اللحم ، وقرض العظام ، ثم أدمن فى الشراب .
(١) هذه قصة خيالية عن رتشارد بشأن هذا الحادث ، والأصل منظوم بالانجليزية القديمة .

ساعة ، وبعدهما تناول ما أشبعه ، خلفه قومه ، وأخذوا يتضاحكون ، ثم استلقى
ساكنا ، وجذب إليه ذراعه ، ولفه حاجبه وأدفأه ، ثم رقد ونام ، وتصيب منه
العرق ، ودبت فيه الصحة والعافية ، ثم ارتدى ملبسه ، وهب من مرقدته ، وأخذ
يمشي هنا وهناك فيما جاوره » اه .

ودحر رتشارد بنفسه جماعة من الأعراب أتوا مهاجرين ، وتروى لنا الأسطر
التالية ما انتهت إليه المعركة :

« (١) استراح الملك قليلا ، ثم شرع أحد الفرسان ينزع عنه أسلحته ،
كى يريحه ويلهيه ، ثم جرى له بنقيع التبيذ ، وأمر طاهيه قائلا : هات لى رأس
ذلك الخنزير عينه الذى أكلت منه ! فأنى ضعيف واهن مجنون ، وإنى الآن
لنى خوف من آئامى . قدم لى ذلك الرأس مع طعام العشاء ! ، فقال الطاهى :
« ليس عندى هذا الرأس » فقال الملك ، رحماك اللهم ! إنى أرى رأس ذلك
الخنزير ، فهاته وإلا فتالله لتفقدن رأسك ! » . ولم ير الطاهى من مطلب
المليك مهربا فأعد الرأس ، وقدمه إليه ، فخر على ركبتيه وصاح « هيا ، هيا ! هذا
هو الرأس ! رحماك رباه ! » .

ولا مرأى فى أن الطاهى كان له بعض المذرة فى خوفه من سيده يصعق ذعرا
لو عرف حقيقة الأكلة المروعة التى يدين لها بشفائه ، ولكن سرعان
ما نقشت مخاوفه .

« (٢) ولما رأى الملك الوجه الأسود ، ولحيته السوداء ، وأسنانه البيض ،
وكيف تجهم وانفرجت شفتاه صاح « أى شيطان هذا ؟ » وشرع يضحك كمداته
ثم قال : « ماذا ! هل لحم الأعراب لذيذ هكذا ؟ والله ما عرفت من قبل هذا !
أقسم بقضاء الله وقدره إنا لن نموت قط جوعا ، ما دمتنا كلما هجمنا استطعنا أن
نقتل العرب ، ونأخذ لحمهم ؛ ونطهيه ونشويه ، ونجففه ونقرض لحمه حتى العظام !

(١) هذه القطعة منظومة فى الأصل .

(٢) هذه الأسطر منظومة فى الأصل .

والآن وقد جربته مرة فلا تكن وقوى منه مزيدا ، ونسد رمق الجوع قبل أن يقتلنا ! » .

وتقدم المحاصرون يسلمون ويشرطون تأمين أهل البلاد ، وقدموا للظافرين ثروة الجمهور بأسرها ، والآلات الحربية والأسلحة ، وفدية قيمتها مائة ألف بينظت ؛ وبعد التسليم وقع الحادث الغريب الذي نرويهِ فيما يلي ، وسوف نسوقه إليك في أسلوب « جورج آليس » الفكه المحبوب ، وهو جامع هذه القصص الخرافية وناشرها .

« أخلصت الحامية في تنفيذ شروط الاتفاق جميعا ، إلا أنها عجزت عن ردّ الصليب ، إذ أنه لم يكن يجيازتها ، فأغلظ لها المسيحيون في المعاملة ، ونمت إلى صلاح الدين الأبناء كل يوم عما يكابد مقاتلوه ؛ ولما كان الكثير منهم رجلا ذوى مكانة عالية ، فقد بعث ملكهم ، نزولا عند رجاؤ أصدقائهم ، بالرسل إلى الملك رتشارد ، ومعهم جليل الهدايا التي قدمها فداء للأسرى ؛ وكان السفراء رجلا ذوى هبة ووقار ، سنا ومرتبة وفصاحة ، فبلغوا رسالتهم بكل آيات الخضوع ، ولم يهتموا عدالة الظافر في معاملته الخشنه لبني جلدتهم ، وإنما اكتفوا بالتوسل إليه كي يحدد لهذه الشدة أجلا ، ووضعوا لدى قدميه الكنوز التي كانت أمانة في أعناقهم ، وقدموا أنفسهم وزعيمهم رهائن لأى مبلغ آخر يريده الملك ثنا لرحمته .

« (١) فقال الملك رتشارد بعذب اللفظ : كيف لي أن آخذ الذهب ؟ رحماك اللهم ! قسموا بينكم كل ما حلتكم ، فلقد أتيت معى في السفن والمراكب بذهب وفضة أكثر مما يملك زعيمكم وثلاثة من أمثاله . ما بى إلى كنوزه حاجة ! ولكنى أمركم حبا لى أن تقيموا معى زمنا ، ثم أخبركم بعد هذا نبأ ، وأجيكم برأى سديد ، وأقول لكم بأية رسالة تعودون إلى مولاكم .

(١) هذه الأسطر منظومة في الأصل .

« فقبل الوفد الدعوة شاكرآ ، وأصدر رتشارد في ذات الوقت أمراً سرياً إلى قائده بأن يتوجه إلى السجن ، وينتق عدداً محدوداً من خير الأسرى ، وبعد ما يسجل أسماءهم بعناية في سجل من الورق ، يأمر بحز رقابهم فوراً ، ثم تسلم رؤوسهم إلى الطاهي ، ويؤمر بأن يزيل شعورهم ، وبعد ما يغلى رؤوسهم في دست ، يوزعها على صحاف عديدة ، ويقدم لكل ضيف صحفة ، ويربط على جبين كل رأس قطعة من الورق تبين اسم صاحبه وقبيلته .

« وهات ^(١) لى قبلهم جميعاً رأساً حاراً ، كأننى دفعت له ثمنا عالياً ، ولآ كلن منه التهاما ، كأنه فرخ طرى ، ثم أرى ماذا يفعل الآخرون .

« ونفذ هذا الأمر المروع في حينه ، وفي منتصف النهار دعى الضيوف ليغتسلوا على أنغام الموسيقى يعزف بها الخدم ، ثم اتخذ الملك له مقعداً ، وتبعه كبار ضباط بلاطه ، عند المائدة العليا ، واصطف بقية الحشد لدى مائدة طويلة دونه ؛ وعلى كساء الموائد وضعت مقادير من الملح على الأبعاد المألوفة ، ولم يكن هناك خبز ولا نبيذ ولا ماء ، فدهش السفراء لهذا النقص ، ولكنهم ما برحوا من الخوف خليين ، ولبثوا يرتقبون في صمت تقديم الغداء ، وقد أعلنت مقدمه أصوات المزامير والأبواق والدفوف ، ولشد ما كان رعبهم وفزعهم حيناً رأوا وليمة غير معهودة يقدمها شيخ الحجاب وضباطه ، وغلبهم التشوف ، فثارت مشاعرهم بالتمزز والاشتمزاز ، كما لبثت مخاوفهم مكتوبة فترة من الزمن ، ووجهوا نحو الملك أبصارهم ، وما تغيرت ملامحه قيد شعرة وهو يتلع اللقمت متلهفاً ، كلما شرَّح الفارس قطعة وقدمها إليه .

« فتغاضى ^(١) الرجال وقالوا إن هذا إلا أخو الشيطان ، يقتل رجالنا ويأكلهم كما نرى ! .

« ثم وجهوا بعد هذا انتباههم مكرهين إلى الرؤوس التي قدمت إليهم ، وقد

(١) هذه الأسطر منظومة بالإنجليزية .

تساعد منها الدخان ؛ وأرادوا أن يتعرفوا من ملامح الوجوه المنتفخة المشوهة
علام الشبه بصديق لهم أو قريب حميم ، فعرفوا من العبارات التي كانت تصحب
الأطباق ما أكد لهم أن هذا الشبه لم يكن وهما ولا خيالا ، فمرتهم الكآبة وجلسوا
في صمت وجمود يترقبون قضاءهم ، كما قضى على بنى وطنهم من قبل ، بينما كان
مضيفهم الضارى ، والغضب ملء عينيه ، والظرف على شفقيه ، يسىء إليهم
بالإلحاح في دعوتهم إلى اللهو والمرح ؛ وبعد لآى ، أزيل هذا السباط الأول ، وجمىء
مكانه بلحم الغزال والكرأكى ، وغيرها مما لذ وطاب ، مصحوبا بأطيب الخمر ،
واعتذر لهم الملك عما فات ، وعزاه إلى جهله بدوقهم ، وأكد لهم احترامه الدينى
لأشخاصهم كسفراء ، واستعداده لأن يمدتهم بمشرد يهديهم في عودتهم وهم آمنون ،
وكانت هذه المنحة هى كل ما رغبوا إذ ذاك فى طلبه .

« ثم قال (١) الملك رتشارد إلى رجل عجوز ، امض نحو بلدك إلى سلطانك
وخفف من أحزانه ، وقل له إنك جئتنا متأخرا ، وإنك أخطأت تقدير الزمن
فأبطأت ، وأنا ، قبل أن تأتينا ، كنا قد طهينا اللحم ، وأعدده الرجال ليقدموه لى
ولصحابى فى منتصف النهار ؛ قل له أن ليس وراء مسعاه من جدوى ، حتى وإن
حبس عنا طعامنا من خبز وتمر وسمك ولحم وحوت سليمان وثمانين البحر ، فإن
أحدنا منا لن يموت جوعا ما دمنا نستطيع أن نسير إلى الحروب ونقتل الأعراب
تقتيلا ، فنطهر لحومهم ، ونشوى رؤوسهم . إنى بعربى واحد أستطيع أن أطعم
تسعة أو عشرة من خيار رجالى المسيحيين وأشبعهم . إن الملك رتشارد يشهد أن
ليس هناك لحم من حجل أو قطقاط أو مالك الحزين أو الأوز العراقى ، أو الأبقار
والثيرة ، أو الأغنام والخنازير ، أكثر تغذية للرجل الإنجليزى من رأس العربى ،
فإنه سمين طرى ، ورجالى هزيلون نحيلون . ما دام فوق سوريا هذه عربى واحد
حتى فإننا لن نفكر فى اللحوم ، فعليه لتنقضن سريعا ، وكل يوم نأكل منه بقدر

(١) هذه المقطوعة منظومة فى الأصل .

ما نستطيع ، ولن نعود إلى إنجلترا حتى نأكلهم جميعا واحداً بعد الآخر .
من كتاب « أليس » — « أمثلة من القصص الخيالية الإنجليزية القديمة المنظومة » الجزء
الثاني ، صفحة ٢٣٦ .

وربما تشوق القارىء إلى معرفة الظروف التي أدت إلى أن يختلط هذا الخيال
الجامح — الذى يعزوا أكل اللحوم البشرية إلى ملك إنجلترا — بتاريخ الملك ،
ويظهر أن المستر « جيمس » ، الذى نحن مدينون له بالكثير مما هو عجيب
غريب ، قد وصل إلى أصل هذه الإشاعة العجيبة .

يقول هذا المؤلف « . . . وكان مع جيش الصليب كذلك جمهور من الرجال
لا عمل لهم إلا الإفلاس ، يسرون حفاة ولا يحملون سلاحا ، بل ويسبقون دواب
الحمل فى المسير ، ويميشون على الجذور والأعشاب ، ويظهرون بمظهر تسمت له
النفوس وتشفق منه .

« واعتزم رجل نورماندى كان — كما روى — شريف النسب ، ولكنه أضع
جواده فتابع المسير كجندى من المشاة ، أن يضع نفسه على رأس هذه الشرذمة من
المشردين الذين رضوا به ملكا عليهم عن طواعية ، وبات هؤلاء الرجال يعرفون
بين الأعراب باسم « الظافرين » (ويترجمها جويرت إلى Trudentes) ، وكانوا
ينظرون إليهم برعب شديد ، لأنهم كانوا جميعا يميلون إلى الاعتقاد بأنهم يعيشون
على جثث أعدائهم ، وهو نبا كان يتحقق الحين بعد الآخر ، وكان ملك « الظافرين »
يعنى بتشجيعه ، وهذا الملك المبجل كثيراً ما تعود أن يصف أتباعه واحداً بعد
الآخر فى خط واحد ضيق ، ثم يأمر بالبحث فيما يحملون بحثا دقيقا ، خشية أن
يكون بميازتهم ولو قليل من المال ، فلا يجدر بهم أن يكونوا من رعيته ، وإذا ألقى
مع أحدهم دانقا واحداً أبده فى الحال عن مخالطة أبناء قبيله ، وأمره بازدرأ أن
يشترى السلاح ويشترك فى القتال .

« وهذه الكتيبة لم تكن بأية حال من عراقيل الجيش ، بل لقد كانت خدماتها
لا تعد ، فهم يحملون الأثقال ، ويأتون بالكلاء والمؤونة والخراج ، ويسترون

الآلات وقت الحصار ، وفوق كل هذا ، كانوا ينشرون الرعب بين الأتراك وكان هؤلاء يخشون الموت من رماح الفرسان أقل مما يخشون هذا الفناء الشامل تحت أسنان « الظافرين » (١) .

ومن اليسير أن تتصور أن منشداً جاهلاً يجد أذواق هذه الطائفة وضاوتها مسجلة في روايات تاريخ الحروب المقدسة فينسب أعمالها ونزواتها إلى ملك إنجلترا الذي كانت شراسته من الموضوعات التي تجوز فيها المبالغة كما تجوز في شجاعته وإقدامه .

(١) من « تاريخ الفروسية » لجيمس ، ص ١٧٣ .

الفصل الأول

وأووا^(١) ثم كذلك إلى القفر ، ولكنهم كانوا مسلحين^(٢)
الفرديوس المردود

لم تكن الشمس المحرقة في سوريا قد بلغت كبد السماء ، حينما كان فارس من فرسان الصليب الأحمر — وقد ترك بلاده النائية في الشمال ، والتحق بجاعة الصليبيين في فلسطين — يسير الهويني في الصحراء الرملية التي تقع على ضفاف البحر الميت (أو بحيرة « اسفلت » كما يطلق عليه أحيانا) حيث تسدق أمواج الأردن في ذلك البحر الداخلي الذي ليس له ماء مخرج .

وفي الصباح الباكر كان هذا الحاج المجاهد يكافح الجروف والمنحدرات ، ثم لما تبين الضحي انطلق من هذه الأودية الصخرية الخطرة ، ودخل في ذلك السهل الفسيح ، حيث المدائن اللعينة التي أنزل الله عليها من عنده نقمة مروعة شديدة في سالف الأيام .

وتذكر مسافرنا تلك الطامة الكبرى التي نزلت بوادي « سدوم » اليناع الخصب ، الذي كانت تتخلله الأنهار كأنه جنة الخلد ، فأحاطته يابا بلقما كثيرا ، وصيرته أرضا جرداء مجدبة لا زهر فيها ولا شجر ، وكأن الله قد أصابها بالاحمال أبد الأبدين . تذكر ذلك فنتسى ما أصابه من إجهاد وعطش وما كان يحوطه من مخاطر الطريق .

ولما رأى المياه المظلمة يعج عجاجها ، وهي في لونها وطبيعتها تختلف عن مياه

(١) الإشارة هنا إلى قصة المسيح عليه السلام حينما خرج إلى البادية وحيدا وقضى بها أربعين يوما .

البحيرات جميعاً ، رسم علامة الصليب على نفسه ، واتبته رعدة حينما تذكر أن تحت تلك الأمواج التي تتكسر في هدوء ، تندثر مدن الوادي التي كانت تنبه يوماً بمرها ، فأنزل عليها ربك الصواعق من السماء ، ونفت فيها من باطن الأرض ناراً حامية فدكها دكا ، ولم تبق منها إلا أطلال طمرها هذا البحر الذي ليس في جوفه سمك ولا على سطحه سفين ، ولا يجود — كما يجود غيره من البحار — بقطرة ماء على المحيطات ، كأن مياهه الكثيرة لن تستقر إلا في قاعه الموحش . وكل ما جاوره من يابس « كبريت وملح ، أرض لا زرع فيها ولا ثمر ولا يكسوها عشب ^(١) » كما كانت في عهد موسى . وتستطيع أن تسمى ذلك اليابس « ميتاً » كذلك ، كما تسمى البحر ، فهو لا ينبت زرعاً ولا شبه زرع ، والهواء ذاته يخلو من كل ذات جناح ، كأن الطيور قد نفرت من رائحة القار والكبريت ، التي كانت تبعثها الشمس المحرقة من مياه البحيرة ، فتنشر في سحاب متكاثف كثيراً ما ينعقد على شكل الميازيب ، كما كانت كسف من المادة الكبريتية الغرينية ، التي تعرف بالنفط ، تطفو مسترخية فوق الأمواج الهادئة الموحشة ، وتمتد تلك السحب المتدفعة بأبخرة جديدة ، فتشهد شهادة قوية على صدق قصة موسى .

على هذا المكان المهجور أشرقت الشمس تتوهج توهجاً لا يكاد يحتمل ، وكأن كل كائن حي قد توارى عن أشعتها ، اللهم إلا ذلك الشبح الذي كان يسير وحده يشق الرمال السواني بخطى وثيدة ، ويبدو كأنه المخلوق الفريد الذي يتنفس على سطح هذا الوادي الفسيح ؛ وكان لباس هذا الفارس الرابك ومعدات جواده لا تليق ألبتة بالمسافر في مثل تلك البلاد . كان يرتدى سترة من حلق الحديد ، طويلة أكامها ، وقفازا براقاً ، وصدره من الحديد الصلب ؛ ولم يكتف بهذا التسليح ، بل كان يعلق كذلك على رقبته درعا ثلاثياً ، ويحمل على رأسه خوذة من قضبان الصلب . يغطيها بقلنسوة وبنيقة من الحديد ، يلف بها حلقه وكتفيه ، وتشغل ما بين لباس رأسه وسترته ؛ وكان يستر أطرافه السفلى ، كما

(١) هذه العبارة من العهد القديم .

كان يستر جذعه ، بحلق من الحديد سهل الالتواء ، وهكذا كان يقي ساقيه ونخذه ، بينما كان يلبس على قدميه حذاء من المعدن اللامع ، ينسجم في شكله مع القفاز ، وعلى أحد جانبيه سيف طويل عريض . مستقيم ذو حدين ، له مقبض على هيئة الصليب ، يتسق وخنجرًا غليظًا على جنبه الآخر ؛ وكان هذا الفارس يحمل كذلك رمحًا طويلًا ، رأسه من الصلب ، يرتكز على سرجه ، ويستقر أحد طرفيه على ركابه ، وهذا الرمح هو سلاحه السديد ، يهزه إلى الخلف وهو ممتط صهوة الجواد ، فيعرض العلم الصغير المعلق بطرفه ، ويرفرف العلم مع النسيم العليل ، أو يتدلى في السكون الميت ؛ وفوق هذا الزى العسكري المعقد ، كان صاحبنا يرتدي عباءة من القماش المزركش ، نحل وبرها وبدت عليها آثار القدم ، ولكنها كانت مع ذلك عظيمة النفع ، إذ كانت تحمي سلاحه من أشعة الشمس ، ولولا ذلك لشق عليه حمل السلاح من حرارة الشمس ؛ وفي هذه العباءة كان الفارس يعلق هنا وهناك أسلحة تشوّه ظاهرها ، ومنها سلاح « النمر الرابض » وعليه هذا الشعار « إنني نائم فلا توقظني » ، وعلى الدرع آثار من هذه العبارة عينها ، ولكنها كادت تحمي من كثرة الطعان ؛ أما خوذته الاسطوانية الثقيلة فكان سطحها مستويا ، لا يجمّله زخرف أو ريش ، وكان الصليبيين من أهل الشمال - باحفاظهم بهذا السلاح القوي يدفعون به عن أنفسهم - كانوا يتحدون طبيعة المناخ والإقليم الذي جاءوا ينشبون فيه القتال .

ولم تكن عدة الجواد أقل صلابة أو قوة من زى راكبه ، فلقد كان يحمل سرجًا ثقيلًا عليه طلاء من الصلب ، يلتقي في مقدمته بدرع من الحديد ، وفي مؤخرته سلاح يتق به ويستتر به خاصرته ؛ ويتعلق بالسرج شئ كالنأس أو المطرقة أو العصا ، والزام موثوق بما يشبه السلاسل ، ومقدمة العنان من الصلب المطلي ، وبه خروق يطل منها الجواد بعينيه وأنفه ، وفي وسطه شوكة قصيرة حادة ، تبرز من جهة الجواد كقرن الثور الوحشي المعروف في قصص الخيال .

ولكن هذا الفارس وجواده المقدم كانا قد تمودا حمل هذا السلاح الثقيل ،

حتى أضحت هذه العادة لها طبيعة ثانية . نعم إن عددا عديدا من المحاربين من أهل
الغرب ، الذين خفوا إلى فلسطين ، قد هلكوا قبل أن يعتادوا هذا الجو الملهب ،
ولكن هناك قوما آخرين ، بات هذا الجو خفيفا عليهم ، مألوفاً لديهم ، ومن بين
هذا المدد المجدود كان هذا الخيال ، الذي كان حينئذ يقطع حدود البحر الميت
فريدا ، فإن الطبيعة التي صبت أعضائه في قالب من القوة غير مألوف ، وأعدته
لأن يرتدى تلك السترة المصنوعة من حلق الحديد دون عناء — وكأن عيونها
قد حيكت من نسيج العنكبوت — قد جادت عليه كذلك ببنية قوية كأطرافه ،
تتحدى كل تقلبات المناخ ، وتقف دون الكلال وشطف العيش على مختلف
الضروب ؛ وكان له طبع يتصف بمعض الشيء ببعض صفات هيكله الجثماني ،
فكما أن لجسمه قوة عظيمة وقدرة على الاحتمال ممزوجة بالقدرة على الإجهاد
العنيف ، فإن في طبعه — تحت ستار الهدوء والاستقرار — الشيء الكثير من
الحرارة والحماسة لحب المجد ، وهما من أبرز صفات أبناء النورمان المروفين ، التي
جعلتهم ملوكاً في كل زاوية من زوايا أوروبا شهروا فيها سيوفهم الباترة .

ولكن الجد لم يحد بمثل هذا الجزاء الوافر^(١) على كل أبناء هذا الجنس ،
ولم يكن حظ فارسنا هذا الفريد إبان السنتين اللتين قضاهما غازيا في فلسطين غير
ذكر في هذه الدنيا ، ومزايها روحية نشأ على الاعتقاد فيها ؛ وكان حظه الضئيل من
المال في ذلك الوقت قد تبدد ، ولكنه — رغم ذلك — لم يعمد إلى الوسائل التي كان
يلجأ إليها غيره من أتباع الصليبيين ، الذين كانوا يعضون ما نقص من أموالهم على
حساب أهل فلسطين ، فلم يبرز العطايا من الأهالي البائسين كي يطمئنهم على أملاكهم
حينما كانوا يشتبكون مع العرب في الحروب ، ولم يحاول أن يقتنص الفرصة ويجمع
الثروة بفرض الجزية على الأسرى . وكانت تبعه حاشية ضئيلة من مواطنيه ،
أخذت تتناقص شيئا فشيئا كلما قلت الموارد الضرورية للعيش ، ولم يبق له إلا خادم
واحد ، كان إذ ذاك طريق الفراش ، لا يستطيع أن يقوم بخدمة سيده ، الذي كان

(١) يقصد مناصب الملكية في أوروبا .

يسير - كما رأينا - وحيدا فريدا . ولكن فارسنا الصليبي لم يأبه لذلك كثيراً ، فلقد تعود أن يرى في مهنده الكريم خير حارس ، وفي عقيدته في الله خير رفيق .

ولكن للطبيعة ضرورتها ، فهي تتطلب الراحة والغذاء لكل جسم - حتى وإن كان من الحديد - ولكل طبع - حتى وإن صيغ من الصبر - كما صيغ هذا الفارس ، « فارس النمر الرابض » ؛ ففي الظهيرة ، والبحر الميت لما يزل بعيداً عن يمينه ، استبشر الفارس بمرأى نخلتين أو ثلاث نمت على حافة بئر أراد أن يتخذها محطاله في منتصف ذلك النهار ؛ وكذلك جواده الكريم ، بعد أن كان يسير قدماً بصبر وطيد كصبر صاحبه ، رفع الآن رأسه ، ومد أنفه ، وسارع في خبئه ، كأنه اشتم على بعد ماء الحياة ، حيث الدعة والانتعاش ، ولكن الله قدر للجواد وراكبه أن يصيبهما بالعناء ، ويحوظهما بالمخاطر ، قبل أن يبلغا ذلك السكان الرغيب .

وذلك أن فارس النمر الرابض ، الذي لم يفتأ يحدق ، ويعير التفاته إلى جماعة النخل النائية ، بداله كأن شبحاً يتحرك خلالها ؛ ثم انفصل ذلك الشبح النائي عن تلك الأشجار التي كانت تخفي مسيره بعض الخفاء ، وتقدم نحو الفارس مسارعا ، وتبدى عن خيال على ظهر الجواد ، ولما اقترب دلت عمامته وحرته الطويلة وقفظانه الأخضر الذي يرفرف مع الريح ، على أنه فارس عربي ؛ ويقول المثل الشرقى : « لا يلاق الرجل صديقاً في الصحراء » ، ولم يأبه الصليبي ألبتة إن كان ذلك الكافر - وقد أقبل على حصان عداء ، كأنه ولد على جناح نسر - عدواً أو صديقاً ، بل لعله ، وهو بطل من الأبطال ، الذين أقسموا بيمين الولاء للصليب ، ودّ لو أنه كان عدواً ، فاستل رمحه من مرجه وأمسكه بيمينه ولبث به ، وسنانه مرفوع إلى نصفه ؛ وجمع العنان يساره ، واستحث همه الجواد بمهمازه ، واستعد للقاء هذا الغريب بنفس مطمئنة ، لا يملكها إلا رجل حذاء الظفر في كثير من المعارك .

وأقبل العربي يعدو ، كما يعدو الفرسان من بني جنسه ، ما لساك زمام جواده بأطرافه وبكل جسمه ، غير معتمد على العنان الذي أرسله مرتحياً في يسراه

بحيث يتسنى له أن يحرك درعه المستدير الرقيق المصنوع من جلد وحيد القرن المحلى بخيوط من الفضة ، الذى كان يحمله على ذراعه ويلوح به كأنه يريد أن يصد به ، على خفته ، ما قد يصوبه نحوه ذلك الفارس الغربى من طعنات مروعة . أما نصله الطويل فلم يكن مسدداً ولا مستقراً كمنصل عدوه ، وإنما كان يقبض عليه من وسطه بيمينه ، ويهز به فوق رأسه على قيد ذراع ؛ وهزول هذا الفارس العربى نحو عدوه ، ولما دنا منه ، كان يرتقب من فارس النمر أن يهجم بجواده للنضال ، ولكن الفارس المسيحى ، وهو جدّ عليم بعادات جنود الشرق ، لم يرض أن ينهك جواده الكريم بعماء لا طائل تحته ، فوقف بنته ، وهو على يقين أن فى سلاحه وفى عدة جواده القوى ما يكفل له الغلبة — دون أن يسارع فى عدوه — على العدو ، إن تقدم فعلاً للنضال ؛ وأحس الفارس العربى باحتمال هذه العاقبة ، وأدركها كما أدركها زميله ، فاقترب من المسيحى حتى لم يكن بينهما إلا قاب قوسين أو أدنى ، واستدار بجواده يساراً بمخدق لا يفوقه حدق ، ودار حول عدوه دورتين ، قالتف الفارس العربى وهو فى مكانه ، وجابه عدوه تخيب رجاءه ، إذ كان يحاول أن يطعنه من الخلف ، وحينئذ ود العربى لو أنه دار بجواده ورجع القهقرى إلى بعد مائة ذراع ، ثم حاول الهجوم مرة أخرى وأقبل كالبازى على مالك الحزين ، واضطر للمرة الثانية أن يتقهقر دون سجال ؛ ثم اقترب ثالثة مهاجماً كما هاجم فى المرتين السابقتين ، فأمسك الفارس المسيحى توا بمطرقته المعلقة بسرجه ، وأراد أن ينتهى من هذه المراوغة التى قد ينهكه العدو فيها بحركاته ، فصوب المطرقة بيد من حديد ، وهدف لا يجيد ، إلى رأس العدو الذى لم يخله إلا أميراً أو أرفع من أمير ، وأدرك العربى هذه الضربة المروعة التى قصد بها فرفع درعه الرقيق وحال بين المطرقة وبين رأسه ، ولكن الضربة كانت شديدة الوقع فهوت بالدرع على عمامته ، وقد خفتت العمامة من حدة الضربة ، ولكن الرجل سقط عن جواده مغلوباً ، وقبل أن ينتفع المسيحى من هذا الخذلان ، خفّ عدوه وهب من مصرعه وجذب جواده — وقد خف إلى جواره —

وامتطى صهوته دون أن يمس الركاب ، واسترد كل ميزة حاول فارس النمر أن يسلبه إياها ، ولكن الفارس كان بدوره قد تملك من مطرقته ثانية ، فحاول الرجل الشرق — وقد تذكر قوة عدوه وحذقه في إصابة هدفه — أن يأخذ لنفسه حذرها ويظل يمتطى عن منال المطرقة التي أحس بوقمها منذ حين ، وأبان عن رغبته في المقاتلة عن بعد برمي السهام ، فذكر نضله الطويل في الرمال بعيداً عن ساحة الوغى ، وشد بقوة قوساً قصيرة كانت إلى ظهره ، ثم ركض بجواده ودار به دورتين أو ثلاثاً أوسع مدى من دوراته السالفة ، وفي خلالها أطلق النشاب ستاً على المسيحي بمهارة لا تخطئ ، ولولا زى متين يقي به المسيحي نفسه ما كان له أن ينجو من جراح ستة من طعن السهام ، ثم أطلق العربي سهماً سابغاً فصادف من لباس العدو مكاناً كان أقل من غيره صلابة ، فسقط المسيحي سقطة شديدة من فوق الجواد ، ولشد ما كانت دهشة العربي حينما نزل يتفرس حال صريعه فألقى نفسه على حين غرة في قبضة ذلك الأوروبي ، الذي ما لجأ إلى تلك الحيلة إلا لكي يأتي بعدوه تحت مناله ؛ ولكن العربي ، وهو في هذه القبضة المميتة ، استطاع أن ينجو بخفته وسرعة خاطره ، فخلص نطاق سيفه من قبضة فارس النمر وأفلت من تلك اليد القاضية ، وامتطى جواده الذي كان يرقب حركاته بكاء كذاك الإنسان ، ثم انصرف ؛ ولكنه فقد في هذه المعركة الأخيرة سيفه وجمعة سهامه ، وكلاهما معلق بنطاقه الذي اضطر أن يخلفه وراءه ، وفقد كذلك عمامته أثناء النضال ، فرغبت هذه الخسارة هذا الرجل المسلم في المهادنة ، فقارب المسيحي ومد إليه يمينه مسالماً لا متهدداً .

وباللغة الفرنسية التي كانت تستخدم عادة للتفاهم مع الصليبيين قال العربي :
« إن بين أمتينا هدنة عن القتال ، فلماذا ينشب بيني وبينك النضال ، هلا عقدنا بيننا صلحاً ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال « لقد رضيت ، ولكن كيف تكفل لي رعايتك للهدنة حقها ؟ » .

فأجاب الأمير وقال : « نحن أتباع النبي لا نبحث في اليهود ؛ إنما ينبغي لي أنا ، أيها النصراني الشجاع ، أن أطلب إليك الضمان ، غير أنني أعترف أن الخيانة والشجاعة قلما يجتمعان » .

فأحس الصليبي حينئذ بأن ثقة المسلم فيه قد أخجلته من الشكوك التي ساورتها .

وأمسك بمقبض سيفه وقال : « وحق هذا الصليب لأكون لك رفيقا مخلصا أيها العربي ما كتب علينا أن نبقى متلازمين » .

فأجاب عدوه قائلا : « أقسم بمحمد رسول الله وبرب محمد أن ليس لك في قلبي خيانة ، فهلم بنا إلى تلك العين ، فوقت الراحة قد وجب ، وما كاد الماء يمس شفتي حتى اضطررت أن أنازلك حينما اقتربت » .

فأجاب فارس النمر الرابض توا بالرضا والقبول ، وسار المدوان جنبا إلى جنب ، قاصدين مكان النخيل ، لا يبدو عليهما غضب ، ولا تلمس فيهما أثرا من شك .

الفصل الثانی

كثيراً ما تتخلل الأزمان العصبية فترات يسود فيها الأمن وتصفو فيها النفوس ، ولقد كانت الحال كذلك بنوع خاص في عهود الأقطاع القديمة حينما كان السائد بين الناس أن الحرب يجب أن تكون للبشرية شغلها الشاغل وعملها المجيد ، فكان لفترات الصلح أو الهدنة لذة دونها أي لذة ، يستمتع بها على قلبها المحاربون في تلك العصور ؛ بل إن الظروف عينها إذ ذاك ، التي كانت تجعل هذه الفترات عرضاً زائلاً ، كانت تجلبها إلى النفوس ؛ وكان البطل يرى أن من بذل الوقت في غير طائل أن يكن في قلبه ضغينة لعدوه — وقد التقى به في القتال يوماً ، وقد يلتقى به في معركة حامية الوطيس في صبيحة اليوم التالي — وكان الرجال يعرفون أن في عهدهم ، وفي ظروفهم ، مجالاً تنفجر فيه عواطفهم الملتهبة ، فكانوا يستمتعون بكل ما أوتوا من قوة ، بصحبة بعضهم بعضاً في الفترات القصيرة التي كانت تتيح لهم أن يتحادثوا آمنين ، على قدر ما تسمح لهم به تلك الأوقات العصبية ، اللهم إلا إذا احتدم النزاع بين الرجل وعدوه ، أو أثارت نفسيهما ذكرى إحن خاصة لا تتعلق بغيرها .

وكان يفل من حدة الفروق الدينية ، بل والعصبية الشديدة ، التي كانت تستفز أتباع الصليب وأتباع الهلال على السواء ، شعور سام ، هو من طبيعة أمثال هؤلاء المحاربين ، شعور كانت تلهبه وتقويه روح الفروسية حينذاك ؛ وهذا الدافع القوي أخذ يمتد أثره شيئاً فشيئاً من المسيحيين إلى أعدائهم الألداء من العرب من أهل أسبانيا أو فلسطين ، ولم يعد عرب فلسطين ، كما كانوا من قبل ، أولئك المتوحشين المهوسين الذين هبوا من وسط صحراء العرب بالقرآن في اليمين ، والسيف في اليسار ، يعرضون للإسلام أو القتال ، أو الجزية والرق ، على كل من تحدته نفسه أن يقف

في وجه دين محمد نبي مكة^(١)؛ وقد عرضوا ذلك على أهل الشام وأهل اليونان ،
وهم قوم غير محاربين ؛ ولكنهم حينما التحموا بمسيحيي الغرب — الذين كانت قلوبهم
تشتعل حماسة للدين ، لا تقل عن حماسة العرب أنفسهم ، والذين يتصفون بالإقدام
والشجاعة التي لا تقهر ، والذين إذا طعنوا أصابوا — أخذوا عنهم شيئاً من أخلاقهم ،
وحذوا حذوهم خاصة في تقاليد الفروسية الكريمة التي كانت متأصلة في النفوس
تأصلاً استهوى عقول أولئك القوم الغزاة الشائخين ؛ وهذا فضلاً عن أن العرب
كان لهم سجالتهم ، وكانت لهم ألعابهم في عرض الفروسية ، بل وكان منهم «الفوارس»
أو ما يشبههم في علو المرتبة ، وكانوا إلى ذلك يراعون حدود دينهم مراعاة يحجل
من دقتها أناس كأهل الغرب ، لا يخلون بالهدنة إذا عقدوها بينهم وبين أمة غير
أمتهم ، أو بين بعضهم وبعض ؛ وهكذا كانت الحرب — على أنها ربما كانت في ذاتها
أعظم الشرور — تهيئ الفرصة لإظهار روح الإخلاص ، وكرم الخلق والرافة ،
بل وتبادل الود بين القلوب ، مما لا يتوفر في فترات الهدوء ، حينما تكمن في
الصدور زمناً إحن الرجال الذين لا قوا المهانة ، أو اشتبكوا في نزاع لم يتحسم في
حينه وبلغ بهم نكد الطالع أن وقعوا فريسة لتلك الإحن .

أحسن المسيحي والعربي بهذه العواطف الرقيقة التي تخفف من وطأة الحروب ،
وانطلقا بعد ما سعى كل منهما جهده كي يقضى على أخيه ، وسارارا كيين بخطى
وثيدة نحو العين التي ينبت حولها النخيل ، والتي كان يقصدها فارس النمر الرابض
حينما باغته في مسيره ذلك العدو ، الذي جاءه مسارعاً والشرر يتطاير من عينيه ،
واسترسل كلاهما زمناً ، كل في تأملاته ، يتنفس الصعداء بعد نضال كاد أن يقضى
على أحدهما أو كليهما ؛ وكأن جواديهما لم يكونا أقل منهما استمتاعاً بذلك الهدوء
الذي ساد بينهما ، أما جواد العربي فلم تبد عليه علامات الأعياء كما بدت على
جواد الفارس الأوروبي ، رغم أنه أجهد بالحركة إجهاداً أوسع مدى وأشد عنفاً ،

(١) يدل هذا القول وما بعده على أن المؤلف — كما حدث عن نفسه في مقدمة الرواية —

يجهل العالم العربي كل الجهل .

وتعصب العرق من أضلع جواد الفارس الغربي ، بينما كان جواد العربي الكريم قد جف عرقه أثناء مسيره في تلك الفترة الهادئة ، ولم يبق منه إلا أثر ضئيل كان يبدو على عنانه وعدته ؛ وكانت الأرض التي وطئها الجوادان لينة ، فازداد جواد المسيحي شقاء على شقاء ، إذ أنه كان يئن تحت عبء عدته الثقيلة وعبء راحته ؛ فاضطر الفارس أن يقفز من فوقه ويقوده في تلك الأرض المتربة التي يغطيها الغرين ، والتي أحرقها الشمس فصيرتها أشد لينا من أدق الرمال ؛ وهكذا استرد الجواد نشاطه على حساب صاحبه ، لأن الفارس ، لكثرة ما عليه من لبس الحديد ، كان يتمتر في حذائه الصلب في كل خطوة ، وهو يمشي فوق تلك الأرض الرقيقة التي لا تتحمل المقاومة .

ومذ انعدت الهدنة بين العربي والمسيحي لم ينبس أحدهما ببنت شفة حتى قال العربي لصاحبه : « نعم ما فعلت ، فإن جوادك القوى يستحق منك العناية ، ولكن ماذا أنت فاعل به في الصحراء وهو يسيخ بأقدامه في كل خطوة ، كأنه يريد أن يغرسها في باطن الأرض كجذور النخيل ؟ »

فأجاب الفارس المسيحي ، وهو غير مطمئن إلى نعمة السخرية التي تحدث بها العربي عن جواده المحبوب ، وقال : « حقا ما قلت أيها العربي ، ولقد أصبت بمقدار ما لديك من علم وملاحظة ، ولكن اعلم أن جوادى هذا قد حملنى قبل اليوم في بلادى فوق بحيرة لا تقل سعة عن تلك التي خلفناها وراءنا ، ومع ذلك ، فلم تبتل منه شعرة واحدة فوق حوافره » .

فنظر إليه العربي مبديا شيئا من الدهشة على قدر ما يسمح به تأدبه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة خفيفة لم تكدهم شارب الكثيف العريض الذي كان يغطي شفته العليا ؛ ولكنه سرعان ما استرد نظرة الجد التي لم تفارقه ، ثم قال : « حقا ما قيل ، إذا أصخت إلى الفرنجى لم تسمع إلا هراء » .

فأجاب الصليبي : « ليس هذا من حسن الذوق في شيء أيها المنافق ، أفترتاب في كلمة ينطق بها فارس نال مرتبة الشرف ؟ تالله لولا أنك تصدر عن جهل لا عن

سوء طوية ، لكانت هذه الآونة آخر ما بيننا من مهادة ، ولما يمض عليها إلا أمد قصير ؛ أفظن أنى أ كذبك إذ أقول لك إننى أحد خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ؛ قطعت بجوادى الفراسخ فوق ماء كالبلور صلابة ، ولكنه أقل من البلور هشاشة عشر مرات ؟ » .

فأجاب المسلم قائلا : « ماذا تقول ؟ إن ذلك البحر الداخلى الذى تشير إليه له خصيصة عجيبية ، وذلك أن الله قد صب عليه جام غضبه ، فهو لا يحتمل جسما يفيض فى موجه ، إنما يقذفه بعيدا ويرى به على شطآنه ؛ ومع ذلك فإنا هذا البحر الميت عينه ، بل والمحيطات السبعة التى تحوط الأرض ، لا تحتمل وقع أقدام الخيل على سطحها أكثر مما احتمل البحر الأحمر مسير فرعون وجنوده » .

فأجاب الفارس المسيحي : « هذا هو الحق فيما تعلم أيها العربى ؛ ولكن صدقنى ، إننى لا أحدثك حديث خرافة ؛ فى مناخكم هذا تتحول الأرض بفعل الحرارة إلى شىء كالماء غير مستقر ؛ أما فى بلادنا فالبرودة كثيرا ما تحول الماء إلى جسم كالصخر فى صلابته ؛ ولكن دعنا من هذا ، فإن ذكر البحار فى الشتاء ، بهدوئها وصفائها ونقاء زرقها ، ليزيد من مفازع هذه الصحراء الحارة ، حيث يخيل لى أن الهواء الذى نستنشقه إن هو إلا بخار يتصاعد من أتون ، ماؤه يفلى كالجميم » .

فالتفت العربى حينئذ إلى صاحبه متنبها ، وكأنه يريد أن يستوضحه ما يعنى من قوله هذا ، الذى ما أخال إلا أنه قد نزل من نفسه منزل السر الغامض أو الخداع ؛ ولكنه اطمأن أخيرا إلى كلام رفيقه وعرف كيف يتلقاه فقال : « إنك من قوم يحبون الضحك ، تتحدثون بالاستحيل وبمالم يقع فى الحسبان ، مازحين مع بعضكم بعضا أو مع غيركم ؛ أنت أحد فرسان فرنسا الذين يتبارون فى الخيال وأعمال الجن لاهين لاعبين ، ولقد أخطأتُ يا صديقى إذ عارضتك فى حديثك ، فإن الزهو بالباطل أقرب إلى طبيعة نفسك من رواية الحق » .

فأجاب الفارس وقال : « إنى من بلاد غير هذه البلاد ، ومن قوم غير هؤلاء

الذين يزهون - كما تقول - بما لا يستطيعون ، أو بما لا يتقنون إذا استطاعوا ،
ولكننى ، أيها العربي الجسور ، فيما قلت لك ، كنت أحذو حذوهم في المزاح ،
وأظننى ما كنت في عينيك إلا رجلاً دعيًّا وأنا أحدثك بحديث لا تستطيع أن
تدركه ، حتى حينما كنت أنطق عن صدق وسذاجة ، ولندا فلندعها تذهب .
وفي تلك الآونة بلغ صاحبانا مكان النخيل ، وبدت العين فوارة يتألق ماؤها
الغزير تحت ظليهما .

ويذكر القارىُّ أننا تحدثنا عن برهة سادت فيها الهدنة وسط القتال ؛
وكذلك كان هذا الموضوع الذى بلغاه مكاناً جميلاً وسط صحراء مجدبة ، عزيزاً على
النفس كالهدة ، ولم يكن السكان ليستوقف النظر لو أنه كان في غير ذلك الموضع ،
ولكنه كان هنا محلاً فريداً في فضاء لا يبلغ مداه البصر ، يمد المسافر بالظل الظليل
والماء النмир ، وهما من نعم الله ، لا يقدرهما المرء حق قدرهما إن توفرا ، ولكنهما
هنا قد أحالا العين وما جاورها جنة صغيرة من جنات الخلد ؛ وقبل أن تبدأ أيام
فلسطين المظلمة في التاريخ ، امتدت يد محسنة كريمة إلى تلك العين فأقامت حولها
سياجاً ، وفوقها سقيفة ، كي لا تبتلعها الأرض ، أو يفصها التراب ، الذى يشور في
سحب متدافعة تنطلق في مسيرها ، كلما هبت نسمة من ريح ، فتغطي سطح الصحراء ؛
أما السقيفة فكانت إذ ذاك محطة ؛ وقد تهشم جانب منها ، ولكنها كانت مع
ذلك تظلل العين وتحمي مياهها من وهج الشمس ، حتى إن الماء ليدو هادئاً
مطمئناً يسر العين وال خاطر ؛ لا يحسه شعاع من شمس ، بينما كان كل ما حوله متألقاً
وهاجاً ، وانسل صاحبانا من تحت السقيفة فقابلاً أول ما قابلاً إناء من المرمر
شائه الوجه ، ولكنه يجذب النظر ، لأنه يدل بهيئته تلك على أن السكان كان في
قديم الزمان محطاً ، وأن يد الإنسان قد لمبت هناك ، وأن المرء كان - ولو إلى حد -
يرعى لنفسه حقها من الراحة والإيواء ؛ وكان المسافر العربي يلهث من الإعياء
والعطش ، فلما رأى تلك الأمارات ، تذكر أن هناك غيره من الناس ممن تعرضوا
لمثل ما تعرض له من مشاق فأووا حيث أوى ، ولا شك في أنهم خلصوا بأنفسهم

آمنين إلى حيث الخصب والنماء ؛ وكان يتسرب من الإنباء تيار خفيف من الماء ، يكاد يحتجب عن الرأى ، ويفدى تلك الأشجار القليلة التي كانت تحوط العين ، وإذا ما غاص ذلك التيار تحت الثرى واختفى عن البصر ، دلّ على وجوده بساط من سندس أخضر يسرّ الناظرين .

في هذا المكان اليباع حط المحاربان رحلها ، ثم أخذ كل منهما — على نهجه الخاص — يخلص جواده من عبء السرج والعنان وطرف الزمام ، ويهيئ له السبيل إلى الشراب من الإنباء ، قبل أن يرتوى من العين التي كانت تتفجر تحت القباء ، ثم خليا سبيل جواديهما ، وكأتهما على يقين أنهما لن يبعدا عن هذا الماء الصافي وذلك العشب الأخضر لحاجتهما إليهما ، ولما عهدا فيهما من طباع مستأنسة .

ثم جلس العربي والمسيحي فوق العشب ، وأخرج كل منهما زاده الضئيل الذي كان يحمله ليتبلغ به ، ولكنهما قبل أن يشرعا في تناول هذا الطعام الزهيد ، تبادلوا النظر بطلعة ، أثارها في نفسيهما ذلك الشجار الذي نشب بينهما من منذ حين ، وملأ قلبيهما شكا وريبة ؛ وكان كل منهما يود لو يستطيع أن يسبر غور غريمه المروع ، ويقدر خلقه ولو إلى حد ، وقد اضطر كل منهما أن يقر بأنه لو سقط مغلوبا في ذلك النضال لكان ذلك بيد كريمة شريفة .

وكان الفارسان على طرفي نقيض في شخصيهما وملاحمهما ، وكلاهما يصلح مثالا دقيقاً لأتمته . كان الفرنجي رجلا قويا كالقوطة الأقدمين في هيئته ، شعره أحمر اللون أدكنه ، بدا لما رفع خوذته عن رأسه مجمداً كثيفاً غزيراً ، وقد لفحت وجهه حرارة الشمس فصيرته أشد سمرة من بعض رقبتة التي لم تتعرض للفتحة الشمس ، ومما تم عنه عيناه الزرقاوان المنفرجتان ولون شعره وشاربه الذي كان يظلل شفته العليا ، ولم تكن له لحية على مثال النورمان ، أنفه إنغريق جميل الصورة ، وثغره واسع الانفراج يكشف عن أسنان ناصعة البياض ، متينة جميلة الترتيب ، له رأس صغير يرتكز فوق رقبتة في أنفة وعظمة ، لا يزيد عن الثلاثين في عمره ، ولكنك إذا حسبت للعناء والجد حسابهما ، علمت أنه قد ينقص عن ذلك

ثلاث سنوات أو أربع ، طويل القامة ، قوى البنية كأنه من هواة الرياضة البدنية ، يشبه أن يكون رجلا قد تقدمت به السن فلم يعد له سلطان على قوته ، بعد أن كانت تلك القوة ممزوجة بالخفة والنشاط ؛ خلع القفاز الحديدي فإذا يدان طويلتان يضاوان في تناسق جميل ، وإذا عظام معصميه قوية كبيرة ، وذراعه مفتولتا العضلات جميلتا التكوين ، يتميز في كلامه وحركاته بعنف حربي واستهتار وصراحة في التعبير ، في صوته رنة الأمر لا ذلة الخاضع ، وكأنه تمود أن يعبر عن عواطفه بصوت مرتفع وبأس شديد كلما اقتضت الضرورة أن يفصح عنها .

أما الأمير العربي فكان على نقيض هذا الصليبي الغربي ؛ قامته فوق متوسط الرجال ، ولكنه كان أقصر من الفارس الأوروبي بما لا يقل عن ثلاث بوصات ، إذ كان هذا الأخير يقرب أن يكون عملاقا ؛ أطرافه دقيقة ، ويده وذراعه طويلة رقيقة ، تنسق حججا وجسمه ، وتناسب وطلعته ، ولكنها لاتدل لأول وهلة على القوة والليونة اللتين أظهرهما الأمير قبل ذلك بقليل ؛ ولكنك إن أمعنت في النظر ، رأيت ما بدا من أطرافه خفيفا لا يكسوه لحم ، وكأنه لم يبق منه إلا عظام وعضل مفتول وعروق ؛ رجل كأن الله قد أعد بهيئته هذه للعناء والإجهد ، ليس ألبته بالفارس البدن تتعادل قوته وحجمه مع وزنه وقد أنهكه الإعياء ؛ وكان هذا العربي بطبيعة الحال يشبه في طلعه إجمالا قبائل الشرق التي هو من أبنائها ، وما كان أبعد عن تلك المبالغات التي كان يرددها المغنون في ذلك العهد في وصف فرسان العرب ؛ وعن تلك الصورة الخيالية التي ما زال الفن الشقيق^(١) يعرضها على اللوحات على أنها تمثل رأس العربي ، كان دقيق الملامح ، جميل التكوين ، رقيقا ، تعلوه سمرة شديدة من أثر شمس الشرق المحرقة ، له لحية مرسله سوداء متموجة الشعر ، عني بتشذيب أطرافها ، وأنف مستو مستقيم ، وعينان حادتان ، سوداوان براقتان ؛ وأسنانه تنافس في جمالها وبياضها عاج الصحراء ؛ وقصارى الوصف ، كان العربي وهو يتمطى بجسمه فوق العشب ، إذا قيس بمنزله القوى البنية ،

(١) يقصد فن التصوير .

كهنده البراق ذى الشكل الهلالى والحد الضيق الرقيق ، اللامع الدمشقى الباتر ، إذا قورن بالسيف الطويل القوطى الثقيل ، الذى خلمه صاحبه وألقاه فوق الأديم . وكان الأمير فى زهرة العمر ، ولولا ضيق جبهته ، ورقة ملامحه وحدتها - أو لعلها كانت كذلك من حيث تقدير الأوروبيين للجمال - لعد آية فى الجمال .

كان المحارب الشرقى فى معاملته جاداً متعالياً شديد المراعاة للتقاليد ، يدل بسلوكة من بعض النواحي على ما فطر عليه أولئك القوم - الذين عرفوا بحدة المزاج وحرارته - من حرص يستمسكون به كي يقوا أنفسهم مما جبلوا عليه من حدة الطبع ، كما يدل على إحساسه بكرامة كانت تضطر صاحبها إلى أن يرتبط فى مسلكه ببعض القيود .

هذا الشعور السامى بعلو النفس كان يحس به كذلك زميله الأوروبى ، ولكنه كان يختلف عنه فى مسلكه ، فبينما كان هذا الإحساس على الفارس المسيحى الجراءة والاقدام ، بل وعدم الاكتراث ، وكأنه لفرط إحساسه بعلو مكاتته لا يأبه برأى غير رأيه ، كان يرسم للعربى نوعاً من المجاملة يجعله شديد المراعاة لآداب المعاشرة ؛ نعم لقد كان كل منهما يجامل الآخر ، ولكن مجاملة المسيحى كانت تصدر عن روح التفكه الطريف بما يجب عليه نحو غيره ، بينما كان المسلم فى مجاملته يصدر عن إحساس قوى بما كان غيره يرتقب منه .

وتبلغ الرجلان بطعام خفيف ؛ ولكن طعام العربى كان جد زهيد ، خففة من تمر ، ولقمة من خبز الشعير الخشن كانت تكفى لأن تسد رمق جوعه ، إذ أنه نشأ على تقشف الصحراء ، وذلك رغم أن بساطة العيش العربى كثيراً ما غلب عليها ، مذ فتح سوريا ، البذخ الوافر الذى ليس له حد ؛ ثم اختتم وجبته بقطرات قليلة من ماء العين الجميلة التى أوى وصاحبه إليها . أما طعام المسيحى فكان شهيياً رغم خشوته ، وكان أهم ما يتألف منه لحم الخنزير المقدد ، الذى يحرمه المسلمون على أنفسهم ؛ ثم أخرج قنينة من الجلد وصب منها شراباً خيراً من الماء الصافى ،

وهكذا أخذ يتناول طعامه بنفس مقبلة ، ويستقى وعليه أمارات الرضا ، ولا كذلك العربي الذي كان يرى أن ليس من اللياقة أن يتظاهر المرء وهو يقضى حاجة من حاجات الجسم الدنيئة ؛ ولا ريب أن كلا منهما كان في دخيلة نفسه يهزأ من زميله كيف يتبع ديننا باطلا ؛ وزاد من هذا الشعور ذلك الفارق الكبير بين مسلكيهما وطعاميهما ؛ ولكن اثنيهما قد أحسا كل بثقل ذراع صاحبه ، فكان من أثر ذلك النضال العنيف الذي نشب بينهما أن يتبادلا التقدير وأخفيا كل اعتبار دونه ، ولكن العربي مع ذلك لم يسعه إلا أن يشير بكلمة إلى ما لم يرقه من خلق المسيحي ومسلكه ، وبعد أن تطلع مدة — دون أن ينبس ببنت شفة — إلى شهية الفارس القوية التي مدت من وجبته طويلا بعد أن فرغ هو من طعامه ، وجه إليه الخطاب وقال :

« أيها النصراني الجسور ! هل يليق بالمرء يقاتل كالرجال أن يكون حين تناول الطعام كالكلاب أو الذئاب ؟ والله إنى لأظن أنه حتى اليهودى الكافر ليقتصر بدنه إذا رآك وأنت تأكل بشهية كأنك تتناول من ثمر أشجار الجنة . فالتفت المسيحي متعجبا من تلك التهمة التي ألقيت عليه دون أن يترقبها ، ثم قال : « أيها العربي الجسور ! اعلم أنى إنما أستمتع بالحرية المسيحية ، وأن لى أن آتى ما لم يستطعه اليهود الذين يزرعون تحت نير ملة موسى البالية ، ولتعلم أيها العربي أننا نخضع لشريعة سامية ؛ حياك الله يا مریم ! إنا لله شاكرون ! » واختتم حديثه بعبارة لاتينية قصيرة ، ثم احتسى جرعة كبيرة من القنينة الجلدية كأنه يتحدى ما يساور زميله من وسواس .

فقال العربي : « أفهذا أيضا في اعتبارك جزء من حريتك ؟ إنك إذ تطعم كالوحوش الضواری ، وإذ تحتسى هذا الشراب السام ، الذى تأباه البهائم ، إنما تهبط بنفسك إلى حضيض الحيوان » .

فأجاب المسيحي دون تردد : « اعلم أيها العربي النافل أنك إنما تلعن ما أسبغ الله علينا من نعم . إن عصير العنب حلال لمن كان حكيما في تناوله ، فهو ينعش القلب

بعد عناء العمل ، ويرطب فؤاد المرء في مرضه ، ويخفف عنه وطأة الحزن . من يستمتع بالخمر يحمده ربه على الكأس كما يحمده على قوت يومه ، ومن يدمن في الشراب فليس في إدمانه بأقل منك غفلة في تحريمك الخمر .

وأدرك العربي هذه السخرية فتطاير الشرر من عينيه ، وامتدت يده إلى مقبض خنجره ، ولكنه لم يكن إلا خاطرا طارئا ، لم يلبث أن هدا نائرة لما ذكر قوة منازلها حينما بطش به ، واستوثق منه في قبضته ، ولم يبق له من أمل في الحياة ، تلك القبضة التي لم يزل أثرها ينبض في أطرافه وعروقه ، فاكنتي العربي — إذ استعاد ذلك إلى ذاكرته — بأن يواصل النزاع شفاها ، فإن ذلك آمن له في ذلك الحين .

فقال : « والله أيها النصراني إن كلماتك هذه لتبعث الغضب ، لولا أنك بجهالتك تستثير الرحمة ؛ أفلا ترى — وكيف ترى وأنت أشد عسى من أولئك الذين يقفون بأبواب المساجد يسألون الصدقات — أن هذه الحرية التي تفخر بها لم تمتد إلى بيتك وإلى أنفس ما في سعادة الإنسان ، فإن شريعتكم — إذا اتبعتوها — فرضت على الرجل منكم أن لا ينكح غير زوجة واحدة ، يرتبط بها في صحتها وفي مرضها ، ولوداً كانت أو عاقراً ، وسواء فاضت على ما كله ومبيته بالدعة والسرور أو بالمنازعة والشحناء ؛ تالله إن هذا أيها النصراني إلا الرق عينه ، انظر إلى دين المسلمين ! لقد جاء النبي للمؤمنين في الأرض بملة أينما إبراهيم القديمة وملة سليمان أحكم بني الإنسان فأحل لنا في الدنيا تعدد النساء الجليات كيفما شئنا ، ووعدنا في الآخرة بالحوار العين » .

فأجاب المسيحي وقال : « والذى أقدم في السماء فوق كل شيء ، وبالتي أعبد في الأرض أكثر من كل شيء ، إن أنت إلا كافر عميت بصيرته وضل هداه — انظر إلى جوهره هذا الخاتم الذي تلبس في إصبعك ؛ ألا تظن أن قيمتها تفوق كل تقدر ؟ » .

فأجاب العربي : « أجل ، وليس في البصرة أو بغداد ما يشبهها ، ولكن ما شأن هذه الجوهرة وما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الفرنجي : « شأنها كبير ، وستشهد بذلك أنت نفسك الآن . خذ فأسى هذه وهشم هذا الحجر الكريم إلى عشرين شظية . ثم خبرني إن كنت تظن أن لكل شظية وحدها ما كان للجوهرة بأسرها من قيمة ، أو أن الشظايا كلها مجتمعة لها عشر ما كان لها من ثمن ؟ » .

فقال العربي : « هذا سؤال صياني . إن جزئيات هذا الحجر لن تعادل عشر معشار الجوهرة سليما » .

فأجاب الفارس المسيحي : « كذلك ، أيها العربي ، الحب الذي يحمله الفارس الحق لامرأة واحدة جميلة مخلصه ، هو كهذه اللؤلؤة سليمة ، أما الحب الذي توزعه بين أزواجك اللاتي تستعبدن ، وإمائك اللاتي تنظر إليهن كأنصاف أزواج ، فما هو إلا بمثابة تلك الشظايا المتفرقة من هذا الجوهرة الحر » .

فقال الأمير : « ورب الكعبة المقدسة إنك لمجنون ، لا تفرق بين الذهب والحديد ، أمعن في النظر تجد أن هذه الجوهرة الكبرى وسط تلك اللآلئ الزرية هي التي تكسب الخاتم جلاله وتعطيه قيمته ، ولولاها لما كان له نصف جماله ؛ هذا الجوهرة الأوسط هو الرجل في عزمه وكاله ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه ، وأما هذه الحلقة من الجواهر الدنيا فهي النساء تستمد بريقها من بريقه ، يرسله عليهن كما يشاء ويهوى ؛ انزع الحجر الأوسط من الخاتم يبق له قدره ويهبط ما دونه من اللآلئ في قيمته ؛ وإنما هكذا يجب أن تفهم التشبيه الذي أتيت به . ولقد قال المنصور الشاعر ما معناه : « إنما جمال المرأة ورقها من فضل الرجل ، فلو لا ضياء الشمس ما تألق في البحار ماء » .

فأجاب الصليبي قائلا : « أيها العربي ، إنك إنما تتكلم كرجل لم يقع بصره يوما على امرأة جذيرة بحب أبناء الحروب ، صدقتي أنك لو شهدت بنات أوروبا - اللاتي لهن علينا بعد الله حق الإخلاص والولاء - لما بقي في قلبك ذرة من حب

لهاتيك الشهويات المسكينات اللاتي يتألف منهن « حريمك ». إن جمال نساءنا
يبدب حرابنا ويحد سيوفنا ؛ كلتهن لنا شريعة ؛ وكما أن المصباح لا ينير إذا انطفأ
لهيبه ، فكذلك الفارس إذا برز في القتال ولم تكن له فتاة يوليها حبه .

قال الأمير : « لقد نما إلى هذا الخبل الذي يعتور فرسان الغرب ، وكنت
دائماً أعده عرضاً من أعراض ذلك الجنون الذي يدفعكم إلى هذه البلاد كي
تستولوا على قبر أجوف ، ولكني - مع ذلك - من فرط ما سمعت من الفريجة
الذين التقيت بهم من الثناء يكيلونه كيلاً على نساءهم ، أود لو رأيت بعيني رأسى
أولئك الساحرات الفاتنات اللاتي يجعلن من هؤلاء المحارين أدوات لما يردن ،
كي تطمئن نفسى ويرضى فؤادى » .

فأجاب الفارس : « أيها العربي الجسور ، والله لولا أنى أقصد الحج إلى القبر
المقدس لكان نغرا لى أن أقودك آمنًا إلى نخيم رتشارد ملك إنجلترا ، الذى يعرف
أكثر من كل من عداه كيف يعامل بالحسنى عدوا كريماً ؛ وإنك قد ترانى
مسكيناً لا تكلا تى عين برعاية ، ولكنى مع ذلك قمين بأن أكفل لك ، ولأمثالك ،
كل أمن وتقدير وإجلال . هنالك ترى كثيراً من آيات الجمال الفرنسى والإنجليزى
مجتمعات فى حلقة صغيرة ، يشع منها نور يفوق فى بريقه ولعانه المناجم المترعة بمثل
تلك اللآلى التى تملك عشرة آلاف مرة » .

فقال العربى : « وركن الكعبة ، لو أنك بقيت على عهدك لألبين دعوتك
طائماً ، كما وهبتنيها طائماً ، وصدقنى ، أيها النصرانى الجسور ، لقد كان خيراً لك
أن تيمم جوادك شطر نخيم قومك ، فإن مسيرك إلى بيت المقدس بغير جواز إن
هو إلا تعريض بحياتك لا مبرر له » .

فأخرج الفارس ورقة ثم قال : « ها هو ذا جوازى عليه توقيع من صلاح
الدين بيده وخاتمه » .

فعرف العربى خاتم سلطان مصر وسوريا وخط يده ، ذلك الحاكم الذى طبق
صيته الآفاق ، فأنحنى برأسه نحو الأرض ، ثم لثم الورقة بكل تبجيل ، ومس بها

جيبينه ، ثم ردها إلى المسيحي قائلا : « أيها الفرنجى ، لقد اندفعت فى تصرفك وأسأت إلى دى ودمك ، إذ لم تطلعنى على هذه الورقة حينما التقينا » .
فقال الفارس : « لقد آتيتنى رافعا سنانك ، ولو أن ثلة من جنود الأعراب هاجمتنى لكان من شرف النفس أن أظهر جواز السلطان ، أما وأنت رجل واحد فقد أبت كرامتى ذلك » .

فأجاب العربى بكبرياء وعظمة وقال : « ولكن رجلا واحدا قد استطاع أن يعترض سبيلك » .

فأجاب المسيحي : « صدقت أيها المسلم الجرىء ، ولكن كم من الناس كمثلك؟ إن البزاة لا تطير فى الأسراب » ، وإذا أقبلت سربا لن تنقض جماعة على واحد مفرد » .

ولا ريب أن العربى قد سُرَّ من هذا الثناء ، بعد أن كان قد انجرح فى عزته حينما كان الأوروبى يفخر بنفسه ويحقر من شأن صاحبه تلميحا ، ثم قال : « هذا صواب وعدل ، وما كان لى أن أسىء إليك ؛ إننى كنت مجدودا حقا إذ لم أصيبك بضربتى وشخصك فى حمى ملك الملوك ، ولو أننى جندلتك لحقت على النعمة جزاء هذا الجرم ، ولأصابنى حد السيف » .

فقال الفارس : « يسرنى أن أسمع أن الأمر قد انتهى بما ينفعنى ، فلقد بلغنى أن الطريق موبوءة بالكثير من قطعائها الذين لا يترددون فى السلب إذا تهيأت لهم فرصته » .

قال العربى : « لقد صدقتك فيما خبرتك به ، أيها المسيحي الجسور ، ولكنى أقسم لك بالنبي الكريم أنك لو سقطت فى أيدى هؤلاء الأشرار لأخذت على نفسى الانتقام لك بخمسة آلاف جواد ، ولقتلتهم جميعا وأرسلت نساءهم أسيرات إلى مكان ناء ، ولن تسمع لتلك القبيلة بعد ذلك اسما يذكر فى حدود خمسمائة فرسخ حول دمشق ، ولنشرت الموت فى جذور بلادهم فلن ترى فيها كائنا حيا من بعد » .

فأجاب الفارس قائلا : « أيها الأمير النبيل ، ليت هذه المشقة التى تأخذها

على نفسك كانت في سبيل الانتقام لشخص آخر أعلى مني مكانة ، إنما أنا أمرى بيد الله ، إن أراد بي خيرا فخير ، وإن أراد بي شرا فشر ، وإننى لمدين لك حقا لهدايتك إياى الطريق إلى مكان أستريح فيه هذا المساء .

فقال العربي : « ستجد راحتك في خباء أبي تحت قبائه الأسود » .

فأجاب المسيحي : « إنما ينبغي لى أن أقضى هذا المساء مصليا مستغفرا مع رجل قديس اسمه تيودوريك « بعين جدة » يسكن هذا القفر ويقضى العمر في عبادة الله » .

فقال العربي : « لا أقل من أن أبلغك هذا المكان آمنا » .

فأجاب المسيحي : « نعم الحارس ، ولكن ألا تدري أنه قد يكون في ذلك خطر على ذلك الأب الطيب في مستقبل سلامته ، فكم من مرة امتدت فيها أيدي قومك القساء إلى أتباع السيد المسيح ، وتلطخت بدمائهم ، ولذا فنحن لانقصد هذه البلاد إلا مسلحين بالسيوف والحراب كي نفتح الطريق إلى القبر المقدس ، ونحمي القديسين الأخيار والرهبان الذين يقطنون هذه الأرض ، أرض الأمل والمعجزات » .

فأجاب المسلم وقال : « أيها النصراني ! ألا تعلم أن الروم وأهل الشام كثيرا ما حثوا في عهودهم لنا ، ونحن إنما تتبع أبا بكر الصديق خليفة النبي ، وأول خليفة للمسلمين من بعده ، إذ قال لذلك القائد الدائع الصيت حينما بعث ^١ كي يستخلص سوريا من أيدي الكفار (١) : اذهب ورجالك يا يزيد بن سفيان ، وحاربوا كما تحارب الرجال في ساحة الوغى ، ولكن حذار أن تقتلوا الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولا تحربوا البلاد ، ولا تدمروا أشجار الفاكهة والقمح فهي من نعم الله ، وإذا عاهدتم فلتفوا باليهود — حتى وإن كانت في مضرتمكم — وإذا صادفتم رجالا قديسين يعملون بأيديهم ويعبدون الله في الصحراء ، فلا تمسؤهم بأذى ولا تهدموا مساكنهم ؛ أما إن ألفيتموهم برؤوس حليقة ، فاعلموا أنهم من أتباع الشيطان واضربوهم بسيوفكم ، واقتلوهم ولا تأخذكم بهم رافة حتى يؤمنوا

(١) يلاحظ أن «سكت» لا تعبرى الدقة التاريخية — كما يشير في المقدمة — ولذا فإن

هذه العبارة المنسوبة إلى أبي بكر رضى الله عنه قد لا يكون لها أصل عربي .

أو يدفعوا الجزية . هكذا أمرنا الخليفة رفيق النبي ، فأطعنا ، فعدلنا ، ولم تضرب إلا جنود الشيطان ، أما أولئك الرجال الأخيار أتباع عيسى بن مريم ، الذين لا يثرون أمة على أمة وإنما يعبدون الله مخلصين له الدين ، فقد كنا لهم ظلًا وحمى . ولما كان صاحبك الذي تقصد رجلا من هؤلاء ، فأني لا أحمل له إلا المحبة والخير والتقدير وإن يكن نور النبي لم يبلغه » .

فقال الحاج المحارب : « لقد سمعت أن الراهب الذي أقصد ليس قسا ، ولكنه إن كان أحد أولئك الرجال المقدسين المباركين ، فتالله لأصذن عنه برحمتي هذا كل معتد أثيم من الكفرة أبناء المسلمين ... » .

فاعترض العربي كلامه وقال : « أخى ! خير لي ولك أن لا تتحداني ولا أتحداك ، فإن كلينا يستطيع أن يجد من بنى قومه من يكفيه للضرب بسيفه وسنانه . إن تيودوريك — الذي حدثتني عنه — في حمى الترك والعرب ، وله بين الحين والآخر أطوار عجيبة ، ولكنه على الجملة — كتابع من أتباع المسيح — يسلك سلوك الرجل الطيب ، ويستحق الحماية ممن بعث الله ... » .

وهنا قاطعه المسيحي متعجبا وقال : « قسا بمريم لو أنك لفظت في نفس واحد اسم ذلك الحادى المكى مع ... » ^(١) .

وحينئذ تمشت في حنايا الأمير رعدة من الغضب كتيار الكهرباء ، لم تلبث لحظة حتى انقضت ، وأجاب في هدوء يخالجه الوقار والحكمة « لا تذكر بسوء من لا تعرف ، إنما نحن نقدر نبيكم ، ولكننا ننكر العقائد التي ينسجها قساوستكم حول الدين الذي أناكم به . سأدلك بنفسى إلى الكهف الذي ينزل به الناسك ، واعلم أنه لولا معونتي لشق عليك أن تبلغه ؛ وإذا ما ضربنا في طريقنا فلنخلّ للشيوخ والرهبان الجدل في الدين ، ولنحدث في أمور تليق بأبطال أحداث . لنحدث بمواقع القتال وفتنة الحسان ، ولنحدث بظباة السيف وبريق السلاح » .

(١) هكذا يشير الفارس المسيحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مما يدل على شدة تعصب الصليبيين وجهلهم بشؤون العرب في ذلك الحين .

الفصل الثالث

استراح المحاربان قليلا ، وتناولوا طعاما خفيفا اتمشا بعده ، ثم هبا من مكانيهما وأخذ كل منهما يمد يد المساعدة إلى أخيه — وهما يجهزان جواديهما بعدتيهما ويحكان الجهاز ، بعد أن تخلص الجوادان الأمينان من هذا العبء مدة من الزمن — وكان كلا الرجلين خبيرا بهذا العمل الذي كان في ذلك العهد واجبا لا مندوحة عنه ولا غناء ؛ وكان الجوادان — وهما رقيقان ملازمان لصاحبيهما في القتال والترحال — يوليانهما ثقتهما ومحبتهما على قدر ما بين الحيوان والإنسان العاقل من فرق في إظهار مثل هذا الشعور . أما العربي فقد شب على هذه المودة وذلك الإلف ، ففي خيام القبائل الشرقية المحاربة كان حصان الجندي يلى في أهميته زوجه وأهله ؛ أما الفارس الأوروبي ، فإن الظروف والحاجة قد رفعت جواده إلى مكانة لا تقل عن مكانة زميله في الحرب ؛ ولذا فلم يشقّ على الجوادين كثيرا أن يبتعدا عن الطعام ، ويحرما الحرية ، بل لقد اقتربا من صاحبيهما وأخذا يصهلان جذلا ، بينما كان الرجلان يمدان عدتيهما لاستئناف الرحيل ومواصلة العمل ، وكلاهما يعدّ نفسه ، أو يعاون زميله في رفق ، وهو يتطلع إلى عدة رفيقه في السفر ويلحظ طريقته في تهيئة معدات الركوب .

وقبل أن يمتطيا جواديهما لمواصلة الرحيل ، بلّل الفارس المسيحي شفتيه ، وأغرق يديه في ماء العين ، ثم قال للرجل الوثني ^(١) زميله في السفر : « وددت لو عرفتُ اسم هذه العين ذات المساء النمير ، حتى أحفظ لها جميل الذكر ، فوالله ما ارتويت حياتي بماء أشدّ عذوبة من ماؤها الذي أطفأت به نار العطش الذي أحسست به اليوم » .

(١) هكذا يشير « سكت » إلى الرجل العربي ، ولا غرابة في ذلك فقد كان يجهل الإسلام والمسلمين .

فأجاب العربي : « اسمها درّة الصحراء » .

فقال المسيحي : « نَعَمْ الاسم . إن بالوادى الذى أتيت منه ألف عين ، ولكننى لن أحمل بعد هذا لأنها مثل هذه الذكرى العزيزة التى أحملها لهذه العين النائية ، التى تمد النفس بكنوزها السائلة ، فتسر القلب وتسد لبانة من لباناته التى ليس له عنها غنى » .

فقال العربي : « حقاً ما قلت ، ولعنة الله على ذلك البحر الميت ، الذى لا يستقى منه — ولا من النهر الذى لا يفتأ يصب فيه ولا يملأ جوفه — إنسان أو حيوان حتى يخرج من هذه الصحراء الجافة » .

ركب صاحبانا واستأنفا المسير يقطعان أرضاً رملية خلاء ، وقد تبدد وهج الظهيرة ، وأخذ يهب نسيم عليل ، يهون عليهما مشقة الصحراء ، ولكنه يحمل على جناحيه تراباً دقيقاً لم يكن يأبه له العربي ، بينما كان رفيقه المثقل بالسلاح يضجر منه ، فخلع خوذته وعلّقها بجانب سرجه ، واستبدل بها تقيّة ركوب خفيفة ، تشبه فى شكلها الهاون ، ثم سارا معا برهة من الزمن صامتين لا يتحدثان ، والعربي يقوم بوظيفة المرشد أو القائد فى السفر ، مستعيناً بمشاهدة دقيق العلامم ومواضع الصخور النائية التى كانا يسيران رويداً نحو حافتها ، وظلّ كذلك فترة قصيرة ، وكأنه لا يفكر إلا فى هذا العمل ، كرتبان السفينة وهو يعبر قناة عسيرة ؛ ولكنه ولما يقطعنا نصف فرسخ — استوثق من طريقه ، وأظهر الرغبة فى فتح باب الحديث بصراحة غير معهودة بين بنى قومه .

فقال : « لقد سألتنى اسم عين ساكنة لها هيئة الكائن الحى ولكنها ليست بالكائن الحى ، فهل لى أن أسأل عن اسم الزميل الذى صادفته اليوم ورافقته فى الضراء والسرائ ، وما أخل إلا أن هذا الاسم ذائع الصيت حتى هنا فى صحراوات فلسطين » .

فقال المسيحي : « كلا ، إن هذا الاسم لم يحق له الذبوع بعد ، ولكن اعلم أن جنود الصليب يسموننى « كَنَثُ صاحب النمر الرابض » ، ولى فى بلادى .

ألقاب أخرى لا تستسيغ مسمعا أذن شرقية ؛ أيها العربي المقدام ! من أي قبائل العرب أنت وما اسمك ؟ »

فأجاب المسلم وقال : « يسرتني أن اسمك هين على شفتي أن تنطقا به ياسير كنت ؛ أما أنا فلست بعربي ، وإنما أنا أنتمي إلى جماعة لا تقل عن العرب إقداما ولا حبا في القتال ؛ اعلم يا فارس النمر أنني شيركوه ، أسد الجبل ، وأن ليس بكردستان التي أنتسب إليها أمرة أشرف من أمرة سلجوق » .

فأجاب المسيحي : « لقد نما إلى أن سلطانكم العظيم يمت إلى هذه الأمرة بصلة الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ »

قال المسلم : « حمدا لرسول الله الذي شرف جبالنا بأن بعث من بطنها رجلا ، الظفر معقود بمنطقته . ما أنا إلا كالودودة الحقيرة أمام ملك مصر والشام ، ومع ذلك ، فإن لاسمي في بلادى بعض المكاة — أيها الرجل الغريب ، خبرني مع كم من الرجال أتيت إلى هذه الحرب ؟ »

قال السر كنت : « أقسم لك إنني — بكل ما قدم إلى أهلي وصحبي من معونة — لم أستطع أن أجمع عشرة من الرجال المدربين على حمل الحراب ، ونحوها من خمسين رجلا آخرين — ومنهم النبالون والخدم — إلا بعد جهد جهيد ؛ ومن هؤلاء من لم يرقه أن ينضم إلى لوائى التمس ، ومنهم من سقط في القتال ، وكثير أهلكتهم المرض — ومن بينهم رجل من حملة السلاح أثق فيه ، وهو الآن عليل طريق الفراش ، ومن أجله أتيت حاجا إلى هنا » .

فقال شيركوه : « أيها المسيحي ، إن في جمعيتي خمسة سهام ، كلها مريشة بأجنحة النسور ، لو بعثت منها بواحدة إلى خيامي جاءني ألف مقاتل على ظهور الخيل ، ولو بعثت بالأخرى هبت طائفة أخرى تعدل الأولى عددا ، فلو أتى أرسلتها جميعا لأصبح تحت إمرتي خمسة آلاف رجل ، وإذا أرسلت قوسى دب في جوف الصحراء عشرة آلاف راكب ؛ وأنت على رأس خمسين من أتباعك أتيت تغزو بلاداً ، أنا من أقل أبنائها شأنا ! » .

فرد عليه الفارس الغربي وقال : « وحق الصليب ، أيها العربي ، تعلمن — قبل أن تفخر بنفسك — أنا نستطيع بقتال واحد من الحديد أن نقضى على حفنة من هذه الحشرات التي ذكرت » .

فقال العربي : « ولكن هذه اليد الحديدية ينبغي لها أن تمتلك هذه الحشرات في قبضتها قبل القضاء عليها » وارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة كادت أن تودى بالحلف الذي عقدها بينهما حديثا ، لولا أنه حول مجرى الحديث وأردف قائلا : « وهل للشجاعة عند الأمراء المسيحيين مكانة عالية ، فتتمهد — كما وعدتني — وأنت لا سلاح لديك ولا رجال ، بحمايتي وسلامتي في مخيم زملائك ؟ » . فأجاب المسيحي : « أما وقد سألتني هذا ، فأعلم أيها العربي ، أن اسم الفارس ودم الرجل الكريم يخولان له أن يرفع نفسه إلى منزلة كبار الملوك في كل أمر ، عدا ما يتمتعون به من سلطان ونفوذ ؛ ولو جرح رتشارد ملك إنجلترا نفسه عزة فارس مسكين كمثل ، ما كان له — وفقا لقانون الفروسية — أن ينكر عليه حقه في النزال » .

فقال الأمير : « والله إنني لأحب أن أشهد مثل هذا المنظر العجيب ، حيث يستطيع الرجل الفقير بنطاق من الجلد ، ومهمازين ، أن يرتفع إلى مستوى أقوى الأقوياء » .

فأجاب المسيحي : « أضف إلى ذلك دما حرا ، وقلبا لا يرتاع ، يصدق قولك عن كرامة الفروسية » .

ثم سأله العربي : « وهل تخالطون نساء سادتكم وقادتكم بهذه الجرأة عينها ؟ » . فأجاب فارس النمر : « إن أشد فرسان العالم المسيحي فقرا في كل عمل نبيل يقوم به ، ولكنه يقف يده وسيفه وذكر أعماله وإخلاص قلبه الذي لا يحميد لأجل من حلين جبينهن بتاج من أميرات » .

فقال العربي : « ألم تقل لي منذ حين إن الحب هو أعز ما يملك القلب ؟ فما أشك في أنك قد وهبت قلبك لامرأة كريمة نبيلة » .

فأجاب المسيحي وقد علت وجنتيه حمرة الخجل : « أيها الغريب ، اعلم أننا لا نندفع في الكلام فتتحدث عن موضع حبنا الذي وهبناه أنفسنا ما نملك ، وكيفيك أن تعرف أن حبي - كما قلت - قد خصصت به امرأة نبيلة كريمة ، بل و غاية في النبل والكرم ؛ وإن كنت لم تسمع بالحب وتكسير النصال في سبيله نفاطر بنفسك - على حد قولك - واذهب إلى معسكر الصليبيين ، وهناك تسمع بأذنيك ما يرضيك ، وتجدي ليدك - إن أردت - مرانا . »

وهنا هب المقاتل الشرقي عن ركبته وهز برمحه إلى أعلى ، ثم أجاب قائلاً :
« إنني أخشى أن لا أجد من أبناء الصليب من يبادلني النزال بالجرید . »

فأجاب الفارس : « إنني لا أعدك بذلك ، رغم أن بالمعسكر بعضاً من الأسيبان ذوى المهارة الفائقة في هذا الفن الشرقي ، فن الضرب بالحراب . »
فانفجر العربي قائلاً : « هيه يا كلاب ويا أبناء الكلاب ! ما لهؤلاء الأسيبان يأتون إلى هنا لمنازلة المؤمنين المخلصين ، وهم في بلادهم السادة وأصحاب الرأي ؟
إنني لن أنزل معهم في هو الفرسان . »

فقال فارس النمر : « حذار أن يسمعك فرسان « ليدن » أو « أستورياس » وأنت تتحدث عنهم كذلك ؛ ثم ابتسم إذ تذكر ما كان بينه وبين العربي من قتال صبيحة ذلك اليوم ، وأردف قائلاً : « لو أنك قبلت أن تستبدل القصب بالفؤوس لألقيت من المقاتلين أبناء الغرب من كيفيك لسد هذه اللجاجة في نفسك . »

فقال العربي وهو يتأمل للضحك : « ولحية أبي ، ياسيدي كنت ، إن هذا الضرب من اللعب لأشد عنفاً من أن يكون لهو المجرى - إنني لن أفر منهم في ميدان القتال ، ولكن عقلي (وهنا وضع يده على جبينه) لا يسمح لي أن أقصدهم لهو حتى حين . »
فرد عليه المقاتل الغربي وقال : « وددت لو أنك رأيت فأس الملك رتشارد ، تلك الفأس التي لو قيست بها فأسى المعلقة بسرجي لم ترد هذه الأخيرة عن وزن الريشة . »

فقال العربي : « إننا سمعنا الشيء الكثير عن هذا الملك الذى يحكم فى جزيرة ؛
خبرنى هل أنت من رعيته ؟ » .

فأجاب الفارس وقال : « أنا من أتباعه فى هذه الحملة ، وياله من خدمة
شريفة ؛ ولكننى لست من رعايا الملك مولداً ، وإن كنت من أهل الجزيرة التى
يسود فيها » .

فقال الجندى الشرقى : « ماذا تعنى ؟ أفتسودّ عليكم ملكان فى جزيرة
واحدة فقيرة ؟ » .

فأجاب السر كنه ، وهو اسكتلندى المولد : « هو كذلك كما تقول ، وكثيراً
ما يقتتل أهل الشمال مع أهل الجنوب فى تلك الجزيرة ، ولكن الأمة تستطيع
— كما ترى — أن تبعث إلى أقاصى البلاد بكثيرة من الرجال المسلحين تهز هذه
اليد الدنسة ، يد سيدكم ، التى تستولى على مدائن صهيون » .

« ولحية صلاح الدين ، أيها النصرانى ، إن هذه إلا غفلة صيبانية منكم ، ليس
فيها لمحة من سداد رأى ، وإننى ليضحكنى من سلطانكم العظيم سذاجته ، وإنى
لأعجب كيف عنّ له أن يطلب الظفر فى هذه الصحراوات وتلك الصخور ، وينازع
فى امتلاكها قوما ، إن أرادوا جمعوا من الرجال عشرة أمثال رجاله ، ويخلف جزءاً
من جزيرته الضيقة — التى ولد فيها ملكا — إلى بلاد الصولة فيها لغيره ؛ ولكننى
أعتقد جزماً ، ياسير كنه ، أنك وغيرك من الرجال الطيبين من أهل بلدك قد
خضعتهم لنفوذ الملك رتشارد قبل أن ترحلوا عن وطنكم وتقوموا بهذه الحملة ، وقد
تركتكم بلادكم مقسمة بعضها فى وجه بعض » .

فأجابه كنه فى حدة ولهجة سريعة وقال : « كلا وضياء السماء المنير ! لو أن
ملك إنجلترا لم يقم بهذه الحرب الصليبية إلا بعد أن يتملك على اسكتلندا لما عبأت
— ولا عبأ كل اسكتلندى مخلص — بالهلال يتألق أبداً على أسوار صهيون » .
واسترسل الفارس فى حديثه إلى هذا الحد ، ثم استجمع ذاكرته وتمتم قائلاً :

« أستغفر الله ، أستغفر الله ! مالي - وأنا جندي من جنود الصليب - وما لذكري الحرب بين الأمم المسيحية ؟ » (١) .

هذا الشعور الفياض الذي أحس به المسيحي ، ثم كتبه بوحى الواجب ، لم يغب عن الرجل المسلم ، فهو - وإن لم يدرك كل ما دمدم به صاحبه - إلا أنه شاهد ما دل دلالة قاطعة على أن المسيحيين - كالمسلمين - لهم من المشاعر الخاصة ما قد يوخز ضمائرهم ، ولهم في أوطانهم من المنازعات ما لا سبيل إلى حسمه ؛ ولكن العرب أمة مهذبة إلى أقصى حد يسمح به دينهم الذي يعتقدون ، وهم قادرون خاصة على التحلي بفضيلة المجاملة والتأدب ، وهكذا كان صاحبنا العربي ، فأبى على نفسه أن يتطلع إلى النزاع الذي قام بين السر كنت وبين مشاعره ، إذ كان كنت يجمع في شخصه شخصين متناقضين : أحدهما الاسكتلندي والآخر الصليبي .

ثم ضرب صاحبنا في المسير ، وأخذت المناظر حولها تتغير وتبديل ، وقد عرجا إذ ذاك شرقاً ، وسارا حتى بلغا سلسلة من التلال جرداء ، شديدة الانحدار ، تمتد في سهل قاحل ، وهي تباين بارتفاعها سطح البلاد ، ولكنها لا تختلف عنها في إحمالها . وبدت أمام المسافر ين صخور ناتئة حادة ، وبعد فترة وجيزة ، أشرفا على منحدرات سحيقة ومرتفعات يرتاع لعلوها البصر ، وليس من اليسير أن تجتاز ممراتها الضيقة ، فكانت عقبة في سبيلهما ، تختلف عن غيرها من العقبات التي كانا يغالبانها منذ حين ؛ وبينما هما يسيران ، بدت لهما على جانبي الطريق كهوف مظلمة ، وشقوق بين الصخور منفرجة مروعة . وهي تلك الغيران التي كثيراً ما يشار إليها في الكتاب المقدس ؛ وهنا قال الأمير للفارس الاسكتلندي إن تلك الكهوف كثيراً ما تأوى إليها الوحوش الضارية ، أو يلجأ إليها رجال أشد من الوحوش شراسة ، تدفعهم إلى اليأس حروب لا تنقطع ، وجور يلحق بهم من جنود الصليب والهلل ، فينقلبون لصوصاً يهبون كل من يلاقون ، ولا يفلت منهم أحد ، رفيعاً كان أو وضعياً ، مؤمناً أو كافراً ، رجلاً أو نساء ، شيباً أو شباباً .

(١) يقصد الحرب التي كانت قائمة بين إنجلترا واسكتلندا .

وأخذ الفارس الاسكتلندي يستمع ، غير آبه ، لما يُروى له عن أعمال النهب التي يرتكبها الوحش الضارى والإنسان الشرير ، إذ أحس في نفسه بالشجاعة وقوة البنية يطمئن إليهما ، ولكن لشد ما كان هلمه حينما مر بخاطره أنه كان إذ ذاك يسير في القفر الموحش الذى أمسك فيه المسيح أربعين يوماً عن الطعام والشراب ، وأن تحت بصره ذلك المكان الذى تسنى فيه للشيطان أن يهاجم المسيح ويسرف في إغرائه وإغوائه ، فانصرف بذهنه شيئاً فشيئاً عن ذلك الحديث الساذج ، حديث الدنيا الذى كان يتحدث به إليه المقاتل العربى ، وهو يسير إلى جانبه ؛ وأحس السر كنه أنه في تلك المجاهل الجافة الجرداء ، التي تهيم فيها الأرواح الخبيثة بعد أن تخرج من الأبدان التي كانت تحمل فيها ، أحوج إلى مراقبة قس عارى القدمين منه إلى ذلك المسلم المرح المنافق ، مهما كان حبيباً إلى النفس بروحه الخفيفة ، وشجاعته النادرة ، التي قد تجعل منه زميلاً تستحب زمالته في أى مكان غير هذا المكان .

استولت على المسيحي هذه المشاعر فارتبك في نفسه ، وزاده ارتباكاً أنه كلما أمعن وصاحبه في المسير ، زاد العربى من مرحه وسروره ؛ وكلما توغلا في حنايا الجبال المظلمة ، استخف في حديثه ؛ ولما لم يفز من المسيحي بجواب على سؤال ، أخذ يتغنى ويرفع الصوت في الغناء ؛ وكان للسركنث من الإلام باللغات الشرقية ما يكفي لأن يؤكد له أن العربى كان يتغنى بأناشيد الحب المليئة بكل معنى من معانى الثناء على الجمال ، التي يغرم شعراء الشرق بالإغراق فيها ، والتي كانت — من أجل ذلك — لانتليق ألبته بالفكر يحلق في سماء الجد والإخلاص لله ، وهو ذلك الإحساس الذى ينبغى للمرء أن يحس به وهو في القفر الذى امتحن الشيطان فيه المسيح ؛ ولكن العربى لم يرع للمكان حرمة ، فأخذ يتغنى كذلك بما أثر الحجر ويشبهه بالياقوت كشعراء الفرس ؛ وهكذا استرسل العربى في نشوة السرور إلى حد لم يعد يطيقه السركنث — وقد استولى عليه إحساس غير هذا الإحساس ؛ ولولا أنه قطع على نفسه من قبل عهداً أن يُبقى على المودة التي تبادلها لما تردد في أن يطلب إلى العربى أن يضرب على وتر آخر ؛ وهكذا أحس الصليبي كأن إلى جانبه شيطاناً

خبثاً مستهتراً في اللهو ، يحاول أن يوقع روحه في جباله ، ويحرمه من غفران الله ، بما كان يتمسّدق به من ملذات الحياة الدنيا ، يلوّث بها طهارة قلبه ، في وقت تناشده فيه عقيدته المسيحية ، وميثاقه كحاج ، أن يذكر الله مستغفراً جاداً ؛ فاشتدت حيرته وتردد ماذا يصنع ، وأخيراً شق سكون نفسه ، وفي لهجة الناظم الحادة اعترض العربي وهو يتغنى بالأنشودة الشهيرة التي يؤثّر فيها الشاعر الخال على صدر معشوقته على كنوز بخاري وسمرقند .

فقال الصليبي محتداً : « أيها العربي ! مهما أظلمت عينك ، ومهما ضللتك مهامه شريعة خرقاء ، أفلا تدرك أن من بين بلاد الله بلاداً أكثر تقديساً ، وأن من بين الأماكن أماكن ، الشيطان فيها أشد سلطاناً على النفوس الأمارة بالسوء ؟ إنني لن أخبرك بالسبب المروع الذي من أجله اتخذ الشيطان هذا المكان ، وهذه الصخور ، وهذه الكهوف ذات القباب المظلمة ، التي توهم الرائي أنها تؤدي إلى أغوار سحيقة ، مرتماً خاصاً له ولجنوده ؛ وحسبك أن رجلاً قديسين حكماً ، يعلمون حق العلم خصائص هذا المكان الدنس ، قد حذروني منه منذ زمن بعيد ؛ فهل لك أيها العربي أن تفلح عن غيك ، وعن هذا الهزل الذي ليس هذا بجينه ، وأن تنصرف بفكرك إلى ما هو أليق بهذا المكان ، وإن تكن خير دعواتك ما هي — واحسرتاه ! — إلا إثم وكفران » .

وأصفي العربي لهذا الحديث بشيء من الدهشة ، ثم رد بروح من الدعابة والفكاهة لم يُخفها إلا بمقدار ما تقتضيه المجاملة وقال : « إنك يا سر كنت رجل طيب ، ولكنك لم ترع لرفيقك حق الزمالة ، وإلا ، فأنتم معشر الغرب لا تكثرون بأداب اللياقة . إنني لم أر أنك قد أسأت إلى حيناً أخذت تلهم لحم الخنزير وتشرب الخمر على مرأى مني ، بل لقد سمحت لنفسك أن تستمتع بطعام قلت إنه من حرية المسيحية ، ولم أعد أن أسفقت عليك في نفسى من متعتك الديمة ، فلماذا إذن تضعر مني وتشكو ، وأنا إنما أسرى عنا — بكل ما وسعت من شعر جذل — هذه الطريق الوحشة ؟ ولقد قال الشاعر ما معناه : « إنما الغناء كقطر الندى يساقط

من السماء على صدر الصحراء فيجعل طريق المسافر بردا وسلاما .

فأجاب المسيحي : « اسمع يا صاح ! أنا لا أكره الهوا أو الغناء ، بل إننا لنوليهما من قلوبنا مكانة عليا ، قد يكون أولى بهما ما هو خير منهما ؛ ولكن الدعاء لله والأنشيد الدينية أليق بك من أغاني الحب وكؤوس الخمر ، وأنت تحترق هذا الوادي ، وادى ظل الموت ، الملىء بالأبالسة والشياطين ، الذين أصابتهم دعوات القديسين فطردتهم من مساكن الانسان يهيمون في بلاد عليها وعليهم لعنة الله .

فأجاب العربي قائلا : « لا تتحدث عن الجن بمثل هذا أيها المسيحي ، واعلم أنك توجه الخطاب إلى رجل هو وأمته يرجعون بأصلهم إلى جنس نخلد ، تحشونه في مذهبكم ، وتستنزلون عليه غضب الله .

فأجاب المسيحي : أعلم أن أمتكم العمياء تنتسب إلى الشيطان الرجيم ، الذي مد إليكم يد المساعدة ، فكنتكم من الاحتفاظ بهذه الأرض المكفرة ، أرض فلسطين ، فوقفتم في وجه عدد عديد من جنود الله الأبطال . إنني لا أتحدث عنك خاصة أيها العربي ، وإنما عن قومك عامة وعن دينك ، وليس العجيب أنكم تنتمون إلى الشيطان ، وإنما العجيب أنكم تفخرون بذلك .

فأجاب العربي : « نحن أشجع الشجعان ؛ بمن نفخر في كرم المحدث إن لم نفخر بأشد مخلوقات إقداما ؟ نحن الجبارة المتكبرون ؛ إلى من نتمى إن لم نتم إلى إبليس ، الذي آثر أن يخرج من الجنة مدحورا على أن يسجد لآدم طائعا ؟ إن إبليس ذميم مكروه ، ولكنه مهيب الجانب ، وكإبليس نحن أبناؤه أهل كردستان .

وكان العلم السائد في هذا العصر هو قصص السحر والاتصال بالأرواح ، ولذا فقد استمع السر كنت إلى رفيقه حينما اعترف بأصله الشيطاني ، ولم تساور نفسه خلجة من شك ، أو أثر من عجب ، ولكنه مع ذلك قد أحس بفرائصه ترتعد ، حينما ألقى نفسه في هذا المكان المروع برفقة رجل أعلن صراحة عن أصله الذي ذكرنا ؛ وكان السر كنت لا يعرف الخوف بطبعه ، فرسم علامة الصليب على

نفسه ، وطلب إلى العربي في جرأة أن يحدثه شيئاً عن أصله الذي يفخر به ،
وسرعان ما لبى العربي مطلبه فقال :

« اعلم أيها الغريب الشجاع أن (الضحاك) ، أحد أبناء جمشيد ، لما اعتلى عرش
فارس ، عقد مجعماً من الشياطين تحت قباب (اصطخر) الخفية ، تلك القباب التي
نحتها الأرواح الأولى في عين الصخر ، قبل أن يخلق الله آدم نفسه ، وهنا كان
للضحاك حيتان ضاربتان ، أخذ يطعمهما ويقدم لها القربان كل يوم من دم
الإنسان ؛ حتى صارا — كما يحدثنا الشعراء — جزءاً من نفسه ، وأراد أن يُبقَى
عليهما ، فأخذ يجمع لها الضحايا البشرية كل يوم ، حتى نفذ صبر رعيته ؛ فرفعوا
في وجهه راية العصيان ، وكان من بينهم أمثال الحداد المقدم ، و(فريدون) الظافر ،
الذين استطاعا آخر الأمر أن يخلعا هذا الظالم المستبد عن عرشه ، وبحسب طوال
حياته في الكهوف المظلمة في جبال (راموند) ، ولكن هذا الرجل المتعطش للدماء
كان قد بعث وهو في أوج قوته — قبل أن تخلص البلاد من حيفه — بثلة من
أتباعه اللصوص ، كي يأتوه بالفرائس يقدمها ضحايا كما اعتاد كل يوم ، فجاءوا إلى
أهباء قصر (اصطخر) بسبع أخوات ، تحسبن من فرط جمالهن من حور الجنان .
هاتيك الفتيات السبع هن بنات رجل حكيم ، لا يملك من الثروة غير حكمته وجمال
بناته ولكنه — على حكمته — لم يستطع أن يتوقع الكرب الذي حل به ، والبنات
لم يملكن أن يدفعن الشر ، ولم تعد كبراهن العشرين ، ولم تكذب تبلغ صفراهن الثالثة
عشرة ، وكن جميعاً على صورة واحدة ، لاتستطيع أن تفرق بين الواحدة والأخرى
إلا باختلاف القد ، إذ كن يتوالين في طولهن متتابعات ، مثلهن في ذلك مثل المصعد
الذي يؤدي إلى أبواب الجنة ؛ وما كان أجملهن حين وقفن تحت القبة المظلمة ،
وقد خلعن ثيابهن ، ولم يتسترن إلا بقمص من الحرير الأبيض ، يهززن بجمالهن
قلوب البشر ؛ إذ ذاك جلجل الرعد ، وزلزلت الأرض ، وتشقق حائط البهو ، ومن
بين تلك الشقوق تسلل رجل في زى صائد ، بيده قوس ونشاب ، وفي إثره ستة
من إخوته ، وكانوا جميعاً رجالاً طوالاً ، سود الوجوه ، محياهم جميل الطلعة ، إلا

أن في أعينهم بريقا كبريق الموت ، لا كذلك الضياء الذي يتألق تحت جفون الأحياء ؛ ثم أمسك زعيمهم بيد كبرى الأخوات السبع ، وقال في صوت ناعم خافت فيه رنة الأسي : « زينب ! أنا (كُثْرَب) ملك العالم السفلي ، ورئيس الجن الأعلى ؛ أنا وإخوتي هؤلاء — وقد خلقنا الله من النار الأولى — قد أبيتنا ، حينما أمرنا العزيز القادر ، أن نسجد لكائن خلقه من طين وسماه الإنسان . وما أخالك قد سمعت عنا إلا أنا قساة لا نلين ، نوقع الشر بالنفوس ، وما هذا إلا باطل ، وإنما نحن بطبيعتنا كرام رحيمون ، لا ننقم إلا إذا لحقتنا إهانة ، ولا نقسو إلا إذا مستنا أذى ، من وثق فينا أخلصنا له ، وقد دعانا أبوك ، « مِثْرَاب » الحكيم ، فليتنا الدعاء ، وأبوك بحكمته لا يعيد أصل الخير فحسب ، وإنما يعيد منبت الشر كذلك ؛ إنك وأخوانك على حافة الموت ، ولكنكن إن أعطيتنا كل واحدة منكن شعرة من فرعها الجميل ، دليلا على الولاء ، حملنا كن فراسخ من هنا إلى مكان آمن تتحدين منه الضحاك ووزراء » ولقد قال الشاعر إن الخوف من الموت العاجل كالخوف من عصا موسى نبي الله ، التي ابتلعت كل عصاة انقلبت أمام فرعون الملك إلى حية تسمى ؛ وهكذا كان بنات الحكيم الفارسي ، فلم يرعن لخطاب كثرَب ، كما ارتاع غيرهن ، فأعطينه ما فرض عليهن ، وفي أسرع من لمح البصر انتقل الأخوات إلى قصر مسحور فوق جبل « تَجْرَت » بكردستان ، ولم تقع عليهن من بعدُ عينُ إنسان ؛ ثم انقضى زمن طويل ، وذات يوم ظهر إلى جوار هذا القصر — قصر العفاريت — سبعة شباب ، لهم صيت في الحرب والطراد ، أشد حلوكة وأعلى ارتفاعا وأشد بأسا وأقوى عزيمته من كل من نزل بأودية كردستان من إنسان ، فاتخذوا البنات السبع زوجات لهم ، وأصبحوا آباء لقبائل الكرد السبع ، التي طبق ذكر شجاعتها الآفاق .

استمع الفارس المسيحي متعجبا إلى هذه القصة الوحشية ، التي مازال لها أثر بأرض كردستان ، ثم أطرق هنيهة وقال « أصبت فيما قلت أيها الفارس ؛ قد يخشى المرء منبتكم وينبذه ، ولكنه لا يستطيع أن يحقر من شأنه ، ولن أعجب ، بعد

الذي سمعت ، من تشبثكم بدين باطل ، فلا ريب أن ذلك ماهو إلا ناحية من ميولكم الشيطانية ، التي ورثتموها عن آباءكم ، الذين وصفتمهم كأهم صيادون من الجحيم ، ميولكم التي تجب إليكم الباطل دون الحق ، ولن أعجب بعد منكم تنتشى وتطرب وتنفس عن مكنون نفسك برواية الشعر ، مترنما به في آونة أنت تدنو فيها من أمكنة ترادها الأرواح الخبيثة التي توغر مسالكها ، تلك الأرواح التي تبعث فيك مرحا وجدلا يحس بهما المرء وهو يدنو من موطن أسلافه .

هذه الحرية التي عبر بها المسيحي عن رأيه سرّ منها العربي ، ولم تجرح كرامته ، فقال « حقا ما قلت ولحية أبي ، فإننا ، على خلاف غيرنا من المسلمين ، لا نريد أن نقضى بضربة لازب على تلك الأرواح الأولى القوية العالية التي نعتقد انا منها نشأنا ، وذلك رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد آانا بدين خير من دين آباؤنا الذي تعلموه في أبهاء « بجزت » المفعمة بالأشباح ؛ نحن نعتقد وتؤمن أن هؤلاء الجن لم يتردوا في شر لا يحص عنه ، وإنما هم ما برحوا في طريق المحنة والاختبار ، وقد يجزون في الآخرة خيرا ، وقد يجزون شرا ؛ ولكن دع هذا « لرجال الدين » والأئمة ، وحسبنا أن تقديس هذه الأرواح لم يجرمه ماتعلمنا من القرآن كل التحريم ، وأن كثيرا منا ما فتى يتغنى بمثل هذا الشعر الذي يذكر بدين آباؤنا الأولين . » ثم أخذ ينشد - في لغة قدمة جدا في لفظها ومعناها - آياتا من الشعر ، يعتقد بعض الناس أنها ترجع في أصلها إلى عبدة « أهرمان أصل الشر » .

- أهرمان -

أي أهرمان الأسود ،

يا من يرى فيك العراق منبع الشر والسوء !

إذا ما سجدنا لك عند معبدك ،

شهدنا الدنيا بعيون كليلية ،

وعلمنا أن ليس تحت قبة السماء

دولة تنافس دولتك !

إذا كانت بقوة الرحمن الرحيم ،
تتفجر العيون في أرض خلاء ،
يرتوى منها رحالة متعبون ،
فمنك تصدر الأمواج ترطم الصخور ،
ومنك تهب رياح صرصر عاتية ،
فتتكفن في جوف الماء جنود البحار .

وإذا أنبت الرحمن من الأرض بلسمًا ،
تشتقي منه النفوس الخائرة ،
فيا ما أقل من تشفيه البلاسم
من ألم لا يبرح ومن عذاب مقيم ،
ومن نار الحمى ومن فتك الطاعون :
وتلك هي سهامك في جمعتك !

في قلوب البشر لك سلطان فوق كل سلطان ،
وإذا ما ابتهلنا بالصلاة
إلى عرش غير عرشك ،
ودعونا فأسرفنا في الدعاء ،
فإن خفي المعنى في الصلاة
لك وحدك يا أهرمان .

خبرني إن يكن لك حسٌّ أو شكل أو شعور ،
وهل صوتك الرعد وجلبابك العواصف ،
كما يحدثنا في الشرق المجوس ؛

وهل لك قلب ينبض بالبغضاء والشحناء ،
وأجنحة ترفرف بها في طريقك ، طريق الموت ،
وأسنان تنفث منها في فريستك السم الزعاف ؟

وهل أنت من بدء الخليقة منقلب الطباع ،
قوة لا تسكل ولا تني ،
تحوّل شرا كل خير ؟
عنصر الأذى في دمائك ،
إذا أصابنا خير تصارعه ،
وأنت أبدأ تصرعه .

ومهما يكن فلا طائل تحت النضال ؛
لك سلطان على كل ما ظهر ،
ونفوذ على كل ما بطن ؛
كل عاطفة قوية في قلب البشر ،
من حب أو بغض أو طموح أو خوف أو جذل ،
تدفع بها نحو الإثم والرزيلة .

كلما بدت بارقة من ضياء
تنير ما يتحدّر من مآقي الدموع ،
إذا أنت قريب المنال ،
وسط هذه الغبطة في بيداء الحياة ،
ترهف كل سكين على مائدة الطعام
وتجعل منها آلة للحرب والفناء .

مذ نفخ الله فينا الحياة ،
ومد لنا على وجه الأرض الأجل ،
وأنت تقضى في الرجال ؛
وإذا صار للموت حين ،
منك كان الألم ؛

فهل انقضى في الأرض سلطانك يا روح الظلام ؛
عجيباً ! من ذا الذي يتصدى للجواب ؟ (١)

ولربما كانت هذه الأنشودة تعبيراً طبيعياً صادراً عن قلب فيلسوف لا يملأ
النور كل أرجاء صدره ، فيلسوف لا يرى في أوهية أهرمان الكاذبة إلا سيادة
الشر الخلق والأذى الجثماني ، ولكنها في أذني السر كنت كان لها أثر آخر ،
فقد كان لها في مسمعه — إذ كان يتغنى بها رجل يفخر بانتسابه إلى الجن — رنين
كأنه رنين الدعاء إلى الشيطان عينه ، وقد استمع كنت إلى هذا الكفران في قلب
الصحراء عينها ، التي وقف فيها الشيطان يطلب إلى الناس الولاء له ، فصب الله عليه
نقمته ، فأخذ (كنت) يوازن بين نفسه ونفسه إن كان خيراً له أن يفصل في الحال
عن رفة العربي الكافر ، كي يشعره بضجره ، أو يتحداه للنزال دون توان ، ويتركه
في القفر طعاماً للوحوش — إن كان حتماً عليه ذلك وفاء لميثاقه كحارب صليبي —
وإذ هو كذلك ، إذا بشبح لم يكن في الحسبان يجذب منه التفاته .

وكانت الشمس إذ ذاك آيلة للغروب ، ولكن فارسنا استطاع رغم ذلك أن

(١) ترجم هذه الأنشودة إلى الإنجليزية قس عالم ذو منزله رفيعة ، وقد طلب إلى تقادياً
لسوء الفهم ، أن أذكر القارئ بأن هذه القطعة من وضع رجل ينكر وجود الله ، ولا يعرف
لائخطاط الخلق وشرور الجسد من سبب حق ، وإنما هو ينظر إلى سلطانها على نظام الكون ،
كما ينظر من لا يعمر قلبه نور المسيحية إلى هذه الحقيقة المرة ؛ وأنا من ناحيتي أزيد على ذلك أنني
أعلم أن المترجم قد تصرف في الترجمة وزاد فيها زيادة لا يوافقها عليها أولئك الذين يعرفون القطعة
في أصلها العجيب الفريد ، ويخيل لي أن المترجم قد بثس من أن ينقل إلى نظم إنجليزي شعراً
شرقياً يخلق في الخيال ، وربما استعاض بمعانيه الخاصة معاني كانت في الأصل وأدرك استحالة
الكشف عن معناها ؛ وهكذا يفعل الكثير من عباقرة العلم — المؤلف .

يرى أنه لم يعد وصاحبه وحدهما في الغاب ، وإنما كان يرقبهما عن كشب جسم بالغ الطول ، جد نحيل ، يقفز على الصخور وفوق الأشجار ، ويذكر الفارس — بمخفته ومظهره الخشن الغليظ — بألهة الحقول وأرباب الغاب ، الذين شاهد لهم صوراً في معابد روما القديمة ؛ وكان هذا الرجل الاسكتلندي ساذج القلب ، لم يشك لحظة في أن آلهة القدامى المارقين على الدين كانت أبالسة في حقيقتها ، وهو الآن كذلك يعتقد دون تردد أن المقطوعة اللعينة ، التي تغنى بها العربي ، قد أخرجت روحاً من أرواح الجحيم .

فقال لنفسه في صراحة : « وماذا يعنيني ! ليهلك الشيطان وعبدته الشيطان » ولكنه — بطبيعة الحال — لم ير ضرورة لأن ينذر عدوين ويتحداهما باللهجة عينها التي يخاطب بها عدواً واحداً ؛ وامتدت يده إلى عصاه ، وكاد العربي أن يلقى جزاء شعره الفارسي ، وهو غافل ، بتهشيم رأسه في الحين تهشيماً لا مبرر له ؛ ولكن الفارس الاسكتلندي تحاشى إثماً لو اقترفه لكان ثلماً في شرفه الحربي ، وذلك أن الشبح ، الذي ظل الفارس مدة وعيناه لا تحيدان عنه ، كان يعترض طريقهما بادي الأمر ، متخفياً خلف الصخور والأشجار ، مستغلاً طبيعة الأرض بحذق شديد ، ومتغلباً على نشازها بخفة عجبية ؛ ولكنه — حينما سكت العربي عن الفناء — تبدى عن رجل طويل القامة ، يرتدي جلد عنز ، ثم قفز إلى وسط الطريق ، وأمسك بزمام من أزيمة العربي بكلتا يديه ، وجابه الجواد النبيل ، وردده إلى الوراء ، فرأى الجواد أنه غير قادر على أن يصمد لمهاجمه — وقد أتاه على حين غرة وضغط على طرف عنانه المسنون الطويل ، وسلسلته المتينة التي كانت على الطراز الشرقي — فتقهقر لساعته ، ثم سقط إلى الخلف فوق صاحبه ، ولكن صاحبه أسرع وقفز جانباً كي ينجو من خطر الوقوع .

حينئذ رفع المهاجم قبضته عن زمام الجواد ومكنها من حلق رآكبه ، وهوى بنفسه فوق العربي وهو يدفع عن نفسه ، واستطاع أن يقيه تحته طريح الأرض ، وطوقه بذراعيه الطويلتين ، فبات العربي في قبضته ، وصاح غاضباً وهو يتكلف

الضحك : « أى (هاما كو) يالعين ، اطلقنى ، ليس هذا من حقاك — اعزب عنى وإلا سللت خنجرى » .

فأجاب الرجل المرتدى جلد العنز : « أى خنجر أيها الوغد الخائن ، اقبض عليه إن استطعت » وبأسرع من لمح البصر استل خنجر العربى من يده ، وهزه فوق رأسه .

فصاح شيركوه مذعوراً : « النجدة ! النجدة ! أيها النصرانى ، وإلا قتلنى ها ما كو » .

فأجاب ساكن الصحراء : « أقتلك ! حقا إنك لتستحق الموت ؛ كيف تتغنى بهذه الأناشيد اللعينة ، وتترنم بما أثر إله الشر ؟ » .

وكان الفارس المسيحى حتى ذلك الحين يتطلع فى دهشة وذهول ، ولشد ما كان عجبه ، لأن هذه اللحمة فى طورها ونهايتها قد أتت على خلاف ما كان يتوقع من قبل ؛ ولكنه لم يلبث طويلا حتى أحس بأن الكرامة تقضى عليه بأن ينضم إلى جانب زميله المهزوم ، فالتفت إلى الرجل المرتدى جلد العنز ، وقد ظفر ، ووجه إليه الخطاب قائلاً : « كمن من شئت ، كمن من أبناء الخير أو من أبناء السوء ؛ ولكن اعلم أننى قد أخذت على نفسى فى هذا الظرف أن أخلص فى صحبتى لهذا العربى الذى أرديته تحتك ، ولذا فإنى أتوسل إليك أن تخلى عنه ، وإلا قاتلتك دفاعا عنه » .

فأجاب هاما كو قائلاً : « مرحباً بالقتال ! مرحباً بالقتال يعترك فيه صليبي ويشتجر مع واحد من أبناء دينه الحنيف فى سبيل وغد لم يعترف دين المسيح ! هل أتيت إلى هذا القفر تحارب للهلال ضد الصليب ؟ اكرم بك جنديا من جنود الله تنصت إلى أولئك الذين يتغنون بحامد الشيطان ! » .

وانتصب قائماً وهو يفوه بهذا الحديث ، فسمح للعربى كذلك أن يهب من مرقد ، ورد إليه خنجره . ثم واصل الحديث موجهها خطابه الآن إلى شيركوه

وقال : « لقد رأيت كيف أدى بك ادعاؤك إلى شفا الخطر ، ورأيت كيف — إن أراد الله بك سوءاً — يكون اندحارك بأضعف الوسائل ، على حدقك ومهارتك وخفتك التي تفخر بها ، حذار يا (ضريم) واعلم أنه لولا لحظة من بريق تألقت بها نجمك يوم مولدك بشيراً لك بخير ونعمة قدرها لك الله في علاه ، لما افتقرنا إلا بعد أن مرقت حلقك هذا ، الذي كان يلفظ آيات الكفر منذ حين » .

فأجاب العربي ، ولم تبد عليه أمارات البغض لهذا اللفظ الشديد وذلك التهجيم العنيف الذي صوّب إليه ، وقال « أي هاما كو أيها الرجل الطيب ، حذار أن تزهو ثانية بفضائلك إلى هذا الحد ، واعلم أنني كسلم مؤمن بالله أجل المرء إذا أعاضه الله بروح التنبؤ عن نعمة العقل ، ولكني لا أحب أن تمتد إلى زمام جوادى أو إلى شخصى يد غير يدي . خبرني إذن ماذا تريد ، وثق أنك في مأمن من غضبي ، واعلم أنك إن هددتني بالعنف دقت رأسك المشعث وفصلته عن كتفيك النحيلتين » ، ثم اعتلى صهوة جواده واستطرد قائلاً : « أما أنت يا صديقي كنت ، فاعلم أنني أحب في رفيق الصحراء الإخلاص في العمل أكثر مما أحب التطرف في الكلام ، وحسبي ما أسمعني من طيب الحديث ، وإنما كان خيراً لى أن تسارع إلى نجدتي في عراقى مع هاما كو ، وقد أوشك أن يقضى على حياتى وهو في نشوة الجنون »

قال الفارس : « حقا لقد خارت عزيمتى ، بل قل لقد أبطأت في إسعافك بالنجدة ، ولكن غرابة مهاجمك ومفاجأته بالقتال — وكأن أنشودتك التميمية بتوحشها قد أنبتت بيننا شيطاناً — أربكت عقلى ، فانقضت دقيقتان أو ثلاث قبل أن أسل سلاحي » .

فأجاب العربي : « ما أنت يا صاح إلا رفيق متبلد الإحساس ، شديد الحرص . لو أن هاما كو تعالى في جنونه ذرة واحدة ، ولبتت ممتظيا جوادك ، شاهرا سلاحك دون أن تحرك إصبعاً لنجدتى ، لخر زميلك إلى جوارك صريعا ، ولحقك العار ما دمت حيا » .

فأجاب المسيحي : « وحق مهندي أيها العربي لأصارك القول ، لقد ظننت ذلك الجسم الغريب شيطانا من بني جنسك ، ولم أدر أي سر عاثل بينكما تبادلان فيه الحديث ، وأنما تتمرغان معا فوق الرمال » .

فقال العربي : « هذه السخرية منك يا أخي كنت رد غير مقبول ؛ ولتعلم أن لو كان مهاجى هو الشيطان عينه ، لكان حتما عليك — مع ذلك — أن تنازله القتال في سبيل رفيقك ، واعلم كذلك أنه إن كان بها ما كومس من جن أو شيطان ، فهو أقرب إلى منتبك منه إلى منتبى ، فما هاما كو هذا في الحق إلا الناسك الذي أتيت إليه حاجا » .

فأجاب السر كنه ، وقد نظر إلى الجسم المائل أمامه ممشوق القد ، وإن يكن منهوك القوى ، وقال : « هذا !! هذا ! إنما أنت تهزأ أيها العربي ، وما هذا بتيودوريك الوقور ! »

فرد عليه شيركوه وقال : « سله إن كنت لا تصدقنى » ، ولم تكذب تخرج الكلمات من فيه حتى شهد الناسك على نفسه وقال :

« أنا تيودوريك ، رجل عين جده ، أنا المشاء في الصحراء ، أنا صاحب الصليب ، وسوط الكفار والمناقين وأتباع الشيطان . عنى ! عنى ! ليهلك الكفرة جميعا » ، ثم استل — وهو يتكلم — من تحت جلبابه المشعث شيئا يشبه أن يكون مطرقة أو هراوة ذات مفاصل موثوقة بالحديد ، وهزها فوق رأسه بمهارة فائقة .

وقال العربي : « ها أنت ذا تشهد قديسك » ثم ضحك لأول مرة من السر كنه ، وقد نظر (كنه) بدهشة ما بعدها دهشة إلى حركات تيودوريك الوحشية ، وأنصت إليه يتمم متممة عجبية ، بعد ما لوح بمصاه هنا وهناك ، وكأنه لا يعبأ أعلى رأس العربي وقعت أم على رأس المسيحي ، وأخيرا ضرب بها صخرها إلى جانبه ، فهشم الصخر فتاتا ، وظهرت من الرجل قوته ومثانة سلاحه .

فقال السر كنه : « هذا رجل مجنون » .

ورد عليه المسلم ، وتكلم وفقا للمقيدة الشرقية المعروفة ، التي ترى أن المجنون رجل تحت تأثير الوحي المباشر وقال : « وليس هذا بأسوأ القديسين ، اعلم أيها المسيحي أنه إذا انطفأ من إحدى العينين نور اتقد في الأخرى الضياء ، وإذا بترت إحدى اليدين قويت اليد الأخرى ، وكذلك إذا اضطرب العقل أو فسد تفكيره في أمور البشر ، أتجهت البصيرة نحو السماء وهي أشد نفاذا وأتم كمالا » .

وهنا غاص صوت العربي في صوت الراهب إذ أخذ هذا يهلل بصوت عال ويترنم بنغم خشن ويقول : « أنا تيودوريك ، رجل عين جده ، أنا جذوة الصحراء ، أنا سوط المنافقين ، الأسد والتمر — رفيقاي — يدنوان من غارتي يحتميان ، ولن تخشى محالهما بعد اليوم عنز ؛ أنا المشعل والمصباح ، رحماك اللهم ! » .
ولما فرغ من غناؤه هرول قليلا ، ثم قفز إلى الأمام ثلاث قفزات ، لو أنه أداها في حفل رياضي لحاز عليها كثير الثناء ، ولكنها لم تَلِقْ به كراهب ، حتى إن الفارس الاسكتلندي تيمير وارتيك » .

وكان العربي قد كان لحركاته هذة أدق فهما فقال . « ألا ترى أنه يريدنا على أن نتبعه إلى غاره فنحتمى هناك ليلتنا ؛ أنت التمر ، ويشهد بذلك هذا الرسم فوق درعك ؛ وأنا الأسد ، ويدل على هذا اسمي ؛ وبالغز يشير إلى ردائه — وهو من جلدها -- ويعنى نفسه ؛ لنجعله أبدا تحت أبصارنا فهو سريع العدو كالهجين » .
وكان ذلك عليهما شاقا ، إذ أن قائدهما الوقور كان حقا يقف الفينة بعد الفينة ، ويلوح بيده يحثهما على السير ، ولكنه كان جد خبير بالأودية المتلوية وطرق الصحراء ، وقد وهبه الله خفة غير مألوفة ، ربما ساعده على الإبقاء عليها دائبة النشاط عقل غير مترن ؛ ولكنه كان يسير بهما في خلوات وطرقات ، أحسن فيها العربي — على خفة سلاحه ودربة جواده — بالخطر الشديد ، فبالك بالأوروبي ، وهو مدرع بالحديد ، وجواده مثقل بالأحمال ؛ لقد ألنى نفسه والخطر يمدق به فود لو استعاض بهذه المخاطر معركة حامية الوطيس ؛ ولشد ما كان سروره حينما رأى — بعد هذا العدو الوحشي — ذلك الرجل المقدس ، الذي هداها الطريق ، وقد

وقف لدى كهف ، ويده مشعل يتألف من عصا خشبية منغمسة في القار ، يشع منها ضياء يتذبذب في شدة ، وتفوح منه رائحة الكبريت في قوة .

لم يرتد الفارس من هذا البخار الخانق ، وإنما رمى بنفسه من فوق جواده ووجع الكهف الذي كان ظاهره لا يدل على توفر الراحة فيه ؛ وكان الفار مقسما قسمين : خارجيا به مذبح من الحجر وصليب من القصب ، وكان الناسك يتخذ من هذا المكان كنيسة له ؛ وإلى جانب هذا الكهف الخارجي وثق الفارس المسيحي جواده ، وأعد له لمبيت ، محتديا في ذلك حذو العربي الذي أفهمه أن هذا من تقاليد ذلك المكان ، ولكن المسيحي لم يخجل من وسواس الشك ، دب فيه مما كان يحوطه من مظاهر كان لها في نفسه احترام ديني ؛ وفي غضون ذلك كان الناسك يشغل بتنسيق الغرفة الداخلية كي يستقبل فيها ضيفيه ، وسرعان ما لحقا به هناك ؛ وكان في داخل الكهف الخارجي فرجة صغيرة تغلق بباب من الخشب الخشن ، وتؤدي إلى غرفة فسيحة كان يتخذها الناسك للنوم ؛ وكان سطح الأرض بالكهف خشنا رغم جهد ساكنه في تسويته ، مفروشا برمل أبيض اعتاد أن ينثر الناسك الماء فوقه كل يوم ، يأتي به من عين صغيرة تنفجر في الصخر في إحدى زوايا المكان ، وتمتد الانسان في ذلك الجو الخانق بماء عذب المذاق ، خريه لذيذ المسمع ؛ وفي جانب من جوانب الغار وضعت بعض الحشايا المصنوعة من الأعلام الملتفة ؛ وجدر الكهف — كأديمه — خشنة الملمس ، رغم جهد بادٍ في تسويتها ، وقد علقت عليها الأعشاب والزهور ، وأشعل الناسك مشعلين من الشمع نشرا جوا طيبا في المكان ، الذي بات يشدها وبرودته حبيبا إلى النفس .

وكانت في إحدى زوايا الغرفة أدوات من آلات العمل ، وفي زاوية أخرى فجوة ينتصب فيها تمثال للعذراء خشن غليظ ؛ والغرفة كذلك مائدة ومقعدان ، يدل ظاهرها على أنها من صنع الناسك ، فهي تختلف في هيئتها عن الأثاث الشرقي . أما المائدة فكان ينثر عليها القصب والبقل ، وعليها لحم مجفف ، أحكم تيودوريك وضعه بحيث يسيل لعاب زائريه ؛ ولم يستطع السر كنت ألبته أن يوفق بين مظاهر

الجود هذه — على أن الناسك كان يقوم بها في صمت ، ولا يعبر عنها إلا بالإشارة —
وبين مسلكه التوحش العنيف من قبل ؛ وقد أضحى الراهب بعد ذلك مترن
الحركات ؛ ولئن كان هزيل الملامح من أثر العيش الشطيف ، لا تبدو عليه امارات
النبل والجلال ، فما ذلك إلا لإحساسه بضرورة التواضع الذي يمليه عليه الدين ؛
وكان ينتقل في كهفه ، وكأنه رجل ولد ليحكم بين الناس ، ولكنه تخلى عن دولته
كي يخلص لعبادة الله ؛ ولكنه كان رغم ذلك رجلا كبير الحجم ، له خصل من
الشعر مرسله طويلة ، ولحية لم يعد إليها يده بالتشذيب ، وعينان وحشيتان غائرتان
يتطاير منهما الشرر — وهذه من صفات الجندية لا من صفات الرهبنة .

حتى إن العربي نفسه لم يسمعه إلا أن ينظر إلى هذا الناسك ، وهو مشتغل
بعمله — بعين التبجيل ، فأسر إلى السر كئث في صوت خافت ، وقال : « ألا ترى
أن هاما كوالآن هادي البال ، إنه لن يتحدث إلينا حتى نفرغ من الطعام ، وهذا
عهد أخذه على نفسه » .

وبعدئذ أشار تيودوريك في صمت إلى الرجل الاسكتلندي كي يستوى على مقعد
من المقاعد المنخفضة ، بينما جلس شيركوه — كما يجلس بنو قومه — على حشية
من الحصير ، وعندئذ رفع الراهب بكتفا يديه كأنه يبارك الطعام الذي قدمه إلى
ضييفه ، وشرعا يأكلان في صمت عميق كصمت المضيف ، وكان هذا الجد الخيم
فوق المكان أمرا طبيعيا للرجل العربي ، فلبث صامتا ، وحذا المسيحي حذوه ،
ولكنه أخذ يفكر في هذا الموقف الشاذ الذي انتهى إليه ، وفي التباين الشاسع
بين تيودوريك ، لما التقيا به أول الأمر ، وهو كالوحش يلوح بالإشارة من شدة
الغضب ، على الصرخات ، عنيف الحركات ، وبينه الآن ، وهو يقوم بواجب الجود
والضيافة في ثبات وحزم ، وقورا كريم الوفاة .

وفرغا من تناول الطعام ، ولم يتبلغ الناسك بلقمة ، وأخذ يزيل الفتات من
المائدة ، ثم وضع أمام العربي إبريقا من شراب سائغ ، وخص الاسكتلندي
بزجاجة من النبيذ .

وشق صمته بهذا الخطاب : « اثربا ، ابني » ، فان لنا أن نستمتع بنعم الله ما دمننا له ذاكرين » .

ولما أتم حديثه أوى إلى الكهف الخارجى كى يؤدى صلاته لله ، وخلف ضيفيه معا فى الغرفة الداخلية ؛ وحينئذ أخذ السر كنى يحاول بمختلف الأسئلة أن يستخلص من الأمير شير كوه كل ما يعرف عن مضيفه ، ولم يكن فى استجوابه هذا مدفوعا بحب التطلع فحسب ، إذ كان عسيرا على السر كنى أن يلائم بين الراهب فى تهور خلقه حينما بدأ لها بادي الأمر ، وبينه وهو فى تواضعه وسكونه من بعد ، ومحال عليه أن يوفق بين ذلك وبين ما كان يعلم من قبل مما لهذا الراهب من المكانة العالية فى قلوب الكثير من رجال الدين المستنيرين فى العالم المسيحى ، فلقد كان تيودوريك راهب عين جده — كما عرفه السر كنى — يرسل البابوات ومجامع الدين ، ويصف لهم فى رسائله ، فى بلاغة وحماسة ، ما كان يصيب به الكافرون المسيحيين اللاتين فى الأرض المقدسة من ألوان من الشقاء لا تكاد تقل شدة عما كان يوقعه بطرس الناسك فى مجمع « كليرمنت » حينما كان يبشر بالحرب الصليبية الأولى ؛ فلما رأى الفارس المسيحى من تيودوريك — وهو ذلك الرجل الوقور ، وذلك الشخص المبجل — من حركات الجنون ما لا يليق إلا « بفقير » نجبول ، تردد قبل أن تصح عزيمته على أن يبلغه تلك الأمور الهامة التى حملها إياه جماعة من قواد الحرب الصليبية .

وكان من أولى الأغراض التى أتى من أجلها السر كنى حاجا ، سالكا طريقا غير مطروقة ، أن يبلغ الناسك ما حمل من رسائل ، ولكن ما شاهده فى ذلك الساء دفعه إلى الصمت والتبصر قبل أن يبوح بما عهد إليه ؛ ولم يستخلص من الأمير كثيرا من الحقائق ، ومجمل ما قال العربى إن الناسك — كما روى له — كان فى يوم من الأيام جنديا شجاعا جسورا ، حكما فى مشورته ، ومجدودا فى ساحات القتال ؛ وأنه (أى العربى) آمن بذلك لما شاهد من القوة البارعة والحركة الخفيفة يديهما الناسك فى كثير من الأحيان ، وقال : « إنه لم يظهر فى بيت

المقدس في شخص حاج ، وإنما في شخص رجل وقف بقية العمر للإقامة بالأرض المقدسة ، وبعد زمن وجيز استقر به المقام وسط تلك المجاهل المهجورة التي ألقيا بها ، وأن اللاتين يبجلونه لشدة إخلاصه لربه ، كما يحترمه الترك والعرب لما يبدو عليه من أعراض الجنون التي ينسبون لها إلى الوحي ، وهم الذين أطلقوا عليه اسم (هاما كو) وهي كلمة تركية تدل على هذه الصفات ، وقد يحير شيركوه نفسه كيف يقدر مضيفه ، فقد كان — كما قال — رجلاً حكماً ، يستطيع حيناً أن يلقى دروساً في الفضيلة والحكمة ساعات متواصلة دون أن يزل ولو قليلاً ، وحيناً آخر تراه متوحشاً عنيفاً ؛ ولكنه لم يشاهده قط من قبل شديد الميل لفعل الشر كما بدا لها في ذلك اليوم ؛ وأشد ما كان يثير غضبه إهانة تلحق بدبته ، ومما يروى عنه أن جماعة من العرب الرحل اعتدوا عليه في الصلاة ، وشوهوا له ظاهر مذبحه ، فهاجمهم وقضى عليهم بسوطه القصير الذي كان يحمله عوضاً عن كل سلاح آخر . وقد أثار هذا الحادث ضجيجاً قوياً ، وباتت القبائل الجواللة تخشى من الناسك وقع مطرقة الحديدية ، كما تنظر إليه (كهاما كو) ، فأصبحوا يحترمون مسكنه ومعبده ؛ وقد اتسع مدى صيته حتى إن صلاح الدين أصدر أمراً خاصاً بحمايته والتخلي عنه ، وقد أتى بنفسه أكثر من مرة ، مع غيره من كبار المسلمين ، زائرین للغار ، مدفوعين بحب التطلع من ناحية ، ومرتبين من ناحية أخرى ، من رجل عليم كهاما كو المسيحي أن ينفذ ببصيرته في غياهب الغيب ؛ ثم استطرد العربي قائلاً : « وكان له مرصد عظيم الارتفاع ، يرقب منه نجوم السماء وكواكبها ، وهي التي بحركاتها وتأثيرها ، تستر كل ما يقع للإنسان من أحداث ، وتعيننا على التنبؤ ، وذلك من عقائد المسيحيين والمسلمين على السواء » .

هذه خلاصة ما كان يعلم الأمير شيركوه عن الناسك ، سمعها السر كمنث فداخلته الريبة في طبيعة الجنون الذي تلبس به الراهب : هل هو من فرط حمي الحماسة تتناهيه الحين بمد الآخر ، أو هو وهم يتكلفه كي يفيد من حصاته ، وعلى أي الحالين ، يظهر أن المسلمين قد بالغوا في احترامه مبالغته شديدة رغم عداوته

الصريحة لما يعتقدون ، وظن السركنث كذلك أن بين العربي والناسك تعارفاً وقربى أكثر مما كان العربي بكلماته يريده على أن يعتقد ، ولم يفته أن الناسك كان يدعو العربي باسم يختلف عما ادعى هذا لنفسه ؛ هذه الظروف جميعاً أوجت إلى السركنث بالحرص ، بل وبالشك ، فعزم على أن يرقب مضيفه عن كذب وأن لا يتمجل ببلاغه الرسالة الهامة التي وكلت إليه .

فقال : « حذار أيها العربي ! إننى يخيل لى أن مضيفنا يسبح بخياله فى الأسماء كما يسبح فى غيرها من أمور ، أليس اسمك شيركوه ، وقد ناداك الآن باسم آخر ؟ » .

فأجاب الكردى : « كان اسمى فى خباء أبى « الضريم » وما زال الكثير ينادىنى بهذا الاسم ؛ أما فى ساحة الوغى وبين الجنود ، فأنا أعرف (بأسد الجبل) ، وهو اسم أكسبنيه حسامى الباتر ، ولكن صه الآن ياصاح ، فأنى أرى هاماكو مقبلاً يدعوننا إلى الراحة ، وأنا أعرف عادته ، وهى أن لا يرقبه أحد وهو ساهر على ذكر الله » .

وآتئذ دخل الناسك ومثل أمامهما ، ويداه على صدره ، ثم قال بصوت وقور « الحمد لله الذى جعل الليل لباساً ، وجعل النهار معاشاً ؛ وجعل لنا فى هدأة النوم راحة للجسم المهوك ، وطمأنينة للنفس المضطربة » .

فرد عليه المحاربان معاً وقالوا : « اللهم آمين » ثم نهضا من المائدة وتأهبوا لأن يأويا إلى فراشهما ، وقد أشار إليه مضيفهما بيده ، ثم ترك الغرفة ثانية بعد أن حياهما معاً .

وحينئذ جرد فارس النمر نفسه من سلاحه الثقيل ، وقد أخذ زميله العربي يعاونه برفق فى خلع درعه وحل أربطته ، حتى لم يعد يستتر إلا برداء ضيق من جلد الغزال ، كان الفرسان ورجال الحرب يلبسونه تحت السلاح ، وإذا كان العربي قد أعجب بقوة نده - وهو مسلح بالحديد - فهو الآن أشد إعجاباً بدقة التناسق

البادية في جسمه المبرق المقتول العضل ؛ وكأن الفارس بدوره قد أراد أن يرد الجليل بالجيل ، فمد يد المعونة إلى العربي يعينه على خلع ما تدثر به من لباس حتى يستطيع أن ينام وهو طليق الجسم ، ولشد ما كانت دهشته إذ رأى أطرافا رقيقة وجسا نحيفا ، لا يتفق وما أبدى صاحبه من بأس في النزال .

وقبل أن يأوى الفارس إلى الفراش توجهها إلى الله بالصلاة ؛ أما المسلم فيم شطر « القبلة » وهي المركز الذي يتوجه إليه أتباع محمد في الصلاة ، وتتم بالدعاء — بينما انسلخ المسيحي من المكان — وقد تدنس بجوار صاحبه الملحد^(١) ونصب حصاما ضخما ، له يد على هيئة الصليب ، جعل منه رمزا للخلاص ، وسجد أمامه وأخذ يدعو الله بقلب خاشع ، زاده خشوعا ذكرى الفياقي التي شق عباها ، والمخاطر التي نجا منها أثناء النهار ؛ وسرعان ما غلب على صاحبينا التعاس ، وقد رقد كل منهما على سرير من الحطب ، منهوكا من تعب الرحيل وشدة الإعياء .

(١) هذا ما كان يراه السركنت في زميله العربي .

الفصل الرابع

لم يدرك السر كنه الاسكتلندي كم لبث غارقاً في سبات عميق ، حينما أحس بضغط على صدره ، فثاب إلى يقظته ، وقد ظن ذلك الضغط أول الأمر أضغاث أحلام يصارع فيها خصماً فويماً ، ثم تنبهت حواسه أخيراً ، وكاد أن يسأل : « من هنا ؟ » حينما فتح عينيه فشهد شبح الناسك ، وحشى المظهر ، مفترس النظرات — كما وصفنا — ما تلا بجانبه ، وقد ضغط يمينه على صدره ، وأمسك بيسراه مصباحاً صغيراً من الفضة .

رفع الفارس عينيه مذهولاً وهو مستلق على ظهره ، فقال الناسك : « صه ! إنني أريد أن أحدثك حديثاً لا يسمعه هذا المسلم » .

وتكلم بالفرنسية ولم يلجأ إلى اللغة الفرنجية ، وهي مزيج من لهجات الشرق والغرب كانت حتى ذلك الحين وسيلة التفاهم بينهما .

ثم استأنف الحديث وقال : « انهض واربد عباة تك ولا تنبس بينت شفة وخفف الوطأ واتبعني » .

فنهض السر كنه وامتشق حسامه .

ثم همس الناسك في أذنه وقال : « دع هذا ، إنما نحن ذاهبون إلى حيث سلاح الروح يغنيك عن الشيء الكثير ، وما هذه الأسلحة المادية إلا قصب وقشور هشة » .

فطرح الفارس حسامه إلى جوار سريره حيث كان من قبل ، وتأهب لمرافقة مضيفه غريب الأطوار ، ولم يتسلح بغير خنجره الذي لم يفارقه طوال مسيره في هذه البلاد المخوفة بالأخطار .

وحيث تقدم الناسك إلى الأمام على مهل ، والفارس يتبعه ، وما زالت تساوره الظنون ، ويخشى أن يكون الشبح المظلم ، الذي يتسلل أمامه كي يهديه

الطريق ، ما هو إلا من خلق الأحلام المزعجة ، ثم مرّا بالغرفة الخارجية ، وكانهما ظل يتحرك ، فلم يزججا الأمير المسلم — وقد ظل مستلقيا غارقا في سباته — وبلغا الصليب والمذبح في الغرفة الخارجية ، وكان أمامهما مصباح ما فتى يتحرق ، وإلى جواره كتاب من كتب الدعوات الدينية ، وعلى الأرض سوط أو ألحوب للتوبة مقتول من الجبال والأسلاك الدقيقة ، خيوطه ملطخة بدم لم يجف ، دليلا قاطعا على صرامة الناسك على نفسه في توبته ؛ وهنا خر تيودوريك راكعا ، وأشار إلى الفارس أن يتخذ لنفسه مكانا إلى جواره فوق الزناد المدب ، وكأنه إنما ألقى هناك كي يبلغ العسر أشده حينما يتأهب الراهب للتوجه إلى الله بالدعاء ، ثم قرأ كثيرا من دعوات الكنيسة الكاثوليكية ، وأخذ يترنم في صوت خافت ، تمازجه نغمت الجذ ، بثلاثة من مزامير التوبة ، وقد اختلط ترنيمه بالتأوه والدموع ، وتهدج صوته بالبكاء المرير ، وكان في ذلك شاهد على شدة تأثره بالشعر الديني الذي كان يرتله ، وحينئذ دب في قلب الفارس الاسكتلندي إخلاص عميق من أثر هذه الحركات في تنسك الراهب ، وأخذت ظنونه في مضيفه إذ ذاك تتحول وتبدل ، حتى أوشك أن يعتقد فيه القداسة من قسوته في التوبة ، وإخلاصه في الصلاة ؛ ولما هبا من صلاتهما وقف أمامه إجلالا له ، كأنه طالب أمام أستاذ وقور ؛ أما الناسك فقد لزم الصمت واسترسل للفكر بضع لحظات ، ثم قال ، وقد أشار إلى ركن بعيد من أركان الكهف : « قش في تلك الفجوة يا بني تجد حجبا . هاته هنا » .

فانصاع الفارس وألقى الحجاب المطلوب في فرجة ضيقة قدت في الحائط ، واستترت بياب من أغصان الصفصاف المجدولة ، ولما أتى به إلى الضياء ألفاه ممزقا وملطخا في بعض أంచائه بمادة سوداء ، ثم تفرسه الناسك بعاطفة قوية مكبوتة ، واضطر أن ينفس عن مشاعره بأنه من الأعماق قبل أن يتحدث إلى الفارس الاسكتلندي .

وأخيرا قال : « عما قريب تشهد أغنى ما ملكت الأرض من كنوز ؛ يا ويلي !

إن عيني غير جديرتين بالنظر إليه ! يا حسرتي ! إنما أنا مرشد حقير وضيع ،
ليس لي إلا أن أهدى المسافر المهوك إلى موئل الدعة والراحة ، وأن أظل أبدا
طريد الديار ؛ عبثا أفر إلى حنايا الصخور ، أو إلى قلب الصحراء المجذبة ؛ لقد عثر
بي خصمي وطارذني إلى حصني رغم تنكري له ! »

وسكت هنيهة ثم التفت إلى الفارس الاسكتلندي وقال في صوت أشد ثباتا
في نغمه : « هل أتيتني بتحية من رتشارد ملك إنجلترا . »

فأجاب الفارس : « إنما أتيت من مجمع الأمراء المسيحيين ، وأما ملك إنجلترا
فلم أشرف بأن أثمر لجلالته ، فهو عن ذلك راغب . »

فأجاب الناسك وقال : « هات دليلك . »

فتردد السر كئيب ، واندفعت توا إلى رأسه الشكوك التي ساورتها من قبل ،
وتذكر أمارات الجنون التي بدت على الراهب آفنا ، ولكن كيف له أن يرتاب
في رجل له هذه القداسة في مسلكه ؟ وأخيرا قال : « جوازي هذه الكلمة :
الملوك يتوسلون إلى التسولة . »

ثم سكت ورد الناسك قائلا : « لقد أصبت ، وإني لأعرفك حق المعرفة ،
ولكنني قائم على أمر هام ؛ والحارس في حراسته يتحدى الصديق كما يتحدى
العدو . »

ثم سار قدما والمصباح في يده ، وتقدم قصد الغرفة التي خلفها ، والعربي
ما يزال راقدًا في سريره ، غارقًا في نومه ، فوقف الناسك إلى جواره ورمقه بنظرة
ثم قال : « إنه ينام في الظلام ويجب أن لا يستيقظ . »

وكان الأمير في رقدته يوحى إلى الرأي أنه حقا في سبات عميق ، فقد استلقى
متجها نحو الحائط بنصف وجهه ، وإحدى ذراعيه ممتدة عبر جسمه ، وقد حجب
أكثر وجهه بكمه الواسع الطويل ، ولكن جبينه العالي ما زال باديا ، وسكنت
عروقه التي كانت دائبة التدفق وهو في يقظته ، وأضحى وجهه كالمرص الأسود ،
وأهداب جفونه الطويلة الناعمة كالحرير تنطبق على أعين نافذة كميون الصقر ،

ويده مبسوطة مسترخية ، وأنفاسه عميقة هادئة تتوالى في انتظام ؛ وكل ذلك دليل على سبات عميق ، وما كان أعجب تلك الجماعة التي تتألف من هذا النائم وذيнок الشبحين الطويلين ، أحدهما الناسك مرتديا جلد العنز المشعث ويده المصباح ، والآخر الفارس في ستره ضيقة من الجلد ، وعلى وجه الناسك أماره قوية من اكتئاب التقشف ، وأما الفارس فقد انطبعت طلعة المشوق على ملامحه المسترجلة انطبعا قويا .

وقال الناسك بنغم خافت كالذى كان من قبل : « إنه في نوم عميق » ثم ردد هذه الكلمات ، ولكنه لم يقصد بها هذه المرة إلى معناها اللفظي ، وإنما كان يرمى إلى معنى مجازي ، قال : « إنه ينام في الظلام ، ولكن عما قريب يطالعه الفجر — أيها (الضريم) ! ما أشبه أحلام يقظتك في عبثها وتوحشها بالرؤى التي ترقص مترنحة في خيالك وأنت نائم ، ولكن عما قريب تدق الطبول وتبدد الأحلام » . وهكذا أتم الناسك حديثه وأشار إلى الفارس أن يتبعه ، ثم سار نحو المذبح ومر وراءه وضغط على زنبرك ، فانفرج — دون ضجيج — عن باب صغير من الحديد شق في قلب الكهف ، ويكاد لا يلمحه البصر بغير الإيمان الدقيق ، وقبل أن يجسر الراهب على فتح الباب على مصراعيه صب على مفاصله من المصباح قليلا من الزيت ، ولما انفتح الباب الحديدي أخيراً بأكمله ، انكشف للرأى سلم صغير نحت في الصخر .

وهنا قال الناسك في صوت حزين : « خذ هذا القناع من يدي واحجب به عيني فليس لي أن أشهد الكنز الذي سوف تقع عليه عينك عما قريب ، وإلا كان إثمنا مني وعدوانا » .

ولم يجبه الفارس بكلمة وإنما أسرع إليه وكم رأسه بالحجاب ، ثم شرع الناسك يصعد السلم ، وكأنه رجل تعود الطريق بحيث لا يحتاج إلى ضياء ، ولكنه كان يمسك بالمصباح للاسكتلندي الذي تابع خطاه على الدرج متسلقا ذلك المصعد الضيق ، وأخيراً بلغا بهوا صغيراً ليس له هيئة منظمة ، ينتهي الدرج إلى أحد

أركانه ، ويرى في ركن آخر درج آخر يقابله ويستأنف صعوده ، وفي زاوية ثالثة باب قوطى يتجمل جمالا ساذجا بما تتميز به عادة العمد والصخور المنحوتة ويحتفى بباب صغير اشتبكت فيه قضبان الحديد ودقت فيه المسامير ، وقد قصد الناسك إلى هذا المكان الأخير ، وكلما اقترب منه تعثر في خطاه .

ثم قال لرفيقه : « اخلع نعليك فإن الأرض التي تطؤها أرض مقدسة ، واطرد من دخيلة قلبك كل فكر أو شهوة دنسة ، فإنه كفر ما بعده كفر أن تضم إلى صدرك مثل هذه الرغبات في هذا المكان » .

فصعد الفارس بما أمر ، وخلع نعليه ، ووقف الناسك حينذاك وكأنه قد أرسل الروح في صلاة صامتة ، ثم تحرك ثانية وأمر الفارس أن يقرع الباب الصغير ثلاثا ، ففعل الرجل ، وخيل للسركنت أن الباب قد انفتح من تلقائه ، إذ لم تقع عينه على أحد ، وهب على حواسه تيار من ضياء نقي يخطف البصر ، وشذى عبق قوى يأخذ بمجامع الحس ، فرجع القهقري خطوتين أو ثلاثا ، ولم تمض دقيقة حتى أحس بالتغير المفاجئ من ظلام إلى ضياء يكاد من شدته يبهز البصر ويهدى القوى .

ثم دخل الغرفة التي كان يخرج منها هذا الضياء البراق ، ورأى أن النور كان يشع من مجموعة من المصابيح الفضية ، تشتعل بزيت نقي ، وتنشر أنفس العطور ، معلقة بسلاسل من الفضة بسقف كنيسة صغيرة قوطية شقت — كأكثر أرجاء دار الناسك الفريدة — في الصخر المصمت الصلب ؛ وبينما كانت الصخور في كل مكان آخر وقع عليه بصر السركنت تدل على أن يد الإنسان لم تمتد إليها إلا بتسوية خشنة ساذجة ، كانت هذه الكنيسة تشهد بأن الإنسان قد استخدم فيها أقدر المختصين بفن البناء بأزاميلهم وكل مبتكر من فهم ، فلقد كانت السقوف ذات الأضلاع المتصالبة تتركز على ستة أعمدة في كل جانب ، نقشت بمهارة نادرة ، والقباب المقعرة تتقاطع في جمال متسق ، وكل شيء يدل على انسجام تام في الفن وملاءمة لروح العصر ، ويقابل صف الأعمدة على كلا الجانبين فجوات ست بديعة

الصنع ، في كل منها تمثال لواحد من الرسل الاثني عشر .
وأقيم مذبح الكنيسة في طرفها الأعلى ناحية الشرق ، وإلى ورائه ستار نفيس
من الحرير الفارسي مزركش بالذهب الكثير ، ويحجب مكانا خفيا لا شك في
أنه يحتوي على تمثال أو أثر له قدسية غير مألوفة ، وقد أقيم هذا المعبود الفريد تمجيداً
له ؛ وتوهم الفارس ذلك ، فتقدم إلى الضريح وركع أمامه ، وردد دعاءه بحرارة من
القلب ؛ وإذا هو كذلك ، إذا بالستار يرتفع بفتنة ، أو لعله جذب إلى أحد الجانبين ،
فاضطرب الفارس في اتبائه ، ولم ير كيف ارتفع الستار ، أو من ذا الذي أزاحه ،
ولكنه رأى في الكن الذي انكشف خزانة من الفضة والأبنوس لها باب مزدوج ،
وكل شيء صنع على غرار كنيسة قوطية .

تطلع الفارس إلى الضريح بشوق قلق ، وإذا بالباب المزدوج ينفرج ويكشف
عن كتلة من الخشب نقشت عليها هذه الكلمات « الصليب الحق » . وفي تلك
الآونة كانت بطانة من النساء ترتل نشيد (المجد لله) ؛ وفي اللحظة التي انقطع فيها
الفناء ، أغلق الضريح وأرخی السجاف ثانية ، وكان الفارس — وقد ركع لدى
المذبح — يستطيع أن يواصل دعاءه دون اضطراب تمجيداً للأثر المقدس الذي تجلى
لبصره منذ حين ، وقد فعل ذلك تحت تأثير عظيم ، يحس به كل من رأى بعيني رأسه
شاهداً قويا على صدق دينه ، واختتم صلاته ، ثم هب وقد تشجع على أن يبحث
حواليه عن الراهب الذي أتى به إلى هذا المكان المقدس المسحور ، فوقعت عليه
عينه وما فتئ رأسه مكما بالقناع الذي كان قد لفه بنفسه حوله ، واستلقى كالكلب
التليل لدى باب الكنيسة ، ولكنه لم يجسر على وطئها ؛ وقد كان في ذلك الوضع
الذي اتخذه دلالة قوية على مقدار قداسته ، وعلى توبته وندمه ، فقد استلقى كرجل
آده عبء فادح من إحساس باطنى عميق ، نخر طريح الأرض مغلوباً على أمره ،
وخيل للاسكتلندي أن الرجل بينيته القوية وروحه المشتعل ، لن ينكب على
وجهه إلا إذا غلبه إحساس عميق بالتوبة والندم والخضوع .
فاقترب منه وكأنه يريد أن يتحدث إليه ، ولكن الناسك أدرك مرماه ،

فتمتم في صوت محتقن من خلف الوثائق الذي كان يكلم رأسه ، فرنت نبراته وكأنها صوت ينبعث من جثة هامدة في كفن وقال : « انتظر ، فالشهد لما ينته ، ولتسعد بمرآه » ثم نهض من فوق الأرض ، وتقهقر من لدى المدخل حيث كان منكبا على وجهه ، وأغلق باب الكنيسة ، الذي كان يحكمه من الداخل مزلاج حلزوني كان له صرير رن صدهاء في أرجاء المكان ، وهذا الباب لا يختلف في ظاهره عن الصخر ذاته الذي شق فيه الكهف ، حتى إن كنت لم يكذبين أن هناك منفذا ، وأصبح الآن وحيداً في الكنيسة المضاءة التي كان بداخلها الأثر الذي أدى له واجب الطاعة منذ حين ، ولا سلاح له غير خنجره ، ولا رفيق غير فكر ديني يخالجه ، وشجاعة لا تعرف الخوف تملكه .

ولم يدر السر كنت ماذا عسى أن يقع بعد ذلك من حدث ، وإنما اعترم أن يتابع مسير الحوادث ، فضرب في أرجاء هذه الكنيسة المهجورة ، حتى أوشكت الديكة أن تصيح عند منبثق الصباح ؛ وفي ذلك الزمن الموات ، حينما يعانق الليل النهار ، رن في أذن السر كنت صوت لم يتبين مآناه ، صوت يشبه رنين جرس صغير من الفضة ، يدق حين يهب مضيغه من مرقدته كي يقيم الصلاة أو يقدم القربان — على حد تعبيره — ، ولقد جعلت ظروف الزمان والمكان ذلك الصوت جد جليل ، فانكمش الفارس — رغم جرأته — إلى أقصى أركان المبد في الطرف المقابل للمذبح كي يرقب بغير اضطراب ما قد ينجم عن ذلك النذير .

ولم يلبث طويلاً حتى أزيح الستار الحريري ثانية ، ومثل الأثر لعينيه من جديد ، نخر على ركبتيه إجلالاً واستمع إلى أصوات نسوية ترتل نشيداً أو ترسل دعاء الكنيسة الكاثوليكية مبكرة ، وقد تألفت في الأداء كما تألفت في الصلاة الأولى ، وسرعان ما أدرك الفارس أن الأصوات لم تعد تنبعث من مكان ثابت ، وإنما كانت تدنو من الكنيسة وتعلو رويداً رويداً ، وإذا يباب في الجانب الآخر من البهو ينفتح ثم يوصد فلا يظهر له أثر ، كذلك الباب الذي دخل منه ، فتجد بذلك أنغام المرتلات فسحة ترن فيها ، ثم ترددها قباب السقف ذات الضلوع .

وحينئذ صوب الفارس بصره نحو الباب ، وأنفاسه تكاد تنقطع من شدة
الهلع ، ولكنه ظل راكما على هيئة المصلى ، وهي الهيئة التي كان يتطلبها هذا
المكان وذلك المشهد ، ثم أخذ يترقب ماذا عسى أن ينتهي إليه ذلك الإعداد ،
وإذا بموكب يتراءى له ، وقد أوشك أن يلج من الباب ، يتقدمه ولدان أربعة ،
عليهم سيما الجلال ، عُمرى الأذرع والرقاب والسوق ، فبدا منهم ذلك اللون البرزى
— لون أهل الشرق — تقابله قمص قصيرة ناصعة البياض ، كانوا يرتدونها وهم
مقبولون على المعبد مثني مثني ، وقد حمل الاثنان المتقدمان ميخرتين لوجها بهما يمنة
ويسرة ، فانتشر في الكنيسة عبق على العبق الذي كان من قبل يفعمها ، ثم أقبل
الاثنان الآخران ينثران الزهور .

وعلى أثرهؤلاء أقبلت النساء اللائي كن يرتلن متتابعات على خير نظام وأحسن
ترتيب ، وكن ستا ، يرتدين على أكتافهن أردية سودا ، ويتحجبن فوق ملابسهن
البيض بسُتر قائمة ، فدلن بأزيائهن على أنهن راهبات محترفات ، يتبعن دير
« جبل كرمل » ويشبهن الكثيرات غيرهن ، اللائي يفصحن بأقنعتهن البيض
على أنهن حديثات الترهب ، أو زائرات للدير عارضات ، لا يرتبطن به عهد
أو ميثاق ؛ وقد أمسك السابقات منهن في أيديهن بالمساج الكبيرة ، ولحق بهن
الصغريات ، رشيقات القد ، ومع كل واحدة منهن إكليل من الزهر الأبيض
والأحمر ؛ ثم سرن جميعا في حفل بطوفن بالمعبد ، ولم يبد عليهن أنهن قد أعمرن
كنث أدنى التفات ، رغم أنهن مررن إلى جواره حتى كادت ملابسهن أن تمسه ،
وإذ هن يتغنين ، لم يشك الفارس في أنه إنما كان في دير من الأديرة التي كان الفتيات
المسيحيات النبيلات في الزمن الماضي يقفن أنفسهن صراحة لخدمة الكنيسة
فيها ، وقد اضطر أكثرهن لأن ينقطعن مذاعاد المسلمون فتح فلسطين ، ولكن
كثيرات منهن اشتري الإغضاء عنهن بالهدايا ، أو لحقتهن رافة الظافرين
أو احتقارهم لشأنهن ، فبقين دون أذى ، وواصلن في الخفاء مراعاة الطقوس التي
كانت لزاما عليهن بما أخذن على أنفسهن من عهود ، وكان كنه يعلم ذلك ، ولكن

رهبة المكان والزمان ، والدهشة التي استولت عليه من مباغنة أولئك الراهبات ، بظهورهن ومسيرهن إلى جواره وكأنهن أطياف الخيال — كل ذلك كان له على خياله تأثير تعسر عليه معه أن يعتقد أن ذلك الموكب الجميل الذي وقعت عليه عينه كان يتألف من مخلوقات من هذه الدنيا ، فما كان أشبهن برتل من كائنات من غير هذا الوجود أتت بالولاء لله المعبود من كل الوجود .

هذا أول ما خطر للفارس لما أن مر به موكب النسوة ، وقد كد أن يتقدم بمقدار ما ييقن متحركات فحسب ، حتى بدون وكأنهن ينزلن ولا يمشن ، وقد أظهرهن للعيان الضياء المقدس القائم الذي كان ينبعث من المصاييح خلال سحب البخور التي كانت تنشر في العرفة الظلام .

ولكنهن لما درن بالمعبد ثانية ، ومررن بالمكان الذي كان يجثو فيه ، نزلت إحدى الفتيات اللاتي كن يرتدين القمص البيضاء — وهي تسير الهوينى إلى جواره — زهرة ورد من الإكليل الذي كان بيدها ، وسقطت الزهرة من بين أصابعها على قدم السر كنث ، ولعلها سقطت منها على غير عمد ، فدعر الفارس كأن سهما قد أصابه فجأة ، وذلك لأن الإنسان إذا أرفه حسه وكان عقله في ارتقاب ، كان أنفسه الأحداث — إذا وقع على غير انتظار — وقوداً لنار الفكر التي يوجبها الخيال ، ولكن الفارس أخذ عاطفته إذ أدرك أن أمراً كهذا لا يؤبه له ما يسره أن يحدث ، وأنه لولا أن المراتل كن يسرن في حركة متكررة مملولة لما كان له أثر يذكر .

ورغم ذلك فقد تابع السر كنث بفكره وبصره واحدة دون سواها من بين أولئك الراهبات الصغيرات ، وهن يحطن بموكبهن المعبد ثالثة ، وتلك هي التي أسقطت زهرة الورد من يدها ، ولكنها كانت في خطوها ووجهها وقوامها على شبه تام بغيرها من المغنيات حتى تعسر على السر كنث أن يلحظ أقل إشارة من مميزات الخاصة ، ومع ذلك فقد أخذ قلبه يرفرف ، كطير حبس في قفص يريد أن ينطلق ، وكأنه يؤكد له بإيحاء ميوله أن الفتاة التي تسير عن يمين الصف

الثاني بين الراهبات أقرب إلى قلبه من كل من عداها من الحضرات ، بل ومن كل بنات الجنس اللطيف قاطبة ، وتراعى قواعد الفروسية ، بل وتحم على الفارس ، أن يوثق الروابط بين عاطفة الحب الشعرية ، وشعور الإخلاص لله ، الذي لا يقل خيالا وشعراً عن عاطفة الحب نفسها ، وهما إحساسان يقوى أحدهما الآخر ولا يتعارضان ، ولذا فقد كان السركنث ، ببارقة من الأمل يمازجها إحساس ديني وعاطفة حارة تهزه من قلبه إلى أطراف أنامله ، يرتقب لمحة ثانية من تلك التي توهم بكل نفسه أنها جادت عليه بلحمة الرضا مرة من قبل ؛ وأتم موكب الفتيات دورة ثالثة حول المعبد في زمن وجيز ، ولكنه كان للسركنث دهرًا مخلداً ؛ وأخيراً دنامنه ذلك الشبح الذي كان يرقبه بعين لا تني ، ولم يكن ثمة فارق بين هذا الجسم المتلفع بالثياب وبين غيره — وقد كن جميعاً يسرن مراتلات في صوت واحد مؤتلف النغم — حتى مرت بالصليبي الجاثي على ركبتيه مرة ثالثة واستلت من ثنايا ثوبها الحريري طرفاً من يد دقيقة متناسقة ، تدل ببراعة جمالها دلالة قوية على كمال التناسق في جسم صاحبها ؛ وبهذه اليد التي انسرقت ، كما ينسرق شعاع القمر من سحب كأنها العهن المنفوش في ليلة صائفة ، رمت ثانية زهرة ورد على قدمي فارس النمر .

وليس من شك في أن الإيماء لم يكن هذه المرة عارضا ، أو جاء مصادفة واتفاقاً ؛ وما كان أشبه تلك اليد النسوية الجميلة ، التي لم يبد غير نصفها ، بيد مد إليها بالتقبيل شفتيه يوما ، وهو يقسم بقلبه يمين الإخلاص والولاء لصاحبة اليد المشوقة ؛ وهل يحتاج السركنث إلى دليل آخر ؟ وذلك هو الخاتم الياقوتي منقطع النظير يتألق على إصبع ناصع البياض كالجليد ، إصبع لو أشارت به صاحبه أدنى إشارة لكان لهذه الإشارة في عين السركنث قدر يفوق ما للياقوتة التي لا تقدر بثمن ؛ هذا وقد استطاع الفارس ، رغم أن الفتاة كانت مقنعة ، أن يرى إما مصادفة ، أو متناً منها ، ذؤابة من فرعها الفاحم ، كل شعرة من شعراتها أنفس لديه مائة مرة من سلسلة من الذهب الخالص . إذن لقد كانت فتاته التي هوى !

ولكن أنى لها أن تطرق هذا المكان ، هذه الصحراء المقفرة النائبة ، بين أولئك العذارى اللأنى اتخذن المجاهل والكهوف لهن موثلا كي يستطن أن يؤدين في الخفاء طقوسا مسيحية لا يجرؤون على أدائها علانية وجهرا ؟ أحقا وصدقا ما يرى ؟ إنه لا يستطيع التصديق ، إنه لا ريب في حلم من الأحلام وغاشية خداعة من غواشى الخيال ؛ وبيننا كانت هذه الخواطر تساور السر كنت ، إذا بالمسلك الذى زلف منه الفتيات حين دخلن المعبد يتلقاهن ثانية عائدات ؛ وأخذ الغلمان الصغار والراهبات المكتنبات ينسلون من الباب المفتوح ، ويختفون واحدا بعد الآخر ، وأخيرا توارت كذلك تلك التى ألمت إليه مرتين ، وهى إذ تتوارى التفتت التفاتة خفيفة بادية صوب المكان الذى لبث فيه السر كنت راسخا كالصنم ، وقد رأى قناعها وهو يرفرف لآخر مرة — إذن لقد غابت عن عينيه ، وحينئذ أحاط بروحه ظلام دامس لا يقل حلوكة عن ذلك الظلام الذى غشى آتئذ ظاهر حواسه ، إذ لم تكذب عبر أخرى المرتلات عتبة الباب حتى أوصد الباب بصوت مرتفع ، وفى هذه اللحظة عينها سكت المغنيات عن الترتيل وأطفئت فى الحين أضواء المعبد ، ولبت السر كنت وحيدا فى ذلك الظلام الشامل ، ولكن العزلة والظلام وغموض الموقف المبهم الذى آل إليه ، كل ذلك لم يكن للسر كنت شيئا مذكورا ، فلم يشغل به الفكر ولم يعبأ به ، ولم يكن ليأبه إلا لشيء واحد فى هذا الوجود ، وذلك هو الشهيد الذى مرق منذ حين وانسل من جواره ، وما منحتة الفتاة من علامات الرضا ، فأخذ يتحسس فى الظلام فوق الأديم ، لعله يثر على الزهور التى سقطت من يدها ، ثم يضم إحداها أو جميعها إلى شفتيه مرة وإلى صدره أخرى ، ثم يلمص شفتيه بكل صخر بارد تحده نفسه أمها وطئته بقدميها ، ثم يقوم بكل عمل شاذ يوحى به الحب المبرح ويبرره لكل من أسلم نفسه للعشق ؛ وكان فى هذا كله دليل على حرارة الحب ، دليل معروف منذ الأزل ؛ ولكن من العجيب فى عهود الفروسية أن الفارس ، وهو فى فرط السرور ، لا يتطرق إلى خياله أن يتعقب أو يتأثر عادة تعلق بها قلبه هذا التعلق الشعرى ، حتى أصبح ينظر إليها

وكأنها إلهة تعطفت فبدت هنيئة لعابد من عبادها المخلصين ، ثم آبت إلى ظلام معبدها المقدس ، أو كأنها كوكب سيار ، بالغ الأثر ، أرسل شعاع الرضا في لحظة من لحظات الطالع السعيد ، ثم تدثّر ثانية في قناع من الضباب ؛ وكانت إشارات هذه الغادة التي تعلق بها قلبه كأنها تصدر عن كائن علوى يتحرك ولا رقيب عليه ولا عتيد ، إذا تبدى أغم قلبه بالسرور ، وإذا تغيب غلبه الاكتئاب والخور ، فإن رأفت به بعثت فيه الحياة ، وإن قست عليه تملكه اليأس والقنوط — كل شيء وفق ما تريد ، ليس إلى الإلحاف أو المعارضة إليها من سبيل ، وليس عليه إلا أن يتوجه إليها مخلصا ، يخدمها بقلبه وبسيف الفروسية ، وليس له في الحياة إلا مرمى واحد ، هو أن ياتمر لها بما تأمر ، ويذيع في العالمين صيتها بكل ما يستطيع أن يقوم به من عمل جليل .

تلك كانت قواعد الفروسية ، وأصول الحب — وهو أسمى مبادئها — ولكن ظروفها خاصة أخرى أحاطت بالسركنت ، فأكسبت تعلقه بهذه الفتاة خيالا وشعرا ، ذلك أنه لم يستمع حتى لرنين صوتها ، رغم أنه كثيرا ما تأمل جماها بقلب طروب ؛ وكانت تعيش بين جماعة ، تحول له مرتبته في سلك الفروسية أن يدنو منها ولا يخالطها ؛ وكان حتما على هذا الجندي الاسكتلندي المسكين — رغم علو كعبه في المهارة الحربية وخطط الفروسية — أن يعبد إلهته وهو منها على بعد يكاد يبلغ في مداه تلك الهوة التي تفصل بين الفارسي والشمس التي يعبد — ولكن متى بلغ بالمرأة الخيلاء حدا تهمل معه مثل هذا الإخلاص الحار يصدر عن قلب عاشق مهما يكن وضع المقام ؛ فلقد كانت ترمقه وهو يتبارى في الطعام ، وتستمع إلى محامده فيما يروى كل يوم عن معارك القتال ؛ وبينما كان كل « كونت » أو « دوق » أو « لورد » يكافح كي يحظى بنظرة منها ، كانت تميل بكل قلبها نحو فارس النمر المسكين ، الذي لم يكذب يكن له غير حسام يمتشقه ويؤيد به مكانته ؛ وربما كانت في حبه أول الأمر راغمة ، بل ومدفوعة بشعور غير محسوس ؛ وكانت إذا نظرت أو أصغت ، رأته وسمعت ما يكفي لأن يدفع بها في ميلها هذا الذي تطرق إلى قلبها

أول الأمر على حين غرة ؛ وإذا رددت يوما أكثر السيدات احتشاما في بلاط إنجلترا العسكرية ذكر فارس من الفرسان ، وامتدحن فيه جماله ، استثنين كنت الاسكتلندي ؛ وكثيرا ما كان الأمراء والأشراف يبذلون جزيل العطايا على المنشدين كي يتغنوا بفضائلهم ، فيتملك الشعراء روح العدل واستقلال الحكم ، ويضربون الأوتار إشادة بذكر رجل لا يملك خيلا ولا حلالا يخلمها عليهم جزاء لهم على مدحهم إياه .

باتت اللحظات التي كانت « أديث » بنت الأشراف تستمع فيها إلى الثناء يكال لحبيبتها كيلا أحب إلى نفسها بما كان قبل ، إذ كانت هذه اللحظات تسرى عن قلبها الملقى الذي كات من مسمعه ، وتمدها بموضوع جدير بالتأمل العميق ، فلقد كان السر كنت — باجماع الرواة — رجلا أحق بالإجلال من كل من علاه مرتبة أو كان أوفر منه حظا ، فأضحت وكل انتباهها معقود بالسر كنت ، لانفكر لإفنيه ، وإن تملكها الحرص ؛ وكلما أمعنت في التأمل ازدادت وثوقا من ولائه لها ، ويقينا أن لها فيه الفارس الذي كتب له أن يقاسمها الحياة ، سراءها وضراءها (ومستقبل الأيام مظلم وخطير) ، وأن يعقد هواه بهواها ، ذلك الهوى الذي عزا إليه شعراء العصر سلطانا شاملا ، والذي يكاد بتقاليده وفضائله يرتفع إلى حد الإخلاص لله . ودعنى بعد هذا لا أستر على القراء حقيقة الأمر ، فليعلموا أن « أديث » كانت فتاة قريبة الصلة بعرش إنجلترا ، يحتم عليها كرم الأصل وعزة النفس أن تكتفى بالولاء والإخلاص يظهرهما لها دوما ، في صمت ، فارسها الذي اختارته لنفسها ، ولكنها أدركت كنه ميولها — وهي ذات الميول النبيلة الشريفة — وعلمت أن من اللحظات ماتتحرك فيها مشاعر المرأة في نفسها ، المرأة التي تُحِبُّ وتُحَبُّ ، فتثور عواطفها في وجه قيود العظمة وتقاليدها ، التي كانت تتحوطها من كل جانب ، وتنحى على حبيبتها باللائمة لحياهه الذي يوسوس له أن لا يحطم تلك القيود ؛ وإذا جاز لنا أن نعبّر بلفظ حديث قلنا إن « اتيكيت » مولدها ومكانتها رسم حولها دائرة سحرية ، للسر كنت أن يخفض الرأس أو يرفع البصر ما دام

بعيداً عنها ، فإن تخطاها فليس له إلا أن يمر ، كما يمر الروح إذا استدعاه الساحر العظيم وحظر عليه أن يتخطى الحدود التي رسمها بعصاه ، فبدا لها — وهي كارهة — أن تُقدم هي ، وتمد ولو طرف قدمها الدقيق ، وتخرجه عن الحد المرسوم إن أرادت أن تصيب عشيقها الحي الخجول بلحمة خفيفة من فضلها ، وتهبى له الفرصة كي يقبل رباط حذاءها ؛ ولقد كان لها في بنت ملك المجر أسوة ، إذ تعطف على شريف من صفار الأشراف وحثته على الإقدام ، و« أدبث » وإن يكن يجرى فيها دم الملوكة ، إلا أنها ليست من بنات الملوكة ، وليس كذلك حبيب قلبها من أبناء السوق ، فلم يقم القدر في سبيلهما حاجزاً قوياً يعترض تبادل الحب بينهما ، ولكن إحساساً بالأنفة المتواضعة التي كثيراً ما تكبل الحب بسلاسل من حديد ، إحساساً نهاها — رغم علو مكانتها — عن أن تخطو هي الخطوات التي يقضى الاحتشام أن تكون دائماً من اختصاص الجنس الآخر ، وفوق هذا فإن السر كنت فارس رقيق نبيل ، فائق التهذيب ، أو قل إن خيالها قد أوحى إليها بذلك وبث فيها شعوراً دقيقاً بما له وما لها ، فن واجبها — مهما تملك قلبها العاطفة — أن تتقبل منه صلواته ، وهي كتمثال الآلهة التي يسلم المرء بأنها لا تحس ولا تجيب لمبادها ما يقدمون من ولاء ، أو كالوثن ، تخشى إن هي بكرت بالزول عن قاعدتها أن ينحط شأنها في عيني عبدها المتفاني .

ولكن العابد المخلص إذا توسل إلى وثن حق ، انكشفت له من الوثن أمارات الرضا في ملامح صورته المرصية ، التي لا تلين ولا تتحرك ؛ فلا عجب إذن إذا لاحت إشارة في خفاياها معنى القبول من عين أدبث البراقة اللامعة ، أدبث بارعة الجمال ، التي كان لها في سحر سبها جمال يفوق جمال الاتساق والوسامة في ملامحها ، والبريق والضياء في بشرتها ؛ ولذا بدرت منها — رغم غيرتها وحذرهما — دلالات خفيفة ؛ ولولا ذلك لما تسنى للسر كنت أن يعرف منها على الفور والحين ، وبغير ارتياب ، يدها الجميلة التي لم يكذب يدها منها إصبعان من تحت القناع ، ولما قر في نفسه اليقين بأن الزهرتين اللتين سقطتا متواليتين في

مكان واحد إنما كانتنا إلماعاً من حبيبة قلبه . ولن نحاول هنا أن نقص كل ما أدى إلى هذا التفاهم المتبادل بين أدب وحبيبتها من ملاحظات متوالية ، وإشارات خفية ، ونظر وتلويح ، ومؤاخذة غريزية في الحب ، فانما نحن في ذيل العمر ، ولو تحدثنا عن رموز الحب الخفية ، تحدثنا في القدرة على ذلك شباب له عيون سريعة الملح في هذه الشؤون ؛ وحسبنا أن نقول إن هذا الحب قام بين شخصين لم يتبادلا كلمة واحدة ، وكانت أدب من ناحيتها تحبس الكلام لإحساسها القوى بالصعاب والأخطار التي لم يكن بد من أن تعترضها في توثيق عرى الروابط بين قلبيهما ؛ والفارس من ناحيته أساوره ألوف الشكوك والخاوف ، ويخشى أن يكون مبالغاً في تقديره للإشارات الخفيفة التي أوامت بها فتاته ، والتي كانت تتخللها — بحكم الضرورة — فترات طويلة يغلب عليها الفتور ، وتبدو في غضونهما أدب قليلة الاكتراث ، وكأنها لا تلحظ وجوده ، إما لأنها كانت تخشى أن تثير بمسلكها تنبه الأخريات ، وتجر بذلك على عشيقها الأخطار ، أو لأنها كانت لا تحب أن تسقط في اعتباره لشدة لهفتها على أن تملك منه قلبه .

ربما كانت هذه القصة طويلة مملولة ، ولكنها ضرورية للرواية ، وتعيننا على إيضاح ما كان بين المحبين — إن كان هذا أمراً يستحق العناية — حينما بدت أدب على غير انتظار في المعبد ، وكان لها على مشاعر الفارس هذا الأثر البليغ .

الفصل الخامس

إذا ما ضربنا في الوادي الخيام ،
فعبثاً يسحرنا من الغيد الحسان القوام .
ولإن بدا لنا « اشثاروث » أو « ترامجون » ،
قلنا لطيفيهما اعزبا عن هذا المكان .
وارتون

لبث السكون العميق والظلام الدامس ساعة وبعض ساعة يخيان على المبد
الذي خلفنا فيه فارس النمر جاثياً على ركبتيه ، تارة يتوجه إلى الله بالحمد ، وطوراً
يذكر فتاته بالشكر ، اعترافاً بالنعمة التي أسبغت عليه ؛ أما سلامته ، أما نصيبه
— وقد كان أبداً قليل الاكتراث بهما — فلم يعد لها الآن في اعتباره وزن
ذرة من تراب ، فهو في جوار السيدة أدبث ، وقد جادت عليه ببعض اشارات
العطف ، وهو الآن في مكات مبارك بما فيه من آثار لها أجل تقديس ، وهو
بكندى مسيحي ، ومحب مخلص ، لا يخشى شيئاً ، ولا يفكر في شيء ، إلا في
واجبه نحو السماء وفي حق فتاته عليه .

وفي الفترة التي انقضت بعد ذلك ، رنت في أرجاء المبد ذي القبو رنيناً قوياً
جلجلة صفير كصفير صائد الزاة ، وهو ينادى الصقور ، ولم يكن هذا الصوت مما
يليق بجلال المكان ، وقد ذكّر السر كنبث بوجوب تيقظه ، فهب من سجدته ،
ومد يده إلى خنجره ، ثم سمع صرير لولب أو بكرة ، وسطع إلى أعلى نور كأنه
ينبعث من فجوة في الأرض ، وظهر للعين كأن باباً أرضياً قد ارتفع إلى أعلى أو
انخفض إلى أسفل ، وفي أسرع من لمح البصر ، امتدت من الفجوة ذراع هزيلة ،
بعضها عار وبعضها مدثر في كم من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، ممسكة بمصباح
رفعت إلى أقصى ما تستطيع أن تمتد إلى أعلى ، ثم أخذ الشبح صاحب تلك الذراع
يصعد خطوة خطوة ، حتى بلغ مستوى أرض المبد ؛ وكان لهذا المخلوق الذي

بدا الآن جسم ووجه كأنهما لقزم مروع الهيئة ، ذى رأس كبير ، عليه غطاء مزين بثلاث ريشات من ريش الطاوس زينة رائعة جميلة ، يرتدى ثوباً من الحرير النفيس الأحمر الموشى بالذهب ، مما جعل كآبة منظره أشد وضوحاً ، وتجذب العين منه أساور من ذهب تطوق معصميه وعضديه ، ويتشح بوشاح من الحرير الأبيض يعلق به خنجراً ذا مقبض ذهبي ؛ ويحمل هذا الرجل ذو الهيئة العجيبة يسراه شيئاً يشبه أن يكون مكنسة ، ولم يكد يطل من الفجوة التي ارتفع منها حتى وقف ساكناً ، وكأنه أراد أن يظهر جلياً فحرك المصباح الذى كان بيده حركة خفيفة أمام وجهه وصورته ، حتى يسطع الضوء على ملامحه الهمجية الحوشية أولاً ، ثم على أطرافه المعروقة المشوهة ثانياً ؛ وكان لهذا القزم جسم غير متسق الأجزاء ، ولكن خلقه لم يبلغ به الانحراف حدا يشك معه الرأى أنه فاقد القوة والنشاط ؛ وبينما كان السر كنه يتأمل هذا المنظر الدميم ، طرأت على ذاكرته تلك العقيدة السائدة التي كانت تؤمن بالجن أو عفاريت الأرض ، التي كانت تقطن الكهوف ، وكان الشبح المائل أمامه يطابق الصورة التي كانت في ذهنه عن هيئة هذه العفاريت ، فخدق فيه بتقزز لا يخالطه الخوف ، وإنما يمازجه نوع من الرعب قد يثته مثل هذا الخلق الخارق للطبيعة في أشد القلوب ثباتاً وحرماً .

وصفر القزم ثانية ، ثم استدعى زميلاً من زملائه من باطن الأرض ، فصعد هذا الشبح الثانى — كما صعد الشبح الأول — ولكنها كانت يد امرأة تلك التي امتدت هذه المرة رافعة مصباحاً من البهو السفلى الذى صدرت عنه هذه المناظر ، وكان شبحاً نسويًا ذلك الذى برز ممتداً من جوف الأرض ، شديد الشبه بالشبح الأول في هيئته وتناسق أعضائه ، وكان لباسها كذلك من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ، مهلهلاً مهدباً على صورة عجيبة ، كأن صاحبته قد ازينت كي تعرض نفسها في حفل من الممثلين والشعوزين ؛ وكما فعل الشبح الأول من قبل ، حركت المصباح بأناقة ودقة أمام وجهها وجسمها ، الذى يبارى جسم الرجل دمامة وقبحاً ، ولكن ، رغم هذا المظهر الدميم ، كان في ملاحظتهما كليهما مسحة تدل على تنبه نادر وذكاء

غير مألوف ؛ هذه المسحة تراها في بريق عيون غائرة تحت أهداب غزيرة حالكة السواد ، يتألق فيها ضياء لامع كذلك الذى يشع من عيون الضفادع ، وكأنه بعض العوض عن قبح بليغ باد في البرزة والهيئة .

لبث السر كنت مشدوها مذهولا ، بينما كان هذان الشبحان القميئان يطوفان بالمعبد متلاصقين بخادمين أجيرين قد كلفنا نظافة المكان ؛ ولم يمد كل منهما غير يد واحدة للعمل ، فلبثت الأرض ولما تنتفع من هذا الجهد الضئيل الذى تأبرا عليه في حركات غير مألوفة ، وطريقة عجيبة ، تليق بالظهر الشاذ الغريب الذى تبديا فيه ؛ ولما دنوا من الفارس ، وهما يؤديان هذا العمل ، أوقفا مكنستيهما عن الحركة ، وتجاوزا قبالة السر كنت ، ثم رفعوا المشعلين اللذين كانا بيديهما ثانية في أناة وتؤدة ، فتهيأت له الفرصة أن يتأمل ملاحظهما جليا ، ولكن هذه الملامح لم تردد جمالا في نظره بعد أن باتت على مقربة منه ، وأتيح له الفرصة كذلك أن يلحظ السرعة القصوى والحدة التى كانت عيونهما المتألقة السود تعكس بهما ضوء المصباحين ، وبعد ذلك صوباً شعاع المصباحين على الفارس ، وبعد أن أنعم فيه النظر ، التفت كل منهما إلى الآخر ، وانفجرا يقهقهان بصوت يكاد يبلغ عنان السماء ، فرنت الضحكات في أذنى السر كنت ، وكان صداها كريها ، ففزع لسمعها وسارع بالسؤال ، مستحلفا بالله ، من ذا عسى أن يكون ذانك الشخصان اللذان دنسا ذلك المكان المقدس بمثل هذا التهريج وتلك الصيحات المزعجة .

فأجاب القزم الذى ذكر فى صوت يلىتم وهيئة جسيمة ، وهو بصوت غراب الليل أشبه منه بأى صوت آخر يطرق الأذن فى النهار ، وقال : « أنا القزم نكتابانوس » . وأجابت الأنثى فى نغم أحسن وأشد توحشا من صوت رفيقها وقالت : « وأنا جنفرا امرأته وموضع حبه » .

وسأل الفارس ثانية ، ولم يكده يعتقد أنهما من أبناء البشر وقال : « وما الذى أتى بكما إلى هذا المكان » ؟

فأجاب القزم الذى ذكر متكلفا الجذ والوقار وقال : « أنا الإمام الثانى عشر ،

أنا محمد المهدي زعيم المؤمنين ورائدكم ، لى ولأتباعى ألف من الخليل المطهمة على أهبة لدى المدينة المقدسة ، وألف عند « مدينة الخلاص » ، أنا ذلك الرجل الذى سوف يشهد على بنى الإنسان ، وهذه حوراء من حورى» (١) .

فقاطعت امرأته وأجابت فى صوت أحسن من صوته وقالت : « أنت كذاب أشر ، لست من حورك ، ولست أنت رجلا منافقا من سقط المتاع كما ذكرت . هلا أخبرك من أنت يا حمار « إسخار » ؟ أنت الملك « آرثر » ملك بريطانيا الذى سرقتة بنات الجن من فيافي « أفالون » وفررن به ، وأنا السيدة جنفرا ، التى طبق صيت جمالها الآفاق » .

فقال الرجل : « أجل يا سيدى الفاضل ، حقا إننا من الأمراء ، أحاطت بنا الهموم ورمت بنا هنا تحت جناح الملك « جاى » ملك بيت المقدس ، وقد لبثنا كذلك حتى أخرجه من مملكته جماعة من الكفار المدنسين ، اللهم أنزل عليهم من السماء الصواعق وأهلكهم جميعا » .

فانبعث صوت من الجانب الذى دخل منه الفارس من قبل ، وقال : « صه ! صه ! أيها الغافلون ، اعزبوا عن هذا المكان فقد دالت دولتكم » .

ولم يكدهم القزمان يستمعان إلى هذا الأمر ، حتى همس كل منهما للآخر فى وسوسة متقطعة ، واطفأ مصباحيهما بغير توان ، وخلقوا الفارس فى ظلام دامس ثم قفلا راجعين ، ولما انقطع وقع أقدامهما خيم على المعبد صمت شامل هو أشد ما يكون التثاماً وحلوكة ظلام .

ولما انجلى هذان المخلوقان الشقيان ، أحس الفارس ببعض الترويح عن النفس ، وهما بمظهرهما ومسلكتهما ولسانهما لم يتركا له مجالاً للشك فى أنهما يمتان بصلة إلى تلك الطائفة الوضيعة من الكائنات ، التى سيقت بتشويه الخلق وضعف الخلق إلى هذه المسكنة الأليمة ، وأصبحت من ذبول الأسر الرفيعة ، التى يجعل أبناؤها من ظاهرها وضعفها بواعث للمرح والسرور ؛ ولو كان الفارس الاسكتلندى فى عصر

(١) هذا كلام لا أساس له من الصحة التاريخية ، وإنما هو من ابتداء الخيال .

غير عصره لكان من المحتمل أن يسر غاية السرور من جنون هذه الصور الانسانية
الوضيعة ، ولكنه لم يكن يعلوه — في أية ناحية من النواحي — على زمانه ، في الفكر
أو في الطباع ، ولذا فإن هذين المخلوقين الشقيين بمظهريهما وإشارتهما ولغتهما قد
قطعا عليه سلسلة من المشاعر العميقة الجليلة ، كانت قائمة في نفسه ؛ ولشد ما كان
ابتهاجه عند ما اختفيا عن مرآه .

وبعد ما أنجليا يبضع دقائق ، انفتح الباب ، الذي ولج منه من قبل في تودة وتوان ،
ولبت منفرجاً ، وقد ظهر من خلفه نور خافت يشع من مصباح لدى عتبه ، وبجلى
في هذا الضياء المتقطع ، الذي يتراوح بين الظلمة والنور ، شبح أسود مسترخ
لدى المدخل بعيداً عن حدود المعبد ، ولما دنا الفارس منه ، عرف أنه الناسك
ما برج مستلياً على الهيئة المتواضعة عينها التي آخذها من أول الأمر ، والتي
لا ريب أنه لبث عليها ما بقي ضيفه في المعبد .

ولما سمع الناسكُ الفارس وهو يدنو منه قال : « لقد انتهى كل شيء ، وأن لأشقى
من أذنب فوق الأرض أن يؤوب من هذا المكان مع رجل يحق له أن يعتقد الآن
أنه أنبل وأسعد بنى الإنسان جميعاً . أمسك المصباح واهدني الطريق في هذا المهبط ،
فليس لي أن أكشف عن بصرى حتى أبتعد عن هذا المكان المقدس » .

فصدع الفارس الاسكتلندي بالأمر في صمت وسكون ، وقد أخرسه إحساس
بالنشوة والتسامى مما رأى ، فحمد في نفسه حتى روح التطلع إلى ما يتحوطه ، ثم
أخذ يشق طريقه بدقة بالغة خلال المسالك الخفية العديدة ، وعلى الدرج الذي تسلفاه
من قبل ، حتى ألقى نفسه وصاحبه في الغرفة الخارجة من كهف الناسك .

و « يؤوب المجرم الآثم إلى جيبه ، ويستأخر العقوبة من يوم نحس إلى يوم
آخر ، حتى ينفذ فيه قضاء ربه ، ويجزيه الله العادل بما قدمت يداه » .

بهذه الكلمات تفوه الناسك ، ثم طرح عن عينيه الحجاب الذي تقنع به ،
ونظر إليه وفي نفسه آهة حارة مكبوحه ، ولم يكدر الحجاب إلى السرداب الذي
كان قد طلب إلى الاسكتلندي أن يأتي له به منه ، حتى سارع ووجه إلى زميله

الخطاب في حزم وقال : « اذهب عني ، اذهب عني ، إلى الراحة والسكون ؛ إن في وسعك أن تنام ، ومن حقك أن تنام ، أما أنا فليس ذلك في وسعي أو من حق » .
فانسل الفارس إلى الغرفة الداخلية احتراماً لهذه الكلمات التي نطق بها الناسك في اضطراب شديد ، ولكنه أدار بصره إلى الوراء وهو يخرج من الفار الخارجي ، فألقى الناسك مجرد عن كتفيه العباءة المهلهلة في عجلة المنجول ؛ وقبل أن يفلق الباب الضعيف الذي يفصل ما بين حجرتي الكهف ، سمع ألحواجا يفرقع وتائباً يئن من كفارة أليمة فرضها على نفسه فرضاً ، وفكر الفارس في نفسه ماذا عسى يا ترى أن تكون هذه الخطيئة الدنسة ، وما هذا الندم الشديد على ذنب لا تمحوه ولا تخفف عنه هذه الكفارة القاسية ، فشمع برعدة باردة تدب في أطرافه ثم سبح لله خاشعاً متورعاً ، وارتقى على سريرته الخشن — بعد أن رمق بعينه الرجل المسلم الذي لم يزل في سباته — وسرعان ما غط في نعاسه كالطفل ، منهوكاً من أثر المشاهد المختلفة التي تراءت له في يومه هذا وليله ، ولما استيقظ في الصباح اجتمع بالناسك يشاوره في مهام الأمور ، وأسفر الحديث عن عزمه على أن يبقى بالكهف يومين آخرين ، كان خلالها شديد المحافظة على إقامة الصلاة ، كما يليق بالحاج ، ولكنه لم يعد إلى المعبد الذي شاهد به تلك المعائب .

الفصل السادس

أما هذا الممهّد فعدل ، وفي البوق فانفخ ،
فقد حق علينا أن نستفز الليث من مربضه .
من رواية تمثيلية قديمة .

وهنا ننتقل بالقارىء من مكان إلى آخر كما أشرنا في عنوان هذا الفصل ،
ننتقل به من جبال الأردن المقفرة إلى خيام رتشارد ملك إنجلترا ، التي كانت مضرّوبة
إذ ذاك بين جون ميناء عكا وعسقلان ، والتي كانت تضم تحت لوأمها جيشاً ، أخذ
قلب الأسد على نفسه من قبل أن يسير به ظافراً إلى بيت المقدس ، وكان من
المحتمل أن ينجح فيما شرع ، لولا أن وقفت في سبيله الغيرة المتبادلة بين الأمراء
المسيحيين الذين اشتركوا في هذا المشروع عينه ، ولولا أن عرقل مسعاه ما كان
يحبس به هؤلاء الأمراء من ألم النفس من تعالى الملك الإنجليزي عليهم تعالياً لا يكبح
له جماع ، ومن تحقير رتشارد — في غير موارد — من شأن إخوانه الملوك ،
الذين كانوا يعادلونه مرتبة ، ولكنهم لا يبلغون شأوه في الشجاعة والإقدام
والمواهب الحربية . وأمثال هذه المشاحنات وما إليها — وبخاصة ما كان منها بين
رتشارد وفيليب ملك فرنسا — خلقت من الخصومات والعقبات ما كان حجر عثرة
لكل خطوة عملية يتقدم بها رتشارد ، الذي عرف بالبطولة وعدم التريث معاً ،
بينما كانت صفوف المسيحيين تتخلخل يوماً بعد يوم ، ويهجرها المجاهدون زرافات
ووحداً ، وفي طليعة كل فرقة قائد من قواد الاقطاع ، هو زعيمها ، وقد انسحبوا
بعد نضال أطفأ فيهم كل بارقة من الأمل في النجاح .

وبات أثر المناخ — كما كان دائماً — مهلكاً للمقاتلين الآتين من الشمال ،
وزاد من وطأة الجو أن الصليبيين أطلقوا شهواتهم العنان وأنحلت أخلاقهم ،
وإن يكن هذا ينافي كل المنافاة المبادئ والأغراض التي شهروا من أجلها السلاح ،

فباتوا فرائس سائفة لجمارة القيظ المحرقة ، وقطرات الندى الباردة ، وما لها من أثر
وبيل ؛ وأضف إلى هذه البواعث التي كانت تفت في الأعضاء ، وتؤدي إلى
الخمران والدمار ، سيف العدو الباتر ، وذلك أن صلاح الدين ، الذي ليس في
سجل تاريخ الشرق اسم يعلو على اسمه ، كان قد عرف — وبأهله من معرفة قاضية —
أن أتباعه — بسلاحهم الخفيف — أضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد ،
وجها لوجه في ملحمة أو معركة ، كما عرف كذلك كيف يحشى شخص خصمه
رتشارد الجسور ويحسب له حساباه ؛ ولكن إن كانت الفرنجة قد انقضت على
جيوشه أكثر من مرة ذبحا وتقتيلا ، فلقد انتصر لكثرة عديده في تلك
المناوشات الخفيفة التي كان الكثير منها حتما لا محيص عنه .

ولما نقص جيش العدو المهاجم ، زاد السلطان من مدى خطئه في هذه
الحرب الخفيفة ، وجعلها أشد جرأة ، فأحاطت بمعسكر الصليبيين — وكادت
تحاصره — جموع من الفرسان أقبلت كأسراب الزناير ، يسير سحقتها إذا وقعت
في قبضة اليد ، ولكن لها أجنحة تمكنها من الإفلات من أشد القوى بأسا ، كما
أن لها أشواكا تنفث منها السوء والأذى ؛ ولم تنقطع الحروب بين طلائع المسيحيين
ورعاة حروب الخيل هلكت فيها أرواح كثيرة قيمة دون طائل أو جدوى ؛ وكثيرا
ما حيل بين الرسل ومواصلة السير ، وتقطعت سبل المواصلات ، وكان على الصليبيين
أن يشتروا أود الحياة ببذل الحياة ، وإن أرادوا ماء من عين كعين بيت لحم ، التي كان
يتشوق إليها داود الملك أحد حكامها الأقدمين ، أراقوا لذلك الدماء .

وكان يعادل هذه الشرور — إلى حد كبير — عزم كالحديد ونشاط لا يستقر من
جانب الملك رتشارد ، الذي كان دائما على صهوة جواده بصحبة جماعة من خيار
فرسانه ، على أهبة لأن يكر إلى أى مكان تحمل به الأخطار ، وغالبا ما يعود
للمسيحيين بمعونة لم تقع لهم في الحسبان ، بل ويهزم المنافقين ، وهم من النصر قاب
قوسين أو أدنى ، ولكن حتى قلب الأسد ، ذو الجسم الحديدى ، لم يستطع أن
يحتمل بغير أذى تقلبات المناخ الوييلة ، فضلا عن إجهاد جنائى وعقلى متواصل ،

فلقد أصابته إحدى تلك الحميات المنتشرة في آسيا ، والتي تفتك بالجسم شيئا فشيئا ؛ ورغم قوة شديدة وشجاعة أشد منها ، بات أول الأمر ضعيفا لا يستطيع أن يعتلى ظهر الجواد ، ثم انقطع عن حضور مجالس الشورى في شؤون الحرب ، التي كان يعقدها الصليبيون بين الحين والحين ، ولم يكن من اليسير أن تعرف إن كان ما استقر عليه المجلس — وهو أن يعقدوا مع السلطان صلاح الدين هدنة مداها ثلاثون يوما — قد جعل هذا الفتور ، الذي اعتور ملك الإنجليز ، أشد فتكا أو أخف وقعا ؛ فلئن كانت هذه الهدنة تثيره لأنها تعترض سير الخطة الواسعة المدى التي رسمها لنفسه ، وتؤجلها إلى حين ، فهو من ناحية أخرى يجد فيها بعض العزاء ، لأنه عرف أنه إن لبث عاطلا لا يتحرك في سرير المرض ، فلن يظفر غيره بإكليل النصر .

وأما ما لم يرض عنه قلب الأسد فهو هذا التبلد الشامل ، الذي ضرب بجرانه في معسكر الصليبيين ، حينما أقبل على دور خطير من أدوار المرض ؛ وقد علم من البيان الذي استخلصه من أتباعه — وهم كارهون — أنه كلما اشتد به المرض ، هبطت آمال الجيش المحارب ، وأنهم لم يشتغلوا أيام الهدنة بتقوية صفوفهم ، أو باحياء ما نحد من روح البسالة والإقدام ، أو بتغذية روح الظفر في النفوس ، أو بالتأهب للزحف على المدينة المقدسة زحفا حازما لا ونية فيه — والمدينة المقدسة هي مقصد حملتهم ؛ لم يشتغلوا بهذا أو بذلك ، وإنما اشتغلوا بتأمين المعسكر ، الذي باتت تشغله جماعة هزيلة من الأتباع ، بحفر الخنادق وإقامة الحسائك وغيرها من وسائل التحصين ، كأنهم يتأهبون — إذا ما عاد القتال — لرد عدد قوى معتد ، ولا يعدون العدة لأن يقفوا موقف الغزاة المغيرين المفاخرين .

هاج الملك الإنجليزي وماج من هذا البيان ، وكان كالأسد الحبيس في القفص ينظر إلى الفريسة من وراء قضبان من الحديد ؛ ولما كان بطبيعته مندفعاً متهورا ، فقد انعكس هياج طبعه على نفسه ، وكان أتباعه يخشونه ، وحتى أطباؤه الذين كانوا يباشرونه ، كانوا يخافون أن يتخذوا لأنفسهم ذلك النفوذ الذي لا بد منه لكل

طبيب على مريضه إن أراد به خيراً ؛ ولم يستطع أن يقف بين الأفعوان ونائرتة إلا رجل واحد من الأشراف المخلصين ، وربما كان ذلك لوامة بين ميوله وميول رتشارد ، مما قربه إلى الدات الملكية ووصل بين قلوبهما ، فكان له - في سكون وثبات - سلطان على الملك المريض الغاضب ، لم يجرؤ عليه غيره ؛ هذا النفوذ لم يباشره غير توماس دى ملتن ، لأنه كان يقدر حياة الملك وشرفه أكثر مما كان يقدر ما قد يفقد من جراء ذلك من رضاه ، وما قد يجبر على نفسه من أخطار ، وهو يمرض عليلًا كهذا ، شديد المراس ، جسيم الأخطار إذا غضب .

كان السر توماس لورد جزلاند ، في كمبرلاند ، في عصر لم تكن فيه الأنساب والألقاب شديدة الالتصاق بأربابها كما هي اليوم ، وكان النورمان يسمونه لورد دى فو ، ويلقبه بالإنجليزية السكسون - الذين كانوا يتعلقون بلغتهم الوطنية ويفخرون ببعض الدم السكسونى الذى يجرى في عروق هذا المحارب الدائم الصيت - توماس ، وأحياناً يرفعون الكلفة ويسمونه « توم » رجل « الجلز » أو « الأودية الضيقة » التى اشتقت منها أملاكة الواسعة اسمها المعروف .

وقد تدرب هذا الزعيم في أكثر الحروب ، مانشب منها بين إنجلترا واسكتلندا أو بين الأحزاب الداخلية العديدة ، التى كانت إذ ذاك تمزق البلاد تمزيقاً ؛ وفي هذه الحروب جميعاً برز وتفوق ، سواء في مسلكه الحربى أو نفوذه الشخصى ، وكان من ناحية أخرى جندياً خشناً فظاً ، لا يابيه بهندامه ، كتوما مكتئباً في معاشرته ، وينكر - في ظاهر حديثه على الأقل - كل علم بالسياسة أو بدسائس البلاط ؛ وكانت هناك من الرجال جماعة تزعم أنها تستطيع أن تنفذ إلى دوائر الطباع ، وتؤكد أن لورد دى فو لم يكن في مكره وطموحه أقل منه في خشونة طبعه وجسارته ، وتظن أنه - وهو يتشبه بخلق الملك في البسالة وعدم المبالاة - إنما يرمى إلى الفوز برضا الملك ، وإلى إشباع آماله ، وتحقيق مطامعه الواسعة ؛ ولكن أحداً لم يجرؤ على معارضته في أغراضه أية كانت ، أو ينافسه في ذلك العمل الخطر ، وهو مباشرة سرير المريض كل يوم ، وعله المريض معدية كما ذاع

بينهم ، والمريض هو قلب الأسد ، يئن من جزع غاضب يتملك الجندى إذا حيل بينه وبين القتال ، والملك إذا تجرد من كل سلطان ؛ وعامة الجند في جيش الإنجليز على الأقل كانوا يعتقدون إجمالاً أن دى فو يباشر الملك مباشرة الند للند ، وليس بينهما إلا مودة حربية خالصة ، زهية غير مفرضة ، تنعقد بين اثنين يتسمان المخاطر كل يوم .

وذات يوم في سوريا ، وقد مالت الشمس نحو الغروب ، استلقى رتشارد على فراش المرض ، والفراش إلى نفسه بغيض ، والمرض على جسمه شاق ثقيل ، وعيناه الزرقاوان اللامعتان — اللتان لم ينقطع لهما من قبل ضياء لامع ولا بهجة متألثة — فيهما حيوية زادت منها الحمى وقواها الجزع ، وقد أطلتا من خلال تجاعيد شعره الأصفر الطويل وخصله المسترسلة ، بنظرات زاهية متقطعة تكيوط النور ترسلها الشمس ساعة الغروب فتشوق السحب التي ترجبها العواصف المطيرة ، والتي يوشى حواشيها بالذهب — رغم ذلك — ضياء الشمس اللامع ؛ ويبدو على ملامحه المسترجلة سير المرض العضال ، وقد أهمل لحيته ولم يشذبها ، فنمت وطفعت على شفثيه وذقنه ، وأخذ يترنح ذات اليمين وذات اليسار ، تارة يجرح على نفسه الغطاء ، وطوراً يطرحه جزعاً وهلعاً ؛ ويدل سريره الذى يتأرجح ، وحركاته التي تم عن القلق ، على ميل إلى النشاط والاندفاع بغير اكثرث ، ميل ليس له مجال طبيعي إلا حيث الجهد العنيف .

وإلى جوار سريره وقف توماس دى فو ، وهو في محياه وهيبته ومسلكه أشد ما يكون تباينا للملك المريض . هو كالعملاق في قوامه ، ويكاد شعره يشبه في كثافته شعر شمشون بطل الإسرائيليين بعد ما جزه الفلسطينيون ، لأن دى فو قد قص شعره حتى يستطيع أن يضمه تحت خوذته ، وله عينان كبيرتان واسعتان لونهما كلون البندق ؛ يشع منهما ضياء كضياء الخريف في الصباح ، يضطرب الفينة بعد الفينة ، لحظة أو بعض لحظة ، كلما جذبت التفاته إلى رتشارد شاربات عنيفة من القلق والهياج ، وملامحه قوية غليظة كشخصه ، فيها جمال وجاذبية ، إلا أنها قد

تشوهت من أثر الجراح ، ويفطى شفته العليا — على الطراز النورماندى — شارب
كثيف ، اختلط من غزارة وطوله بشعر رأسه ، وهو — كمثل — داكن يضرب
إلى الحمرة ، تخططه قليل من الشعرات البيض ، ويلوح على بناء جسمه أنه من ذلك
الطراز الذى يقاوم المشقة والمناخ بصدر رحيب ، فلقد كان نحيل الخصر ، عريض
الصدر ، طويل الذراع ، عميق الأنفاس ، قوى الأطراف ، ولم يخلع سترته
الجلدية ، التى يظهر على كتفها صليب مرسوم ، لأكثر من ثلاث ليال ؛ ولم يستمتع
بالراحة إلا فى فترات متقطعة ، هى كل ما يظفر به اختلاساً رجل يقوم على حراسة
ملك طريق الفراش ، وقل أن بدل هذا البارون من وقفته ، اللهم إلا حينما كان
يتناول رتشارد دواء أو شراباً منعشاً . ولم يجروا أحد غيره ، ممن ليست لهم هذه
المكانة من أتباع الملك الجزوع ، على أن يحمل الملك على تناول الدواء ، وكانت له
طريقة شفيقة ، لها أثرها رغم نبوها ، يؤدى بها واجبه ، وهى تبين عاداته وأخلاقه
العسكرية الصريحة أشد المبينة .

كان هذان الرجلان فى سراق بلاتم روح العصر ، كما يلاتم طبيعة رتشارد
الشخصية ، عليه من سبب الحرب والقتال أكثر من أمارات البذخ والملك ؛ فكنت
ترى أسلحة للدفاع والهجوم ، كثير منها غريب الشكل من الطراز الحديث ،
منتثرة فى أرجاء المخيم ، أو معلقة بالعمد التى يقوم عليها ؛ وجلود الحيوانات التى قتلت
فى الطراد ملقاة على الأرض ، أو منشورة على جدر السراق ، وفوق كدس من
هذه الغنائم الحرشية كلاب ثلاثة كبيرة الحجم ، ناصعة البياض كالثلج ، على
وجوهها آثار من خدوش بالخالب والأنياب ، تشهد على مساهمتها فى جمع الصيد
الذى رقدت على بقاياها ، وقد امتدت بجسومها فاغرة أفواهاها ، ومصوبة عيونها ،
الحين بعد الآخر ، نحو رتشارد ، مبينة عن تعجبها وأسفها على هذا الخمود الذى
لم تمهده ، والذى لا بد لها أن تشارك فيه ، وكانت هذه الكلاب من رفاق الجندى
الصائد ؛ وعلى مائدة صغيرة إلى جوار السرير درع من الحديد المرص ، ثلاثى
الشكل ، عليه رسم ليوث ثلاثة ناهضة ، كان يتخذها هذا الملك الفارسشارة له ،

وأمام الدرع قرص من الذهب شديد الشبه بتيجان الأمراء ، إلا أن مقدمته كانت أعلى من مؤخرته ، وهو ونخل بنفسجي ، وتاج مثلث مزركش ، تكون جميعاً شارة الملكية في إنجلترا ، وإلى جوار القرص فأس غليظة أعدت للذود عن رمز الملكية ، تكل الذراع من حملها ، إلا إن كانت ذراع قلب الأسد .

وفي جزء خارجي من الرواق ضباط ثلاثة من حاشية الملك ، يرتقبون في اكتئاب ، يبدو عليهم الجزع على صحة مولايم . ولم يكونوا على سلامتهم أقل جزعاً لو أن ملكهم قضى بحبه ؛ وانتشرت هذه المخاوف الكثيرة خارج السرادق بين الحراس الذين كانوا يضربون في الأرض بطرف مغضوض ، وهم يتفكرون صامتين ، أو يستندون إلى رماحهم ويقفون في أماكنهم لا يتحركون ، كأنهم تماثيل مسلحة ، لا جنود من الأحياء .

وبعد هذا الصمت الطويل المضطرب ، الذي انقضى في هياج كهياج الحمى ، حاولنا وصفه للقارىء ، قال الملك : « إذن لم تأت لي من الخارج ياسر توماس نبياً خير من هذا ؛ لقد بات فرساننا جميعاً نساء ، وأصبحت نساؤنا مترهبات ، وليس في المخيم شرارة من إقدام أو شهامة تنشر في أرجائه الضوء ، والمخيم يضم خيار فرسان أوروبا ، أليس كذلك ! » .

فأجابه دى فو بصبر تملكه قبل ذلك عشرين مرة وهو يكرر للملك شرح الموقف وقال : « إن الهدنة ياسيدى تحتم علينا نحن الرجال أن لا نحرك ساكناً وأما عن النسوة فلست ، مولاي — كما تعلم جلالتك — ممن ينغمسون فيهن ، وقلما أبدل الحديد والجلد بالذهب والمخمل ؛ ومع ذلك فقد تما إلى أن خيار الفاتنات من نساؤنا قد التحقن بعمية جلالة الملكة والأميرة ، وهما في طريقهما حاجتين إلى دير (عين جدة) كي يرسل الدعوات ويطلبنا إلى الله أن ينقذ جلالتك من هذه المحنة » . ولم يرق لرتشارد هذا الجواب ، فتملكه القلق ورد قائلاً : « أفهكذا تخاطر بأنفسهن ربات الخدور والعداري من بنات الملوك ، ويردن أرضاً تدينسها أوغاد ، إخلاصها لبنى الإنسان ضعيف كما يمانها بالله ؟ » .

فأجاب دى فو : « كلا ياسيدى ، لقد وعدهن صلاح الدين بالأمن والطمأنينة » .
فرد عليه رتشارد قائلا : « حقا ، حقا ! ولقد أسأت إلى هذا السلطان ،
وأنا مدين له بمحو هذه الإساءة . ياليتنى أستطيع أن أقدم له هدا الجميل وأنا
طريح بين جيشين ، جيش المسيحيين وجيش المسلمين ، وكلاهما ينظر إلى » .

وبينا كان رتشارد يتكلم ، دفع ذراعه اليمنى خارج الفراش ، وكانت عارية إلى
الكتف ، ثم هب من مرقدته متألما ، وهز يده مقبوضة كأنها ممسكة سيفاً أو فأساً
تلوح به فوق عمامة السلطان الرصعة بالجوهر ، نحف له دى فو ، وبصفته ممرضاً
حمل سيده المليك بعنف يمازجه اللطف ، ما كان الملك ليحتمله من غيره ، على أن
يعود إلى فراشه ، ثم ستر له ذراعه المقتولة ورقبته وكتفيه بعناية كعناية الأم تحنو
على وليدها الجزوع .

فقال الملك وهو يضحك ضحكا مرأ ويلين للقوة التي لم يستطع لها ردا : « إنما
أنت يادى فو ممرض غشوم ، ولكنك محب للملك ، وإني لأظن أن تقية الممرض
تليق بمحياك الخافض كما تليق بى تقية الطفل ، وإنا لنصلح أن نكون رضيعاً
ومرضعته يروّع بهما البنات » .

فأجاب دى فو : « كنا فى زماننا نزوع الرجال ياسيدى ، وإنى لأأمل أن نعيش
حتى نزوعهم مرة ثانية . ما نوبة حمى حتى لا نستطيع أن نحتملها بصبر جميل كى
نخلص منها فى سهولة ويسر ! » .

فتعجب رتشارد وأجاب مندفعاً : « نوبة حمى ! قد ترى — وأنت غير مخطئ
فيما ترى — أنها ليست إلا نوبة حمى حلت بى ، ولكن أظنّها كذلك مع الأمراء
المسيحيين قاطبة ، مع فيليب ملك فرنسا ، ومع ذلك النمساوى البليد ، ومع رجل
منتسراً ، ومع الاستبارية ، ورجال المعبد ؟ ما ذا عسى أن تكون مع هؤلاء جميعاً ؟
استمع إلى أخبرك ، إنما هى فالج بارد وفتور مميت — إنما هى مرض يمنهم عن
السلام والحركة — هى قرحة تأكل كل ما فى قلوبهم من نبل وفروسية وفضيلة ،

وتجعل منهم خونة لكل عهد نبيل يُقسم الفوارس على حفظه ، وتجعلهم لا يأبهون
لذكراهم ولا يذكرون الله .

فقال دى فو : « وحق السماء لتهونن على نفسك يا مولاي ، وحذار أن
يسمعتك أحد خارج هذا السرادق حيث تجرى على الألسنة أمثال هذه الأحاديث
بين عامة الجنند ، وتولد الشقاق والنزاع في صفوف المسيحيين ، واعلم أن مرضك
يحول دون مواصلتهم ما شرعوا فيه ، وإذا أمكن أن يتحرك المنجنيق بغير لولب
أو رافع ، تحرك جيش المسيحيين بغير الملك رتشارد » .

فقال رتشارد : « أنت تدهنتي يا دى فو » ، ولكنه مع ذلك أحس بأثر الثناء
وقوته ، فمال برأسه إلى الوسادة وهو يحاول جهده أن يستقر ، محاولة لم ييدها
من قبل ، ولكن توماس دى فو لم يكن من ندماء الملوك ، وقد اندفعت إلى شفتيه
عبارة الثناء التي فاة بها من تلقاء ذاتها ، ولم يعرف كيف يواصل هذا الحديث المسول ،
حتى يروى هذه الرغبة الدفينة التي أثارها ، ويشبعها ؛ فلزم الصمت حتى سأله
الملك محتدا بعد أن استرسل في تأملاته الكثيرة وقال : « يا إلهي ! هذا حديث
شهي سائغ لرجل مريض ، ولكن كيف أن عصابة من الملوك ، وجمعا من الأشراف ،
وحشدا من فرسان أوروبا بأمرها ، تخور قواهم من أجل رجل واحد قد وهن ،
حتى وإن يكن هذا الرجل هو ملك إنجلترا ؟ ولم يوقف مرض رتشارد أو موت
رتشارد مسير ثلاثين ألف رجل ، كلهم كمثلته بسالة وإقداما ؟ أفئن خر زعيم الأيبيل
صريعا تشت القطيع لمصرعه ؟ إذا أصاب البازي كبير الكراكي تقدم غيره الرهط
يتصدره ؛ لماذا إذن لا تجتمع القوى وتنتخب من بينها رجلا تعهد إليه
بقيادة الصفوف ؟ » .

فأجاب دى فو قائلا : « وأيم الحق لقد نما إلى أن القادة الملوك قد عقدوا
الجامع يتشاورون في مثل هذا الغرض ، ولعل هذا يرضى جلالكم » .
فصاح رتشارد متعجبا ، وقد تحركت الغيرة في نفسه وتوجه بنزق عقله وجهة
أخرى وقال : « ها ! إذن لقد نسيني أحلافي قبل أن أتناول العشاء الرباني الأخير ؟

أفحسبونني قد قضيت؟ ولكن ، كلا ! كلا ! لقد صدقوا ؛ ومن هذا الذي وقع عليه اختيارهم ليكون لجيش المسيحيين قائدا وزعيما ؟ » .

فأجاب دى فو : « الرفعة والعزة تشيران إلى ملك فرنسا » .

فأجاب ملك الانجليز : « اى نعم ، فيليب ملك فرنسا ونافارا ، ونيس منت جوا ، صاحب الجلالة المسيحية العظمى ! يالها من كلمات تمتلئ بها الأشداق ! ولكن هناك خطرا واحدا أخشاه ، وذلك أن يتخذ شعاره « إلى الخلف » لا « إلى الأمام » ويعود بنا إلى باريس بدلا من أن يتقدم بنا إلى بيت المقدس ، فلقد علمته حكمته السياسية حتى الآن أن الجور على أمراء الاقطاع ، وسلب حلفائه أجدى له من مقاتلة الأتراك في سبيل القبر المقدس » .

فقال دى فو : « وقد يختارون أرشيدوق النمسا » .

« ماذا تقول ! لأنه ضخم الجسم ، كبير الحجم ، مثلك يا توماس ؟ نعم إنه قرينك في الخرق والغباء ، ولكنه ليس كمثلك سهلا لا يبالي بالمخاطر ، مستهترا لا يأبه للضر والأذى ، صدقتى أن النمسا ليس لها في هذه الكتلة اللحمية من ديب الحياة إلا بمقدار ما في الزنبور الصاحب من جرأة ، أو العصفور الصغير من إقدام ، تباه تبا ! أفىكون قائد الفرسان إلى عمل مجيد ! أعطه ابريقا من نبيذ الرين يحتسيه هو ورجاله الأذنياء من قتلة الدبية ورماة الرماح » .

واستأنف البارون الكلام غير آسف على أن يشغل انتباه سيده بأمور أخرى غير مرضه ، حتى وإن يكن ذلك على حساب أشخاص الأمراء وأرباب النفوذ ، فقال : « وهناك أيضا كبير فرسان المعبد ، مقدم صادق باسل في مواقع القتال ، حكيم في مجالس الشورى ، ليس له مُلك خاص يصرف جهده عن استرداد الأرض المقدسة — ماذا ترى جلالتم في هذا الرجل قائدا عاما لجيوش المسيحيين ؟ » .

فأجاب الملك وقال : « ها ! نعم الاختيار ! إنا لا نستثنى الأخ « جيلزأمورى » نعم إنه يعلم قواعد الحرب ، ويعرف كيف يقاتل في الطليعة إذا نشبت المعركة ؛ ولكن هل من العدل يا سر توماس أن نستخلص الأرض المقدسة من يد الرجل

المسلم صلاح الدين — وهو يفيض كرماً وفضلاً — ونسلمها « جيلز أمورى » ، وهو أشد من صلاح الدين شركاً بالله ، وثنى يعبد الشيطان ، عراف ، يرتكب أشد الجرائم سواداً وأكثرها شذوذاً تحت القباب ، وفي الأماكن الخفية الدميعة ؟ » .

فرد توماس دى فو وقال : « إن كبير الاسبتارية أتباع القديس يوحنا بيت المقدس له صيت لم يلوئه السحر ولا الضلال » .

فأجاب رتشارد على عجل وقال : « ولكنه ضنين خسيس ، أليس كذلك ؟ ألم يساورنا فيه الشك — بل اليقين — بأنه قد باع المسلمين ، تلك المزايا التي ما كان لهم أن يظفروا بها بالقوة الصراح ؟ صه ، صه ، يارجل ! تالله إنه خير لنا أن نسلم الجيش للملاحى البندقية وباعة لومباردى المتجولين من أن نوكل به كبير أتباع القديس يوحنا » .

فقال البارون دى فو : « إذن فلا تقدم باقتراح آخر ، ماذا تقول في الركيز منتسراً الشهم الحكيم ، ذلك الرجل الرشيق المبرز في القتال ؟ » .

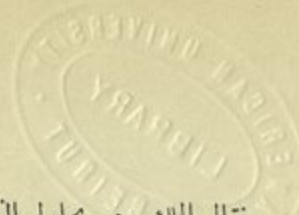
فأجاب رتشارد قائلاً : « الرجل الحكيم ؟ بل قل الماكر — رشيق في خدور النساء إن شئت ، أى والله ! كتراد منتسراً ، من ذا الذى لا يعرف الأخيل جميل الهندام ؟ أجل ، إنه سياسى متلون ، يبدل من أغراضه كما يبدل من حواشى صدره بحيث لا تستطيع أن تعرف من ظاهر حلتة لونها في الباطن ؟ وتقول إنه رجل محارب ، أجل ، إن له لقدماً مشوقاً على ظهر الجواد ، وإنه لجرىء تحت الخيام وداخل الحصون ، حيث تكون السيوف مثلومة الطبابة والشفرات ، وتكون الرماح مركبة أطرافها من ألواح الخشب لا من أسنان الحديد ؟ ألم تكن مى يوم قلت لهذا الركيز الطروب ، هانحن ثلاثة من خيار المسيحيين ، وهناك في ذلك السهل ترى عصابة من الأعراب تبلغ الستين عدا ، يضربون في الأرض ، هلاهممت لتحمل عليهم — ولن يلتقى الفارس الحق منا بأكثر من عشرين من اللثام الكفرة الجاحدين ؟ » .

فقال دى فو : « أذكر أن المركيز أجاب بأن جوارحه من لحم البشر لا من صلب الحديد ؛ وأنه يضم بين جنبيه قلب إنسان لا قلب حيوان ، حتى وإن يكن ليثاً ذلك الحيوان ؛ ولكنى الآن أرى الأمر واضحاً جلياً ، سنتهى حيث ابتدأنا ، ولا أمل لنا فى إقامة الصلاة عند قبر المسيح حتى يرد الله للملك رتشارد الصحة والسلامة » .

وبعد هذ القول الخطير ، انفجر رتشارد ضاحكاً من الأعماق ضحكاً لم يقهقه بمثله من منذ زمن طويل ، ثم قال : « عجباً لهذا الذى يُعرف بالضمير ، فعن سبيله استطعتَ — وأنت رجل من أشرف الشمال ، قليل الفطنة والحصافة — أن تحمل ملكك على أن يقر برعوته ؛ حقاً إنهم لو لم يروا أنفسهم — كمثلى — أكفاء لأن يحملوا عصا القيادة ، ما اكرتتُ قليلاً ولا كثيراً لأن أجرد هذا الرتل من التماثيل البشرية الحقيمة ، التى عرضت علىّ ، واحداً بعد الآخر ، مما أزينت به من زخرف الحرير — ماذا يعينى من هذه الحلال المزركشة يختالون فيها ؟ إنها لا تعينى إلا إذا ذكر أربابها كمنظراء لى فى هذا العمل الجليل الذى وقفت له حياتى ؛ اى دى فو ! إنى أقر بضعفى وجموح مطامى ، ولا ريب أن معسكر المسيحيين يضم كثيراً من الفرسان ممن يفضلون رتشارد ملك إنجلترا ، وإنه لمن الحكمة والعدل أن نسند إلى خيرهم قيادة الجيش ، ولكن . . . » .

وهنا واصل الملك المحارب حديثه ، وقد هب من مرقده ، وخلع عن رأسه غطاءه ، وتطاير الشرر من عينيه — وكان هذا أبداً شأنهما فى عشيات المواقع — وقال : « ولكن لو أن هذا الفارس أراد أن ينصب علم الصليب فوق معبد بيت المقدس حيث أكون أنا عاجزاً عن أن آخذ بنصيبى فى هذا العمل النبيل ، إذن ليكابدن نزالى فى ضراب قاتل ، حينما بيت فى طوقى أن أظعن برمعى ، لحطه من ذكرى ، واستبقاه إلى هدفى ومرماى — دع هذا واستمع ! إنى لأسمع أبواقاً على بعد ، ماذا عساها ياترى أن تكون ؟ » .

فأجاب الرجل الانجليزى البدين وقال : « إنى لأخالها يامولاي أبواق الملك فيليب »



فقال الملك وهو يحاول النهوض : « إنما أنت أصم يا توماس ، ألا تسمع هذا الصليل وذاك الرنين ؟ وحق السماء لقد حل الترك في المعسكر ، وإني لأسمع هتافهم . ثم حاول أن ينهض من فراشه مرة ثانية ، فاضطر دى فو أن يلجأ إلى قوته النشومة ، وأن يستعين كذلك برهط من الحجاب ، فاستدعاهم من الفسطاط الداخلى كي يكبحوه .

فقال الملك وهو حائق — وقد تعلقت أنفاسه وأنهكه العراك ، فاضطر أن يخضع لقوة فوق قوته ، وأن يستقر على فراشه فى سكون : « أنت خائن غدار يادى فو ، ياليت لى من الطاقة ما يكفى لأن أهشم رأسك بسيفى » .

فقال دى فو : « ياليت لك هذه الطاقة يا مولاي ، بل وياليتك تصرفها كما ذكرت وتعرضنى لأخطارها ؛ لو مات توماس ملتن ، وعاد قلب الأسد كما كان ، إذن لرجحت كفة العالم المسيحى » .

فقال رتشارد وقد مديده ولثمها البارون إكراما وتبجيلا : « إنما أنت خادم مخلص أمين ، فهل تعفو عن سيدك وقد انتابه الجزع ؟ إن هى إلا هذه الحمى المحرقة التى تزجرك ، أما سيدك رتشارد ملك إنجلترا فرؤوف بك رحيم ؛ ولكنى أرجوك أن تذهب وتأتينى بالخبر اليقين : من هؤلاء الأغراب الذين حلوا بالمخيم ، فإنى لا أظن هذه الأصوات من أصوات المسيحيين » .

وخرج دى فو من السرادق بهذه الرسالة التى كُلفها ، ووكل إلى الحجاب والأصفياء والأتباع أن يضاعفوا رعاية المليك إبان غيبته — وقد اعترم أن لا يطيل أمدها — وتوعد أن يحملهم تبعات الإهمال ، فزار ذلك — بل زاد من تهبهم وقلقهم على أداء واجبه ، إذ كانوا يخشون من المليك حنقه وغضبه أولا ، ومن لورد جزلاندى^(١) صرامته وصلابته ثانيا .

(١) هو السر توماس ملتن الجزلاندى .

الفصل السابع

لم يمش على التخوم^(١) فترة من الزمن .
التحم فيها الاسكتلنديون مع الانجليز ،
إلا وكان من عجيب الأمور
ألا يجري الدم القاني في الطريق
متدفقا كما تتدفق مياه الأمطار .
موقعة أوتر بورن

انضم إلى صفوف المسيحيين عدد عديد من المقاتلين الاسكتلنديين ، وكان من الطبيعي أن ينضوا تحت لواء ملك الانجليز ، فلقد كان أكثرهم — كما كان الجنود من مواطنيه — من أصل سكسوني أو نورماندي ، وينطقون بلسانهم ، وبعضهم يمتلك عقارا في انجلترا كما يملك في اسكتلندا ، وترتبط بعضهم ببعض أواصر الدم وعرى التزاوج ؛ كما أن عصرنا هذا يسبق العصر الذي امتدت فيه مطامح ادوارد الأول العظيمة ، واتسعت حتى نفثت بين الأمتين سما زاعافا ، وجعلت الحرب بينهما مهلكة ضرورا ، فكان الانجليز يحاربون لإخضاع اسكتلندا ، والاسكتلنديون — بزمهم الصارم — وعنادهم الذي تميزت به أمتهم في كل العصور ، يحاربون للدفاع عن استقلالهم ، بأعنف الوسائل وتحت أسوأ الظروف ، مستهدفين لأشد المخاطر . أما الآن فكانت الحروب بين الأمتين — رغم حدتها وتكرار وقوعها — تقوم على مبادئ العداوة العادلة ، وتوسع رقعتها لظلال دمة ، تجد فيها الرأفة والاحترام الواجب نحو خصوم صرحاء كرماء ، سيلهما لأن يلطفا ويخففا من مفازع القتال ؛ ولذا ففي أوقات السلم ، وبخاصة حينما تكون الأمتان — كما هما الآن — مشتبكتين في حرب نشبت في سبيل داع واحد مشترك ، حرب جعلتها عقائدهم الدينية عزيزة على النفوس ، كان المخاطرون البواسل من

(١) المقصود هنا بالتخوم ما بين انجلترا واسكتلندا .

الدولتين يقاتلون جنبا إلى جنب ، وليس للمنافسة الوطنية من أثر ، إلا أن تعمل على حثهما على أن تترك كل منهما الأخرى في جهادها في وجه العدو المشترك . وكان رتشارد يتصف بالصراحة والخلق الحربى ، لا يفرق بين رعيته الخاصة ، وبين رعية وليم ملك اسكتلندا ، إلا بمقدار ما يظهرون من شجاعة وإقدام فى ساحة الوغى ؛ يسمى جهده لأن يوفق بين الأمتين ؛ ولكن لما وقع الملك فريسة للمرض ، وساءت ظروف الصليبيين ، عاد إلى الظهور ذلك التنافر بين الفرقتين اللتين لم يؤلف بين صفوفهما إلا الحرب الصليبية — كما تنفجر الجراح العتيقة من جديد فى جسم الانسان من تأثير مرض أو هزال .

والاسكتلنديون والانجليز كلاهما غيور حاد الطبع ؛ فى نفسه أهبة لأن يسىء الظن بالآخر ، والاسكتلنديون أشد من الانجليز إحساسا بهذا ، لأنهم أكثر الأمتين ضعفا وعوزا — فأخذ أبناء الأمتين يشغلون بالشقاق الداخلى تلك الفترة التى حرمت عليهم الهدنة فيها القتال مع العرب . والاسكتلنديون — كزعماء الرومان الأقدمين — لا يرضون لغيرهم أن يعلو عليهم ، كما أن جيرانهم ، أهل الجنوب ، لا يطيقون المساواة ، فتبادلوا التهم والسباب ، وحط كل فريق من شأن الآخر ، سواء فى ذلك عامة الجند وقادتهم وزعمائهم ، الذين كانوا خير صحاب وقت الظفر ، كأن وحدتهم لم تكن حينئذ أزم لهم من أى زمن مضى ، لالنجاح مسعاهم المشترك فحسب ، وإنما لسلامتهم جميعا كذلك . وبدأ مثل هذا التنافر يظهر كذلك بين الفرنسيين والانجليز ، والإيطاليين والألمان ، بل وبين الدنماركيين والسويديين ، ولكننا سنغنى فى روايتنا هنا قبل كل شىء بما كان من شقاق وانقسام بين أمتين تغذيهما جزيرة واحدة ، وهما لذلك أشد تحرشا إحداهما بالأخرى .

وكان دى ثو من بين أشراف الانجليز جميعا ، الذين ساروا وراء ملكهم إلى فلسطين ، أشدهم تحاملا على الاسكتلنديين . كانوا جيرانه الأقربين ، وقد اشتبك معهم طوال حياته ، فى حروب خاصة أو عامة ، وأوقع بهم كثيرا من المصائب ،

وتحمل على أيديهم غير قليل من الأرزاء ، وكان حبه وإخلاصه للملكة قويا شديدا
كحب الكلب الانجلىزى قديما لصاحبه ، وكان شرسا لا يقربه أحد غير سيده ،
حتى أولئك الذين لم يكن له شعور خاص نحوهم من حب أو بغض ، وكان فظا
خطرا على كل من لم يكن معه هواه ؛ وما رأى دى فو ملكه قط يظهر أية إشارة
من اشارات الرضا والرافة لذلك الجنس اللثيم الغادر المتوحش^(١) الذى نشأ على
الضفة الأخرى للنهر الذى يفصل بين بلاده وبلادهم ، أو على الجانب الآخر لأى
خط وهمى يشق الفيافي والقفار ويفصل بينه وبينهم ، إلا وتملكته الغيرة والسخط ؛
بل إنه كان يشك فى نجاح الحملة الصليبية ، التى كان أولئك القوم يحملون فيها
السلاح ، وكان ينظر إليهم فى دخيلة نفسه وكأنهم لا يفضلون كثيرا الأعراب
الذين أتى لنزاهم ، بل وفوق ذلك كان دى فو يرى نفسه رجلا انجلىزيا صريحا
هادى الطبع ، لم يتعود أن يخفى أية إشارة — مهما خفت — من اشارات الحب
أو البغض ، ولذا فقد كان ينظر إلى التطرف والتلطف فى الحديث — الذى تعلمه
الاسكتلنديون من تشبههم بالفرنسيين حلفائهم الداعمين ، أو الذى ربما كان ينبعث
عن إعجاب بالنفس وتكتم فى الخلق — كأنه دليل على خطط ماكرة يدبرونها ضد
جيرانهم الذين كان دى فو يعتقد — والثقة الانجلىزية الحق تملأ نفسه — أن
الاسكتلنديين لن يتفوقوا عليهم بمحض الرجولة الخالصة .

ومع أن دى فو كان يتأثر بهذه العواطف نحو جيرانه أهل الشمال — بل
وكان يبالح فيها ويبقى عليها غير منقوصة ، حتى كانت تشمل أولئك الذين
ينضوون منهم تحت لواء الصليب — فقد كان احترامه للملك ، وإحساسه بالواجب
الذى يفرضه عليه عهد أخذه على نفسه للصليبيين ، يحرم مان عليه أن يظهر هذه
العواطف بأية وسيلة ما ، إلا أنه أصر على أن يتحاشى مخالطة الاسكتلنديين
زملائه فى القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان يتكتم ويكتئب إذا اضطرت
الظروف أن يلاقهم حينما ، وكان ينظر إليهم شزراً إذا التقى بهم فى المسير

(١) يقصد الاسكتلنديين .

أو الخيم ؛ ولم يكن أشرف الاسكتلنديين وفرسانهم ليتقبلوا هذا الازدراء بالتغاضى أو إهمال الجواب ، فكان أن أصبحوا ينظرون إليه كأنه عدو دائب لدود لأمة لم يحمل لها في الواقع أكثر من البغض وشيء من التحقير ؛ بل إن كل من أمعن ودقق ، عرف أنه وإن لم يعاملهم ببر المسيحية ، الذى يقضى على المرء أن يقاسى كثيراً ويغلب الرأفة والشفقة إذا تحكّم - إلا أنه لم يفته بأية حال أن يكرمهم - ولو قليلا وإلى مدى محدود - إكراماً يخفف من عوز المحتاجين ، ويفرج من هم المكرويين ؛ وكان لتوماس الجوزلاندى من الثروة ما يمده بالموونة والدواء ، فكان شيء من هذا المدد يتسرب سرا إلى منازل الاسكتلنديين ، وهذا الإحسان الجافى كان يقوم على عقيدة أن العدو بلى الصديق فى الأهمية ، ولا يتوسطهما رجال هم بين بين ، فإنما هؤلاء لاهم إلى أولئك ولا هم إلى هؤلاء ، وليسوا أهلا حتى للمحة من الفكر أو الاعتبار . وهذا البيان ضرورى للقارى كي يفهم جد الفهم ما سنفصله فيما بلى .

لم يبعد توماس دى فو كثيرا عن مدخل السرادق الملكى حتى أدرك ما أدركته فى ملح البصر أذن ملك انجلترا الحادة ذات الخبرة والمعرفة بفن العزف والغناء ، وذلك أن الألحان الموسيقية التى طرقت أذنيه ، كانت تنبعث من مزامير العرب وقصباتهم وطبولهم ، وفى نهاية طريق طويلة ضربت الخيام على جانبيها ، متصلة بفسطاط رتشارد ، وقعت عيناه على حشد من الجنود الكسالى ، تجمعوا حول المكان الذى كانت أنغام الموسيقى تنبعث منه ، وهو يتوسط المعسكر ؛ ولشد ما كانت دهشته حين رأى بين الخوذات المتعددة الأشكال - التى كانت على رؤوس الصليبيين من الأمم المختلفة - عمامات بيضا وحراباً طوالا ، مما كان يدل على وجود الأعراب المسلحين ؛ كما رأى كثير من رؤوس الجمال والإبل الضخمة المشوهة ، وقد مكنتها أعناقها الطويلة القبيحة من الإشراف على الجمع المحتشد .

عجب البارون لهذا المشهد واشتد سخطه ، إذ رأى منظراً فريداً لم يكن يتوقعه ؛

ذلك لأن العادة جرت بأن تُلقى أعلام الهدنة جميعاً ، وغير ذلك من رسائل العدو ، في مكان معين خارج الحدود . وتلفت شغوقاً ذات اليمين وذات اليسار ، عليه يرى أحداً يستفسر منه عن علة هذه الظاهرة الجديدة الخطيرة .

وكان أول من وقعت عليه عيناه من الناس رجل يتقدم نحوه ، ظنه لأول وهلة من خطوه الرزين المتعجرف أسبانيا أو اسكتلندا ، ثم تمم لنفسه وقال : « إنه اسكتلندي ؛ إنه فارس النمر ، لقد شاهدته مرة يقاتل في سبيل رجل من بني وطنه فيحسن القتال ولا يبالي » .

وقد كره أن يتندر القادم حتى بسؤال عارض ، وأوشك أن يمر بالسر كنه وعلى سباه الأكتئاب والتكبر ، وكان لسان حاله يقول : « إني أعرفك ، ولكني لن أبادلك الخطاب » . ولكن فارس الشمال أفسد عليه خطته إذ قبل عليه يقصده ، وبدأ بالمجاملة وقال : « سيدي دي فو الجزلاندي ، في ذمتي رسالة عليّ أن أبلغك إياها » .

فرد عليه البارون الأنجيزي وقال : « ها ! رسالة تبلغنيها ؟ قل ما شئت وأوجز إنما أنا في خدمة الملك » .

فأجاب السر كنه « إنما رسالتني أمس بالملك رتشارد مما تقوم أنت عليه ، لقد أتيت بالصحة والعافية ، إن صح أمني » .

وهنا رمق لورد جزلاندي الرجل الاسكتلندي بعين الريبة والإنكار وقال : « لست بالطبيب المداوي على ما أعتقد يا سيدي الاسكتلندي — إنه لأقرب إلى ظني أن تأتي لملك انجلترا بالمال والثراء » .

ولم يرض السر كنه عن الأسلوب الذي أجابه به البارون ، فرد عليه في هدوء وقال : « إنما الصحة لرتشارد نغار وثروة للعالم المسيحي طرا — ولكني على عجل ، وأتوسل إليك أن تأذن لي برؤية الملك » .

فقال البارون : « كلا يا سيدي الكريم ، لن تراه حتى تُفَضَى إلى برسانتك

بأكثر من ذلك جلاء . ليست غرف الأمراء المرضى مفتحة الأبواب لكل طارق
كأنها نزل من منازل الشمال .

فأجاب السركنث وقال : « إن الصليب الذى أحمله ياسيدى — كما تحمله
أنت — والأمر الجلل الذى أتيت لتبليغه ، يمتحان على الآن أن أتقاضى عن أسلوبك
هذا ، الذى ما كنت لولا ذلك لأصبر عليه ؛ واعلم فى صريح العبارة بعد هذا أنى
أتيت مى بطبيب من بلاد المغرب أخذ على نفسه أن يبرى لنا الملك رتشارد .
فقال دى فو : « طيب من بلاد المغرب ! ومن ذا الذى يكفل لنا أنه لم يأت
بالسم النافع عوضاً عن الدواء الناجع ؟ » .

« حياته ياسيدى — إنه يقدم رأسه كفالة لما يقول » .

فقال دى فو « كم من رجل خبيث ، ثابت العزم ، عرفت ، لم يُقم حياته
وزناً ، بل يسيرُ إلى المقصلة مرحاً كأن الجلاد رفيق له فى حلبة الرقص » .

فأجاب الرجل الاسكتلندى وقال : « حقيقة الأمر ياسيدى أن صلاح الدين
— الذى لا يتكر عليه أحد أنه عدو كريم شجاع — قد بعث بهذا الطبيب إلى
هنا ، ومعه حاشية شريفة وحرس نبيل ، ممن يليق بالسكّانة العليا التى يرفع
السلطان إليها « الحكيم » ، ومعه كذلك فاكهة وطعام وشراب لغرفة الملك
الخاصة ، كما أنه يحمل رسالة جديرة بأن تصدر من عدو نبيل إلى عدو نبيل ، يرجو
له فيها أن يسلم من الحمى معافى ، حتى يتهيأ لزيارة السلطان الذى سوف يأتيه ويده
أحذب مسلول ، وخلفه مائة ألف فارس ؛ فهل تأذن — وأنت من أعضاء المجلس
الملكى السرى — بأن تُطرح عن هذى البعير أحمالها ، وأن تُعد العدة للقاء
الطبيب النطاسى ؟ » .

فأجاب دى فو وكأنه يحدث نفسه : « باللعجب ! ومن ذا الذى يكفل لنا شرف
صلاح الدين فى أمر ، لو ساء فيه مقصده ، نخلص فى الحال من أشد خصومه
وأقوامه ؟ » .

فأجاب السر كنت : « سأكون أنا نفسي له ضمينا بشر في وحياتي ومالي » .
فتمت دي فو ثانية وقال : « عجبا ، رجل من أهل الشمال يكفل رجلا من أهل
الجنوب — اسكتلندي يضمن تركيا ! هل لي ياسيدي الفارس أن أسألك كيف
أضحى يهملك هذا الأمر ؟ » .

فأجاب السر كنت : « كنت متغيبا في الحج ، وكانت لدي حينذاك رسالة
أبلغها ناسك (عين جدة المقدس) » .

« هلا تستأمنني على هذه الرسالة يا سر كنت ، وعلى ما أجب به الناسك عليها ؟ » .

فأجاب الاسكتلندي قائلا : « كلا ياسيدي » .

ورد عليه الرجل الإنجليزي في أنفة وكبرياء وقال : « إني من أعضاء المجتمع
السري في إنجلترا » .

فقال السر كنت : « ليس عليّ لهذه البلاد حق الولاء ؛ وإن كنت قد تبعت
جانب ملك إنجلترا في هذه الحرب طائعا ، إلا أنني مرسل من قبل المجتمع العام للملوك
والأمراء وكبار القواد في جيش الصليب المبارك ، ولهوؤلاء وحدهم أقوم برسالتني » .
فأجاب البارون دي فو نفورا شامحا بأنفه وقال : « ها ! ماذا تقول ؟ اعلم يا من
قد تكون رسول الملوك والأمراء ، أن ليس لطبيب أن يقرب فراش رتشارد ملك
إنجلترا دون قبول رجل جازلاندي ، ولن يجسر على اعتراض مشيئتي إلا من أتى
برسالة السوء » .

ثم هم بالانصراف في كبر وخيلاء ، ولكن الرجل الاسكتلندي دنا منه ،
واعترض سبيله ، ووجه إليه الخطاب في صوت خافت ، ولكنه لم يخل من نبرة
تم عن بعض الاعتزاز بالنفس ، وسأله إن كان يقدره كرجل كريم وفارس نبيل .
فأجاب توماس دي فو في شيء من التهمك والسخرية وقال : « الاسكتلنديون
جميعا أشراف نبلاء بفضل مولدهم ونشأتهم » ؛ ولكنه أحس بالحيف في كلامه ،
ورأى الدم يعلو في وجنتي كنت ، فاستطرد قائلا : « من الجرم أن يرتاب المرء في أنك

فارس نبيل ، وإنه لا يثم على الأقل من رجل رآك وأنت تؤدي واجبك حق الأداء في جرأة وأقدام .

وصادفت هذه الصراحة في هذا الاعتراف الأخير من نفس الفارس الاسكتلندي قبولا فقال : « إذن فاني أقسم لك يا توماس الجزلاندي — وأنا رجل حسيب نسيب ، وأنا فارس ارتديت نطاقى وأتيت إلى هنا طلبا للشهرة والصيت في هذه الحياة الفانية ، والعفو عن ذنوبي في الحياة الآخرة — أني ، بحق هذا الصليب المبارك الذي أحمل ، حين أوصى بخدمة هذا الطبيب المسلم ، لا أرمى إلا إلى سلامة رتشارد قلب الأسد » .

فصعق الرجل الإنجليزي من هيبة هذه الضراعة ، وأجاب باخلاص أشد مما أظهره حتى آنئذ وقال : « خبرني يا فارس النمر لو أني سئمت بأنك عن نفسك مقتنع بهذا الأمر ، فهل تظن أني أصيب في بلاد ، فن التسمم فيها ذائع بين الناس ذبوع فن الطهي ، إن أنا أتيت بهذا الطبيب المجهول ، يجرب عقاقيره في رجل ، صحته لها قيمتها في العالم المسيحي » .

فأجاب الاسكتلندي قائلا : « سيدي — لا يسعني إلا أن أجيب بأن حامل ترسي وهو الوحيد من أتباعي الذي أفلت من الحروب والأوبئة وبق لي يسهر على — قد أصيب منذ عهد قريب بهذه الحمى ذاتها ، التي حلت بالملك رتشارد الصنديد فشلت أهم الأعضاء في هذا المشروع المقدس ، وقاسى منها كثيرا وتعرض لأخطارها ، فأمدته الحكيم بالدواء من منذ أقل من ساعتين ، وهو الآن يغط في نوم هادي ؛ أما أن هذا الحكيم يستطيع أن يشفي هذه العلة القاتلة فاني لا أشك في ذلك ، وأما أنه يرغب في الأداء فهذا ما يكفله — على ما أظن — أنه رسول من السلطان صاحب النفوذ ، وهو رجل طيب القلب مخلص أمين ، إن صح أن تطلق هذه الصفات على كافر أعمى البصيرة ؛ ويكفينا ضمينا أنه إن نجح في علاجه فله ثواب مؤكد ، وإن فشل عامدا فعليه الجزاء » .

وكان الرجل الإنجليزي يصني مطرق النظرات ، كأنه يشك فيما يسمع ؛

ولكنه لم يكن عن الاقتناع راغبا ، وأخيرا رفع بصره وقال : « هل لي أن أرى خادمك المريض يا سيدي الكريم ؟ » .

فتردد الفارس الاسكتلندي وعلا الدم في وجنتيه وأجاب أخيراً وقال :
« بكل ارتياح يا لورد جزلاندا ، ولكنك يجب أن تذكر ، حين ترى حقارة مسكني ، أن نبلاء اسكتلندا وفرسانها لا يسرفون في الطعام ، ولا يتقبلون على الحرير ، ولا يأبهون لجلال المقام ، إنما هذى من خواص جيرانهم أهل الجنوب » ، ثم استطرد وقال : « إنى أقطن في بيت حقير يا لورد جزلاندا » ، وشدد التأكيد على كلمة « حقير » في عبارته وهو يسير نحو مقر إقامته المؤقت في شيء من التآبي والتمنع .

ومهما تسكن أهواء دى فو ضد الأمة التي كان منها هذا الرفيق الجديد - ونشهد أنا لا ننكر أن بعض هذه الأهواء يرجع إلى ما سار عن هذه الأمة في المثل من الفقر والعوز - فلقد كان فيه لديه من نبل المقصد ما لم يجيب إليه إذلال رجل باسل جرىء ، أكرهته الظروف على أن يبوح بفاقة كان يود إخفاءها .
فقال : « عار على مقاتل الصليب أن يفكر في زخرف الدنيا أو في رغد العيش وهو يشق الطريق للاستيلاء على الأرض المقدسة ؛ إنا مهما تكبدنا من مشقة فنحن خير من جماعة الشهداء والقديسين الذين وطئوا هذه الأرض من قبلنا ، وهم الآن يسكون بمصاييح من ذهب وبنخيل دائم الاخضرار » .

ولم ينطق قط توماس الجزلاندي بحياته بمحدث فيه من الكناية والاستعارة مثل ما في هذا الكلام ، وربما كان ذلك لأن هذا الحديث لم يعبر عن كل ما كان يجيش في نفسه من إحساس وعاطفة ، لأنه كان على شيء من حب اللهو ورخاء العيش ؛ وقد بلغنا حينئذ مكان المخيم الذي اتخذته فارس النمر له مسكنا .

وكان ظاهر السكان هنا يدل على أن قواعد التقشف ، التي كان الجزلاندي يرى أن الصليبيين جميعاً يجب أن يلزموها ، قد روعيت جميعاً : مساحة من الأرض قد تتسع لأن تقام فيها ثلاثون خيمة ، ترك بعضها خلاء وفقاً لقواعد

الصليبيين في ضرب الخيام - وذلك لأن الفارس كان قد طلب أرضاً تنسج في ظاهر الأمر لحاشيته الأولى - وأقيم في بعضها الآخر قليل من الأكوخ الحقيمة المصنوعة من غصون الأشجار ، والتي تظللها أوراق النخيل ، وكان يبدو على هذه المساكن أنها قد هجرت كل الهجران ، فخرّب الكثير منها وتدمر ، وكان الكوخ الأوسط - وهو يمثل سرادق القائد - يتميز بعلم صغير له ذيل كذيل السنونو ، رفع على رأس رمح وتمهدت ثناياه الطويلة على الأرض في سكون ، كأنه يتألم من حرارة شمس آسيا المحرقة ؛ ولم يقف إلى جوار هذا الكوخ - وهو رمز نفوذ الاقطاع وشرف الفروسية - حاجب أو خادم أو حتى حارس واحد ؛ فإذا كان اسم المكان لا يدفع عنه العدوان ، فهو مكان لا يستحق الحراسة . أرسل السر كنهث حواليه نظرة كثيبة ، ولكنه كبج إحساسه ودخل الكوخ ، وأشار إلى البارون جزلاند أن يتبعه ، ثم تلفت حواليه ثانية ، وأرسل نظرة فيها تمن ، ثم عن إشفاق مشوب بشيء من الازدراء ، والإشفاق - كالحب - يسير دوماً مع الازدراء كما يقولون ؛ ثم نكس رأسه الشامخ ، ودخل كوخاً منخفضاً كاد جسمه الضخم أن يملأ كل فراغه .

وكان أهم ما يشغل داخل الكوخ سريران ، أحدهما خال ، وقد انتثرت عليه مجموعة من أوراق الأشجار وانتشر فوقه جلد ظبي ؛ وتدل الأسلحة الملقاة إلى جانبه ، والصليب الفضي المرفوع إلى رأسه في عناية ووقار ، على أن هذا السرير هو فراش الفارس نفسه ؛ أما السرير الآخر فكان يضم العليل الذي تحدث عنه السر كنهث ، وهو رجل قوى البنية ، غليظ الملامح ، تدل نظراته على أنه قد تجاوز سن الكهولة ؛ وكان سريره أكثر هنداماً وأشد نعمة من سرير سيده ، وقد بدا للعيان أن السر كنهث قد وقف ثيابه الفاخرة وعباءة الفضفاضة ، التي كان الفرسان يرتدونها في أوقات السلم ، وغيرها من الأشياء الدقيقة التي تتعلق باللباس والترين ، على توفير الراحة لخادمه العليل ؛ وفي مكان خارج الكوخ ، يقع تحت بصر البارون ، كان يجثو على ركبته غلام خشن الكساء ، يلبس حذاء طويلاً

من جلد الغزال ، وقلنسوة زرقاء ، وصدار له مشبك من الحديد انطقاً بريقه ، إلى جوار صحفة بالية مملوءة بالفحم ، وكان يطهى في طبق من الصلب خبزاً من الشعير كان إذ ذاك — ولا يزال — طعاماً مستحباً لأهل اسكتلندا ، وكان جانب من ظبي يتعلق بدعامة من دعامات الكوخ الكبيرة ، ولم يكن من العسير على الرائي أن يعرف من أين كان هذا الظبي ، فلقد كان هناك كلب كبير من كلاب الصيد أكبر حجماً وأنبل مظهرها من غيره ، حتى من تلك التي تقوم على حراسة الملك رتشارد وهو في فراش المرض ، وكان الكلب يرقد وهو يرقب بمينيه الفطير وهو يخبز ، وحينما دخل الفارس وصاحبه الكوخ ، أرسل الكلب الأريب نباحاً محتثقاً ينبعث من صدره العميق كأنه رعد يقصف على أمد بعيد ، ولكنه لمح صاحبه ، فهز ذيله ونكس رأسه اعترافاً بوجوده ، وسكت عن تحيته ذات العجيج والضجيج كأن غريزته النبيلة قد علمته حشمة الصمت في غرفة المريض .

وعلى حشية من الجلد إلى جانب السرير كان يجلس الطبيب المغربي الذي تحدث عنه المركنت ، وقد وضع ساقاً فوق الأخرى كما يفعل أهل الشرق عادة ، ولم يبد منه في النور الضئيل غير قليل ، إلا أن النصف الأدنى من وجهه كانت تحجبه لحية طويلة سوداء ، أرسلها على صدره ، وكان يرتدى تقيّة تريّة من صوف الغنم ، صنعت في « استراخان » لونها قاتم ، وقفطانه الفضفاض — أو ثوبه التركي — كان كذلك ذا صبغة معتمة ؛ وفي هذا الظلام ، الذي كان يغشى ملامحه ، لم يبد من أسارير وجهه غير عيين نافذتين ، يتألق فيهما بريق غير معهود ، فوقف اللورد الانجليزى صامتاً في تهيب ووقار ، لأن هذا الرجل المائل أمام دى فو — رغم خشونة هيئته — كان عليه سيما الكرب والعوز يقاسهما برباطة جأش دون شكوى أو أنين ، ومثل هذا المشهد ، في أى وقت كان ، يدعو توماس دى فو إلى احترام لا تثيره في نفسه المظاهر الفاخرة التي تحيط بغرف الملوك ، مع استثناء غرفة الملك رتشارد وحدها .

ولم يُسمع لفترة من الزمن صوت غير أنفاس مطردة وثيدة يرددها الليل ، الذي كان ظاهره يدل على أنه في سبات عميق .

وقال السر كنت : « لم يأخذ الكرى بمعقد جفنيه لست ليال مضت ، كما يؤكده لي الشاب الذي يباشره » .

فقال توماس دي فو وقد أمسك بيد الفارس الاسكتلندي وضغط عليها ضغطا فيه من الإخلاص ما لم يبدُ في كلامه : « أيها الاسكتلندي النبيل ، ينبغي لك أن تعني بخادمك هذا ، فهو لا يأخذ من الطعام ما يكفيه ؛ ولا من العناية ما يفتنيه » .

ورفع صوته بطبيعة الحال إلى نبرته المألوفة الحاسمة في العبارة الأخيرة من كلامه ، وحينئذ اضطرب العليل في سباته .

فقال : وكأنه يدمدم في حلم : « سيدى ، اى سر كنت النبيل ، هلا نشرب أنا وأنت من ماء الكليد^(١) البارد الشافى بعد مياه العيون الآسنة في فلسطين ؟ » . فأسر السر كنت إلى دي فو وقال : « إنه يحلم بموطنه ، وإنه لسعيد في نعاسه » ولم يكده يلفظ بهذه الكلمات حتى هب الطبيب من مكانه بجوار سرير المريض ، ووضع يد العليل — التي كان يرقب نبضها بعناية وحذر — على الفراش ، في هدوء وسكينة ، ثم أقبل على الفارسين وأمسك كلا منهما من ذراعه ، وأشار إليهما أن يلزما الصمت ، وسار بهما إلى خارج الكوخ .

ثم قال : « باسم عيسى ابن مريم ، الذى نكرم كما تكرمون ، ولكننا لنحوطه بالخرافة العمياء ، لا تفسدا أثر الدواء الناجع الذى تناول منه المريض . فى يقظته الآن إما حتفه أو فقدان عقله ؛ اذهبوا وعودا حينما ينادى المؤذن من فوق المنارة بصلاة المغرب فى المسجد ؛ وإذا بقى المريض دون قلق حتى آتئذ ، فانى أعدكم أن هذا الجندى الفرنجى سوف يقوى — دون إجهاد لصحته — على أن يتبادل معكما حديثا قصيرا فى أى أمر تسألانه فيه ، وبخاصة إن كان السائل سيده » .

فترجع الفارسان طوعاً للأمر الجازم الذى أمرهما به الطبيب ، وكان يبدو

(١) الكليد نهر فى اسكتلندا .

عليه أنه يفهم جد الفهم أهمية الحكمة الشرقية السائرة ، وهي أن غرفة المريض مملكة الطبيب .

وتوقف الفارسان عن المسير ، ولبثا واقفين معاً لدى باب الكوخ ، وعلى سبيل السر كنت أنه كان يتوقع من زائره أن يودعه ، ويبدو على دى فو كأن في نفسه شيئاً يحول بينه وبين أن يفعل ذلك ؛ ولكن الكلب انطلق من الخيمة وراءها ورمى بوجهه الطويل الخشن في يد صاحبه ، كأنه يتوسل إليه خاشعاً أن يخلع عليه بعض عطفه ، ولم يكد الكلب يحظى من صاحبه بالرعاية التي أراد ، في كلمة طيبة ، وتريت خفيف ، حتى ود أن يظهر عرفانه للجميل وسروره بمجاوبة سيده له ، فهرع مسرعاً ، وهروول في مسيرة ، ومد ذيله ولوح به يمينا ويساراً ، وأداره هنا وهناك ، وهزه إلى أعلى وإلى أسفل ، وهو يجوس خلال الأكوخ المهدمة والرجبة التي وصفنا ، ولكنه لم يتخط حدود المنطقة التي عرف بفطنته أن علم صاحبه يحميها ، وبعد بضع وثبات من هذا القبيل ، دنا الكلب من صاحبه وتغلى لحينه عن مجونه ، وعاد إلى الجد الذي ألف ، وإلى حركاته الوئيدة ومسلكه التواني ، وبدا عليه الخجل لأنه تنحى إلى هذا الحد البعيد عن الرزاة وحكم النفس ، أيا كان الباعث على ذلك .

فنظر الفارسان جذلين ؛ أما السر كنت فقد حق له أن يفخر بكلبه النبيل ، وأما البارون الانجليزى — وهو من أهل الشمال — فقد كان بطبيعة الحال ممن يعجبون بالصيد ، فيستطيع أن يقدر ماثل هذا الكلب من جدارة .

فقال : « إنه كلب سليم قدير ، وإني لأظن ياسيدى أن لو كان لهذا الكلب من القوة ماله من سرعة العدو ، إذن فلن يكون له لدى الملك رتشارد صنو أو نظير ، ولكنى أرجوك — وأنا أكلّمك بالشرف والكرامة — أن تجربنى هلاً سمعت بالبيان الذى يحتم على كل من هم دون مرتبة « الأيرل » أن لا يقتنوا كلاب الصيد فى دائرة الملك رتشارد بغير إذن منه ، وما أظن ياسير كنت أنك استصدرت من المليك هذا الإذن ، وإني أكلّمك الآن كتابع من أتباع الملك » .

فقال السر كنت محتدا : « وإني أجيبك كفارس اسكتلندي حر ؛ إني أسير اليوم تحت لواء إنجلترا ، ولكنني لا أذكر أنني خضعت يوما لقوانين الغاب التي تسود في هذه الدولة ، بل وإني لا أحمل لها من الاحترام ما يدفني إلى ذلك ؛ إذا نفخ في البوق لجل السلاح خفت قدماى إلى ركابي كما يخف غيرى ، وإذا رن رنينه للحمل على العدو ما تخلف رمحي وراء غيره أو استكن ؛ ولكنني إذا فرغت من واجبي وكانت ساعة التراخي ، فليس من حق الملك رتشارد أن يحول بيني وبين زهتي وراحتي » .

فقال دى فو : « ومع ذلك فإنه من الحق أن لا تطيع سنة المليك ، ولنا فهل تسمح لي — بصفتي صاحب النفوذ في هذا الأمر — أن أبعث إليك بما يحمي صاحبي هنا ؟ » .

فأجاب الاسكتلندي في برود : « شكرا لك ، ولكنه يعرف الحى الذى يخصنى ، وفي حدود هذا الحى أستطيع أن أدفع عنه بنفسى ، ومع ذلك . . . »
وهنا بدل أسلوب كلامه واستطرد قائلا : « ومع ذلك فما هذا إلا رد بارد منى لعطف نبيل المقصد ؛ إني أشكرك يا سيدى بكل قلبى ، إن رؤساء الاصطبل الملكى قديرون في «رزوال» (اسم الكلب) بعض المضرة فيلحقون به الأذى ، ولكنني قد لا أتوانى في رد هذا الأذى ، وقد ينجم الشر عن ذلك ، لقد رأيت الكثير من شؤون دارى يا سيدى » ، وهنا تبسم واستأنف الحديث وقال : « فلا أرى بى حاجة إلى أن أستحى من أن أقول بأن «رزوال» هو أهم ما يمدنا بالموونة ، وإني لشديد الأمل فى أن رتشارد الأسد لن يكون كالليث الذى نسمع به فى الأغاني الخرافية ، الذى خرج للصيد وعاد بالغنيمة كلها لنفسه ؛ إني لا أظن أنه يرض على رجل كريم فقير ، من اتباعه المخلصين ، بساعة يلهو فيها ، وجناح طائر يتبلغ به ، وبخاصة إذا كانت الأطعمة الأخرى عسيرة المنال » .

فقال البارون : « وحق ما أعبد إنك إنما تنصف الملك ، ولكن فى ثنايا لفظك — رغم رفته وعذوبته — ما يثير نائرة كل أمير نورماندى » .

فقال الاسكتلندى : « لقد سمعنا أخيرا من أفواه المنشدين والحجاج أن جماعة من طريدى الدهاء فى بلادكم قد ألقوا عصابات كبيرة فى مقاطعتى يورك وتنجهام وعلى رأسهم نبال شديد البأس يدعى « روبن هود » ، ووكيله « جون الصغير » ، وإنى لأظن أنه خير لرتشارد أن يتراخى فى تطبيق قانون الغاب فى انجلترا من أن يفرضه فى الأرض المقدسة » .

فأجاب دى فو وقد هز كتفيه كأنه يود أن يتحاشى التخبط فى جدل خطر كريمة وقال : « حقا إنه لعمل عنيف يا سر كنت ، وإنيها لنديا جنون يا سيدي — والآن يجب أن أودعك ، إذ لا بد لي أن أسارع بالعودة إلى سرادق الملك ، وسأعودك فى مسكنك إن رضيت ساعة الغروب ، وأتحدث إلى هذا الطبيب المشرك ؛ وإنى لأحب بطيب الخاطر أن أبعث إليك بما يسرى عنك ولو قليلا ، إذا كنت لا ترى فى ذلك إيذاء لنفسك » .

فقال السر كنت : « أشكرك يا سيدي ، لا حاجة بي إلى ذلك ، لقد أتى « رزوال » إلى خزانه ما كلى بما يكفينى أربعة عشر يوما ، فإن شمس فلسطين ، التى تجلب الأمراض ، تساعد على حفظ لحم الغزال مقددا جافا » .
ثم افترق المحاربان وهما أشد صداقة مما التقيا أول الأمر ، وقبل أن ينفصلا ، وقف توماس دى فو يتعرف بشيء من الإسهاب الظروف التى تلابس بعثة هذا الطبيب الشرقى ، وتسلم من الفارس الاسكتلندى وثائق الاعتماد التى أتى بها من صلاح الدين الملك رتشارد .

الفصل الثامن

الطبيب الحكيم يمدق شفاه الجروح
أجدى على الإنسان من جيوش وجيوش .
من الالباذة ترجمة « بوب »

استمع الملك المريض إلى ما نبأه به بارون جزلاند الصادق الأمين ، ثم قال :
« هذه قصة عجيبية ياسر توماس ، هل أنت على يقين من أن هذا الرجل الاسكتلندى
صادق أمين ؟ » .

فرد عليه الرجل الفيور ساكن الحدود وقال : « لا أستطيع أن أجيبك على
ذلك ياسيدى ، إنى أسكن بلدا شديداً القرب من الاسكتلنديين ، ولكنى لم أتبين
فيهم كثيراً من الصدق ، وقد وجدتهم أبداً يتذبذبون بين الحق والباطل ؛ ولكن
هذا الرجل يتخلق بالصدق ، وسواء كان شيطاناً أم اسكتلندياً ، فإن من واجبي
أن أعترف له بهذا إرضاء لضميري » .

ثم سأله الملك وقال : « وماذا ترى في هيئته كفارس يادى فو ؟ » .

« إن جلالتم أعرف منى بهيئات الرجال وسلوكهم ، وإنى على ثقة من أنكم
قد لحظتم كيف كان مسلك رجل النمر هذا ، فلقد تحدث الناس عنه طويلاً » .

قال الملك : « حق ما قلت يا توماس ؛ إنا شهدناه بأنفسنا ، ولقد كان مرمانا
أبداً من تصدر المارك أن نرى كيف يقوم موالينا وأتباعنا بواجباتهم ، ولم نتقدم
قط الصفوف مدفوعين بشهوة الزهو والغرور ، كما قد يتطرق إلى أذهان بعضكم ؛
إننا نعلم أن ثناء الانسان زهو باطل ، وإن هو إلا كبخار الماء ، ولذا فلقد شككنا
السلاح لأغراض أخرى ، لا طمعا في اجتلاب المدح والثناء » .

فصمق دى فو حينما سمع الملك وهو يلقى هذا البيان الذى لا يتفق وطبيعته ،
وظن لأول وهلة أنه لم يعمد إلى هذا الحديث المهين عن الشهرة العسكرية — وقد
كانت له بمثابة الأنفاس يستنشقها — إلا لاقتراب الموت منه على الأقل ، ولكنه

تذكر أنه التقى في السراشق الخارجي بالقس الذي تعود الملك أن يعترف له ، ففطن إلى أن إذلال النفس هذا ، الذي تملك الملك إذ ذاك ، هو من أثر الوعظ الذي ألقاه ذلك الرجل المقدس ، فلم يحرج جواباً ، وإنما أخذ يكابد الملك وقد استأنف الحديث . وقال رتشارد مستطرداً : « أي نعم ، لقد شهدتُ حقاً بأى أسلوب كان هذا الفارس يقوم بواجبه ، والله لولا ملازمته لي لما كان لعصا قيادتي شأن يذكر ؛ لقد أصابه قبل اليوم شيء من جودنا ، ولكنني لحظت فيه الاعتداد بالنفس والصلف والإقدام » :

وهنا لحظ بارون جزلاند أن الملك قد تغيرت ملامحه فقال : « مولاي ، إني لأخشى أن أكون قد اعتديت على جلالتكم باغضائي قليلاً عن تجاوزه وعدوانه » . فأجاب الملك وقد قطب جبينه وتكلم بلهجة الدهشة والغضب وقال : « كيف هذا يا دى ملتن ؟ هل أنت تتجاوز عن قبحته ؟ إن هذا لن يكون » .

« هل لمولاي أن يأذن لي أن أذكره أن من حق وظيفتي أن أسمح لمن كان من دم كريم أن يقتني كلباً أو كليبين في المعسكر ، وذلك إبقاء على الفن النبيل ، فن الصيد والقنص ؛ بل إنه لمن الجرم أن نشوه أو نوذي مخلوقاً وديعاً ككلب هذا الرجل الكريم » .

فقال الملك : « إذن إن له لكلباً مليح المنظر » .

فأجاب البارون ، وهو رجل شديد الحب للقنص في الخلوات ، وقال : « إنه لمخلوق سماوي وافر الكمال ، وهو من أنبل الفصائل الشمالية ، عريض الصدر ، قوى العجز ، أسود اللون ، مرقش من قُبُل وعلى الأقدام بخطوط داكنة ، عليه سمات شهباء تضرب إلى البياض ، فيه قوة يصرع بها الفحل ، وسرعة يطارد بها الوعل » .

فضحك الملك من هذه الحماسة وقال : « وقصارى القول إنك قد أذنت له باقتناء الكلب وانتهى الأمر . ولكنني أحذرك ألا تتهاون في إصدار إذنتك كل هذا التهاون بين هؤلاء الفرسان ، الذين ليس لهم أمير أو قائد يركنون

إليه ؛ إنهم قوم شديدو المراس ، وقد لا يخلفون في فلسطين بأسرها صيداً يقتنص
— ولكن دعنا من هذا ، وخبرني عن علم هذا الرجل المشرك ، إنك تقول إن
الاسكتلندي قد لاقاه في الصحراء ، أليس كذلك ؟ » .

« كلا ياسيدي ، قصة الاسكتلندي كما يلي : كان في طريقه رسولا إلى ناسك
عين جدة الذي يتحدث الناس عنه كثيراً — » .

وهنا هب رتشارد من مرقدته وقال : « يالغداحة الخطب ! من الذي بعث به ،
وفي أي أمر من الأمور ؟ من ذا الذي يجروء على إرسال رجل أيا كان إلى هناك ،
وملكتي في دير عين جدة ، وقد حجت إليه تدعو لي بالشفاء ؟ » .

فأجاب البارون دي فو وقال : « هو رسول من قبل مجمع الصليبيين ياسيدي ،
وقد أبي أن يخبرني بالفرض من بعثته ، ويخيل لي أن أحداً في المعسكر لا يعلم أن
الملكة زوجكم قد رحلت إلى الحج ، وحتى الأمراء أنفسهم قد لا يعلمون ذلك ،
إذ أن الملكة قد تنحت عن الجماعة مذ حرمت عليها جلالتهم أن تدنو منكم حفظاً
لها من العدوى » .

فقال رتشارد : « إن هذا لأمر يتطلب النظر . إذن لقد التقى هذا الرجل
الاسكتلندي ، هذا الرسول ، بطبيب متجول لدى كهف عين جدة ، أليس كذلك ؟
خبرني ؟ » .

فأجاب دي فو وقال : « كلا ياسيدي ، إنما التقى هذا الرسول ، حسب ظني ،
قريباً من ذلك المكان بأمر عربي ، وكان بينهما عراك ، قصداً به امتحان ماها
عليه من جرأة وشجاعة ، ولما ألفاه جديراً برفقة الشجعان ، انطلقا معاً إلى غار عين
جدة ، كما ينطلق فارسان شاردان » .

وهنا سكت دي فو ، لأنه لم يكن ذلك الرجل الذي يستطيع أن يروي قصة
طويلة في عبارة وجيزة .

فسأله الملك وقد نفذ صبره : « وهل التقيا بالطبيب هناك ؟ » .

فأجاب دي فو : « كلا ياسيدي ، ولكن العربي حينما علم بمرض جلالتهم

العضال ، وعد بأن يبعث صلاح الدين بطيبه الخاص إليك ، مؤكدا لك أشد التأكيد براعته وحذقه . فجاء الطيب إلى الفار بعد أن لبث الفارس الاسكتلندي يترقبه يوما وبعض يوم ؛ جاء تحوطه الرعاية كأنه أمير تدق له الطبول ويتبعه الحشم راكبين وراجلين ، ومعه خطابات الاعتماد من صلاح الدين .

« وهل فحصها جيا كوما لورداني ؟ » .

« لقد عرضتها على الترجمان قبل أن آتي بها إلى هنا ، وإليك ما اشتملت عليه » .
فتناول رتشارد قرطاسا دونت عليه هذه الكلمات : « سلام الله ورسوله محمد . تحية من صلاح الدين ملك الملوك ، سلطان مصر وسوريا ، نور الدنيا وملاذها ، إلى رتشارد العظيم ملك إنجلترا . أما بعد ، لقد نما إلينا ، يا أخانا في الملك ، أن المرض قدمد إليكم يدا ثقيلة لا تحتمل ، وأن ليس لديكم من الأطباء غير النصارى واليهود ، الذين يعملون بغير بركة الله وبنينا الكريم ولذا فإننا مرسلون إليكم بطبيبنا الخاص يقوم برعايتك ، ويسهر على راحتك ، وهو (أدُنْبَك) الحكيم الذي إن رآه عزرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض ، والذي يعلم مزايا الأعشاب والأحجار ، ومسير الشمس والقمر والنجوم ، وفي وسعه أن ينقذ الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين ؛ وإنا لهذا فاعلون ، متوسلين إليك من أعماق القلوب ، أن تكرمه وتفيد من حذقه ، وإنا لم نفعل ذلك خدمة لقدرك وشجاعتك فحسب — وهما فخر دول الفرنجة قاطبة — وإنما فعلناه كي نقضى على الخصومة القائمة بيننا الآن ، إما باتفاق شريف وإما علنا بمجد السيف في ساحة القتال ، وذلك لأننا نرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد قد أمهك سيدة بالعمل ، ولا يلائم اسمنا بين الناس أن يتزعزع المرض من أسنة رماحنا خصما جريئا مثلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

فصاح رتشارد : « كفى ، كفى . والله إنه ليضاعف من مرضي أن هذا السلطان الشجاع ، صاحب المقام الرفيع ، يعتقد في دين الإسلام ؛ أجل سوف أرى طبيبه ، وسوف أسلم نفسي لهذا الحكيم ، وسوف أرد لهذا السلطان النبيل

جوده ونواله ، وسوف ألتقي بصلاح الدين في ميدان القتال وفقاً لرأيه السيد ؛ ولن تترك له مجالاً كي يسم رتشارد ملك إنجلترا بالجوود وفكران الجميل ، وسوف أدق عنقه وألقيه طريح الأرض بفأسى ، وسوف أردّه إلى حرم المسيحية بضربات لا أظنه عانى لها من قبل مثيلاً ، وسوف ينبذ ضلاله أمام سيقى الكريم ، ذى اليد الصليبية ، وسوف أعمّده بالمسيحية في ساحة الوغى من خوذتى ، حتى وإن امتزجت مياه الطهور بدمى ودمه ؛ هيا يادى فو ، ولا تؤخر عنى هذه النهاية الراضية البهيجة ، هات الحكيم هنا .

فقال البارون وقد رأى أثر الحمى في هذه الثقة بالنفس المتدفقة : « اعلم مولاي أن السلطان من المسلمين وأنت خصمه اللدود - » .

« ولهذا حق عليه أن يخدمنى في هذا الشأن ، كي لا تحسم هذه الحمى الطفيفة نزاعاً بين ملكين مثلى ومثله ؛ اعلم أنه يجبنى كما أحبه - وكما يتحاب الخصوم النبلاء في كل حين - وشرفى إنه لمن الجرم أن أرتاب في حسن طويته ! » .
فقال لورد جازلاند : « ومع ذلك فإنى أرى من الحكمة يامولاي أن تترث حتى ترى أثر هذا الدواء فى الخادم الاسكتلندى ، إن هذا أمر تتعلق به حياتى ، فإنى لو اندفعت فى هذه السبيل ، وتحطمت سفينة العالم المسيحى على يدى ، لحقّ على أن أموت كما يموت الوغد الذئب » .

فرد عليه ريتشارد وهو يؤنبه : « لم أعرفك قبل اليوم متردداً خشية الموت » .
فأجاب البارون ذو القلب الحديدى : « وما كنت لأتردد الآن يامولاي لولا أن حياتك مع حياتى على كف عفريت » .

فقال رتشارد : « إذن فلتذهب عنى ما دمت رجلاً تداخله الريبة ، وارقب سير هذا الدواء ؛ والله إنى لأود لو شفانى أو أودى بحياتى ، فلقد كللت من رقدتى هنا كالثور يقضى عليه الطاعون فى وقت تدق فيه خارج السرادق الطبول ، وتدوس فيه الأرض الحيول ، ويرن فيه رنين الأبواق » .

حينئذ سارع البارون بالرحيل واعتزم أن يبلغ رسالته رجلاً من رجال

الكنيسة ، إذ قد أحس ببعض الوخز في ضميره لأنه أدرك أن سيده سوف يكون تحت رعاية رجل من المنافقين .

وكان رئيس أساقفة (صور) هو أول من بث إليه شكوكه ، إذ كان يعرف عنه اهتمامه بمولاه رتشارد ، الذي كان يجب هذا الأسقف الحكيم وبجمله ، فاستمع الأسقف إلى هذه الشكوك التي حدثه بها دي فو ، متنبها ذلك التنبه الدقيق الذي يتميز به رجال الدين من الرومان الكاثوليك ، ونظر إلى هذه الريب الدينية التي كانت تساور دي فو بالاستخفاف الذي يلائم نيافته أن يقابل به أمراً كهذا من أمور الدنيا .

فقال : « إنما الأطباء — كالدواء الذي يستخدمونه — عظيمو النفع ، ولكنهم من أرذل بني الانسان مولدأ ونشأة ، كما أن الدواء كثيراً ما يستخرج من أحط المواد » ثم قال : « ولكم معشر الرجال أن تستعينوا عند الحاجة بالكفار والمشركين ، بل إنى ليخيل لى أن من أسباب استبقائهم على وجه الأرض أنهم قد يعملون على راحة المسيحيين المخلصين ، ولذا فنحن نستعبد الأمري من الكفار شرعاً » .

واستطرد قائلاً : « هذا إلى أنه ليس من شك في أن المسيحيين في جاهليتهم كانوا يستغلون الكفار الذين لم يعتنقوا المسيحية ، ولك مثل في سفينة الإسكندرية التي أبحر فيها إلى ايطاليا بولس الرسول — بارك الله فيه — فلقد كان ملاحو السفينة كفاراً ، ولا مشاحة في ذلك ، وهل تدري ماذا قال هذا القديس المكرم حينما أحس بالحاجة إلى خدمتهم ؟ قال لاسبيل إلى خلاصكم إلا إن كان معكم هؤلاء الرجال على ظهر السفين ، وفضلاً عن ذلك فإن اليهود كالمسلمين ، كلاهما مارق من المسيحية ، وليس بالمعسكر إلا قليل من الأطباء من غير اليهود ، ونحن نستخدم هؤلاء دون ريبة أو عار ، ولذا فإنى أستبيح الإفادة من المسلمين في هذا الشأن ، وقد بينت لك جواز ذلك ^(١) » .

(١) هذه العبارة باللاتينية في الأصل .

هذه الأدلة أزالته عن توماس دى فوكل شك قائم في ضميره ، وقد كان للمقتبسات اللاتينية خاصة أثر شديد على نفسه لأنه لم يفقه منها كلمة واحدة .

ثم استطرد الأسقف الحديث ، وهو أقل طلاقة من ذى قبل ، وعرض له أن الرجل العربى قد يتقدم إلى العمل بنية سيئة ، ولكنه لم يستطع أن يحسم في الأمر على عجل ، وقدم له البارون خطابات الاعتماد فقرأها وقرأها وقارن بين الأصل والترجمة .

ثم قال : « والله إنها المكيدة قد دبرت على هوى الملك رتشارد ، وإنى لا أسمعنى إلا أن أرتاب في هذا العربى الماكر ؛ إنهم قوم برعوا في فن السموم ، ويستطيعون أن يخففوها حتى تلبث الأساييس وهي تسرى في الجسم ، فيتسنى لمخضّر السم إبان ذلك أن يلوذ بالفرار ؛ إنهم يستطيعون أن يدسوا في الأقمشة والجلود ، بل وفي الورق والرق خفي السموم - غفرانك يا مريم ! - كيف لى وأنا بهذا علم أن أمسك بخطابات الاعتماد هذه وأدنيها من عيني - خذها منى يا سر توماس ، خلصنى منها سريعا » .

ثم سلمها للبارون ، وهى منه على بعد ذراع ، وعليه لهفة العاجل ، واستطرد قائلا : « ولكن هيا بنا يا سيدى دى فو إلى خيمة الخادم المريض ، حيث نستطيع أن نعرف إن كان هذا الحكيم خبيرا حقا بفنون العلاج التى يدعيها لنفسه ، قبل أن نفكر في سلامة الملك إذا نحن أذنا له أن يباشره بفنه - ولكن قف ! ودعنى أولا آتى بصندوق عطورى ، فإن هذه الحميات تنتشر انتشار العدوى ، وإنى أشير عليك يا سيدى بأن تتناول حصى البان منقوعا في الخل فإنى كذلك أعلم شيئا عن فنون العلاج » .

فأجاب توماس الجزلاندى وقال : « أشكرك يا نيافة الأسقف ؛ إنى أظن أن لو كان لهذه الحمى أن تنال منى لأصابتنى منذ زمن طويل وأنا ملازم جوار فراش سيدى » .

نفجّل أسقف صور من هذا الجواب لأنه كان يتحاشى الملك المريض ، ثم أمر البارون أن يتابع المسير .

ولما مرا بالكوخ الحقيق ، الذى كان يقطن به كنت صاحب النمر وتابعه ، قال الأسقف لى فو : «والآن اعلم ياسيدى يقينا أن هؤلاء الفرسان الاسكتلنديين أقل بأتباعهم عناية منا بكلابنا ، فهذا فارس يقولون إنه جرىء فى القتال ، ويرونه جديرا بأن يتحمل جسم التبعات فى زمن الهدنة ، وهذا تابع من أتباعه يسكن فى كوخ أحط من أسوأ بيوت الكلاب فى إنجلترا ، فإذا أنت قائل فى جيرانك هؤلاء ؟ » .

فقال دى فو : « إني أرى أن السيد يقوم بما يكفى نحو خادمه إذا أسكنه فى بيت لا يقل عن بيته » ثم دخل الكوخ وتبعه الأسقف ، وعليه إمارات التابى والإحجام بادية ، فهو ، وإن لم تنقصه الشجاعة من بعض نواحيها ، إلا أنها كانت شجاعة ممزوجة باعتبار قوى شديد لسلامته وأمنه ، ولكنه تذكر أن من واجبه أن يحكم بنفسه على حذق الطبيب العربى ، فدخل الكوخ متعاليا بذاته شاغحا بأنفه ، متكلفا ذلك ، ظنا منه أن فى هذا ما يدعو إلى احترام القادم الغريب .

وكان الأسقف حقا رجلا يجذب النظر ، عليه سيما الهيبة والنفوذ ؛ كان فى شبابه فارط الجمال ، وحتى فى شيخوخته لم تقل رغبته فى التظاهر بالجمال ، فكان زيه الكنسى من أنفاس طراز ، حواشيه مزركشة بالفراء الثمين ، ويتلفع بعباءة جميلة التطريز ، وعلى أصابعه خواتم تليق برجل يتأمر على مقاطعة من المقاطعات الكبيرة ، ويلبس على رأسه قلنسوة كانت إذ ذاك محمولة الرباط ، ومطروحة إلى الخلف من حمارة القبط ، وللقلنسوة أضرار من الذهب الخالص يوثقها بها حول رقبته ويحت ذقنه وقمها يشاء ؛ ولحيته الطويلة التى فضضها العمر تتدلى على صدره ؛ وكان له سادنان شابان يرعياه ، أحدهما يحمل فوق رأسه مظلة من أوراق النخيل الهندى ينشر بها ظلا مصطنعا ، كانت تألفه بلاد الشرق حينذاك ، والآخر بيده مروحة من ريش الطاووس يهز بها كي يروح عن سيده الكريم .

وحينما دخل الأسقف كوخ الفارس الاسكتلندي كان صاحب الدار متفنياً ، والطبيب العربي - الذي جاء لرؤيته - يجلس الجلسة عينها التي خلفه عليها دي فو منذ ساعات عديدة ، متصالب الساقين فوق حصير من أوراق الأشجار المقصوصة ، إلى جوار العليل الذي كان في سبات عميق ، والذي كان يحس نبضه حيناً بعد حين ؛ ولبت الأسقف منتصباً قبالة في سكون مدة دقيقتين أو ثلاث كأنه يرتقب منه تحية شريفة يحببها ، أو كأنه كان على الأقل ينتظر من هذا العربي أن يذهل لنبل مظهره ، ولكن أدنك الحكيم لم يمره التفاهة ، اللهم إلا لمحة عجي ، وأخيراً لما حياه الأسقف باللغة الفرنسية السائدة في تلك البلاد ، لم يجبه بأكثر من التحية الشرقية المألوفة ، وقال : « عليكم السلام » .

فقال الأسقف وقد صعق من هذا الاستقبال الفاتر : « أنت طبيب أيها الكافر ؟ أريد أن أتحدث إليك في هذا الفن » .

فأجاب الحكيم وقال : « لو كنت تعلم فذلك من الطب لعرفت أن الأطباء لا يتشاورون ولا يتجادلون في غرف مرضاهم » . ثم قال وقد سمع للكلب من الكوخ الداخلي دمدمة خافتة « اصغ ! حتى الكلب يعلمك التعقل ، فهل علمت ؟ إن غريزته تهديه أن يكتم نباحه حتى لا يسمعه الرجل المريض » . ثم قال وقد هب من مكانه وتقدم نحو الطريق : « هيا بنا خارج الخيمة إن كان لديك شيء تريد أن تحدثني عنه » .

ورغم سذاجة الطبيب العربي في ملبسه ، وضؤولة جسمه إذا قيس بالأسقف الطويل القامة والبارون الانجليزى الضخم ، فلقد كان في مسلكه وطلعته شيء يجذب الأنظار ، شيء حال بين أسقف صور وبين أن يحتج على هذه الإهانة التي لحقت من الاستخفاف بمقدمه ؛ ولما بعدا عن الكوخ ، صوب نظره بضع دقائق في صمت نحو « أدنك » ، وذلك قبل أن يستقر بينه وبين نفسه على خير أسلوب يجدد به ما انقطع بينهما من حديث ؛ وكان العربي يلبس فوق رأسه عمامة كبيرة لا تظهر

من تحتها خصل الشعر ؛ وكانت العمامة تخفى كذلك أحد حاجبيه ، وكان غزيراً طويلاً ناعماً خالياً من التجاعيد ، كما كانت وجنتاه الباديتان تحت ظل لحيته الطويلة ، هذا وقد ذكرنا من قبل نفاذ عينيه السوداوين .

وكان الأسقف مأخوذاً بالفتوة البادية على صاحبه ، ولكنه تمكن أخيراً من شق السكون المخيم — ولم يبد على العربي أنه كان يتعجل تعكير صفوه — وسأل الأسقفُ العربي عن عمره ؛ فأجاب : « إنما تقاس أعمار عامة الرجال بتفضن البشرة ، أما العلماء فتقاس أعمارهم بما يحصلون من علم . وإنى لا أجزؤ على الظن بأنى أزيد على مائة حول بعد الهجرة (١) » .

وفهم بارون جزلانده هذه العبارة على ظاهر معناها ، وظن أن العربي قد عاش قرناً من الزمان ، فنظر إلى الأسقف نظرة الشك والريبة ، ورغم أن الأسقف كان خيراً منه فهماً لما رمى إليه الحكيم ، إلا أنه رد عليه نظرتة بهز رأسه هزة الدهشة والتعجب ؛ ثم استرد هيئة الجد وأعاد السؤال على أدنك بصيغة الجزم والأمر ، وطلب إليه أن يقدم الدليل على كفاءته في طبه .

فرد عليه الرجل الحكيم — وقد وضع يده على عمامته دليلاً على الاحترام والتقدير — وقال : « إن لديك كلمة صلاح الدين العظيم ، وهي كلمة لم يبحث فيها قط لعدو أو صديق ، فهل تريد شيئاً أكثر من ذلك أيها النصراني ؟ » .

فقال البارون : « أريد منك دليلاً على مهارتك أشهده بعيني ، ولن تقرب سرير الملك رتشارد بغير ذلك » .

فقال العربي : « جزاء الطبيب شفاء المريض ؛ انظر إلى هذا الجندي الذي جففت دماؤه الحمى — وقد أصابت غميمكم فبيضت أديمه بعظام الموتى — تلك الحمى التي وقف فن أطبائكم المسيحيين إزاءها كما تقف الصدرية الحريرية في وجه الرمح الصلب ؛ انظر إلى أصابعه وذراعيه وقد هزلت وباتت كمنخال السكركي وعظام سوقه ؛ والله لقد حلق الموت هذا الصباح فوق رأسه ، ولكن لو أن عزرائيل بجانب سريريه ، وأنا

(١) يقصد بذلك أن له من الاطلاع والعلم ما يُحصّل في مائة عام .

بجانبه الآخر ، ما فارقت الروح منه الجسد ؛ لا تزعجني بسؤال بعد هذا ، وإعما تريث حتى تحل ساعة الفصل واشهد الخاتمة العجيبة وأنت صامت ذاهل .

ثم لجأ الطبيب إلى الإسطرلاب ، وهو مصدر الوحي للعلم في الشرق ، ولبث يرقب بجذ وإمعان ، حتى إذا ما حان وقت صلاة العشاء ، خر على ركبتيه ويم وجهه شطر مكة ، وصلى لله الصلاة التي يختتم بها المسلمون اليوم بعد العمل ، فتبادل الأسقف والبارون الأنجليزى النظر ، وعليهما إمارات الازدراء والحنق ، ولكن أحداً منهما لم ير أن من اللياقة في شيء أن يعترض الحكيم في صلواته مهما تكن في اعتبارهما خالية من كل تقديس .

ونفض العربي من الأرض التي خر عليها ساجدا ، وولج الكوخ حيث كان العليل ممتداً على فراشه ، ثم أخرج من صندوق صغير من الفضة اسفنجة مشربة بقطرات العطر ، ووضعها على أنف النائم ، فعطس وتيقظ ، ثم تلفت حواليه هاأنجا مذعوراً ، وكان مرآه مرهوعا ، وقد هب على سريره شبه عار ، عظامه وغضاريفه ينم عنها ظاهر الجلد ، كأنها لم تسكتس يوماً بلحم ، ووجهه طويل ، تشققه الغضون أخايد ، وكانت عيناه أول الأمر حائرتين ، ولكنهما أخذتا يهدآن شيئاً فشيئاً ، ويظهر أنه قد أحس بوجود زائريه ذوى المكانة الرفيعة ، لأنه حاول — في دهش — أن ينزع الغطاء عن رأسه احتراماً لهما ، وسأل عن سيده بصوت فيه ذلة وخضوع ، فقال له لورد جزلاند : « هل تعرفنا أيها التابع ؟ » .

فأجابه التابع بصوت خافت : « لا أعرفكما حق المعرفة ، إن سباتي كان طويلاً ومليئاً بالأحلام ، ولكني أعرف أنك من كبار اللوردات الأنجليز ، كما يدل على ذلك صليبك الأحمر ؛ وصاحبك أسقف مقدس يتوق إلى بركاته آثم مسكين مثلي » .

فقال الأسقف : « لك منى البركات ، وغفر الله لك » ثم رسم علامة الصليب ولكنه لم يدن من فراش المريض .

فقال العربي : « ها أنت ذا تشهد بعينيك أن الحمى قد غلبت على أمرها

وقهرت ، وها هو ذا الرجل يتكلم في طمأنينة وروية ، وخفقات قلبه هادئة تكفقات قلبك ، وتستطيع أن تخبر نبضها بنفسك » .

فأبى الأسقف أن يقوم بهذه التجربة ، ولكن توماس الجزلاندى — وقد كان أشد إصرارا على هذا الاختبار — جس نبض المريض ، واقتنع بأن الحمى قد أدبرت وتولت .

ثم نظر الفارس إلى الأسقف وقال : « إن هذا شيء عجاب ؛ لقد تم شفاء الرجل ولا ريب في ذلك ؛ لا بد لي أن أصطحب هذا الطبيب توا إلى خيمة الملك رتشارد — ماذا ترى يا نيافة الأسقف ؟ » .

فقال العربي : « البثا قليلا ودعاني أتم علاجا قبل أن أشرع في الآخر ؛ سوف أصبحكما بعد أن أناول مريضى الكأس الثانية من هذا الإكسير المبارك » .

وبعد أن فرغ من حديثه ، استخرج كأسا فضية وملاها بالماء من جرة كانت إلى جانب السرير ، ثم أخرج كيسا صغيرا من الحرير المطرز مجدولا بالفضة ، ولم يعلم الحاضرون ما بداخله ، ثم غمره في الكأس ولبث يرقبه في سكون مدة خمس دقائق ، وخيل للنظارة أن الماء قد فار وجاش من هذا العمل ، ثم هدأ بعد لحظة .

وقال الطبيب للرجل المريض : « اشرب ونم ثم اصح بريثا من المرض » .
فقال أسقف صور : « أفهذه الجرعة الهينة تأخذ على نفسك علاج الملك ؟ » .
فرد عليه الرجل الحكيم وقال : « لقد شهدت أنى عالجت بها رجلا بائسا ، فهل ملوك الفرنجة من طينة غير الطينة التي خلق منها أدنى رعاياهم ؟ » .

فقال بارون جزلاندى « لنسقه توا إلى الملك ؛ لقد دل على أنه يعرف سر السبيل إلى استرداد صحته ، ولو أنه أبى مباشرة العلاج لأرديته حيث لا يجدى فعل الدواء » .

وبينما هم يتأهبون لمغادرة الكوخ ، صاح الرجل المريض وقد رفع صوته بقدر ما سمح له ضعفه وقال : « أبانا المقدس ، ويا أيها الفارس النبيل ، وأنت أيها الطبيب

الرؤوف ، إن أردتموني على أن أنام وأشقى نخبروني برا منكم وإحسانا ؛ ماذا دهي سيدي العزيز ؟ »

فأجاب القس : « لقد رحل يا صديقي إلى بلاد نائية يحمل رسالة نبيلة قد تستبقيه بضعة أيام » .

وقال بارون جنزلاند : « كلا ، ولماذا تخدع هذا الرجل المسكين ؛ لقد عاد سيدك إلى المعسكر وعمما قريب تراه » .

فرفع المريض إلى السماء يديه المهزبلتين حمدا لله ، ولم يعد يقدر على مقاومة فعل الإكسير النورم ، واستولى عليه نعاس خفيف وديع » .

وقال الأسقف : « إنما أنت يا سر توماس طبيب خير مني ، وللباطل المرضى أليق بحجرة المريض من الحق الكريه » .

فأجاب دي فو متعجلا : « ماذا تعني يا سيدي الموقر ، أفتظن أني أقول كذبا كي أنقذ عشرة من أمثال هذا الرجل ؟ » .

فقال الأسقف وإمارات الذعر بادية عليه : « إنك تقول إن سيد هذا التابع — أعني فارس النمر الرابض — قد عاد ، أليس كذلك ؟ » .

قال دي فو : « وحقا لقد عاد ، وتحدثت إليه من منذ بضع ساعات مضت ، وقد عاد برقعة هذا الطبيب النطاسي » .

فقال الأسقف وهو بادى الاضطراب : « يا للعذراء البتول ! ولماذا لم تنبئني بإيابه ؟ » .

فأجاب دي فو غير مبال وقال : « ألم أقل لك إن هذا الفارس ، فارس النمر ، قد عاد بصحبة الطبيب ؟ أظنتني خبرتك بذلك ، ولكن ماشأن إيابه وحذق الطبيب أو شفاء المليك ؟ » .

فرد عليه الأسقف وقد أمسك إحدى يديه بالأخرى ، وضرب بقدمه الأرض ، وبدت عليه دلائل الجزع ، وقال ، وكأنه مكره على ما يقول « شأن كبير يا سر

توماس ، ولكن هلا خبرتى آتى ذهب هذا الفارس ؟ رحماك اللهم ! لقد تقع الآن
في إثم ما بعده إثم ! » .

فأجاب دى فو وقد أدهشه انفعال الأسقف وقال : ربما خبرنا ذلك التابع
الواقف بعيدا في الخلاء آتى ذهب سيده .

ودعى الصبي للحضور ، وأخذ يحدّثهم بلغة لا يكادون يفقهون لها معنى ،
واستطاع بعد لآى أن يفهمهم أن ضابطا جاء لسيده واستدعاه إلى السرادق الملوكي
قبل قدومهما إلى خيمة مولاه بزمن وجيز ، وحينئذ ازداد بالأسقف القلق حتى بلغ
أقصاه ، واستطاع دى فو أن يتبينه ، رغم أنه لم يكن بالرجل الدقيق الملاحظة ،
ولا بالمرتاب الظنين ، وكما تزايد قلق الأسقف اشتدت رغبته في كبتة وكتمانه
عن العيان ؛ ثم استأذن دى فو في الانصراف على عجل ، فنظر إليه دى فو
حائرا مذهولا ، وهز كتفيه إلى أعلى في صمت وعجب ، ثم شرع يرشد الطبيب
العربي إلى خيمة الملك رتشارد .

الفصل التاسع

هذا أمير الأطباء ،
إن شهادته حمى أو طاعون ،
أو نقرس أو زكام ،
تولى الداء عن جسم العليل .
لكاتب غير معروف

سار البارون جزلاند بمخطوات وثيدة نحو السرادق المللكى ، وعليه سيمى القلق والجزع ، وكان البارون قليل الثقة بنفسه وبكفائاته إلا فى ساحة القتال ، يحس من نفسه افتقار الذكاء المتوقع ، ويكفيه أن يقف من الظروف موقف التعجب والدهشة حيث يسمى غيره من الرجال من ذوى الخيال الحى إلى التفهم والتنقيب ، أو إلى التأمل والتفكير على الأقل ؛ ولكنه كان أمرا شاذا - حتى فى نظره - أن يحول الأسقف اتباهه من التفكير فى العلاج العجيب الذى شهدها وفى احتمال شفاء رتشارد واسترداده صحته بذلك الدواء ، إلى نبأ نأفه عن توجه فارس اسكتلندى بائس من مكان إلى مكان ، فارس لم يعلم عنه توماس الجزلاندى أنه من دم كريم ، ولم يكن فى نظره أكثر من رجل قليل الأهمية حقير ؛ ورغم أن البارون قد تعود أن ينظر إلى ما قد يمر به من أحداث نظرة سألبة ، إلا أنه أخذ الآن يكدح الذهن كدحا لم يألفه متخرصا بحقيقة الأمر .

وأخيرا عرض له بنته أن الأمر ربما كان مؤامرة تدبر لرتشارد وتختبر فى معسكر الحلفاء ، وليس من البعيد أن يكون الأسقف عضوا من أعضائها لما عرف عنه بعضهم من أنه رجل سياسى لا يتورع فيما يريد ، وكان يرى أن ليس بين الجميع رجل كامل الخلق كسيده ، فلقد كان رتشارد زهرة الفرسان طرا ، ورأس القواد المسيحيين جميعا ، مطيما فى كل أمر لأحكام الكنيسة المقدسة ، ولم ير « دى فو » بعد هذا الكمال كلالا ؛ ومع ذلك فهو يعرف أن سيده كان دائما يجلب على نفسه

— بغير حق — لوما وكرها ، بقدر ما يجلب شرفا ورجا ، لما يبدى من جليل الصفات ؛ ويعلم أن في المعسكر ذاته ، وبين أولئك الأمراء الذين أقسموا بمين الولاء للحرب الصليبية ، الكثير ممن يود لو يضحى بكل أمل في الظفر على العرب في سبيل إرضاء نفسه بالقضاء على رتشارد ملك إنجلترا ، أو بإذلاله على الأقل .

وقال البارون محدثا نفسه : « ليس من المحال أن يكون هذا الحكيم ، وهذا الشفاء — أو شبه الشفاء — الذى أدخله في جسم الخادم الاسكتلندى ، ماها إلا خدعة ، ينضم إليها فارس النمر ، ويساهم فيها أسقف صور ، رغم وظيفته الدينية » . ولكن لم يكن من اليسير حقا أن يوفق البارون بين هذا الظن وبين ما أبداه الأسقف من هلع وذعر حينما علم — على غير انتظار — أن الفارس الاسكتلندى قد عاد بفته إلى معسكر الصليبيين ؛ ولكن دى فو لم يكن يتأثر بغير أهوائه عامة ، وكانت أهواؤه توحى إليه يقينا لا يداخله الشك بأن قسا إيطاليا ما كرا محتالا ، ورجلا اسكتلنديا خبيث الطوية ، وطيبيا مسلما ، إنما يؤلفون مجموعة لا يصدر عن أفرادها غير الشر ، ولا يرجى أن ينبع منها الخير ، فاعترم أن يصارح بشكوكه مليكه ، وكان يقدر إصابته في الحكم قدرا عاليا لا يقل عن عقيدته في شجاعته وإقدامه .

ولكن الأحداث التى وقعت إبان ذلك جرت مجرى يناقض الظنون التى لعبت برأس توماس دى فو ، فلم يكد يترك السرادق المللكى حتى بدأ رتشارد — وهو بين جزع أنشبهته الحمى وجزع هو من طبيعة نفسه — يشكو غياب البارون ، ويث شديد رغبته فى عودته ؛ وقد عانى من قبل كثيرا ، فحاول الآن أن يخلص من هذا الهياج الذى زاد من علة جسمه زيادة كبيرة ، وأضنى أتباعه بكمثرة ما طلب إليهم من ألوان اللمو ، وعبثا ما استعان القس بدعواته ، والكاهن بقصص الخيال ، بل ومغنيه المحبوب بقتيثارته ؛ وأخيرا ، قبيل انحذار الشمس بنحو ساعتين — وكان ذلك قبل الوقت الذى كان يرتقب فيه نبأ يسره عن سير العلاج الذى يباشره المغربى (أو العربى) بزمن طويل — أرسل كما سمعنا رسولا يأمر فارس

النمر بالحضور ؛ واعتزم أن يهدى من جزعه بحصوله من السر كنت على بيان مفصل عن سبب تغييه عن المعسكر ، وعن ظروف التقائه بهذا الطبيب الدائع الصيت .

أُستدعى الفارس الاسكتلندي ومثل لدى حضرة المليك ، وكأنه ليس بالغريب على أشباه هذه المقابلات ؛ لكن ملك إنجلترا لم يكده يعرف منه حتى مرآه ، وذلك رغم أنه (الفارس) كان شديد الاحتفاظ بمربته ، وكان متفانيا في إخلاصه للسيدة التي تملكته منه سويداء القلب ، فلم يغب في ظرف واحد من الظروف التي كانت أريحية إنجلترا وسخاؤها تفتح فيها بلاط مليكها لكل من بلغ مرتبة خاصة في سلك الفروسية ؛ ونظر الملك وأمعن في النظر إلى السر كنت وهو يقترب من فراشه ، وقد ثنى الفارس ركبتيه لحظة من الزمن ، ثم نهض ووقف أمام الملك موقفاً يليق بضابط في حضرة مليكه ، موقف الإجلال ولكن بغير ذلة أو خنوع .

قال الملك : « اسمك كنت فارس النمر - أنتى لك مرتبة الفروسية ؟ » .

فأجاب الاسكتلندي : « لقد نلتها من حسام وليم الأسد ملك اسكتلندا » .
فرد عليه الملك وقال : « والله إنه لسلاح ما أجدره بمنح الشرف ، والله إنه لم يوضع على كتف ليست له أهلاً ^(١) فلقد شهدناك وأنت في موقف الفروسية والشجاعة لما حى وطيس القتال واشتدت الحاجة ؛ ولكنك قبل أن تعرف أنا بكفاءة علماء ، بلغت بك القحة في بعض الأمور حدّاً لا يتحوّل لك أن تطلب لخدماتك جزاء خيراً من العفو عن عدوانك ، فإذا تقول في هذا ؟ » .

فحاول كنت أن يجيب عن ذلك ، ولكن عجز عن أن يفصح عن نفسه ، وقد تآصر على بلبته إحساسه بحب عالي المطامح ، ونظرة ثاقبة كمنظرة البازي رmqه بها قلب الأسد ، وكأنه يريد أن ينفذ إلى دخيلة نفسه .

ثم قال الملك : « ومع ذلك ، ورغم أن الجند عليهم طاعة الأمر ، وعلى الأتباع

(١) كان الملك في العصور الوسطى يمس بسيفه كتف الرجل علامة على منحه

شرف الفروسية .

احترام أولى الأمر ، فإننا نستطيع أن ننفو عن فارس مقدام جرما أخطر من اقتناؤه لكلب عز ، مع ما في ذلك من مخالفة لما فرضناه على الناس فرضا صريحا لا يحتمل التأويل .

وظل رتشارد يحدق في وجه الاسكتلندي ، ويبادلُه النظر ، وُسْرَ في دخيلة نفسه واطمان للأسلوب الذي ساق فيه آتمامه .

فقال الاسكتلندي : « إن جلاتك يا مولاي ، إن شئت ، ينبغي أن تهاون معنا نحن فقراء اسكتلندا من النبلاء في هذا الشأن ، فنحن عن الوطن بعيدون ، مواردنا قليلة ، ولا نستطيع أن نقيم أودنا كما يستطيع أشرفكم الأغنياء الذين لهم ثروة المبارد ؛ وإن ضرابنا ليكون على الأعراب أشد وقعا لو أنا تناولنا من لحم الغزال المجفف الحين بعد الآخر مع ما نأكل من العشب ومن خبز الشعير . »

فقال رتشارد : « لست بحاجة إلى رضاي مادام توماس دي فو — كغيره ممن يتحوظني من الرجال — يعمل ما يروق في عينيه ، وقد أذن لك بالصيد والقنص . »

فأجاب الاسكتلندي وقال : « إنما أذن لي بالصيد فقط يا مولاي ، ولكن إن أردت جلاتكم أن تمن علي بمنة القنص ، وكذلك إن بدا لكم أن تأذنوا لي باستخدام البزاة ، فاني آخذ على نفسي أن أمد سرادقكم الملصكي ببحير طيور الماء » فقال الملك : « لو كان لك باز ما كنت تنتظر منا الإذن ، وأنا أعرف جيدا أنه يقال عنا خارج بلادنا إننا أبناء أنجو نستنكر الاعتداء على ما شرعنا للغاب من سنن ، كما نستنكر الخيانة لتاج الملك ، ولكننا ننفو عن هذه الإساءة — كما ننفو عن تلك — للرجال الشجعان ذوى المكاة ؛ ولكن دعنا من هذا ، إنما أريد أن أعرف منك أيها الفارس لماذا ومن ذا الذي أذن لك أن تقوم برحلتك الحديثة العهد إلى قفار البحر الأحمر وإلى عين جدة ؟ » .

فقال الفارس : « بأمر من مجمع أمراء الحروب الصليبية المقدسة . »

« وكيف يجسر امرؤ على إصدار مثل هذا الأمر وأنا — ولست قطعاً بأقلهم

شأنا في هذا المجمع — غير عالم به ؟ » .

فقال الاسكتلندي : « لم يكن من شأني يا جلالة الملك أن أسأل عن مثل هذه الدقائق ، وإنما أنا جندي من جنود الصليب ، ولا ريب أني أخدم الآن تحت لواء جلالتهم ، وأنا فخور لأنكم قد أذنتم لي بذلك ، ولكنني لست مع ذلك إلا رجلا يحمل الرمز المقدس في سبيل حقوق المسيحية واسترداد القبر المقدس ، وأنا لذلك مكره على أن أطيع طاعة عمياء أو امر الأمرء والزعماء الذين يدبرون هذا المشروع المبارك ، وإني والعالم المسيحي بأجمعه نندب انحرافهم عن جلالتهم ، وإبادهم إياكم لفترة وجيزة - على ما أرى - عن مجامعهم التي لجلالتهم فيها صوت قوى مسموع ؛ ولكنني كجندي يجب أن أطيع أولئك الذين يؤول إليهم حق الحكم شرعا ، وإلا كنت مثالا سيئا في معسكر المسيحيين » .

فقال الملك رتشارد : « حق ما تقول ، ولا لوم عليك في ذلك ولا تتريب ، وإنما العتب على أولئك الذين أرجو أن أواجههم عين عين حينما يكتب لي الله أن أنهض من هذا الفراش اللعين ، فراش المرض والفتور ؛ ولكن هلا خبرتني فحوى رسالتك ؟ » .

فأجاب السر كنت وقال : « أظن يا جلالة المليك أن هذا السؤال جدير به أولئك الذين أنا رسول منهم ، فهم أقدر على إبداء العلة في رسالتي ، أما أنا فلا أستطيع إلا أن أتحدث عن ظاهر معناها ومنغزاها وحسب » .

فقال الملك النزق : « لا تراوغني أيها السيد الاسكتلندي ، إن في هذا لخطرا على سلامتك » .

فأجاب الفارس رابط الجأش وقال : « سلامتي يا مولاي أنا لا أكرث لها ، فما هي إلا من توافه الأمور إزاء يمين أقسمتها لهذا المشروع ، وإني لا أنظر إلا إلى نعيم الخلد في الدار الباقية ، ولا تعينني سعادة الجسد في هذه الدنيا الفانية . »
فقال الملك رتشارد : « وحق القداس إنك لرجل شجاع ! استمع إلى ياسيدي الفارس ، إني أحب أهل اسكتلندا ، فإنهم قوم أشداء ، إلا أنهم يتصفون بالعناد وصلابة الرأي ، وإنهم لقوم مخلصون في قلوبهم ، إلا أن ظروف دولتهم تضطرهم

أحيانا إلى اصطناع الخداع والرياء ، وإني أستحق منهم المحبة والتقدير ، فلقد قمت لهم طوعا بما لم يكونوا يستطيعون ابتزازه كرها بحمد السيف منى أو من أسلافي ، فأعدت بناء قلعتي (ركبره) و(برك) اللتين تدينان لانجلترا بالولاء ، وأعدت لكم التخوم القديمة ، وخلصتكم أخيراً من واجب الولاء لتاج انجلترا ، وهو واجب رأيت أنه قد فرض عليكم ظلماً وجوراً ، وسعيت في أن أجعل منكم أصدقاء أشرفاً مستقلين ؛ ولم يرم ملوك انجلترا السابقون إلى أكثر من أن يرغموكم على الطاعة كارهين ، وييقوكم أتباعاً لهم ناقين .

فقال السر كنيث وقد أحنى رأسه إجلالاً : « أجل ، لقد فعلتَ هذا كله ياسيدي المليك ، ولقد فعلته وعقدت عليه معاهدة ملكية مع ملك بلادنا في (كنتربري) ولذا فهأنذا طوع أمرك ، وهامم من هم خير منى من الاسكتلنديين يأترون لك ، ويشنون الغارة على المسلمين تحت لوائك ، هانحن رهن إرادتك ، ولولا ما ذكرت لكنا الآن نعيث فساداً في حدود بلادك بانجلترا ، ولئن كنا الآن قليل عدينا فما ذلك إلا لأننا وهبنا في سبيك حياتنا وأزهقناها راضين طائعين . »

فقال الملك : « صدقت فيما تقول ، ولكن بحق ما أديتُ لبلادكم من جليل الخدمات ، أود أن أذكرك أن من حقى - كعضو رئيسى فى عصبة المسيحيين - أن أعرف ما يتفاوض فيه خلانى ، فهل لك بعد هذا أن تنصفنى وتخبرنى بما هو من حقى أن أعرفه ، وإنى لعلى ثقة من أنك سوف تصدقنى فى هذا أكثر من كل من عداك . »

فأجاب الاسكتلندى وقال : « مولاي ، أما وقد ناشدتنى هكذا ، فسأصدقك القول ، وإنى أعتقد أن مراميك من حملتنا هذه نبيلة خالصة لوجه الله ، وإن هذا لأكثر مما أظن فى الآخرين من أعضاء العصبة المقدسة ؛ وإذن فليسرك يا مولاي أن تعرف أن مهمتى كانت أن أقترح بوساطة ناسك عين جدة - وهو رجل يحبه ويدود عنه صلاح الدين نفسه - .. » .

وهنا سارع رتشارد معترضاً وقال : « مدّ أجل الهدنة ولا ريب . »

فأجاب الفارس الاسكتلندي وقال : « كلا ياسيدي وحق القديس اندراوس ، بل عقد صلح دائم ، وسحب جيوشنا من فلسطين » .

فرد عليه رتشارد دهشاً وقال : « يا لله ! لقد ساء ظني بهم حقاً ، ولكنني لم أكن لأحلم أنهم سينزلون أنفسهم إلى مثل هذا الخزي والهوان ، خبرني يا سر كنت بأية طوية حملت هذه الرسالة ؟ » .

فقال كنت : « بطوية خالصة طيبة يامولاي ، لأننا بعد ما افتقدنا زعيمنا النبيل ، الذي كنت آمل في الظفر تحت قيادته وحده ، لم أر أن أحداً يستطيع أن يخلفه ، أو أن يرجو منه أن يقودنا إلى النصر ، فرأيت أنه خير لنا في مثل هذه الظروف أن تتجنب الهزيمة » .

فقال رتشارد وقد كتم غيظاً أليماً يكاد قلبه يتميز منه : « وما هي الشروط التي أردتم أن تمقدوا عليها هذا الصلح المرجو ؟ » .

فأجاب فارس النمر الرابض وقال : « هذه لم يعهد إلي بها يامولاي ، إنما سلمتها للناسك محتومة مغلقة » .

فقال رتشارد : « وماذا ترى في هذا الناسك الوقور ، وهل هو غافل أو مجنون أو خائن أو قديس ؟ » .

فأجابه الرجل الاسكتلندي الماكر وقال : « يخيل لي أنه يدعى الغفلة ياسيدي كي يكتسب من المسلمين رضاهم واحترامهم ، وهم قوم ينظرون إلى الرجل المعتوه وكأنه يوحى إليه من السماء ، ولقد بدا لي على الأقل أن جنون هذا الراهب لا يظهر إلا لاساما ، وهو ليس — كالجنون المألوف — جزءاً من طبيعة عقل صاحبه » .

فقال الملك وقد ارتدى إلى الورا على سريره ، وكان قد نهض منه إلى نصفه : « أمكر بك في هذا الجواب ، والآن هلا حدثتني طرفاً عن توبته ؟ » .

فاستطرد كنت الحديث وقال : « أما توبته فقد بدا لي أنه مخلص فيها ، وهي ثمرة لندمه على ذنب مروع يحسب — فيما يرى — أنه يقضى عليه بأن ينتبذ من الناس مكاناً قصياً » .

فقال الملك رتشارد : « وما سياسته ؟ » .

فأجاب الفارس الاسكتلندي وقال : « أظن ياسيدي أنه قد يئس من استخلاص فلسطين ، كما يئس من خلاص نفسه ، اللهم إلا بمعجزة من السماء ، أو هو يرى ذلك على الأقل منذ انقطعت ذراع رتشارد ملك انجلترا عن أن يجاهد في سبيله » .

« وإذن فسياسة هذا الناسك هي سياسة الجبن والخور ، وهو كأولئك الأمراء الأشقياء الذين نسوا فروسياتهم ودينهم ولم تصح منهم العزيمة ، ولم يثبتوا إلا على أمر واحد ، وذلك أن يكروا راجعين ؛ أولئك خير لهم أن يتقهقروا على جثة حليف لهم ينازع الروح من أن يتقدموا ويلتحموا بالأعراب المسلحين ! » .
فقال الفارس الاسكتلندي : « هل لي ياسيدي المليك أن أذكر لك أن هذا الحديث إنما يزيد من حرارة مرضك ، وما مرضك إلا عدو يخشى العالم المسيحي منه شراً أكثر مما يخشى من جيوش الكفار المجهزين بالسلاح » .

وحينئذ علا الدم في وجه الملك رتشارد ، واستشرى في حركاته ، وأمسك إحدى يديه بالأخرى ، ومد ذراعيه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وظهر عليه في الحين أنه يعاني ألماً جثامياً شديداً وثورة نفسية عنيفة في آن واحد ، ولكن حماسته دفعته إلى أن يواصل حديثه كأنه لم يأبه لهذا أو لتلك .

وقال : « تستطيع ياسيدي الفارس أن تداهن ، ولكنك لن تفلت مني ، ولا بد لي أن أعرف منك أكثر مما ذكرت ، هل رأيت زوجي الملكة وأنت لدى عين جدة ؟ » .

فأجاب السر كنث ، وقد تملكه ارتباك شديد إذ تذكر الموكب الذي مرَّ به في منتصف الليل في المعبد الصخري وقال ، « لا أعلم أنى رأيتها يامولاي » .
فقال الملك بصوت حازم : « إني أسألك ألم تكن في معبد راهبات « كرمل » لدى عين جدة ، وهل لم تر هناك « برنجاريا » ملكة انجلترا ووصيفات بلاطها اللاتي قصدن إلى هناك حاجات ؟ »

فرد عليه السر كنه وقال : « سيدى ، سأصدقك القول كأنى أعترف لك !
فى معبد تحت الأرض ، هدانى إليه الناسك ، شاهدت رتلا من النساء يغبين
ويظهرن ولاءهن لأثر مقدس كريم ، ولكنى لم أر وجوههن ، ولم أسمع أصواتهن ،
إلا وهن يرتلن الأناشيد ، ولذا فإنى لا أستطيع أن أقول هل كانت ملكة إنجلترا
فى هذا السرب أو لم تكن » .

« وهل لم تعرف واحدة من هؤلاء السيدات ؟ » .
فسكت السر كنه ولم يحجر جوابا .

فقال رتشارد وقد نهض على مرفقيه : « إنى أسألك كفارس وكرجل كريم
— وسوف أعرف من جوابك كيف تقدر هاتين الخلتين — هل عرفت أية سيدة
من بين هذه الزمرة من العابدات أو لم تعرف ؟ » .

فقال كنه وقد خالجه كثير من التردد : « مولاي ، إنى أستطيع أن أرى
بالظن » .

فرد عليه الملك وقد قطب جبينه وعبس وقال : « وأنا كذلك أستطيع أن
أرى بالظن ، ولكن كفاك هذا ، قد تكون نمرا يا سر كنه ، ولكن حذار
أن تتحرش بكف الأسد . استمع إلى ، إناك إن شُغفت بالقمر حبا فلقد أتيت
أمرا إدا ، وإناك إن قفزت من أسوار برج شاهق أملا فى الدنوّ من هالته فلقد
هلكت رعونة ونزقا » .

وفى تلك الآونة علا فى الغرفة الخارجية بعض الضجيج ، فسارع الملك وارتد
إلى أسلوبه المهود وقال : « كفى ، كفى ، واعزب عنى ؛ سارع إلى دى فو
وابعث به إلى مع الطبيب العربى . حياتى لدين السلطان ! تالله لو أنكرا السلطان
عقيدته لمدته بمهندى يطرد به هذا الزبد من الفرنسيين والنمساويين من مُلكه ،
وما أظن إلا أن فلسطين ستنعم تحت حكمه كما كانت تنعم حينما كان يتأمر عليها
ملوك مباركون بتفويض من الله » .

وحينئذ تراجع فارس النمر ، ولم تمض دقائق معدودات حتى أعلن الحاجب قدوم وفد من المجمع أتى ليمثل لدى جلالة ملك الانجليز .

فأجاب الملك قائلا : « يسرنى أنهم يعترفون بأنى ما زلت على قيد الحياة ، ولكن من هم أولاء السفراء الموقرون ؟ » .

« هما الرئيس الأعلى لرجال المعبد ومركز منتسرا » .

فقال رتشارد : « إن أخانا ملك فرنسا لا يجب فراش المرضى ، ولو كان فيليب هو العليل لوقفت إلى جوار سريره أمدا طويلا ، أى (جوسلين) مهد سريري خيرا من هذا ، فلقد انقلب كبحر عاصف ، وهات لى تلك المرأة الصلبة ، ومشط شعر رأسى ولحيتى فإنيهما حقا ليبدو ان كعرفة الأسد ، لا كغداثر الرجل المسيحي ، ناولنى ماء » .

فقال الحاجب وهو يرتعد : « إن الأطباء يقولون يا مولاي إن الماء البارد قد يكون فيه الهلاك » .

فأجاب الملك : « إذهب بالأطباء إلى الشيطان الرجيم ! إذا كانوا لا يعرفون لى شفاء ، أفنظن أنى أسمح لهم بإيلاى وتعذيبى ؟ هات الماء وحسبك هذا ! » وبعد ما اغتسل بالماء قال : « أدخل على الرسولين الكريمين ، وما أخال إلا أنهما سوف يريان الآن أن المرض لم يحدُ برتشارد إلى أن يتهاون فى مظهره » .

وكان رئيس رجال المعبد الشهير رجلا طويلا نحىلا ، برته الحروب ، نظراته وثيدة إلا أنها نافذة ، وله حاجبان طبعت عليهما ألوف الدسائس المظلمة لمحمة من خفائها ودجنتها ، وهو على رأس تلك الجماعة الفريدة التى ترى فى نفسها متكاتفة كل شىء ، ولا ترى فى نفسها أفرادا شيئا ، تلك الجماعة التى تسمى لإعلاء كلمتها حتى وإن استهدف للخطر فى سبيل ذلك الدين ذاته ، وقد تألفوا متأخين من أول الأمر للذود عنه ، وهم قوم يتهمون بالزندقة والسحر رغم ما لهم من صفة القساوسة المسيحيين ، ويظن بعض الناس أنهم متأمرون مع السلطان سرا رغم اليمين التى أقسموها للإخلاص فى الدفاع عن المعبد المقدس أو استرداده ؛ هذه

الجماعة كلها ، وشخص زعيمها — أو قل سيدها الأعلى — كانت لغزا ، إذا ذكر ارتعدت منه الفرائص ؛ وكان الرئيس مرتديا ثيابا بيضاء تكسبه وقارا ، ويحمل في يده عصا الحكم السحرية ، التي كثيرا ما أنارت بشكلها العجيب التأويلات والظنون ، مما كان يؤدي إلى الشك بأن هؤلاء الإخوة من الفرسان المسيحيين المعروفين ، إنما يأتلفون تحت أحط رموز الوثنية .

أما كتراد منتسرا فكان ظاهره أسر للنفس من صاحبه الجندى القس ذى اللون القاتم الذى يحوطه الإبهام والغموض ؛ كان منتسرا رجلا مليح الوجه ، فى شرخ الشباب أو جاوزه قليلا إلى الكهولة ، جريئا فى القتال ، حكيما فى المشورة ، مرحا جذلا فى أوقات الهو والسرور ؛ إلا أنه كثيرا ما كان يتهم بالتلون وبالأطباع الدائية الضيقة ، وبرغبته فى مد إمارته دون اعتبار لخير المملكة اللاتينية فى فلسطين ، وبسعيه وراء صالحه الدائى بإجراء المفاوضات الخاصة مع صلاح الدين معتديا بذلك على حقوق الحلفاء المسيحيين .

تقدم هذان الرجلان ذوا المقام الرفيع إلى رتشارد بالتحية المألوفة ، فردها الملك بلطف وبشاشة ، ثم شرع مركز منتسرا يشرح ما حدا بهما إلى تلك الزيارة ، وقال إنهما مرسلان من قبل الملوك والأمراء الذين يتألف منهم مجمع الصليبيين ، وقد ازداد قلقهم ، « كى يستفسروا عن صحة حليفهم الكريم ملك إنجلترا الجسور » .

فأجاب الملك الإنجليزي قائلا : « إنا نعرف ما لصحتنا من أهمية لدى أمراء المجمع ، وإنا نعلم حق العلم كم ذا يكابدون من كتمان كل ما بهم من طُلعة بشأنها مدة أربعة عشر يوما ، خشية منهم — دون ريب — أن تشتد بنا العلة لإظهارهم الجزع لما أصابنا » .

وهكذا أوقف الملك تيار البيان الذى كان يتدفق على لسان المركز ، وتخير المركز نفسه واضطرب لهذا الجواب ، فوصل صاحبه — وهو أشد منه صراحة — ما انقطع من جبل الحديث ، وفى هيئة جافة ، وصيغة موجزة توأمت الحضرة التى يوجه

إليها الخطاب ، قال للملك إنهما جاءا من قبل المجمع يتوسلان إليه باسم العالم المسيحي : « أن لا يعرض صحته لطبيب مسلم يعث بها ، طبيب قيل إن السلطان قد بعث به إليه ، وأن يترى حتى يتدبر المجلس الريب التي يرون الآن أنها تلابس بعثة مثل هذا الرجل ، فإما أزالوها أو أيدوها » .

فأجاب رتشارد : « أى رئيس فرسان المعبد الشجعان المقدسين ، وأنت يا مركيز منتهسرا إذا النبل الرفيع ، لو تفضلتما وعرجتما على السرادق المجاور ، لرأيتما أى وزن تقيم لهذا العتب الرقيق من زملائنا فى هذه الحرب الدينية من ملوك وأمراء » .

فانسحب على أثر ذلك المركيز ورئيس الفرسان ، ولم يتغيبا طويلا فى السرادق الخارجى حتى وصل الطبيب الشرقى يصحبه بارون جلزلاند وكنت الاسكتلندى ، وقد تأخر البارون فى مقدمه إلى الخيمة قليلا عن الرجلين الآخرين ، وربما تريت كى يصدر إلى الحراس خارج السرادق أمراً ما .

ولما دخل الطبيب العربى ، انحنى على الطريقة الشرقية امتثالاً وإجلالاً للمركيز ورئيس الفرسان ، وكانا بادي الوقار مظهرأ ومخبرأ ، فرد رئيس الفرسان التحية بصيغة فيها برودة الأنفة والازدراء ، أما المركيز فقد ردها بلطفه المعهود الذى ألف التقدم به إلى الرجال على اختلاف مراتبهم وأوطانهم ، ثم كان سكون ، لأن الفارس الاسكتلندى كان يرتقب دى فو ، ولم يجرؤ على أن يدخل من تلقاء نفسه خيمة ملك إنجلترا ؛ وفى غضون تلك الفترة ، سأل رئيس الفرسان الرجل المسلم مقطبا عابساً وقال له : « أيها الرجل ، هل لديك من الشجاعة ما يمكنك من ممارسة فنك فى شخص ملك مبارك من جيوش المسيحيين ؟ » .

فأجابه الحكيم وقال : « إن شمس الله تضىء على النصرانى كما تضىء على المسلم المؤمن ، وليس لعبد الله أن يفرق بين هذا وذاك إذا دعى الداعى لأن يمارس فن الشفاء » .

فقال رئيس الفرسان : « يأيها الحكيم المنافق - وسواء كان هذا اسمك

أو أى غيره مما يدعونك به ، فأنت عبد من عبيد الظلام لم تعتنق دين المسيح — هلا عرفت أن الخيول الوحشية سوف تمزقك إربا إربا لو مات الملك رتشارد بين يديك ؟ » .

فرد عليه الحكيم وقال : « ما أقسى هذا من حكم ، إني لا يسعنى إلا أن أستخدم وسائل البشر ، أما العاقبة فسطورة في كتاب النور » .

فقال مركز منتسرا : « كلا يارئيس الفرسان الوقور المقدم . إعلم أن هذا الرجل العالم لا يعرف شيئا عن نظامنا المسيحي الذى يقوم على خشية الله ومن أجل سلامة من حلت فيهم بركته — ولتعرف إذن أيها الطبيب الخطير ، يامن لا نشك في حذقه ومهارته ، أن خير سبيل تسلك هى أن تقصد إلى مجمع حلفنا المقدس المجيد ، وتمثل لديه ، وهناك تدلى بكل ما يتعلق بالوسائل التى سوف تتخذها في علاج هذا العليل صاحب المقام الرفيع ، وتشرح رأيك لمن ينتقون لك من أطباء وحكام عالين ، وبذا تفلت من كل خطر قد تثيره على نفسك بنفسك لو أنك اندفعت وأخذت على نفسك وحدها تبعة مثل هذا الأمر الخطير » .

فأجاب الحكيم قائلا : « سيدى ، إني أفهم ما ترميان إليه حق الفهم ، ولكن للعلم أساطينه كما أن لفنونكم الحربية أبطالها — بل لقد كان له — كما كان للدين — شهداؤه . إني أئتمر بأمر مليكي السلطان صلاح الدين ، وقد أمرنى بشفاء هذا الملك النصرانى ، وسوف أصدع بأمره ، بارك الله فيه ، ولئن فشلت فيما أردت فها هو جسمى أقدمه لسلاحكم ، وإنكم لتمتشقون سيوفا عطشى لدماء المؤمنين ؛ ولكنى لن أجادل رجلا لم تطهره فضائل الأدوية التى جمعت شيئا من علمها بفضل الله ، وأتوسل إليكم أن لا تضعوا التوانى حائلا بينى وبين أداء واجبى » .

فقال البارون دى فو ، وقد سارع ودخل القسطاط : « من ذا الذى يذكر التوانى ، كفانا ما نلنا منه . إليك تحيتى يا لورد منتسرا ويا رئيس فرسان المعبد الجسور ، لا بدلى أن أدخل توا مع هذا الطبيب العالم إلى فراش مولاي » .

فقال المركز بالفرنسية النورماندية أو لغة : « وى Ouie » كما كانت تسمى

إذذاك: « سيدى ، هلا عرفت أنا إنما أتينا كي نذكرك — نيابة عن الملوك والأمراء الصليبيين — بالخطر الذى ينجم عن السماح لطبيب شرقى مسلم بأن يعبث بصحة عزيزة كصحة مولاي الملك رتشارد؟ » .

فأجاب الرجل الأنجليزى بفظاظة وغلظة وقال : « ليس فى وسمى أن أستخدم ألفاظا كثيرة ، ولا يسرنى أن أستمع إليها ، وفضلا عن ذلك فأنى إلى تصديق ما رأيت عيناي أقرب منى إلى ما سمعت بأذنى ، وإنى لعلى ثقة من أن هذا الرجل قد ير على شفاء الملك رتشارد من علته ، وإنى أو من وأوقن أنه سوف يسمي جهده فى هذه السبيل . الوقت ثمين ، ولو أن محمداً ذاته وقف يباب الفسطاط وفى نفسه مثل هذا الغرض السامى الذى بنفس (أدنيك) الحكيم لرأيت من الجرم أن نمهله دقيقة واحدة — وإذن فلتتوكلا على الله ياسيدى » .

فأجاب كتراد منتسرا وقال : « ولكن الملك نفسه قد قال إنه يبنى لنا أن تمثل وقما يعالجه هذا الطبيب » .

وحينئذ أسرّ البارون إلى الحاجب بشيء ما ، ولربما كان يريد أن يعرف إن كان المركيز صادقا فيما يقول ، ثم أجاب : « سيدى ، لو صبرت ما رحبنا بمثولكما معنا ؛ ولكنكما إن عارضنا بالفعل أو بالتهديد هذا الطبيب فى أداء واجبه فلتعلما أنى لن أرمى لعلو مكاتكما حرمة ، وسوف أفرض عليكم الابتعاد عن فسطاط رتشارد ، وتعلما كذلك أنى قوى الإيمان بما لدواء هذا الرجل من فضائل ، حتى لو أن رتشارد ذاته أعرض عن تناوله ، فبحق سيدة (لازركست) ما أظن إلا أنى سوف أجد فى قلبى ما يدفعنى إلى أن أكرهه على أن يتعاطى أسباب شفاؤه ، أراد أو لم يرد — هيا بنا يا حكيم » .

ولفظ كلمته الأخيرة باللغة الفرنجية ، وصدع الطبيب بما أمر فى الحين ، وحينئذ نظر رئيس فرسان المبدمتجهما عابسا ، إلى هذا الجندى المسن ، الذى لا يعرف من آداب اللياقة شيئا ، ولكنه ما إن تبادل النظر مع المركيز حتى انفرج جبينه المقطب على قدر ما وسع ، وتبع كلاهما دى فو والعربى إلى الفسطاط الداخلى

حيث كان رتشارد مستلقياً على سريره يترقبهم ، وقد ارتسم عليه ذلك الجزع الذى يرقب به المريض خطوات الطبيب ؛ أما السر كنت الذى لم يكن مثوله مراداً أو ممنوعاً ، فقد شعر بأن من حقه فى تلك الظروف التى وقف فيها أن يتبع هؤلاء الرجال ذوى المسكناة الرفيعة ، ولكنه أحس بحطته نفوذا ومرتبته فانتأى بعيداً إبان ما جرى إذ ذاك .

وما إن دخلوا غرفة رتشارد حتى صاح الملك متعجباً : « هيا ، هيا ، أكرم بهؤلاء الزملاء الذين أتواكى يشهدوا رتشارد وهو يقفز فى الظلام — أى حلفائى النبلاء ، إني أحبيكم كممثلين لمجمعنا المنعقد ، وعمما قريب إما ترون رتشارد بينكم بسالف هيئته ، أو تحملون إلى القبر جثمانه ورفاته — أى دى ثو ، لك من أميرك الشكر حياً أو ميتاً — ولكن هناك شخصاً آخر — لقد أضاعت هذه الحمى منى البصر — ماذا ؟ يا أيها الاسكتلندى الجسور : من ذا الذى يرقى إلى السماء بغير درج ؟ مرحبا بك ؛ هيا يا سيدى الحكيم ، إلى العمل ، إلى العمل » .

وكان الطبيب قد استعلم من قبل عن مختلف الأعراض التى تبدو على الملك فى مرضه ، فشرع الآن يحس نبضه ، ولبث كذلك طويلاً ، شديد التنبه واليقظ ، بينما وقف الجميع حواله صامتين يترقبون بأنفاس مقطوعة ، وبعد ذلك ملأ الحكيم كأساً بماء معدنى ، وغمس فيه الكيس الأحمر الصغير الذى أخرجه من صدره كما فعل من قبل ، ولما بدا له أنه تشبع بالدواء تشبعا كافياً هم أن يناوله الملك ، لولا أن اعترضه هذا وقال : « البث قليلاً — لقد جسست نبضى ، فدعنى أضع إصبعى فوق إصبعك ، فإننى كذلك — كما يليق بالفارس النبيل — أعرف شيئاً عن فنك » .

فأسلم العربى يده بغير تردد ، واختفت — بل وانظمرت — أصابعه الطويلة الرقيقة السوداء برهة من الزمن فى قبضة يد الملك رتشارد الكبيرة .
ثم قال الملك : « إن دمه ينبض فى هدوء كدم الطفل ، أما أولئك الذين يُسمون الأمراء فلا تتدفق دماؤهم هكذا ؛ أى دى ثو ! لتصرف هذا الحكيم مكرماً

آمنا سواء مت أم حيت — واذ كرنا بالخير يا صديق عند صلاح الدين النبيل ؛
لو مت فساموت ولا يخامرني شك في نيته ، ولو حيت فلاشكرنه كما يجب
المقاتل أن يشكر .

ثم نهض من فراشه وتناول الكأس في يده ، والتفت إلى المركيز وإلى رئيس
فرسان المعبد وقال : « أصغيا إلى ما أقول ، ولتدعا إخواني الملوك يذكرونني وهم
يحتسون نبيذ قبرص ويقولون : ” هذا من أجل الشرف الخالد ، الذي سوف يناله
أول صليبي يضرب برمح أو بسيفه أبواب بيت المقدس ، ومن أجل العار والشنار
الأبدى الذي سوف يلحق بكل من ولّى ظهره السلاح بعد أن امتدت إليه يده ! “ .
ثم احتسى الكأس حتى ثالتها وردها إلى العربي وغاص ثانية — كأنه مجهود
منهوك — فوق الحشايا التي أعدت لراحته ؛ ثم ألمع الطيب بعد ذلك بإشارات
صامتة ، إلا أنها قوية التعبير ، بأن يفادروا الفسطاط جميعا ، ما خلاه هو ودى فو ،
الذي لن ينسحب لإشارة أو أمر ، نخلت الغرفة بعد ذلك كما أشار الطيب .

الفصل العاشر

والآن سوف أفتح كتابا خفيا ،
وأقرأ لكم فصلا عميقا خطيرا ،
تدركونه بنافذ البصيرة فتبرمون منه ولا ترضون .
هنري الرابع - الجزء الأول

وقف مر كيز منتسرا ورئيس فرسان المعبد معا أمام السراق المملكي الذي وقع فيه هذا الحادث الفريد ، ورأيا حراسا أشداء بنشأهم وقسيهم مشهورة ، وهم على هيئة دائرة حول السراق ، يُبعدون كل ما قد يزعج الملك النائم ؛ وكان هؤلاء الجنود يتطلعون بنظرات خافضة صامتة كثيفة كأنهم يجرون سلاحهم في جنازة ، وكانوا إذا خطوا خطوا في حرص شديد ، حتى لا تكاد تسمع رنين الدرق أو صليل السيوف ، رغم العدد العديد من الرجال المسلحين الذين كانوا يسرون حول الفسطاط ولما مر الرجلان ذوا المكانة الرفيعة بصفوفهم نكسوا السلاح إكبارا وإجلالا ، ولكنهم لزموا الصمت العميق .

وقال رئيس فرسان المعبد لكتراد بعد ما مرا بحرس رتشارد : « لقد غيّر كلاب الجزيرة^(١) هؤلاء من روحهم الطروب . أي ضجيج أجش وأي قصف كان من قبل أمام هذا السراق ! كنت لا ترى إلا المتاريس تدق ، والكور تقذف ، والمصارعة وزئير الأغانى وطقطقة كؤوس النبيذ ، واجتراع الأباريق ، بين هؤلاء الرعاع الضخام الجسوم ، كأنهم على سهر في الريف تتوسطهم السارية بدلا من العلم المملكي » .

فأجاب كتراد وقال : « هذه الكلاب الجسيمة من أمة مخلصنة أمينة ، وقد أحرز الملك سيدهم محبتهم باستعداده للمصارعة والنزال والمجون بين المتقدمين منهم كلما تملكه الهوى » .

(١) يشير بذلك إلى الإنجليز .

فقال رئيس الفرسان : « ما هذا الملك إلا مجموعة من الأهواء ، ألم تلحظ المعهد الذى حملنا إياه عوضاً عن الصلاة والدعاء وهو يتناول الكأس المباركة هناك ؟ » .
فقال المركيز : « والله لو كان صلاح الدين كأى تركى آخر ممن يلبسون العمام ويولون وجوههم شطر مكة إذا ما نادى المؤذن بالصلاة ، لأحس رتشارد ببركة الكأس ، بل ولا ستساغ مذاقها كذلك ، ولكن صلاح الدين يتظاهر بالإيمان والشرف والكرم — كأنه يجوز لوغد مثله لم يعتنق دين المسيح أن يتحلى بأخلاق الفارس المسيحي الفاضلة ! هل نما إليك ما يقال من أنه تقدم إلى رتشارد يطلب الانخراط فى سلك الفروسية ؟ » .

فأجاب كبير الفرسان متعجباً وقال : « وحق القديس « برنارد » لقد آن لنا إذن أن نخلع التُّطق والمهاميزيا كتراد ونمحو شعار الدروع ونبذ الخوذات ، لو كان أرفع الشرف المسيحي يُمنح تركياً لم يعتنق دين المسيح ولا يساوى عشرة دراهم » .

فرد عليه المركيز وقال : « إنما أنت تحط من شأن السلطان ، ومع ذلك ، ورغم أنه رجل له قيمة ، فلقد رأيت خيراً منه من المشركين يباع بأربعين درهما فى المواخير » .

وكان الرجلان إذ ذاك قد دنوا من جواديهما — وكانا واقفين بعيداً عن السرادق المسمى يمرحان بين جماعة الخدام والحجاب الشجعان الذين كانوا يباشرونهما — وحينئذ عرض كتراد على صاحبه ، بعد برهة ساد فيها السكون ، أن يستمتعا بنسيم المساء البارد الذى بدأ فى الهبوب ، وأن يصرفا جواديهما وخدامهما ويسيرا راجلين إلى بيتيهما فى الحى الذى يسكنانه ، متخللين صفوفاً ممتدة من خيام المسيحيين ، فقبل رئيس الفرسان ، ثم طفقاً يسيران معا وكأتهما تراضياً على أن يتجنبنا الأماكن المأهولة فى هذه المدينة من الخيام ، ويتابعا الرحبة الفسيحة التى كانت تقع بين الخيام وقوى الدفاع الخارجية ، حيث يستطيعان أن يتحدثا مختلفين ، لا ترعاهما عيون غير عيون الحراس وهما يمران بهم .

وتبادلا الحديث برهة من الزمن على النقط الحربية والاستعداد للدفاع ، ولكن هذا اللون من الحديث ، الذى لم يرق لهما كليهما ، سرعان ما خمد وأعقبته فترة طويلة ساد فيها السكون ، ثم انتهى الأمر بأن وقف مركز منتسرا بغتة وكأنه انتهى إلى رأى طارئ ، ثم حدق يبصره بضع لحظات فى عيني رئيس الفرسان السوداوين النافذتين ، ووجه إليه الخطاب أخيراً وقال : « هل لى أن أطلب إليك ياسر « جاز امورى » ، يأبها الرجل البجل ، طلبة عساها تتفق وكرامتك ، وتفوز منك بالرضا والقبول ؟ وذلك أن تخلع عنك هذا القناع الأسود الذى تتقنع به وأن تتحدث إلى صديق لك بوجه عار » .
فابتسم رئيس فرسان المبد نصف ابتسامة .

ثم قال : « من الحجب ما خف لونه ، ومن الستر ما اسودت صفحته ، وأولهما - كثنانها - يخفى الملامح الطبيعية كل الخفاء » .

فقال المركز ، وقد مديده إلى لحيته ، ثم رفعها وكأنه يضم قناعاً : « ليكن ذلك ، هذا حجابى أرفعه ، والآن ماذا ترى فى أمر هذه الحرب الصليبية فيما يمس صالح رجال معبدك ؟ » .

فأجابه رئيس الفرسان قائلاً : « إنما أنت بسؤالك هذا تمزق الحجاب الذى يستر فكرى ، ولا ترفعه عما بنفسك ، ومع ذلك ، فإنى أجيبك بقصة مجازية حدثنى بها شيخ من شيوخ الصحراء ؛ قال الشيخ : دعا مرة رجل فلاح ربه أن ينزل له من السماء ماء ، ولما نزل الماء فى غير وقت حاجته شك الفلاح وتململ ، فأراد الله أن يجزيه جزعه ، فأرسل على حقله الفرات ، فهلك الرجل وما يملك ، ومع ذلك فقد استجاب الله له الدعاء » .

فقال المركز كتراد : « ما أصدق ما تقول ، وددت لو ابتلع المحيط تسعة عشر جزءاً من سلاح أمراء الغرب هؤلاء ! فإن مايقى بعد ذلك يؤدى لنبلأ فلسطين المسيحيين ، وللبقية التسعة من مملكة بيت المقدس اللاتينية ، أغراضهم خيراً من ذى قبل ؛ لو أنا تركنا لأنفسنا لصمدنا للعواصف ، ولو أن مددا معتدلاً جاءنا من

المال والرجال لأكرهنا صلاح الدين على أن يحترم فروستينا ، ويقدم لنا صلحاً وحماية بشروط هينة ، ولكننا من الخطر الداهم الذى يكتنف هذه الحرب الصليبية القوية التى تهدد صلاح الدين — لو أنها وقعت — لا ننتظر من العرب أن يرضوا لأى منا أن يستولى على مُلك أو إمارة فى سوريا ، بله أن يسمحوا ببقاء جماعات الإخوان المسيحيين الحريين الذين نالوا على أيديهم شراً كثيراً .

فقال رئيس الفرسان : « أى نعم ، ولكن هؤلاء الصليبيين المغامرين قد ينجحون ويرفعون الصليب ثانية على حصون صهيون » .

فأجاب المريكز وقال : « وماذا يجدى هذا على رجال المعبد أو على كثراد منتسرا ؟ »

فأجاب رئيس الفرسان قائلاً : « قد يجدى عليك ، وقد يصبح كثراد منتسرا كثراد ملك بيت المقدس » .

فرد عليه المريكز وقال : « هذا كلام فيه شيء من الزين ، ولكنه رنين أجوف ، فإن « جودفرى أمير بوين » قد يختار التاج الشائك رمزاً له . أى رئيس الفرسان ، إنى أعتز لك أنى الآن أميل بعض الميل إلى هيئة الحكومة الشرقية : الدولة ما هى إلا ملك ورعية ؛ هذا هو البناء الفطرى الساذج — الراعى والقطيع ، وما هذه السلسلة من الاقطاعات المستقلة بين الطرفين إلا نظام مصطنع غير طبيعى ، وإنه لخير لى أن أمسك بمصا المريكزية بقبضة ثابتة وأهزها كما أهوى من أن أستولى على صولجان الملك ، ولا أكون فى حقيقة الأمر إلا مقيداً وخاضعاً لإرادة كل أمير من أمراء الإقطاع المتخالفين الذين يمتلكون أرضاً تحت قانون بيت المقدس ^(١) ؛ ينبغى يا كبير الفرسان أن يطأ الملك الأرض حراً لا تعوقه حفرة هنا وسياج هناك — هذا امتياز اقطاعى وذلك بارون يتدرع بالزرد وقد استل سيفه

(١) قانون بيت المقدس هو خلاصة قانون الأقطاع ، وضعه « جودفرى البولونى » لحكومة مملكة فلسطين اللاتينية حينما تم استخلاصها ثانية من أيدي العرب ، ويقول المؤرخ « جين » إنه « وضع بمشورة البطريق والأمراء ورجال الدين والعلمانيين وهو أثر قيم من آثار التشريع الإقطاعى يقوم على أسس الحرية التى كانت من ضروريات هذا النظام » .

في يمينه يتق به ، وموجز القول أني أعلم أن مطالب « جاى دى لرجنان » في العرش سوف توضع فوق مطلبى له ، لو أن رتشارد عوفى وكان له أن يقول كلمته في الانتخاب .

فقال كبير الفرسان : « كفى ، كفى . حقا لقد أقنعتنى بإخلاصك ، وقد يرى غيرك ما ترى ، ولكن قليلاً سوى كتراد منتسرا من يجرؤ على أن يجهر صراحة بأنه لا يرغب في إعادة مملكة بيت المقدس ، وإنما هو يؤثر أن يبقى سيداً على جزء من أجزائها ، مثله في ذلك مثل سكان الجزر البرابرة الذين لا يعملون على خلاص سفين كريم من لجج الأمواج إلا إن كان لهم في حطام السفين مغنم » .
فقال كتراد وقد نظر نظرة حادة فيها شك وريبة : « ينبغي أن لا تبوح بهذا السر ، واعلم وكن على ثقة أن لساني لن يسىء إلى ضميرى ، ولن تمتنع يدي عن الدفاع عنهما معاً . اتهمنى بالخيانة إن شئت ، فإني مستعد لأن أدفع عن نفسي ، وأن أقف في رحبة النزال في وجه خير رجل من رجال المعبد ممن يحملون الرماح » .
فقال رئيس الفرسان : « هذه نهضة مباغته منك أيها الرجل الجسور ، وإني لأقسم لك بالمعبد المقدس — الذى أخذت وزملائى على أنفسنا أن ندفع عنه — أني سوف أحفظ شرك كزميل صادق » .

فقال مركز منتسرا — وهو رجل كثيراً ما غلب جبهه للسخرية سياسته وحكمته — « بأى معبد تقسم لى ؟ أفبذاك القائم على تل صهيون الذى ابتناه الملك سليمان ، أم بذلك البناء المجازى الذى يقال إن المجمع التى تعقد في قاعات دروسكم ترمز به إلى توسيع نطاق جماعتكم ؟ » .

فتجهم له رئيس رجال المعبد ، ونظر إليه بعين قاتلة ، ولكنه أجاب في هدوء وقال : « أيا كان المعبد الذى أقسم لك به ، فكن على يقين يا لورد مركز أن يمينى مقدسة ، ولكن أنى لى أن أعرف كيف أربطك يمينين تعادل يمينى إلزاماً وثقة ؟ » .
فأجاب المركز ضاحكاً وقال : « أقسم لك حقا بتاج (الاييرل) ، الذى أرجو أن أحيله قبل انتهاء هذه الحروب إلى شىء خير منه ؛ وإني لأحس على جبيني

بالبرودة من هذا التاج الخفيف ، والله إن خوزة (الدوق) التي يتق بها خير من التاج وقيامة من نسيم الليل البارد الذي يهب علينا الآن ، وخير من هذا وذاك تاج الملك فهو مبطن بالخمél والفراء الثمين الوثير ، وموجز القول أنا ترتبط معا بصالح مشترك ولا تظن يا سيدى الرئيس أن هؤلاء الأمراء المتحالفين — لو أنهم استردوا بيت المقدس ونصبوا عليهم هناك ملكا باختيارهم — سوف يرضون ببقاء جماعتك أكثر مما يرضون ببقاء إمارتى الفقيرة ، أو يرضون بأن نحفظ بالاستقلال الذى تتمتع به الآن ، كلا ، وحق العذراء ، إن فرسان القديس يوحنا المتحالفين فى مثل هذه الحال سوف ينشرون الدواء ويضمدون بالغ الكلوم فى المستشفيات ، وأنت يا أشد فرسان المعبد مقدره ، وأكثرهم جلالا ، سوف تعود إلى حالك ، ولا تبيت أكثر من جندى ساذج ، تمامون ثلاثة فوق حصير واحد ، ويمتطى كل اثنين منكم جوادا واحدا ، كما لا يزال طابعكم الحالى يدل على أن هذه العادات الساذجة كانت دأبكم الزمان الحالى .

فقال رئيس رجال المعبد بأنفة وكبرياء : « إن جماعتنا لها من المكانة والفضل والرخاء ما يمنع مثل هذا الأنحطاط الذى تهدد به » .

فرد عليه كتراد منتسرا وقال : « وإن فى ما ذكرت لأسباب شقائقكم ، وأنت كمثلى يا رئيس رجال المعبد ، يا أيها الرجل الموقر ، تعرف أن لو نجح الأمراء المتحالفين فى فلسطين ، فإن ذلك سوف يكون مبدأ لسياسة ترمى إلى الحد من استقلال جماعتك ، هذا الاستقلال الذى لولا حماية أئينا البابا المقدس له ، وضرورة استخدام شجاعتك فى فتح فلسطين ، لافتقده منذ زمن طويل ؛ أعطهم نجاحا تاما يندبوك كما تُنبذ شظايا الرمح المحطم بعيدا عن رحبة النزال » .

فقال رئيس رجال المعبد وقد ابتسم ابتسامة كثيفة : « قد يكون صدقا ماتقول ، واسكن أى أمل لنا لو أن الحلفاء سحبوا قواهم ، وخلفوا فلسطين فى قبضة صلاح الدين ؟ » .

فأجاب كتراد : « أملنا عظيم ومؤكد ، سوف يسمح السلطان للأقاليم

الكبيرة بأن تُبقى على فرقة من خيار الرماحين الفرنجة تكون رهن مشيئته ، وإن مائة من أمثال هؤلاء الأعوان تلتحق بخيالاته الخفيفة في مصر وسوريا لتظفرن في القتال على أشد الأعداء فزعا ورعبا ؛ وهذا الاعتماد على جيوش السلطان سوف لا يدوم إلا فترة وجيزة — ربما كانت طيلة حياة هذا السلطان الطموح — وذلك لأن الدول في الشرق تهب كما يهب الفطر^(١) ، وهب أنه قد مات ، وهبنا تعضدنا من أوروبا نفوس مقحامة متقدة تأتينا دائبة متتابعة ، فأى شيء لا نطمح في الظفر به دون أن يسيطر علينا هؤلاء الملوك الذين لهم من الرفعة اليوم ما يرمى بنا في الظلام ؟ — أما إن لبثوا هنا ونجحوا في هذه الحملة ، فإنهم سوف يودعوننا أبدا ، عن رغبة منهم ، إلى الذلة والتواكل .

فقال رئيس الفرسان : « هذا كلام طيب يا سيدي المريكز ، وإن لكلماتك لصدى في نفسى ، ولكننا مع ذلك ينبغي أن نكون على حذر ؛ إن فيليب ملك فرنسا حكيم كما هو جسور شجاع » .

« حقا وهو لذلك سوف يكون أشد تساهلا في تحوله عن حملة ارتبط بها مندفا في لحظة اشتعلت فيها نار الحماس أو استفزه فيها نبلاؤه ، إنه يغار من الملك رتشارد عدوه الطبيعي ، ويتوق إلى العودة إلى متابعة خطط أطاعه ، وهى إلى باريس أقرب منها إلى فلسطين . أى دعوى عادلة سوف يتوكأ عليها كي ينسحب من ملحمة يعلم أنه إنما يبدد فيها قوى مملكته » .

فقال رئيس الفرسان : « وماذا ترى في دوق النمسا ؟ » .

فرد عليه كتراد وقال : « أما فيما يخص الدوق ، فإن غروره بذاته ، وحمقه ، سوف يؤديان به إلى النتائج عينها التى وصل إليها فيليب بسياسته وحكمته ؛ إنه يرى أنه عومل بالجحود ، وذلك لأن أفواه الرجال — حتى مغنية من الجرمان — تمتلئ بمحامد الملك رتشارد ، الذى يخشاه ويمقتة ، والذى يُيسر لأذاه ، مثله في ذلك مثل أولئك الأوغاد الأندال الذين لم يصبهم شيء من التهذيب ، والذين

(١) نبات سريع النمو سريع الزوال .

إذا نهش الجلي من سربهم ذئب ، فسه ضر ، كانوا إلى مهاجمة زميلهم من الخلف .
أسرع منهم إلى الخلف إلى معوته . ولكن لماذا أحدثك بهذا ، اللهم إلا إن
كان ذلك لأدلل لك على أني مخلص في رغبتى فى أن ينفذ هذا المجتمع ، وأن
تتحرر البلاد من هؤلاء الملوك العظام وجيوشهم ؟ وأنت جد عليم ؛ وقد شاهدت
بنفسك كيف أن الأمراء قاطبة من ذوى النفوذ والسلطان ، لا تستثنى منهم غير
واحد ، يودون لو يرمون عهدا مع السلطان .

فقال رئيس الفرسان : « إنى أقر بذلك ، ومن لم يشهد ذلك إبان تداولهم
أخيراً فهو أعمى البصر ، ولكن هلا رفعت عنك الحجاب قيد أعملة إلى أعلى
وحدثتني عن الباعث الحق الذى حدا بالمجمع أن يبعث بذلك الرجل من أبناء
الشمال ، انجليزيا أو أسكتلندياً ، أو أيا كان ذلك الفارس ، فارس النمر ، يحمل
مقترحهم لعقد المعاهدة ؟ »

فأجابه الرجل الإيطالى وقال : « إن وراء ذلك لحكمة ، فإن صفة الرجل
كواحد من أبناء بريطانيا ، قينة بأن تسد ما يطلب صلاح الدين ، فهو يعرف
أن الرجل ينتمى إلى فريق رتشارد ؛ وصفته كأسكتلندى ، وغير ذلك من الضغائن
الشخصية التى أعلم ، تجعل اتصال رسولنا بعد عودته — رتشارد — وهو على
فراش المرض ، أمراً بعيد الاحتمال ، فإن رتشارد لا يجب مرآه . »

فقال رئيس الفرسان : « تالله إنها لسياسة دقيقة الحيك ، صدقتى إن نسيج
العنكبوت الإيطالى هذا الذى نسجت لن يقيد شمشون ^(١) الجزيرة هذا الذى لم
يقص شعره بعد . ليس لهذه المؤامرة أن تنجح إلا إذا حبكتموها من جديد
بالجبال ، وبأشد من الجبال متانة وصلابة ؛ ألا ترى أن الرسول الذى عنيتم جد
العناية بانتخابه قد أتى لنا بطبيب بين يديه شفاء الملك الانجليزى قلب الأسد وعنق
الثور ، وردّه إلى تنفيذ مشروعه الصليبي ؛ وإذا ما بات على الانطلاق قديراً فأى
الأمراء يجسر على كبح جماحه ؟ إنهم سوف يتبعونه خجلاً وحياء ، وإن يكن
أحب إليهم أن يسيروا تحت لواء الشيطان . »

(١) إشارة إلى قصة شمشون الجبار فى التوراة .

فقال كتراد منتسرا : « لا تجزع ، فقبل أن يتم هذا الطبيب شفاء رتشارد — إن كان يعمد إلى أي شيء غير المعجزة — فإنه من الممكن أن تخفروا عميقة عين الرجل الفرنسي — أو التماسوى على الأقل — من ناحية ، وبين حلفائه من الانجليز من ناحية أخرى ، حتى يتعسر رتق الحرق على الراقع ، وقد يهب من فراشه رتشارد بعدئذ كي يتأمر على جنده الخاص من مواطنيه ، ولكن لن يسيطر وحده على قوى الصليبيين جميعا . »

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « إنما أنت يا كتراد منتسرا نبأل صحت عزيمته ، ولكن قوسك مرتخية لا تبلغ بالنشاب إلى الهدف . »
وتوقف عن الكلام فجأة ، وأرسل نظرة فيها شك وريبة كي يستوثق أن أحدا لم يكن يتسمع له ، ثم أمسك بيد كتراد وقبض عليها بشدة وحدق في وجه صاحبها الإيطالي ، وكرر هذه العبارة في أناة وتؤدة : « أفقول إن رتشارد قد يهب من فراشه ؟ كتراد ! ينبغي أن لا يهب رتشارد مطلقا ! »
ففزع من ذلك مركز منتسرا وقال : « ماذا ! هل أنت تتحدث عن رتشارد ملك انجلترا قلب الأسد بطل العالم المسيحي ؟ »

وعلت الصفرة وجنتيه وارتعدت فرائصه وهو يتكلم ، فنظر إليه رئيس الفرسان وقد تقلصت ملامحه ونمت عن ابتسامة فيها تحقير وازدراء .

« هلا تعرف أيها السيد كتراد لأي شيء أنت تشبه هذه الآونة ؟ لست كمركز منتسرا السياسي الجسور — ولست كمن هو قمين بتوجيه مجمع الأمراء والفصل في قضاء الدول — إنما أنت كتلميذ زل عند رقية في كتاب سحر لأستاذه ، فابتعث الشيطان من حيث لا يدري ، ثم وقف مذعورا أمام الشبح الذي مثل أمام عينيه . »
فقال كتراد وقد تاب إلى رشده : « إني أسلم لك أنا إن لم نكشف عن طريق أ كيدة نخلص بها ، فلقد أشرت أنت إلى تلك التي تؤدي رأسا إلى ما زرى — ولكن ، لك الله يا مريم ! لسوف تصب أوروبا كلها علينا اللعنات ، ونصبح مسبة في جميع الأفواه ، من البابا على عرشه إلى أدنى متسول لدى باب الكنيسة ،

يحمد ربه — على شعثه وبرصه وتمرغه في الدرك الأسفل من الشقاء الإنساني — على أنه ليس بجيئز امورى أو كتراد منتسرا .

فرد عليه رئيس الفرسان برباطة الجأش التي تميز بها خلال هذا الحوار الهام وقال : « لو كان هذا ما ترى إذن فلنمض وكأن لم يكن بيننا شيء ، وكأن حديثنا حديث نيام ، وما لبثنا أن صحونا حتى تبددت من أمامنا الأحلام » .

فأجاب كتراد قائلا : « إن هذه الأحلام لن تنقشع » .

فرد عليه رئيس الفرسان وقال : « أجل إن رؤيا أ كاليل الأمراء ، وتيجان الملوك تحتل في المخيلة مكانا لا يتزعزع » .

فأجاب كتراد وقال : « إذن فدعنى أحاول بادىء ذى بدء أن أفصم عرى الروثام بين النمسا وانجلترا » .

ثم افترقا ، ولبث كتراد ساكنا لا يتحرك حيث كان ينظر إلى عباءة رئيس الفرسان البيضاء ترفرف ، وهو يخطر في مشيته في تودة وأناة ، وبيتعد قليلا قليلا حتى ابتلعه ظلام الليل الشرقى الذى سرعان ما يرخى سدوله وينوء بكلكاه ؛ وكان مركز منتسرا مختالا طموحا ، جريئا أريبا ، ولكنه — مع ذلك — لم يكن قاسى القلب بطبعه ، كان شبقا أبيقوريا ، ولكنه كان — كغيره ممن يتخلقون بخلقه — يعاف الإيلام ، ولا يجب أن يشهد عملا فيه قسوة أو صرامة ، حتى وإن يكن فى نفسه من البواعث ما يبرره ، وكان لديه كذلك إحساس عام بتقدير ذكره بين الناس ، ذلك الإحساس الذى كثيرا ما يسد النقص فى المبادئ السامية التى يقوم عليها طيب الأحداث .

قال وما فتئت عيناه ترتقبان الموضع الذى شاهد به عباءة رئيس الفرسان وهى تهتز الهزة الخفيفة الأخيرة : « حقا لقد أثرت فى الشيطان روح الانتقام ! من ذا الذى كان يظن أن هذا الرئيس الحازم الزاهد — الذى يتلاشى كل أمل له فى آمال طائفته — يكون أشد منى رغبة فى إشعال الفتنة ، وأنا إنما أعمل لنفمى

خاصة ؟ حقا لقد كان إيقاف هذه الحرب الصليبية الممجية هو باعثي الوحيد ، ولكنني لم أجرؤ على أن أفكر في هذه الطريق العاجلة التي تجاسر هذا القس القوي العزيمة على اقتراحها — وهي مع ذلك آكد الطرق ، وربما كانت آمنها .

وهكذا كان المركز يناجى نفسه ، وبهذه الخواطر كان يتمم ، حينما استوقفه صوت غير بعيد ينادى ، وكأنه صوت رائد في نبراته رنة التأكيد ، ويقول : « اذكروا القبر المقدس ! » .

وردد هذا النذير حارس بعد الآخر ، إذ كان من واجب الخفراء أن يصيحوا بهذا النداء الفينة بعد الفينة وهم في رقابتهم المتعاقبة ، حتى لا يغيب أبدا عن ذكر الصليبيين الغرض من حمل السلاح ، ولكن رغم أن كندراد كان يألف هذه العادة ، ورغم أنه سمع هذا الصوت النذير في كل مناسبة سبقت وكأنه أمر مألوف ، إلا أن صوت المنادى قد اتصل إذ ذاك اتصالا وثيقا بسلسلة أفكاره ، حتى خيل له أنه صوت من السماء يحذره من الإثم الذي يتردد في صدره ، فتلفت حواليه جزعا كأنه — وإن اختلف ظروفه — ذلك الأب القديم يرتقب كبشا يأتيه من الغاب ، فداء عن القربان الذي اقترح له رفيقه أن يقدمه لا إلى الكائن الأعلى ، وإنما إلى وثن أطعهما ، وإذ هو يتلفت اختطفت بصره ثنايا العلم الإنجليزي ترفرف متناقلة مع نسيم الليل العليل ، وكان العلم مرفوعا فوق ربوة مصطنعة تكاد تتوسط المعسكر ، ربوة ربما كان قد اختارها في الزمن القديم زعيم من زعماء بني إسرائيل ، أو بطل من الأبطال ، لتكون شاهداً على جدته ، وإن صح هذا ، فلقد غاص اسم الرجل في لجج النسيان وأطلق الصليبيون على المكان اسماً نصرانيا هو جبل «سنت جورج» ، وذلك لأن العلم الإنجليزي كان يخفق فوق هذه القمة الشاخمة ، ويعلو على كل ما عداه ، كأنه رمز السلطان يسمو على العدد العديد من البيارق البارزة النبيلة ، بل والبيارق الملكية التي كانت ترفرف فوق المواضع الدنيا .

ورجل له من سرعة الخاطر ما لكندراد قمين بأن يرى الرأى في وميض برهة

أو لحظة ، وكان نظرة واحدة إلى العلم قد بددت كل ما قام في نفسه من ريبة أو شك ، فسار إلى سرادقه بخطى حازمة حثيثة ، كأنه رجل قد اختط لنفسه خطة صح منه العزم على إنفاذها ، ثم صرف رتلا من الرجال ، لهم ما يشبه الأبهة الملكية ، كانوا يقومون على خدمته . وما أن استلقى على فراشه حتى تتم بعزمه الجديد ، وذلك أن يحاول وسائل اللين قبل أن يعمد إلى خطة اليأس .

وقال : « غدا أجلس في مجمع أرشدوق النمسا ، وسوف نرى ما عسى أن نفعل لبلوغ ما ربنا قبل أن نلجأ إلى الرأي الأغبر ، رأى رئيس المعبد » .

الفصل الحادى عشر

فى بلادنا الشمالية أمر أكيد ؛
قد يتميز الفرد مولداً أو شجاعة أو ثروة أو ذكاء ،
ولكن الحسد الذى يتبع هذى الفضائل ،
كما يتبع كلب الصيد طريق الغزال ،
يهدمها جميعاً واحدة بعد الأخرى .
السر داويد لندزى

كان ليوبولد دوق النمسا الأعظم أول من تملك تلك البلاد الكريمة التى تنتمى إليها مرتبة الإمارة السامية ؛ ارتفع فى الإمبراطورية الألمانية إلى مرتبة الدوق لصلة رحم قريبة بينه وبين الإمبراطور هنرى الحازم الشديد ، وتملك تحت حكومة الإمبراطور خير الأقاليم التى يرونها الدانوب ، وقد تلوث اسمه فى التاريخ بسبب فعلة شنعاء ، كان فيها ختال منه ، نشأت عن هذه الحروب فى الأرض المقدسة ، وذلك هو العار الذى ارتكبه حينما زج برتشارد فى السجن وهو عائد خلال أملاكه متخفياً لا تتبعه حاشية ، ومع ذلك فإن هذا العمل لم يصدر عن سجية ليوبولد وطبيعته ، فلقد كان أميراً إلى الضعف والعبث أقرب منه إلى الطموح والجور ، وهو فى قواه العقلية أشبه بصفاته الشخصية ؛ كان طويل القامة ، قوى البنية ، تظهر على بشرته الحمرة والبياض على أشد تباين ، وله شعر أشقر جميل تتدلى منه خصلات طويلة متهدلة ، ولكن بمشبهته نبواً كأن ليس بجسمه من النشاط والحياة ما يكفى لأن يدفع بمثل هذا الحجم الكبير ، وكذلك كان يرتدى ثياباً فاخرة وكأنها لا تنسجم عليه ، وكان يبدو عليه أنه لم يألف كثيراً أن يحتفظ بكرامته كأمر نبيل ؛ ولما كان فى كثير من الأحيان فى حيرة من أمره كيف يفرض سلطانه ونفوذه حينما يدعو إلى ذلك داع ، فكثيراً ما كان يظن أنه مضطر إلى الفعال العنيفة والألفاظ الشديدة فى غير مناسبة ، كى يسترد مكانته ، ما كان أيسر له وأوفر كرامة من أن يُبقى عليها لو كان لديه قليل من الحصافة فى أول الجدل .

ولم تكن هذه النقائص ليراهها غيره فحسب ، وإنما لم يسع الأرشدوق نفسه أحياناً إلا أن يحس إحساساً أليماً بأنه لم يكن البتة جديراً بأن يفرض نفوذه ويحتفظ بالمرتبة العالية التي أحرزها ، وكان يحس إلى جانب ذلك برية قوية — كثيراً ما كان مصيباً فيها — في أن الآخرين كانوا من أجل هذا لا يولونه إلا قليلاً من الاحترام والتقدير .

ولما التحق ليوبولد بالحرب الصليبية أول الأمر ، تتبعه حاشية عليها أمهة الإمارة ، كان يتوق كثيراً لأن يظفر بصداقة رتشارد وإخلاصه ، وقد تقدم إليه يخطب الود ، ويرتقب من ملك إنجلترا أن يتقبل — لدهائه — هذا التودد ويحييه ، ولكن بين الأرشدوق — وإن تكن لا تنقصه الشجاعة والإقدام — وبين قلب الأسد بوناً شاسعاً في تلك الحرارة القلبية التي تعانق الأخطار كأنها عروس حسناء ، فلم يسع الملك إلا أن ينظر إليه بشيء من التحقير والازدراء . وكان رتشارد كذلك أميراً نورمانديا ، والنورمان قوم ضبط النفس من طبعهم ، فكان يحتقر الجرمان الذين يميلون إلى السباط الممدود بشهى الطعام ، وبخاصة ذلك الإدمان الفارط في احتساء النبيذ ؛ ومن أجل هذا عامة ، ولأسباب شخصية أخرى ، سرعان ما نظر ملك إنجلترا إلى الأمير النمساوى بقلب ملؤه الاستخفاف والتحقير ، ولم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذا الشعور أو الحد منه ، ولذا فسرعان ما بدا عليه ، وردد ليوبولد — الذي كانت تداخله الرية — بالبنغض الشديد . هذا التنافر بينهما زاد من حدته فيليب ملك فرنسا بالدسائس الخفية الساكرة ، وفيليب أحد الملوك ذوى الفطنة في ذلك الزمان ، وكان يخشى من رتشارد ثورته وصلفه ، وينظر إليه كمنافسه الطبيعي ، ويحس كأنه — وهو تابع من أتباع فرنسا من حيث أملاكه في القارة الأوروبية — يسىء إليه بذلك الإملاء الذي يمليه ويتظاهر به إزاء سيده ، فكان فيليب لتلك يحاول أن يشد من أزر حزبه ، ويضعف من شأن حزب رتشارد ، بتوحيد الأمراء الصليبيين ذوى المراتب الدنيا ، للوقوف في وجه ما كان يسميه السلطة الغاصبة لملك إنجلترا . تلك كانت السياسة ، وهذه كانت الخواطر التي يرحب بها

أرشدوق النمسا ، حينما اعتزم كتراد منتسراً أن يستخدم غيرته من إنجلترا كوسيلة لحل مجمع الصليبيين أو الفت منه على الأقل .

وقد اختار أوج النهار وقتاً لزيارته ، ودعواه أنه يريد أن يقدم للأرشدوق بعضاً من خير نبيذ قبرص وقع أخيراً بين يديه ، ويجب أن يتحدث في شأن ماله من مزلياً ، ويوازن بينه وبين نبيذ المجر والرين ؛ وقد أجب بالطبع لهذا الإلماع إلى مرماه ، بدعوة كريمة لأن يشترك في مأدبة يؤديها الأرشدوق ، وقد بذل كل مسعى لأن تكون هذه المأدبة لائقة بأبهة أمير ملكي ، ولكن الرجل الإيطالي رغم ذلك ، رأى بذوقه المهذب أن في الأطعمة المعروضة وفرة غير متسقة ، أثقلت بها المائدة ، أكثر مما رأى فيها تأثقاً وبهاء .

والجرمان ، قوم ما عتموا يحتفظون بالصراحة والصفات الحربية التي ورثوها عن آبائهم الذين أخضعوا الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنهم مع ذلك قد أبغوا على أثر طفيف من آثار وحشيتهم ، فلم ترتفع بينهم عادات الفروسية ومبادئها إلى ذلك الحد الرقيق الذي بلغته بين الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، ولم يعروا قواعد الجماعة المرسومة دقيق الرعاية ، تلك القواعد التي كانت بين تينك الأمتين تتم عن مبلغ الحضارة والتمدن . ولما جلس كتراد إلى مائدة الأرشدوق ، صعق لساعته ، وذعر لنقيق الأصوات التيوتونية التي كانت تفرع سمعيه من جانب ، رغم الوقار الذي ينبغى أن يلبس موائد الأمراء ؛ ولم تكن أزيائهم بأقل غرابة ، وقد احتفظ الكثير من أشرف النمسا بلحي طويلة ، وكانت غالبيتهم الساحقة ترتدي معاطف قصيرة متنوعة الألوان ، وقد رُسمت وازينت ، وتهدلت منها هذب على طراز غير مألوف في غرب أوروبا .

وكم كان في السرادق من الأتباع كهولة وشباباً ، على الخدمة قاعمون ، وهم يساهمون في الحديث أحياناً ، ويتسلون من سادتهم ما تبقى من طعام أو شراب يلتمونه وهم وقوف خلف ظهور الحافلين ؛ وكان عدا هؤلاء عدد عديد من المهرجين والأقزام والمغنين ، وهم أعلى نجيحاً وأكثر تدخلاً مما يُسمح لهم به في حفل خير

من هذا نظاماً؛ ولما أن كان مباحاً لهم أن يأخذوا بنصيبهم ، بقدر ما يشتهون ، في النيذ الذي كان يتدفق هنا وهناك أنهاراً جارية ، فقد أفرطوا في اللجب الذي أجز لهم أن يلجوا فيه .

وفي غضون ذلك ، ووسط هذا الضجيج والمعيج ، وذلك المضطرب الذي هو بحان ألساني في سوق قائمة أليق منه بفسطاط أمير ملكي ، كان الأرشدوق يخدم خدمة رقيقة في ظاهرها ومواقعاتها ، مما كان يدل على مبلغ اهتمامه بحفظ المستوى والصفة اللتين تحولهما له مرتبته العالية حفظاً صارماً دقيقاً ؛ وكان الموالي يخدمونه وهم ركع ، ولا يتقدم لخدمته من الغلمان إلا من كان من دم نبيل ، وكان يطعم في طبق من الفضة ، ويحتسى نيذ توكي ونيذ الزين في قرح من ذهب ، وعباءة الأرشدوق التي يرتديها تزين أسنى زينة بالفراء الثمين ، وتويجه قد يعادل في قيمته تيجان الملوك ، وقدماء تدثران في حذاء من المخمل (طوله حتى أطرافه قد يبلغ القدمين) ، ويستوى على مقعد من الفضة الخالصة ؛ وتعرف طرفاً من خلق الرجل إذا عرفت أنه كان يود أن يلتفت إلى مركز منتسرا الذي أجلسه إلى يمينه متلطفاً باشاً ، ولكنه كان إلى نديمه أو «محدثه» أشد إصغاءً ، وقد وقف النديم خلف كتف الدوق الهنيئ .

وكان هذا النديم فاخر الثياب ، يرتدي عباءة وصدرة من المخمل الأسود ، والصدرة مزركشة بقطع نقدية مختلفة من فضة وذهب ، حيكبت بها ذكري للأمرء الأسخياء الذين وهبوا إياه ، ويحمل عصا قصيرة تتعلق بها كذلك باقات من النقد في حلق يجلبله كي يجذب إليه الأنظار حينما يهيم بأن يقول شيئاً يكون في ظنه جديراً بالالتفات ، ولهذا الرجل من النفوذ بين حاشية الأرشدوق شيء بين ما للمنشد والمستشار ؛ هو مررة مداهن ، ومررة شاعر أو خطيب ، وكل من أراد أن يتقرب إلى الدوق كان يسمى لكسب رضا هذا النديم .

وكان إلى كتف الدوق اليسرى «مهرجه» واسمه «جوناس شوانكر» خشية أن يكلم الحاضرون من تمادى «المحدث» في حكيمته ؛ و «المهرج» يُحدثُ

بتقيته وأجراسه وألعيه ضوضاء كضوضاء المحدث التي يحدّثها بجلجلة عصاه .
وكان هذان الرجلان يرسلان عبث الكلام تارة جادين وطورا هازلين ،
وسيدهما ، إما ضاحك منهما أو محبذ لهما ، إلا أنه كان كذلك يرقب ، ممعنا ، ملامح
ضيفه الكريم ، كي يرى أى أثر يرتسم على فارس مهذب مثله من عرض تلك
الفصاحة والنكات النمساوية ، وليس من اليسير أن تعرف أيهما كان للحفل أكثر
تلهية وسلوى ، رجل الحكمة أو رجل المراء ، أو أيهما كان له لدى سيدهما
الأمير القدر الأوفر ، ولكن ملحهما كليهما كانت تقابل بالإعجاب الشديد ،
وأحيانا يتنافسان في التحدث ويهزان بعصاتيهما ، وكل منهما يناظر صاحبه ويباريه
مباراة مزعجة ، ولكنهما كانا على الجملة على وئام ، وقد ألفا أن يعين كل منهما
الآخر في ألعيه ، حتى إن المحدث كثيرا ما تنزل إلى مستوى المهرج يتابعه في
نكاته بالشرح والتعليق فيجعلها أشد وضوحا لإدراك السامعين ، حتى باتت حكيمته
ماهى إلا شرح لهراء المهرج ، وكثيرا ما رد المهرج فكاهة موجزة يعقب بها
على ختام خطاب طويل ممل بلقيه « المحدث » .

ومهما تكن عواطف كثراد في حقيقتها ، فلقد كان شديد الحرص على أن لا
تم ملامحه عن غير الرضا بما سمع ، وكان يبتسم ويتظاهر بالثناء الحار - كما كان
يفعل الدوق نفسه - على فكاهة المحدث المحتشمة ونكات المهرج الوضيعة ، وكان
في الواقع يترقب بانتباه أن يبدأ أحدهما بموضوع ما يناسب الغرض الذي كان يحتل
في ذهنه المكاة الأولى .

ولم يمض زمن طويل حتى رمى المهرج بملك إنجلترا على بساط الحديث ، وقد
اعتاد أن يتخذ من (دِ كُن) صاحب الكنسة - وقد استعار هذا الاسم الذميم
لرثارد بلا تاجنت^(١) - موضوعا للزئيل مقبولا لا ينفد ؛ أما المحدث فقد صمت
حقا ولم يتكلم إلا حينما شرع كثراد يتحدث عن النبات الذي تصنع منه

(١) اسم يطلق على كل ملوك إنجلترا من هنرى الثانى إلى رثارد الثالث - والكلمة

معناها نبات تصنع منه الكناس .

المكانس ، فقال (أى المحدث) : « هذا العشب هو رمز الذلّة والخضوع ، وخير للذين يلبسونه أن يذكروا ذلك » .

وكان هذا الإيحاء إلى شارة بلاتاجنت البراقة جليا واضحا ، فقال جوناس شوانكر المهرج : « إن أولئك الذين تواضعوا قدر فعملهم الانتقام إلى مراتب المجد » . فأجاب مركز منتسرا : « الشرف لمن يستحق الشرف ، لقد اشتر كنا جميعا في هذه الحملة وهذى المواقع ، وإني أرى أن الأمراء الآخرين ينبغي أن يساهموا قليلا في الصيت الذى يحتكره رتشارد ملك إنجلترا بين جماعة المنشدين والمغنين الجرمان ؛ أليس من بين هذه الجماعة المرحّة هنا من يعرف أنشودة واحدة في مدح أرشدوق النمسا الملكى مضيفنا الكريم ؟ »

فاستبق ثلاثة من المنشدين وخطوا إلى الأمام رفعون الصوت بالغناء ويضربون على القيثارة ، وقد وجد « المحدث » مشقة في إسكات اثنين منهم ، وكان المحدث يتصرف كأنه سيد القصف ، وأخيرا ظفر الشاعر الذى أوثر على صاحبيه باستماع الحاضرين ، وأخذ يغنى بالألمانية أبياتا من الشعر ، ترجمتها :
أى زعيم مقحام يتقدم الجيوش ،
حيث تتجمع فيالق الصليب الأحمر ؟
إنما هو خير فارس على خير الخيول ،
وأعلى الرؤوس ذو الريشة الحسناء .

وهنا جلجل المحدث بعصاه ، واعترض الشاعر ، وألح للحافلين إلى ما قد يفوتهم إدراكه من هذا الوصف ، وذلك أن القائد الذى أشير إليه إنما هو مضيفهم الملكى ، ثم طافت بين الحاضرين كأس مترعة ، وصاح الجميع : « ليحى الدوق ليوبولد » ثم تلا الشاعر أبياتا أخرى :

لا تسألوا النمسا لماذا

يرفر فوق أعلام الأمراء لها علم ،

وإلا فاسألوا النسرا ذا الجناح المتين ،

لماذا يخلق صوب السماء ويسبق كل الطيور .

وقال المحدث وهو شارح الأقوال الغامضة : « النسر شارة سيدنا النبي
الأرشدوق - عفوا ! إنما ينبغي أن أقول صاحب الجلالة الملكية الأرشدوق -
والنسر يخلق فيعلو ويصبح إلى الشمس أدنى من كل طائر مريش » .

فقال كتراد غير مكترث : « ولكن الليث قد قفز فوق النسر » .

فأحمر الأرشدوق ، وحقق يبصره في التكلم ، وقد أجابه المحدث بعدما تروى
دقيقة وقال : « ليأذن لي سيدي المركز أن أقول إن الأسد لا يستطيع أن يخلق
فوق النسر ، إذ ليس لأسد جناح » .

فأجاب المهرج : « إلا أسد القديس مرقص » .

وقال البوق : « هذا علمُ البندقية ، ولكن لا ريب أن هذا القبيل المختلط ،
نصف من الأشراف ونصف من التجار ، لا يجروا على الموازنة بين مرتبته ومرتبتهنا » .

فأجاب مركز منتسرا وقال : « كلا وما عن ليث البندقية تحدثت ، وإنما
عن ليوث أنجلترا الثلاثة التي تتطلع ذات اليمين - وقد قيل إنها قديما كانت نمورا ،
ولكنها صارت اليوم أسدا من كل وجه ، وينبغي أن تسبق الوحش والطير
والأسماء وإلا فالويل لمن يقترب منها » .

فقال المنساوي وقد أصبح شديد الحمرة من فعل التبيذ : « هل أنت في هذا
جاد يا سيدي ؟ وهل تظن أن رتشارد ملك أنجلترا يزعم لنفسه فضلا على الملوك
الأحرار الذين تحالفوا معه طوعا في هذه الحروب الصليبية ؟ » .

فأجاب كتراد وقال : « والله إني لا أعرف إلا ما تم عنه الظروف ، فهناك
ينحفق علمه فريدا وسط مخيمنا ، كأنه ملك على جيوشنا المسيحية كلها ، وكأنه
كبير قوادها » .

فقال الأرشدوق : « وهل أنت تحتل هذا صابرا ، وتحدث عنه بمثل
هذه البرودة ؟ » .

فأجاب كتراد : « سيدي ! ليس لمركز منتسرا المسكين أن يحتج على أذى

يخضع له خضعاُ أمراء أشداء كفيليب فرنسا وليوبولد النمسا ؛ ما تخضعان له من هوان لن يكون لي شئارا .

وحينئذ أُطبق ليوبولد قبضة يده وضرب بها على المائدة بشدة وعنف . وقال : « لقد قلت لفيليب ذلك ، وكم من مرة قلت له إن من واجبنا أن نحمل صغار الأمراء من اغتصاب هذا الجزرى - ولكنه كان دائماُ يجيبني بوجود رعاية تلك العلاقة السخيفه بينهما ، علاقة السيد والمسود ، ويقول أن ليس من الحكمة من جانبه أن يعلن انفصام هذه الرابطة في هذا الوقت وذلك الحين . »

فقال كتراد : « يعلم الناس قاطبة أن فيليب رجل حكيم ، وسوف ينظرون إلى خضوعه كأنه من حسن السياسة ؛ أما ذلك يا سيدى فأنت وحدك مسئول عنها ، ولكنى لا أشك في أن لديك أسبابا قوية تدعوك إلى الإسلام إلى نفوذ الانجليز . »

فأجاب ليوبولد موتور الكرامة وقال : « أنا أسلم لهم ! أنا أرشديق النمسا ذلك العضو الحيوى الهام في جسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة - أنا أذل نفسى لهذا الملك الذى يتأمر على نصف جزيرة - هذا الحفيد لرجل نورماندى نَفَل ! - كلا ورب السموات العلا ! لسوف يرى المسكر ، وسوف يرى العالم المسيحى طرا ، أنى أعرف كيف أعيد لنفسى حقها ، وسوف يرى إن كنت أنزل عن قيد شعرة لهذا الوغد الانجليزى - هيا يا سادى ، يارفاق الجبور ، هيا اتبعونى ! سوف نضع نسر النمسا حيث يحلق عاليا كما حلقت في التاريخ أية شارة لملك أو لقيصر ، ولن تتوانى في ذلك برهة أو لحظة . »

ولما أتم حديثه نهض من مقعده ، ووسط الهتاف المعجاج الذى هلل به ضيوفه وأتباعه توجه نحو باب السرادق ، وأمسك بعلمه الخاص الذى كان منتصبا لديه .

فقال كتراد متمسكا للتدخل سببا : « كلا ياسيدى ! إنك لو أترت بالمسكر

شغبا في هذه الساعة للطخت بذلك سداد رأيك ، ولربما كان خيرا لك أن تبقى خاضعا لاغتصاب إنجلترا فترة من أن » .

فصاح الدوق بأعلى صوته وقال : « كلا ، لن أخضع بعد اليوم ساعة ، كلا بل ولا دقيقة واحدة » ثم سار والعلم في يده ، وفي إثره ضيوفه وأتباعه مهللين ، وسارع إلى الزاوية الوسطى التي كان يخفق عليها علم إنجلترا ، ووضع يده على رمح اللواء يريد أن يقتلعه من الأرض .

فقال جوناس شوانكر ، وقد مد ذراعيه حول الدوق : « سيدي ! سيدي العزيز ، احذر فإن للأسد أنيابا » .

فقال الدوق : « وللنسر مخالبها » ، ولم يترك عصا اللواء من قبضته ، ولكنه تردد في اقتلاعها من الأرض .

وكان للمحدث فترات يصدر فيها عن روية وبصيرة — وهذا بعض واجبه — ففرع عصاه بصوت مرتفع حتى أدار ليوبولد رأسه نحو مستشاره ، وكأنه قد اعتاد ذلك ، فقال المحدث : « النسر ملك بين الطيور في الهواء ؛ وكذلك الليث بين الوحوش في الغاب ؛ كل له دائرة يصل فيها تنفصل عن الأخرى تماما ، كما تنفصل إنجلترا عن ألمانيا — فلا تلحق بالأسد الملوكي هوأنا أيها النسر النبيل ، وخلّ لوائيكما يخفقان جنباً إلى جنب آمنين مطمئنين » .

فباعد ليوبولد يده عن رمح اللواء ، وتلفت يبحث عن كتراد منتسرا ، ولكنه لم يره ، لأن المركيز لم يلبث أن رأى الشر قائما على قدم وساق حتى انسحب من الحشد ، وقد عبّر للكثير من المحايدين عن أسفه لأن يختار الأرشدون تلك الساعة بعد المأدبة ليثأر من أية إساءة يرى أن من حقه أن يشكو منها . ولما لم ير الدوق ضيفه الذي كان يرغب في التحدث إليه خاصة ، رفع عقيرته وقال : « إنه لا يرغب في أن يولد بين صفوف جيش الصليب فتنة . إنه يريد أن يؤيد حقه في أن يقف وملك إنجلترا على قدم المساواة ، ولكنه لا يتطلع — وقد كان في وسعه ذلك — إلى رفع علمه — الذي تسلمه من العواهل أسلافه — فوق علم ملك

ما هو إلا حفيد من أحفاد أمراء أنجو . ثم أمر الدوق بدن من النيذ يؤتى به إليه ، ويدك فوق الأرض ليحتسى منه الواقفون الذين تجرعوا المدام تكرر آ حول راية النمسا بين قرع الطبول ونغم الموسيقى .

ولم ينته هذا الحفل المهوش بغير ضجيج أزعج المعسكر بأسره . وأزفت الساعة الحرجة ، الساعة التي رأى الطبيب وفقاً لقواعد فنه أن عليه الملكي يجوز أن يوقظ فيها بطمأنينة وسلام ، واستخدم اسفنجة لهذا الغرض ، ولم يتفرس مريضه طويلا ، وأكد لبارون جلزلاند أن الحمى قد تخلت عن ملكه بتاتا ، وأن من حسن الطالع أن للملك من قوة البناء ما لا يحتم تناوله جرعة أخرى من الدواء الناجع ، كما يجب في غالب الظروف ؛ والظاهر أن رتشارد نفسه كان يرى الرأي ذاته ، فقد استوى على السرير ، ومسح بعينيه ، وسأل دى فو عن مبلغ النقد الذي كان بالخزائن الملكية حينذاك .

ولكن البارون لم يستطع أن يجيبه إلى ذلك على وجه دقيق . فقال رتشارد : « ليكن المال قليلا أو كثيرا ، فليس هذا بأمر ذى بال ؛ امنح كل ما هنالك لهذا الطبيب النظامى الذى ردنى — على ما أعتقد — لخدمة الحرب الصليبية ، ولو كان المبلغ ينقص عن ألف بيزنط^(١) فأعطه من الجواهر ما يرفع القيمة إلى هذا المقدار » .

فأجاب الطبيب العربى قائلا « إنى لا أبيع الحكمة التى وهبها الله ، واعلم أيها الأمير العظيم أن الدواء الإلهى الذى تناولت منه يفقد أثره بين يدي الضعيفتين لو أتى بعت فضائله بالذهب والماس » .

فقال دى فو محدثا نفسه « إن الطبيب يرفض المنحة ، والله إن هذا لأعجب من أنه فى المائة من عمره » .

وقال رتشارد « أى توماس دى فو ، إنك لا تعرف من البسالة إلا ما بظباة السيف ، ولا تعرف جوداً أو فضلا إلا ما يسرى فى الفروسية — ألا فلتعلم أن

(١) البيزنط عملة ذهبية كانت متداولة فى الدولة البيزنطية وقيمتها نحو خمسة وأربعين قرشا

هذا المغربي يستطيع — باعناده على نفسه — أن يكون مثلاً لأولئك الذين يظنون أنفسهم زهرة الفروسية » .

فقال المغربي وقد طوى ذراعيه على صدره ووقف موقفاً موقراً محترماً : « كفاني ثوبا أن ملكاً عظيماً كالملك رك^(١) ينطق بهذا الكلام عن خادمه — ولكني أتوسل إليك الآن ثانية أن تستوى على فراشك ، لأنني وإن كنت لا أظنك بحاجة إلى أن تعاود اجتراع هذا الشراب الإلهي ، إلا أنك إن بذلت جهداً مبتسراً قبل أن تسترد قواك كاملة ، فقد يعود عليك ذلك بالضر والأذى » .

فقال الملك : « تجب على طاعتك أيها الحكيم ، ولكن صدقتي أن صدري قد تحرر من تلك النار المتأججة التي لبثت أياماً طويلاً تلهتهم ما بين جنبي ، وإني لا أكرث الآن إن أنا بادرت إلى تعريضه لرمح رجل من بواصل الرجال — ولكن صه ، صه ! ما وراء ذلك الصياح وتلك الموسيقى النائية التي تعزف في المعسكر ؟ اذهب ، توماس دي فو ، واكشف عن الأمر » .

فتغيب دي فو دقيقة ثم عاد وهو يقول : « إنه الارشديق ليوبولد يسير وإخوانه في الشراب في موكب خلال المعسكر » .

فصاح الملك رتشارد قائلاً : « ياله من وغد قد ثمل ! ألا يستطيع أن يخفي هذا الثمل الوحشي وراء ستار سراقه ، وهل لا بد له أن يبدى خزيه هذا للعالم المسيحي طراً ؟ » — ثم أردف موجهها الخطاب إلى كتراد منتسراً — وقد وبلج الفسطاط آتئذ — وقال له : « ماذا ترى في هذا ، سيدي المركيز ؟ » .

فأجاب المركيز قائلاً : « كم يسرنى أيها الأمير النبيل أن أرى جلالتك معافي وقد برئت إلى هذا الحد ؟ إن الحديث في هذا الشأن شاق على رجل ناله شيء من قراء دوق النمسا » .

فقال الملك : « ماذا ! هل كنت تتناول الغداء مع هذه القرية التيوتونية المترعة بالنبيذ^(٢) ؟ أنتي له هذا المرح الذي انتهى به إلى كل هذا الضجيج ؟ حقا يا سر

(١) هكذا كانت تسمى الأمم الشرقية رتشارد .

(٢) يقصد دوق النمسا .

كنراد لقد كنت أظنك حتى الآن رجلا محبا للهو والطرب ، حتى إنى لأتخيب كيف هجرت مكان القصف » .

وكان دى فو إذذاك قد وقف وراء الملك وقرىبا منه ، يسمي جهده — بالمحاح والشارات — أن يشير إلى المريكز بأن لا يبوح لرتشارد بشيء مما كان يدور خارج السرادق ، ولكن كنراد لم يفهم هذا التحذير ، أو قل إنه لم يأبه له . فقال : « إن ما يعمل الأرشدوق شيء قليل الجدوى لغيره ، وأقل جدوى لنفسه ، فهو لا يعرف ما هو صانع ، وما هذا حقا إلا لعب لا أحب أن أساهم فيه ما دام الدوق يخلع لواء أنجلترا من فوق جبل سنت جورج وسط ذاك الخيم ، وينشر رايته مكانه » .

فصاح الملك بصوت يكاد يوقظ من في القبور وقال : « ماذا تقول ؟ » . فقال المريكز : « كلا ! لا يُغضبني جلالتك أن رجلا أحق يعمل ما يملكه عليه حقه . . » .

فقال رتشارد وقد هب من مرقدته واتشى على ثيابه بعجلة عجيبة : « لا تخاطبني يا سيدي المريكز ! أي دى ملتن ، إنى أمرك أن لا تنبس إلى بنت شفة — من يلفظ كلمة واحدة فليس لرتشارد بلانتا جنت بصاحب أو صديق — ناشدتك الله أن تلم الصمت أيها الحكيم ! »

وفي تلك الأثناء كان الملك يرتدى ثيابه متعجلا ، ولم يكده يلفظ الكلمة الأخيرة حتى انتزع حسامه من إحدى قوائم الفسطاط ، وانطلق من السرادق وليس معه سلاح آخر ، ولم يدع أحدا يتبعه . فرجع كنراد يديه كأنه ذاهل ، وبدت عليه الرغبة في التحدث إلى دى فو ، ولكن السر توماس خلفه واندفع بشراسة ، ثم نادى أحد رعاة الخيول الملكية ، وقال له متلهفا متعجلا : « انطلق إلى بيت اللورد « سولزبرى » واطلب إليه أن يجمع رجاله ويتبعنى توا إلى جبل سنت جورج ، قل له إن الحى قد خرجت من دماء الملك ، واستقرت في رأسه » .

وذعر الخادم الذى وجه إليه دى فو الخطاب بهذه اللفظة ، فلم يستمع إلى كل حديثه ، ولم يكذب يفقه له قولاً ؛ وانطلق على إثر ذلك رئيس رعاة الخيل وزملائه من خدام البيت المالك وهربوا إلى خيام النبلاء المجاورة ، وسرعان ما نشروا الذعر بين الجنود البريطانيين كافة ، وبقي الباعث غامضاً لم يدرب به أحد ، فاستيقظ الجند الإنجليز وهبوا من قلوبهم ، التى علمتهم حرارة الجو أن يستغرقوا فيها كأنها لون من ألوان الترف ، وأخذوا فيما بينهم يتساءلون ما تلكم الجلبة ، وما ذلك الشغب ، وقبل أن يجابوا سؤالهم كفتهم قوى الخيال ما نقصهم من خبر ، وقال بعضهم إن العرب قد حلوا بالمعسكر ، وقال بعضهم حياة المليك مهددة ، وقال بعضهم إنه هلك من الحمى فى المساء السابق ، وقالت كثرة منهم إن دوق النمسا قد اغتال حياته ، وبات الأشراف والضباط - كغيرهم من عامة الرجال - فى حيرة من حقيقة الباعث على هذا الاضطراب ، فلم يعملوا إلا على أن يُبقوا أتباعهم شاكى السلاح ، مؤتمرين لذوى النفوذ والسلطان ، خشية أن ينجم عن تهورهم شر مستطير يلحق بجيش الصليبيين ؛ ورن رنين الأبواق الإنجليزية ، وجلجل صوتها دون انقطاع ، وعلا صوت القوم مذعورين ، وأخذوا ينادون : « قسيكم ورماحكم - قسيكم ورماحكم ! » ، وسرى النداء من حى إلى حى ، وأخذ يتردد مرة تلو الأخرى ، فيجيب بالفوج إثر الفوج من المقاتلين المتأهبين ، ودعواهم القومية : « سنت جورج لانجلترا الطروبة ! ».

وسرى الذعر فى أقرب الأحياء بالمعسكر ، وتجمهرت زمرة من الرجال من الأمم المختلفة جميعاً ، وربما كان لكل قوم من أقوام العالم المسيحى من يتلهم ، ورفع الجميع السلاح متكاتفين فى ظرف هذا الممعان المضطرب الذى لم يعرفوا له باعثاً أو مرمى ؛ وكان من حسن الطالع وسط هذا المشهد المروع أن (الاييرل أف سولزبرى) - وقد هرع بعد أن استدعاه دى فو فى ثلة من خيار الرجال الإنجليز المدججين بالسلاح - قد سير بقية الجيش الإنجليزى ، وأشار لهم أن يحتشدوا ويبقوا شاكى السلاح ، كي يسيروا إلى نجدة رتشارد إن دعا إلى ذلك داع ، وأن

يتقدموا بنظام لائق ، وألا يتحركوا إلا إن جاءهم أمر معتمد ، وألا يسيروا بعجلة
لجسة قد يجلبها عليهم ما يملكهم من دعر وما يدفع بهم من غيرة على سلامة المليك .
وفي تلك الآونة أخذ رتشارد يشق طريقه إلى جبل سنت جورج منطلقاً
كالشهاب ، ولم يكثر لحظة لتلك الصيحات وذلك الهتاف والضجيج الذي أخذ
يتعالى حواليه ، وثيابه أبعد ما تكون عن الاتساق ، ولم يتبعه غير دي فو وواحد
أو اثنين من حشمه .

وكان في انطلاقه أسرع من الدعر الذي أثاره باندفاعه وتهوره ، ومرّ بجى جنوده
البواسل من « نورماندى » و « بوتو » و « غسقونيا » و « أنجو » قبل أن يبلغهم
الاضطراب — وإن يكن الشعب الذي كان يرافق قصف الألمان قد دفع بالكثير
من الجند إلى أن يهبوا على أقدامهم يتسمعون — وكانت قلة الاسكتلنديين تقطن إلى
جوار ذلك الحى ، ولكن هذا اللجب لم يزعجهم ، أما فارس النمر فقد لحظ شخص
الملك وما كان عليه من عجة ، فعلم أن الخطر لا بد دان ، فسارع كي يساهم فيه ،
وانترع درعه ومهنده ، وانضم إلى دي فو الذي كان يجد بعض المشقة في مسيرة
سيده — وقد اشتمل ناراً وجزعاً — و صوب الفارس الأسكتلندى إلى دي فو نظرة
تطلع وتشوق ، فأجابه دي فو بهز كتفيه العريضتين ، وانطلقا جنباً إلى جنب ،
يتابعان خطى رتشارد .

وسرعان ما بلغ الملك سفح جبل سنت جورج ، وقد تحوط القوم إذذاك سفح
الجبل وجوانبه ، واحتشد من الناس زحام ، بعضه من أتباع دوق النمسا الذين كانوا
يمجدون — مهلين هاتفين — ذلك العمل الذى كانوا يعدونه إقراراً للكرامة
القومية ، وبعضه نظارة من أمم مختلفة ، ضمهم بعضاً إلى بعض ، ليشهدوا نهاية
هذا العمل الشاذ ، بغض في النفوس للانجليز ، أو حب للتطلع مجرد ؛ وانطلق
رتشارد في طريقه وسط هؤلاء الجند المختلطين كأنه سفين كريم امتلاً شرعه
بالهواء ، وسار يشق طريقه عنوة خلال الأمواج المتلاطمة ، لا يبالي إن تجمعت
الأمواج بعد مسيره أو خر خريرها على مؤخرته .

وكانت قمة الجبل فسحة من الأرض صغيرة مستوية ، اندكت فوقها الأعلام المتنافسة ، وما فتى يحوطها أصدقاء الأرشدوق وحاشيته ، وكان ليوبولد نفسه وسط الدائرة ، وما برح ينظر إلى الفعلة التي فعلها بنفس مطمئنة ، وما عم يستمع إلى هتاف الاستحسان الذي لم يدخر حزبه نفساً في توجيهه إليه ، وإذ هو كذلك في غبطته ، إذا برتشارد يندفع إلى الحلقة وليس له من الأتباع حقا غير اثنين ، ولكنه بنشاطه المتدفق جيش وحده لا يقاوم .

وقال وقد مديده إلى العلم النمساوى ، وتكلم بصوت يشبه تلك الجلجلة التي تسبق الزلازل : « من ذا الذي حدثته نفسه أن يضع هذه الخرقة الحقيمة إلى جوار الراية الإنجليزية ؟ » .

ولم يفتقر الأرشدوق إلى الشجاعة الشخصية ، وكان محالاً أن يسمع هذا السؤال دون أن يجيب ، ولكنه رغم ذلك انزعج وذهل ذهولا شديداً لمقدم رتشارد الذي لم يكن في الحسبان ، وتملكه رعبٌ مبعثه شخصية الملك الغيورة التي لا تلين ، حتى إنه أعاد السؤال مرة بعد أخرى — في نعمة كما أنها تتحدى السموات والأرضين — قبل أن يجيب الأرشدوق ويقول رابط الجأش جهد الطاقة : « أنا ذلك الرجل ، ليوبولد النمساوى » .

فأجاب رتشارد : « إذن فلسوف يرى ليوبولد النمساوى عما قريب أى وزن يقيم رتشارد الإنجليزي لرابته ودعواه » .
ولم يكذبم حديثه حتى اقتلع رمح العلم وحطمه إرباً إرباً ، ورمى بالعلم فوق الثرى ووطأه بقدميه .

ثم قال : « هكذا أدوس علم النمسا ! فهل من بين فرسانكم التيوبوتون من يجرؤ على مناقشتى الحساب ؟ » ، وحينئذ ساد الصمت حيناً ؛ ولكن ليس في الرجال من لهم شجاعة الألمان ، فكم من فارس من أتباع الدوق أجاب رتشارد قائلاً : « أنا ذلك الرجل » ، وضم الدوق نفسه صوته إلى أصوات أولئك الذين ردوا على ملك إنجلترا تحديه .

قال « الايرل والسنرود » وهو مقاتل كبير الجسم من حدود المجر : « فيم هذا التواني ، أى إخوانى يا كرام النبلاء ، إن هذا الرجل يطأ بقدمه شرف بلادكم — هلموا بنا ننفذه من هذا الاعتداء ، ولتسقط كبرياء أنجلترا ! » .

ولم يكذب قوله حتى استل حسامه ووجه نحو الملك ضربة ، كان فيها قضاؤه لولا أن اعترضها الرجل الاسكتلندى وتلقاها بدرعه .

فقال الملك رتشارد ، وقد استشرى وعلا صوته الشغب الذى ارتفع ضجيجه إذ ذاك : « لقد أقسمت يمينا أن لا أضرب رجلا يحمل الصليب على كتفه ، وإذن فلتعش يا « والنرود » — ولكن عش لتذكر رتشارد ملك أنجلترا » .

ولم يفرغ من حديثه حتى أمسك الرجل المجرى الطويل القامة من خصره — وهو رجل لا يبارى فى الصراع كما لا يبارى فى غيره من الحركات الحربية ، وطوح به إلى الورا بعنف ، فتدحرج جسم الرجل البدين — وكأنه ينطلق من مدفع عسكرى — لا وسط النظارة الذين شهدوا هذا المنظر الشاذ فحسب ، وإنما فوق حافة الجبل نفسه وعلى جرفه الذى أخذ يتقلب عليه والنرود رأساً على عقب ، حتى ارتكز أخيراً على كتفه ، وتخلخت عظامه ، وابث ملق على الأرض وكأن الحياة قد فارقتة . هذا الحادث الذى بدت فيه قوة الملك — وهى تكاد تفوق الطاقة البشرية — لم تشجع الدوق أو أحداً من أتباعه ، على أن يعاود السجال الذى لم تكن بدايته ميمونة الطالع ؛ وحقاً لقد صلصل بالسيوف أولئك الذين وقفوا بعيداً إلى الخلف وصاحوا : « مزقوا وغد الجزيرة إرباً إرباً » ، ولكن الأقربين منهم أخفوا مخاوفهم الشخصية تحت ستار مصطنع ، هو ستار الرغبة فى حفظ النظام ، وكنت أكثر ما تسمع منهم « السلام ، السلام ، السلام ! سلام الصليب ! سلام الكنيسة المقدسة وأيننا البابا ! » .

هذه الصيحات المختلفة من المعيرين كان يناقض بعضها بعضاً فتدل على فتور فى العزيمة ، بينما كان رتشارد — وقدمه ما تزال فوق راية الأرشدوق — يتطلع حو اليه بعين كأنها تبحث عن عدو ، عين تراجع منها الأشراف الفاضبون فزعين ،

كأن ليثاً هصوراً يهددهم بالهجوم ، ولبت دى فو وفارس النمر مكانهما إلى جوار الملك ، ورغم أن سيفيهما ما برحا مغمدين ، إلا أنه كان جلياً أنهما يتحفزان لحماية شخص رتشارد حتى النفس الأخير ، وكانا بضخامة جسميهما وقوة بنيتيهما الفائقة يدلان دلالة واضحة على أن دفاعهما سوف يكون دفاع المستقتلين .

وقد دنا سولزبرى وحاشيته كذلك إذ ذاك برماح وحراب مسنونة وقسي مشدودة .

وفي تلك الآونة جاء فيليب ملك فرنسا يتبعه واحد أو اثنان من أشrafه ، واعتلى المنصة مستعلماً عن سبب تلك الشحنة ، ولوّح بشارات التعجب حينما ألقى ملك إنجلترا وقد هب من فراش مرضه ، وواجه دوق النمسا ، حليف الطرفين ، وقد وقف وقفة التواعد المتحدى ؛ ولقد خجل رتشارد نفسه حينما رآه فيليب — وكان يقدر فيه حكمته بقدر ما كان يكره شخصه — وهو في هيئة لا تليق بمركزه هلك ، ولا بصفته كصليبي ، ولحظ الحاضرون أنه رفع قدمه — وكانه غير عايد — من فوق الراية المهينة ، وبدل من نظرتة الممزوجة بالعاطفة الحارة نظرة اصطنع فيها الطمأنينة وعدم المبالاة ؛ وجاهد ليوبولد أن يظفر بشيء من الهدوء ، وكاد يموت كهدأ حينما رآه فيليب وهو في موقف الذلّة والخنوع بسبب الإهانة التي لحقتة من ملك إنجلترا وهو يتقد غضباً .

وكان فيليب على كثير من تلك الصفات الملكية التي أطلقت عليه رعيتة من أجلها لقب العظيم ، حتى أنا نستطيع أن ندعوه « يوليسيز » كما كان رتشارد « أخيليس »^(١) غير منازع في الحرب الصليبية . كان ملك فرنسا حكيماً عاقلاً حازماً في مشورته ، متزناً ساكناً فيما يعمل ، يتبصر فيما يدبر لصالح مملكته ، ويرسم لذلك خطة يتابعها راسخ القدم ثابت العزيمة ؛ وهو في سلوكه ملك موقر ، مقدم في نفسه ، إلا أنه إلى السياسي أدنى منه إلى المقاتل ؛ وما كان للحرب الصليبية أن تكون من محض اختياره ، ولكن عدواها أصابته ، وفرضت عليه الكنيسة

(١) « يوليسيز » و« أخيليس » شخصيتان هامتان في إلبادة هومر .

الحملة فرضاً ، كما دفعته إليها رغبة قوية أجمع عليها أشرافه ؛ ولو كان الظرف غير
الظرف ، أو لو كان العصر أشد رفقاً ، لكان يعلو في خلقه على قلب الأسد
الجسور ، ولكن في حرب صليبية — هي في ذاتها أمر لا روية البتة فيه —
لا يكون العقل السليم من بين جميع الصفات إلا أقلها قدراً ؛ ولو أن شجاعة
الفروسية ، التي كان يتطلبها العصر ومشروع الحرب ، اختلطت بأذنى أثر من
آثار الحكمة لحط ذلك من قدرها ، ولذا فإن مزية فيليب ، إذا قيست بصفات
منافسه الشامخ بأنفه ، ما كانت إلا كضوء المصباح الضئيل الصافي إذا وضع
إلى جوار وهج المشعل التوقد الذي ليس له من النفع نصف ما للآخر ، إلا أن
له من الأثر على العين عشرة أمثاله ؛ وكان فيليب يحس بمحطته عن رتشارد في أعين
الجمهور ، فيألم لذلك ألماً يحس به كل أمير كريم النفس ؛ وليس عجيباً أن ينهز كل
فرصة تسنح كي يقرر شخصيته إلى جوار منافسه بحيث يرفع من قدر نفسه ، وكان
الظرف إذ ذاك إحدى تلك المناسبات التي تنتصر الحكمة والهدوء فيها على العناد
والتهور والعنف .

« ما وراء هذا الشجار الذي لا يليق بأخوين في الصليب أقسم له الولاء —
بين صاحب الجلالة ملك إنجلترا والأمير الدوق ليوبولد ؟ كيف يجوز لزعماء هذه
الحملة المقدسة وعمدها أن . . . »

فقال رتشارد — وقد تأججت النار في صدره حينما ألقى نفسه وقد وضع على
شئ من المساواة مع ليوبولد ، ولم يدر كيف يستنكر هذا الموقف — : « مهلاً
بعض هذا العتاب ملك فرنسا ؛ إن هذا الدوق أو الأمير أو الدعامة — إن شئت —
قد دل على قبحته فلاق مني الجزاء ؛ وهذا هو ما نحن فيه ؛ وحقاً إن هذا لشغب
كثير من أجل وغد مهين ! »

فقال الدوق : « أي جلالة ملك فرنسا ، إني أعهد إليك وإلى كل أمير ملكي
في هذا الخزي المشين الذي كابدته وعانيت منه ؛ إن ملك إنجلترا هذا قد نزع رايقي
ومزقها وداسها . »

فقال رتشارد : « أجل ، لأنه بلغ من الجرأة أن يرفعها إلى جوار رايتي » .
فأجاب الدوق وقد شجعه مثول فيليب : « إن مكنتي كند لك تمخول لي هذا » .
فقال الملك رتشارد : « وحق القديس جورج لو أعلنت هذه المساواة بينك
وبيني لفعت بك ما فعلت بهذه الراية الموشاة التي لا تليق إلا بأدنى وظيفة يمكن
لراية أن تؤديها » .

فقال فيليب : « صبراً أخي ملك إنجلترا ، وسوف أرى الآن دوق النمسا أنه
مخطئ في هذا الشأن » ، ثم استأنف الكلام وقال : « لا تظن أيها الدوق النبيل
أننا ، إذ نرضى لعلم إنجلترا أن يحتل المكانة العليا في معسكرنا ، نقر — نحن ملوك الحرب
الصلبية المستقلين — بأننا أصغر من الملك رتشارد شأنًا ، أو أحط منه قدرًا ؛ كلا ،
ليس هذا من الصواب في شيء ، مادام لواء الجهاد ذاته — وهو علم فرنسا الأعظم
الذي ليس الملك رتشارد نفسه فيما يخص أملاكه الفرنسية إلا تابعه — يتبوا الآن
مكانة أدنى من ليوث إنجلترا^(١) . ولكننا — كأخوة في الصليب — قد أقسمنا له جميعاً
بيمين الولاء ، وكحجاج حريين قد طرحنا عظمة الدنيا وكبرياءها جانباً ، وأخذنا نشق
بسيوفنا طريقاً إلى القبر المقدس ، فتخلت أنا نفسي وغيري من الأمراء للملك
رتشارد — احتراماً لصيته الذائع ومآثره في القتال — عن هذا التصدر الذي
ما كنا لنسلمه له في مكان غير هذا المكان ، وتحت بواعث غير هذه البواعث ؛ وإني
على يقين أنك يا صاحب الفخامة الملكية دوق النمسا ، لو تدرت ما أقول ، سوف
تأسف على أنك رفعت رايته في هذا المكان ، وأنا على ثقة بأن جلالة ملك إنجلترا
سوف يرضيك بعد هذا لما ألحق بك من مهانة » .

وكان المحدث والمهرج كلاهما قد أويا إلى مكان بعيد مطمئن حينما ادلهمت الأمور
وأنذرت بالقتال ، ولكنهما عادا بعد أن عرفا أن الكلام — وهو جل بضاعتهم —
قد أوشك أن يكون هو الحكم في ذلك اليوم .

وكم سر رجل الأمثال (أى المحدث) من خطاب فيليب السياسي حتى لقد

(١) يقصد العلم الإنجليزي

هز بمصاه عند اختتام الكلام كأنه يؤيد ما قال فيليب ، ونسى الحضرة التي كان ماثلا لديها ، وبلغ به النسيان أن رفع عقيرته قائلا إنه هو نفسه لم يفه حياته بكلام أحكم من هذا .

فهمس جوناكس شوانكر وقال : « قد تكون مصيبا فيما تقول ، ولكنك إن رفعت صوتك بالكلام فستضربن بالسياط » .

وأجاب الدوق ، مكتئبا ، بأنه سوف يرفع أمر هذا النزاع إلى مجمع الصليبيين العام — وهو رأى أثني عليه فيليب كثيرا وقال عنه إنه قمين بأن يرفع خزيا بالغ الأذى بالعالم المسيحي .

أما رتشارد فقد بقي كما كان على هيئته غير مكترث أو مبال ، وأنصت لفيليب حتى أوشك أن ينضب معين فصاحته ، ثم قال بصوت جهوري : « إني وسنان ، وما زالت الهجي تلمب برأسي . أي أخي ملك فرنسا ، إنك بمزاجي عليم ، وإنك لتعرف أني دائما لا أكتفم إلا قليلا من اللفظ ؛ فاعلم إذن في التو والحين أني لن أعرض أمرا يمس شرف إنجلترا على أمير أو مجمع أو بابا ؛ هذا لوأني قائم ، وأية راية ترتفع على مدى رماح ثلاثة منه — حتى وإن كانت راية فرنسا التي أظنك كنت تتحدث عنها الآن — فلسوف يكون حظها كحظ تلك الخرقه المهينة ، ولن تتالوا منى ترضية غير تلك التي تستطيع جوارحي الضعيفة هذه أن تؤديها ، وذلك بمبارزة من يجرو منكم على النزال — أي وربى ، حتى وإن يكن منازل خمسة من أبطالكم لا واحدا فحسب » .

فقال المهرج همسا إلى زملائه : « تالله إن هذا الحديث خرافة ما بعدها خرافة ، وكأنه قد صدر عني ، ومع ذلك فما اخال إلا أن هناك من هو أشد من رتشارد غفلة وأكثر هراء » .

وقال رجل الحكمة : « ومن عسى أن يكون ذلك الرجل ؟ » .

فقال المهرج : « ذلك هو فيليب أو دوقنا المللكي ، لو أن أحدهما قبل النزال . هيه يا أيها المحدث الحكيم ، والله ما كان أجدرني وإياك أن نكون من عظام الملوك ،

ما دام أولئك الذين يحملون التيجان على رؤوسهم يستطيعون أن يمشوا دور المحدث بالأمثال والمهرج ، مثل ومثلك تماماً ! » .

وبينا هذان الرجلان مشتغلان بهذا الحديث وحدهما ، أجب فيليب على رتشارد تحديه الجارح في هواده وهدوء وقال : « إني لم آت إلى هنا كي أوقف خصومات جديدة لا تتفق واليمين التي أقسمناها ، والقضية المقدسة التي نشغل بها ؛ إني أبرح أخى ملك إنجلترا كما يبرح الأخ أخاه ، ولن تكون بين أسد إنجلترا^(١) وزنبق فرنسا^(٢) من الخصومة إلا ما نوجهه معاً حاملين على صفوف أعدائنا الكفار » .
فقال رتشارد : « هذه صفقة رابحة يا أخى المليك » . ومد يده وقلبه مغمم بالإخلاص الذى يتصف به طبعه الكريم رغم تهوره ، ثم قال : « وعمما قريب قد نتاح لنا الفرصة لتنفيذ هذا الاتفاق الأخوى المجيد » .

فأجابه فيليب وقال : « دع هذا الدوق النبيل يساهم كذلك فى صداقة هذا الظرف السعيد » ؛ واقترب الدوق مكتئباً بعض الاكتئاب ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، كي يصل إلى تسوية ما .

فقال رتشارد غير مكترث : « إني لا أفكر فى الغافلين أو فى غفلتهم » فولاه الأرشدوق ظهره وانسحب من الميدان ، ونظر إليه رتشارد وهو يتراجع وقال : « إن من ألوان الشجاعة لوناً كالبراعة ، لا يظهر للعيان إلا ليلاً ، وإني لن أبرح هذا العلم بغير حارس فى كنف الظلام ، أما إذا انبثق ضياء النهار ، فإن عيون الأسد كفيلة وحدها بأن تدفع عنه ؛ أى توماس الجازلاندى ، إني أعهد إليك برعاية العلم ، وأكلفك السهر على شرف إنجلترا » .

فقال دى فو : « سلامة إنجلترا عزيزة على ، وإن فى حياة رتشارد لسلامة لها ، يجب على أن أعود بجالاتك إلى الفسطاط ، وينبغى أن لا نترث هنا بعد هذا » .

فانفجرت شفتا الملك عن ابتسامة وقال : « إنما أنت ممرض غليظ صارم يادى فو » ثم واصل الحديث مخاطباً السر كنت وقال : « أيتها الأستكلندى

(١) رمز لعلم إنجلترا . (٢) رمز لعلم فرنسا .

الجسور ، إنى مدين لك بالجليل ، وسوف أردّه لك جزيلًا . هناك ترى لواء انجلترا مرفوعاً ! هلا عنيت برقايته كما يعنى الناشئ* بسلاحه عشية اليوم الذى يحرز فيه شرف الفروسية ؛ لا تتعد عنه أكثر من طول ثلاثة رماح ، وادفع عنه بجسمك أى أذى أو إهانة — لو هاجمك أكثر من ثلاثة رجال فى آن فانفخ فى البوق ؛ فهل تقوم بهذه المهمة ؟ »

فقال كنت : « لأقومن بها عن رغبة ، ولئن قصرت فى أدائها لحياتى قصاصى ، وسوف أمتشق سلاحى وأعود فوراً إلى هنا » .

وحينئذ استأذن فى الانصراف ملكا فرنسا وانجلترا أحدهما الآخر ، وكلاهما يخفى وراء ستار من الجمالة أسباب شكواه من الآخر — أما رتشارد فيشكو من فيليب ما كان فى ظنه تدخلًا فضوليا بينه وبين دوق النمسا ، أما فيليب فيشكو من قلب الأسد مسلكه المشين إزاء توسطه . أما أولئك الذين حشدهم هذا الاضطراب ، فقد تسللوا الآن ، وسلك كل منهم سبيله ، مخلفين الجبل الذى دار النزاع على قمته فى عزلته التى لم تفارقه حتى شابهها استخفاف دوق النمسا ؛ وحكم الرجال على حوادث ذلك اليوم كل على هواه ، فبينما عاب الإنجليز على دوق النمسا أنه أول من تقدم بسبب للنزاع ، أجمع أهل الأمم الأخرى على صب اللوم الأكبر على كبرياء رجل الجزيرة وعلى صلف رتشارد » .

وقال مركيز منتسرا لرئيس فرسان المعبد : « أما رأيت أن الدهاء أبلغ أثرًا من الشدة والعنف ، لقد حلت الموائيق التى كانت توثق هذه الرابطة من الصوالة والرماح ، وسوف تراها عما قريب وهى تساقط متناثرة متنافرة » .

فأجاب رئيس المعبد وقال : « ما كان أحكم خطتك لو كان هناك رجل واحد يأسل بين أولئك التماسويين ذوى الدم البارد يفصم بسيفه عرى الروابط التى تحدثت عنها ؛ إن العقدة إذا انحلت قد تلتئم ثانية ، ولكن ذلك لن يكون إذا تقطع الجبل إربا إربا » .

الفصل الثاني عشر

هي المرأة تغرى بني الإنسان جميعا
جاي .

كان جزاء الشجاعة العسكرية في أيام الفروسية كثيرا ما يكون وظيفة خطيرة ،
أو مغامرة مهلكة ، أسند إلى الرجل تعويضا له عما كابد من عن ؛ مثلهم في ذلك
مثل الإنسان يصعد جبلا عاليا ، كلما تسلق صخرة ارتفع إلى صخرة أشد خطرا .
في منتصف الليل ، والقمر في كبد السماء يتلأأ ضياء ، كان كنت الأسكتلندي
واقفا فوق قنة جبل سنت جورج ، إلى جوار راية أنجلترا يخفها بمنزلا نائيا ، ويحمي
رمز تلك الأمة من أية إهانة قد تلعب برأس واحد من تلك الألوف التي صيرها
رتشارد بكبريائه أعداء له . ودارت برأس هذا المقاتل خطير الفكر واحدة تلو
الأخرى ، وخيل له أنه قد اكتسب الرضا في عيني ذلك الملك الفارس ، الذي
حتى آتئذ لم يكن يميزه بين جموع شجعان الرجال ، الذين جمعهم تحت رايته صيته
الدائع ؛ ولم يكثر السر كنت كثيرا للموقف الخطر الذي ساقته إليه الرعاية
الملكية ، وكان تفانيه في حبه لفتاة من ذوى المكاة الرفيعة يشعل فيه الحماسة
العسكرية . وحقا لقد كان فاقد الأمل في وصلها تحت الظروف المألوفة ، إلا أن
تلك الأحداث التي وقعت أخيرا قاربت ما بينه وبين (أديث) بعض المقاربة ،
ولم يعد كنت - وقد من عليه رتشارد وميزه بحراسة رايته - مقحاما خامل
الذكر ، وإنما هو محط الرعاية من أميرة من الأميرات ، وإن يكن أبعد ما يكون
عن مستواها . ولن يكون بعد اليوم نكرة من النكرات ، ولو أنه أخذ على حين
غرة ، وقتل وهو قائم بالعمل الذي أسند إليه ، فلسوف يستحق بموته - وقد اعترم
أن يكون موتا يحوطه الجلال - من قلب الأسد الثناء ، كما يظفر منه بالانتقام له ،
وسوف يتبع موته الأسمى والدمع ، تذرفه الجيلات من بنات الأسر الكريمة في البلاط

الإنجليزى ؛ ولم يبق بعد اليوم ما يحمله على أن يخشى أن يموت كما يموت صغار الرجال .

استرسل السر كنه في الاستمتاع بهذه الخواطر الطامحة وأشباهاها ، التي يفنيها ذلك الروح الهمجي ، روح الفروسية الذي يخلق فيعلو ويرتفع ويسبح في الخيال ، ولكنه يظل رغم ذلك نقياً طاهراً من شوائب حب النفس — هو روح كريم مخلص ، وقد لا تعيب عليه إلا أنه في أغراضه وما يرسم من خطط العمل لا يتفق وضعف الإنسان ونقصه . والطبيعة كلها حول السر كنه نائمة في ضياء القمر الهادى ، أو في الظلال الحالكة ، والصفوف الممتدة من الخيام والسرادات ، مظلمة كانت أو متألقة بالنور — وهي قائمة في ضوء القمر ، أو في الظلام — كانت صامتة ساكنة ، كما تكون الطرقات في مدينة مهجورة ، وإلى جوار سارية العلم كان يرقد الكلب الذي ذكرنا من قبل ، رفيق السر كنه الأوحد وهو في خفارته ، يركن إلى تنهه نذيراً له باكرا كلما دنا من عدو وقع القدم ؛ وكأن هذا الحيوان النبيل قد أدرك مرى هذه الرقابة ، فأخذ يتلفت الحين بعد الآخر إلى ثنايا العلم الثقيل ، وإذا ما سمع صياح الحراس من الصفوف النائبة وأماكن الدفاع في المعسكر ، أجابه بنباح عميق متكرر ومتواصل ، كأنه يؤكد أنه كذلك يقظ في أداء واجبه ، وكان يخفض رأسه الشامخ الفينة بعد الفينة ، ويهز ذيله كلما مر به سيده مرة بعد الأخرى وهو يدور دوراته القصيرة أثناء حراسته ؛ وكما وقف الفارس صامتا شارد الذهن ، متكئا على رمح ، ومصوباً نظره نحو السماء ، اجترأ صاحبه الأمين « أن يقطع عليه سلسلة خواطره » إن صح هذا التعبير الخيالي ، ووخز الفارس في يديه ذواتى القفاز بمقدم فمه الخشن الكبير ، فأيقظه من أحلامه متوسلاً إليه أن يدلله لحظة أو بعض لحظة .

وهكذا تصرمت من رقابة الفارس ساعتان دون أن يقع فيهما أمر ذو بال ، وأخيراً ، وعلى حين بقتة ، أخذ هذا الكلب الشهم ينبح محتدماً ، وبدا عليه كأنه

يوشك أن ينطلق إلى الأمام ، حيث الظلال على أشدها حلوكه ، ولكنه رغم ذلك تريث ، كأنه على ارتقاب ، حتى يتعرف ما يريد صاحبه .
فقال السر كنت وقد أحس بأن شيئاً يزحف قُدماً على جانب الجبل الظليل ،
« من السائر هناك ؟ » .

فأجابه صوت خشن يعافه السمع : « باسم « مارلين » و « موجيس » قيد
أقدام ماردك^(١) هذا الأربع ، وإلا فلن آتيك » .

فقال السر كنت وقد حدق يبصره الثاقب ما استطاع في شيء يكاد لا يراه في
أسفل المنحدر ، ولم يستطع أن يتبين له شكلاً أو هيئة : « ومن عسى أن تكون
أيها الداني من منصبي — حذار ! حذار ! — إنما أنا هنا للموت أو الحياة » .
فرد عليه الصوت قائلاً : « أبعد مخالب شيطانك الطويلة ، وإلا فسأرميه
بسهم من قوسى » .

وسمع في ذات الحين صوت اثناء أو جذب كذلك الذى تسمعه حينما تشد
القوس .

فقال الأسكتلندى : « أقم قوسك ولا تنهأ ، وتعال في ضوء القمر ، وإلا
فيحق القديس اندراوس لأطرحنك أرضاً ، وكن ماشئت أو من شئت ! » .
وأمسك برمح من وسطه وهو يتكلم ، ودنا يبصره نحو ذلك الجسم الذى كان
كأنه يتحرك ، وهز بسلاحه كأنه يفكر في قذفه من يده — والسلاح يستخدم
أحياناً — وإن يكن نادراً — ويُركن إليه حين تلزم الرماية . ولكن السر كنت
استحى من مقصده ، فرمى بسلاحه أرضاً حيناً أقبل من الظلام إلى ضوء القمر
مخلوق مقعد عاجز ، وكأنه ممثل قد أقبل على المسرح ، وقد عرف السر كنت من
زبه الغريب وتشويه خلقه ، ولما يزل بعيداً عنه ، أنه ذكر القمرين اللذين رأها
في معبد (عين جدة) ؛ وفي تلك اللحظة عينها عادت إلى ذاكرته المشاهد الأخرى التى
رأها فى تلك الليلة الفريدة ، وهى تختلف جد الاختلاف عن هذا القمر فى مرآها ،

(١) يقصد بالمارد هنا الكلب .

وأوماً إلى كلبه بإشارة أدركها الكلب في الحين ، فأوى إلى العلم وورقد إلى جواره وهو يدمدم بصوت محتق .

هذه الصورة الإنسانية الصغيرة المشوهة^(١) ، بعد ما أيقنت من سلامتها من هذا العدو الخيف ، أقبلت تصعد الجبل وهي تلهث من الإعياء ؛ وكان الصمود شاقاً على ساقيه القصيرتين ، ولما بلغ مستوى القمة ، نقل إلى يسراه القوس الصغيرة ، وهي أشبه باللعبة التي كان يسمح للأطفال في ذلك الأوان أن يصيدوا بها صغار الطير ، ووقف موقف الكرامة والاعتزاز بالنفس ، ومد يمينه برشاقة وكياسة إلى السر كنث ، وتدل هيئته على أنه كان يرتقب منه أن يلثمها ، ولم يفعل ذلك السر كنث ، طلب إليه بصوت فيه رنة الحدة والغضب وقال : « أيها الجندي ، لماذا لا تؤدي إلى « نكتابانس » الولاء الواجب لكرامته ؟ أو قد نسيته ؟ » .

فأجاب الفارس وهو يود لو يخفف من حدة هذا المخلوق وقال : « أي نكتابانس العظيم ، إن هذا عسير على كل من وقعت عليك عيناه ؛ وإني لأسألك العفو ، إذ أتى جندي أودى واجبي ورمحي ييذى ليس لي أن أسمح لرجل من شا كلتك أن يدنو من مكان حراستي ، أو أن يسيطر على سلاحى ، وحسبك أتى أحترم كرامتك ، وأخضع لك خاشعاً على قدر ما يستطيع جندي في مكانى أن يخضع » .

فقال نكتابانس : « حسبي هذا ، إن كنت بعد قليل تصحبني إلى خضرة أولئك الذين بعثوا بي إلى هنا كي أستدعيك » .

فأجاب الفارس : « سيدي العظيم ، لا أستطيع في هذا الأمر كذلك أن أصدق بما تريد ، فلقد أمرت أن أزم هذه الراية حتى مطلع الفجر — ولذا فإني ألتمس منك أن تعذرنى في هذا الشأن كذلك » .

وبعد ما أتم حديثه استأنف مسيره فوق الجبل ، ولكن القزم لم يطق أن يدعه يفلت من لجأته بتلك السهولة .

(١) الإشارة هنا إلى القزم .

فقال وقد وقف قبالة السر كنهث كي يعترض سبيله : « استمع إلى ، إما أطعنى يا سيدي الفارس كما يحتم عليك واجبك ، أو أمرتك باسم تلك التي تستطيع بجبالها أن تستنزل الجن من عالمه ، ويجلالها أن تسيطر على هذه المخلوقات الخالدة بعد هبوطها من عليائها » .

فخطر للفارس خاطر وحشى بعيد الاحتمال ، ولكنه كبتته ورده عن نفسه ، وظن أن من المحال أن ترسل إليه عادة قلبه وهواه رسالة كهذه على لسان رسول كهذا — ومع ذلك فقد أجاب وفي صوته رعشة وقال : « اذهب عني يا كنيبانس . خبرني على الفور وأصدقني القول هل هذه السيدة الكريمة التي تتحدث عنها امرأة غير الحوراء التي رأيتهما تعاونك وأنت تكس معبد عين جدة ؟ » .

فأجاب القزم قائلاً : « ما هذا أيها الفارس المدعى ! أفتظن أن السيدة التي عقدنا بها حبنا الملكي ، شريكة عظمتنا ، ورفيقة جلالتنا ، تستدل نفسها وتعلق بتابع مثلك ؟ كلا ، إن شرفك لعظيم ، ولكنك لست بعد جديراً برضى الملكة « جشرا »^(١) عروس آرثر الحسنة التي تعلى مقعداً مرتفعاً فيبدو لها الناس قاطبة ، حتى أمراؤهم ، أقزماً ؛ ولكن ، انظر إلى ، إن كنت تعرف هذه الشارة أو تنكرها فلتطع أمر صاحبها أو أعصه ، ذلك الأمر الذي تعطفت بفرضه عليك » .

وبعد ما أتم حديثه ، وضع بين يدي الفارس خاتماً من ياقوت ، فاستطاع الرجل أن يتعرف في لمحة — حتى في ضياء القمر — أنه ذلك الذي يتحلى به عادة إصبع السيدة ذات الأصل الكريم ، التي كرس نفسه لخدمتها . ولو كان له أن يرتاب في صدق الشارة لاستيقن من الوشاح الصغير المعقود ذى اللون القرنفلي ، الذي كان مربوطاً إلى الخاتم ، فذلك كان اللون الرغيب إلى نفس سيدة قلبه ، وكم من مرة عمل على أن ينتصر القرنفل على كل ما عداه من ألوان في حلبة المصارعة أوميديان القتال ، مدعيًا أن ذلك اللون هو لون حاشيته وأتباعه .

(١) هي زوج الملك آرثر في الأسطورة المهيبة ، ويقصد بها هنا زوجته .

وحقاً لقد صمق السر كنت ، وأوشك أن يخرس حيناً رأى هذه الشارة بين تلك اليد .

فقال الفارس : « باسم كل ما تقدس ، خبرني ممن أخذت هذا الشاهد ؟ ناشدتك الله أن تجمع — إن استطعت — ذهنك الشارد لحظة أو لحظتين ، وأن تكون نائباً رزيناً ، ومحدثي شيئاً عن أرسلتك ، وعن حقيقة الغرض من رسالتك ، وحاذر فيما تقول ، فليس هذا مجال المجون » .

فقال القزم : « حقاً إنك لفارس متيم غافل ، أفتريد أن تعرف عن هذا الشأن أكثر من أنك تتشرف بتلقى الأمر من أميرة ألقى إليك بها ملك من الملوك ؟ إننا لا نريد أن نتحدث إليك بأكثر من أن نأمرك باسم هذا الخاتم ، وبماله من نفوذ ، أن تبعدنا إلى صاحبه ، واعلم أن كل دقيقة تتوانى جرم في واجب ولائك » .

فقال الفارس : « أي نكتبانس الكريم ، تريث قليلاً ، هل تعرف سيدتي أية مهمة قد أسندت إلى هذا المساء ، وفي أي مكان أقوم بها ، وهل هي عليمه بأن حياتي — رحماك اللهم ، كيف لي أن أتحدث عن حياتي — كلا ، إنما شرفي ، يتوقف على حراسة هذه الراية حتى منبثق النهار ؛ وهل يجوز أن ترضى هي بأن أخلفها حتى وإن يكن لأداء واجب الخضوع ؟ كلا ، إن هذا لأمر محال ، إن الأميرة قد أرادت أن تمزح مع خادمها حيناً بعثت إليه بمثل هذه الرسالة ، وما أظن غير ذلك ، وبخاصة حيناً أذكر أنها قد اختارت مثلك لها رسولا » .

فقال نكتبانس وقد تلفت كأنه يريد أن يفصل عن قنة الجبل « اعتقد بما شئت ، إنني لا أكثر كثيراً إن كنت لهذه السيدة الملكية خائناً أو أميناً ؛ وإذن فلاستودعك الله » .

فقال السر كنت : « إلبث قليلاً ، إلبث هنا ؛ إنى أتوسل إليك ألا تبرح ؛ أجيبني عن سؤال واحد ، هل السيدة التي بعثت بك قريبة من هذا المكان ؟ » .
فقال القزم : « وما شأن هذا ؟ هل يحسب الإخلاص للفراسخ والأميال حساباً ، كما يحسب الساعي الفقير الذي يؤجر على عمله بمقدار ما يقطع من أبعاد ؟

ولكن ، لتعلم أيها المرتاب أن صاحبة الخاتم الحسنة ، التي بعثت بي إلى تابع مثلك ليس له وزن ، وليس به صدق أو إقدام ، لا تبعد عن هذا المكان أكثر من مرمى السهم من هذه القوس .

فخدق الفارس في الخاتم ، كأنه يريد أن يتثبت أن ليس بالشارة أثر من زيف أو بهتان ، ثم قال للقرزم : « هل سأمثل طويلا هناك ؟ » .

فأجاب نكتبانس بأسلوبه الطائش وقال : « طويلا ! ماذا تعني بقولك طويلا — إني لا أدرك للزمن معنى ولا أحس به ، إن هي إلا كلمة مبهمة — ما الزمن إلا أنفاس متلاحقة نقيسها ليلا برنين الأجراس ونهاراً بظل المزالة . هلا عرفت أن الوقت للفارس الحق ينبغي ألا يقاس إلا بما يؤدي من عمل في سبيل الله وفي سبيل سيده ؟ » .

فقال الفارس : « حقا إنها لكلمة الصدق من فم الطائش الأرعن ، ولكن هل تستدعيني سيدتي حقاً كي أقوم بمعمل ذي بال باسمها وفي سبيلها ؟ وهلا يمكن أن نستأخره بضع ساعات حتى ينبثق النهار ؟ » .

فقال القرزم : « إنها تريد منك المثول توأ وبأسرع مما تتسرب عشر حبات من رمال مقياس الزمن^(١) ؛ استمع إلى أيها الفارس المرتاب ذو الدم البارد ، هذي هي كلماتها لفظة لفظة : (قل له إن اليد التي يتساقط منها الورد في وسعها أن تضفر الأكاليل) » .

هذا الإلماع إلى لقائها بمعبد (عين جدة) أثار في ذهن السر كنهث ألوف الله كبر ، وأقنعه بأن الرسالة التي بلغه إياها القرزم صادقة لا غبار عليها ، وكانت براعم الزهر — رغم ذبولها — لما تزل مكنوزة تحت درعه ، وأقرب ما تكون إلى قلبه ، فوقف الفارس قليلا ولم يستطع أن يعتزم عزيمة قوية على أن يدع هذه الفرصة — وهي الفريدة التي ربما تعرض له حياته ، ويفوز فيها بالرضا في عيني تلك التي ولاها ملكة

(١) هو مقياس على هيئة إناء منبعج الطرفين دقيق الوسط ، يمتلئ أعلاه بالرمال ، ويعرف به الزمن بمقدار ما يتسرب من طرفه الأعلى إلى طرفه الأسفل .

على قلبه — وفي ذلك الحين زاده القزم ارتبا كما بأن كرر عليه القول ، وعرض عليه إما أن يرد الخاتم أو يتبعه على الفور .

فقال الفارس : « مهلا ، مهلا . تريث لحظة واحدة » . ثم واصل الكلام وهو يدمدم ويقول : « هل أنا للملك رتشارد تابع أورقيق على من الواجبات أكثر مما على الفارس الحر يقسم على خدمة الحرب الصليبية ؟ ومن عساني قد أتيت من أجله هنا لأرفع من شرفه بالرمح والسيف ؟ إنما أتيت لغرضنا المقدس ولسيدتي البارعة ! »

وصاح به القزم جريعا وهو يقول : « الخاتم ! الخاتم ! أيها الفارس الخائن المتواني . رد إلى الخاتم فلست جديرا بمسه أو بالنظر إليه » .

فقال السر كنت : « أمهلني لحظة . برهة واحدة يا نكتبانس الكريم . لا ترزعج خواطري — هب أن الأعراب يوشكون أن ينقضوا على صفوفنا ، أألبث هنا كتابع أقسم الولاء لانجلترا ، وأسمى على أن لا يلين كبرياء مليكها لذلة أو خضوع ، أم أسارع إلى الحث في اليمين وأقاتل من أجل الصليب ؟ كلا ، بل إلى الحث ، وليس بعد سبيل الله إلا ما تأمرني به حبيتي سيدة قلبي — ولكن ما الرأي في مشيئة قلب الأسد والوعد الذي أخذت على نفسي ! أي نكتبانس ، إني أناشدك مرة أخرى أن تقول لي هل أنت سائر بعيدا عن هنا ؟ » فأجاب نكتبانس وقال : « كلا ، بل إلى ذلك السرادق ؛ وأنت لا ريب ترى القمر يتلأأ فوق القبة الموشاة بالذهب ، التي تتوج أعلاه ، والتي تستحق فداء المليك » .

فقال الفارس وقد تملكه اليأس ، وأغمض عينيه عن كل ما قد ينجم بعد ذلك من نتائج : « إني أستطيع أن أعود بعد لحظة ، وإني أستطيع أن أستمع من هناك لنباح الكلب لو اقترب من العلم إنسان — لسوف أرتمي لدى قدمي سيدتي وأستاذتها في العود كي أتم رقابتي — أسمعتم يا رزوال ؟ » (ونادى كلبه وطرح عباءته إلى جوار رمح العلم) « راقب هذا المكان ، ولا تسمح لأحد أن يقترب » .

فخدق الكلب المهيب في وجه صاحبه ، كأنه يؤكد له أنه فهم ما عهد به إليه ، ثم جلس إلى جانب العباءة ، وأذناه مستقيمتان ، ورأسه مرفوع كأنه حارس يدرك تمام الإدراك الغرض الذي استقر من أجله هناك .

وقال الفارس : « هيا يا نكتبانس الكريم ، سارع بنا إلى تلبية ما أتيت به من أمر » .

فقال القزم مكتئبا : « ليسارع من يستطيع ذلك ، إنك لم تحف لإطاعة مادعوتك إليه ، وأنا لا أستطيع أن أسرع في مشيتي بحيث أسير وخطاك الواسعة . إنك لا تمشي كما يمشي الرجال ، إنما أنت تثب كما تثب النعام في الصحراء » .

ولم يكن هناك غير سيبلين للتغلب على عناد نكتبانس الذي أبطأ في مشيته وهو يتحدث ، وبات يسير كما تسير القوقعة ؛ إما رشوته وليس للسر كنف إلى ذلك من سيبل ، وإما مصانعته وليس لها من الوقت متسع ؛ فنقد من فارسنا الصبر ، واختطف القزم ورفع من فوق الأرض ، وحمله وسار به لا يعبا بتوسله أو بخوفه ، حتى كاد أن يبلغ السرادق الذي أشار إليه القزم من قبل وقال إنه سرادق الملكة ؛ ولما دنا الأسكتلندي ، ألقى هناك قليلا من الحراس الجنود متربعين على البسيطة ، وقد كانت تخفيهم عنه الخيام المتوسطة ؛ وعجب الفارس كيف أن صليل سلاحه لم يجذب منهم التفاتا ، وعرض له أنه ينبغي في ذلك الظرف الراهن أن يسير في الخفاء ، فوضع مرشده الصغير على الأرض — وهو يتهد — كي يسترد أنفاسه ويشير بما ينبغي بعد ذلك أداؤه ؛ وكان نكتبانس غاضبا حانقا ، ولكنه شعر بأنه أضحي بكليته تحت سلطان الفارس القوى ، كأنه اليوم في محلب النسر ، ولذا لم يفكر في استنارته إلى ما يدعو لإظهار قوته أكثر مما فعل .

ومن أجل هذا لم يشك من المعاملة التي لاقى ، وإنما عرج خلال تيه الخيام ، وسار بالفارس في سكون إلى الجانب الآخر من السرادق الذي كان يحجبهم عن رؤية الحراس ، الذين كانوا إما بالنسي الإهمال أو في النوم مستغرقين فلم يؤدوا واجبهم بكثير من العناية .

ولما بلغنا ذلك المكان رفع القزم جانب الخيمة الأسفل من الأرض ، وأشار إلى السركنث أن يتسرب إلى داخل الفسطاط زاحفاً تحته ، فتردد الفارس قليلاً ، إذ لم يكن من اللياقة في شيء أن يتسرب خفية إلى داخل السرادق الذي ضرب — بغير ريب — لايواء كرائم السيدات ، ولكنه تذكر الشارات الأكيدة التي عرضها عليه القزم ، واستقر به الرأي على ألا يجادل في رغبات سيده . وعلى ذلك طأطأ الرأس ، وزحف تحت السور الذي كان يحوط الفسطاط ، وسمع القزم يهمس من الخارج ويقول : « إلبث هنا حتى أناديك » .

الفصل الثالث عشر

إنكم تتحدثون عن اللهو مع البراءة !
ولكنهما في اللحظة التي أكلت فيها التمرة التي كان فيها القضاء ،
افترقا على غير لقاء ؛

ومن ثم بات الشر قرين اللهو والحبور
من اللحظة الأولى حينما يودى الطفل باسم
بالزهرة أو بالفراشة لاعبا لاهيا ،
إلى أن يقهقه البخيل وهو يموت
إذ يضحك ضحكاته الأخيرة فوق فراش الفناء
حينما يسمع أن جاره الثرى قد أصابه الإفلاس .

من رواية تمثيلية قديمة

لبث السر كئيب يضع دقائق وحده في الظلام ، وكان في ذلك عطلة له ، وبات
لزما عليه أن يمد أجل غيابه عن مقر حراسته ، وبدأ يدب في نفسه الندم على
السهولة التي أغرى بها على أن يترك مكانه ، ولكن لم يعد بطراً على ذهنه أن يعود
دون أن يرى السيدة أديث . لقد خرج على النظام العسكري ، واعتزم أن يحقق
على الأقل صدق الأمل الذي أغرى به وساقه إلى ما فعل ؛ ولكن موقفه لم يكن
رضيا في ذلك الحين ، فلم يكن هناك ضوء يبين له أية غرفة كانت تلك التي سيق
إليها - والسيدة أديث كانت من الوصيفات الملازمات للملكة انجلترا - ولو
مُعرف عنه كيف ولى السراق الملكي خلصة ، فقد يؤدي ذلك - لو كشف الأمر -
إلى شكوك كثيرة خطيرة . أسلم الفارس نفسه لهذه الخواطر البغيضة إلى النفس ،
وكاد يود لو عاد وتم له ذلك دون أن يرى ؛ وإذ هو كذلك ، طرقت أذنه شغب من
أصوات النساء يتضاكنن ويتهايمن ، ويتبادلن الحديث في غرفة مجاورة لا يفصله
عنها إلا حاجز من القماش ، كما تدل على ذلك الأصوات التي نمت إليه ، وقد عرف
أن المصاييح موقدة من النور الخافت الذي انتشر حتى ظهر على الجانب الذي كان

إلى ناحيته من الحاجز الذى يقسم السرادق ، واستطاع أن يرى ظلالات لشخص عديده ، كانت تجلس وتحرك فى الغرفة المجاورة . وليس عدلا أن تقول إنه لم يكن من اللياقة فى شيء أن يستمع السر كنت - وهو فى موقفه الذى وقف - إلى الحديث الذى ألقى نفسه وقد التذم منه غاية اللذة .

وقال صوت من أصوات أولئك النسوة الضاحكات المحتفيات عن الأبصار : « ادعها^(١) ، ادعها ، بحق العذراء ! أى نكتبانس ، إنك سوف تعين سفيرا لبلاط «پرسترجون» لترميمهم كيف أنك تستطيع أن تؤدى الرسائل بحكمة وتدير » . وسمع السر كنت صوت القزم الأجنس ، وقد خنع واستدل ، حتى إن الفارس لم يدرك مما كان يقول ، إلا أنه قد تفوه بشيء عن أسباب الطرب التى قدمت للحراس .

« ولكن كيف نستطيع أيتها الأوانس أن نخلص من هذا الروح^(٢) الذى أثاره نكتبانس ؟ »

قال صوت آخر : « استمعى إلى سيدتى الملكة ، إذا لم يكن نكتبانس الحكيم الأمير شديد الغيرة من عروسه وعاهلته البارعة ، فلنبتع بها تنقذنا من هذا الفارس الشارد السفية ، الذى أمكن إغراؤه بهذه السهولة ؟ حتى ظن أن كرائم السيدات بحاجة إلى بسالته المتصلفة العاتية » .

وأجاب الأخرى : « من العدل أن تصرف الأميرة «جنفرا» بكياستها ذلك الرجل الذى استألته إلى هنا حكمة زوجها » .

وأصاب سويداء القلب من السر كنت الخزى والغيظ مما سمع ، حتى أوشك أن يرمى إلى الفرار من السرادق مهما كلفه ذلك ، لولا أن ما تلا ذلك من حديث ملك عليه له وخاطره .

إذ قالت المحدثة الأولى : « كلا . حقا إن ابنة عمنا أدبث ينبغى أن تعلم أولا أى مسلك سلك هذا الرجل المتبجح ، وعلينا أن نسوق إليها دليلا عيانا على أنه

(١) تقصد المتكلمة أدبث .

(٢) تقصد المتكلمة بذلك السر كنت .

قد فشل في أداء واجبه ، وقد يكون في ذلك درس نافع لها ، لأنى - وصديقى فيها أقول يا « كالستا » - كثيرا ما ظننت أنها قد سمحت لهذا المخاطر من أهل الشمال أن يدنو من قلبها أكثر مما تجيز لها الروية .

وارتفع حينئذ صوت آخر يدمدم بشيء عن حكمة السيدة أديث ، وحصافة رأيها .

فقيل ردا على ذلك : « أى حصافة رأى يا فتاة ! إن هو إلا كبرياء ورغبة في أن تشتهر بالصرامة والصلابة أكثر منا جميعا ؛ كلا ، إنى لن أتهاون في حق ، إنكن تعرفن حق المعرفة أننا إن أخطأت إحدانا ، فلا تستطيع أينا أن تضع بلباقة أمام الآئمة إثمها وانحما ملوسا كما تستطيع سيدتى أديث - صه ! ها هى ذى قد أقبلت » .

وانتشر من شخصها وهى تلج الغرفة ظل فوق الحاجز أخذ ينزلق رويدا رويدا حتى اختلط بغيره من الظلال التى كانت تظلم بغيومها الحاجز ، ورغم ماضى بالفارس من خيبة مريرة ، ورغم الإهانة والأذى اللذين ألحقهما به حقد الملكة (برنجاريا) ، - أو إن أحسن الظن بها فتندرها به تندرا شديدا - (وكان إذ ذاك قد أيقن أن تلك التى كانت تملو بصوتها جميع الأصوات وتتكلم بنعمة الأمر إن هى إلا زوج رتشارد) ، رغم كل ذلك ، أحس الفارس بشيء يلف مشاعره ، حينما علم أن أديث لم تكن تساهم فى الغدر الذى تواطأ به الحاضرات عليه ، كما أحس بشيء من التشوق والتطلع إلى ما يوشك أن يقع ، فلم يقم بإفناذ العزم الحكيم الذى اعترم ، وهو الرجوع توا بغير توان ؛ بل على النقيض من ذلك ، أخذ يبحث متلهفا عن شق أو خصاص يستطيع أن يكون منه شاهد عيان ، وشاهد سمع ، لكل مايقع . وقال محدثا نفسه : « لا ريب أن الملكة التى سرها أن تتفكك فكاهة سمجة سقيمة ، وتعرض بذكرى بل وبجياتى ، لا تستطيع الشكوى إن أنا اغتتمت هذه الفرصة - التى أراد الجد السميد أن يرى بها إلى - كى أظفر ببعض العلم سما برح فى مكنون الطوايا » .

وفي ذلك الحين كانت أديث كأنها ترتقب ما تأمر به الملكة ، وكان الملكة قد أحجمت عن الكلام خشية أن يفلت زمام نفسها منها ، فلا تستطيع لضحكها أو لضحك زميلاتهما ردا ، لأن السر كنه لم يستطع أن يميز أكثر من صوت كأنه صوت ضحكات محبوسة ومرح مكبوت .

وأخيرا قالت أديث : « يظهر أن جلالتك الآن مزاجا طروبيا ، وإن كنت أرى أن هذه الساعة من الليل تحث على الميل إلى النوم ؛ ولقد كنت في فراشي راغبة ، حتى أتاني أمر جلالتك بأن أمثل لديك » .

فقالت الملكة : « لن أستأخرك يا ابنة العم طويلا عن راحتك ، وإن كنت أخشى أن تنامى نوما غير عميق حينما أقول لك إنك قد خسرت الرهان » .
فأجابت أديث وقالت : « كلا يا مولاتي الملكة ، ما هذا حقا إلا إصرار منك على فكاهة أو شكت أن تبلى ؛ إني لم أراهن على شيء رغم إلحاح جلالتك بأني فعلت ذلك » .

« كلا ، ولكن رغم حجبنا إلى هنا فافتح للشیطان عليك يا ابنة العم الكريمة سلطان عظيم ، وإنه ليدفع بك إلى المخاتلة والحداع ؛ هل تنكرين أنك قد رهنت خاتمك الياقوتي تلقاء سوارى الذهبى على أن فارس النمر ذاك — أو أيا كان ما تسمينه به — لا يمكن أن يُغرى عن أداء واجبه ؟ » .

فأجابت أديث قائلة : « إن جلالتك أعظم من أن أعارض ، ولكن هؤلاء السيدات يستطعن — إن أردن — أن يؤيدننى فى أن جلالتك هى التى تقدمت بهذا الرهان ، وأخذت الخاتم من إصبعى ، رغم أنى كنت أعلن صراحة أنني لم أر من الخير فى شيء أن أراهن بأى شيء فى هذه السبيل » .

فرد عليها صوت آخر قائلا : « ولكن ينبغى يا سيدتى أديث أن تسلمى راضية بأنك قد بحت بشديدا ثقتك فى بسالة هذا الفارس عينه — فارس النمر » .

فقالت أديث غاضبة : « هبىنى فعلت ذلك يا حبيبتى ! فهل فى هذا ما يبرر أن ترفى صوتك تدهنتين جلالة الملكة فى مزاحها ؟ إبنى لم أذكر عن هذا الفارس

إلا ما يذكر عنه كل رجل رآه وهو في ساحة الوغى ، وليس لى في الذود عنه هوى أكثر مما لك في الانتقاص منه . بماذا عسى النساء أن يتحدثن في المعسكر غير رجال الحرب وأعمال القتال ؟ » .

فأجاب صوت ثالك قائلا : « إن السيدة أدبث الكريمة ما عفت قط عن « كالستا » أو عنى مذ ذكرنا لجلالتك أنها أسقطت من يدها زهرتين في المبد » . فقالت أدبث بنعمة كانت فيما يرى السر كنب عتابا لطيفا : « إذا لم يكن لجلالتك أمر غير أن أستمع إلى سخرية وصيفاتك ، فهل لى أن أستأذنك في الانصراف ؟ » . فقالت الملكة : « صه يافلورنس ، ولا يدفمنك تهاوننا إلى تجاهل ما بينك وبين قريبات الملك من فارق » ثم استأنفت الكلام مستعيدة نعمة التهمم والتعنيف ، وقالت : « أما أنت يا ابنة العم العزيزة ، فكيف لك — وأنت دمثة الطبع — أن تضنى علينا نحن البائسات يبضع دقائق تتضحك فيها بعد ما مررت بنا أيام عديدة صرفناها جميعا باكيات تتميز من الفيظ ؟ » .

فقالت أدبث : « زادك الله يا سيدتى المليكة مرحا وجورا ، ولكن والله لخير لى ألا أبسم بقية العمر من أن ... » . ثم توقفت عن الكلام إجلالا ، ولكن السر كنب استطاع أن يتسمع ويدرك أنها كانت في ثورة نفسية عنيفة .

وقالت برنجاريا وهى أميرة من بيت نافار ، خفيفة العقل ، ظريفة الطبع : « ماذا عسى أن تكون الإساءة الكبرى ؟ إن فارسا شابا قد خُدع وسبق إلى هنا ، قتل من منصبه — أو قلن إنه أُستل من منصبه الذى لن يعتدى عليه أحد فى غيبته ، وجاء من أجل سيده الكريمة ؛ إننا ينبغى أن ننصف بطلب أيتها الحسنة ؛ إن حكمة نكتبانس ما كان لها أن تستهويه إلى هنا باسم غير اسمك » .

فقالت أدبث بصوت فيه رنة الدعز ، يخالف كل الخلف ذلك الغضب الذى بدا عليها منذ حين : « يا لله ! هل تقول لجلالتك بذلك ! إن معنى هذا ضياع شرفى

وشرفك ، فأني أمت لزوجك بصلة الرحم ! قولي إنك كنت ممي تمزحين ياسيدتي الملكة ، واعني عنه فأني ما كنت أحسبك لحظة واحدة إلا هازلة » .

فأجابت الملكة بصوت یرن فيه الاستياء وقالت : « إن السيدة أدیث تأسف علی الخاتم الذي ظفرتُ به منها . . . سزد إليك الرهان يا ابنة العم اللطيفة ، علی ألا تنكري علينا تلقاء ذلك أن تتغلب — ولو قليلا — علی هذه الرزاة التي انتشرت فوق رؤوسنا مرارا كما ينتشر العلم علی رؤوس الجنود » .

فصاحت أدیث حانقة وقالت : « تتغلبين ! تتغلبين ! إنما الغلبة سوف تكون للكافر حينما یسمع أن ملكة إنجلترا فی وسعها أن تجعل من اسم امرأة من دم زوجها موضوعا للهو والعبث » .

فقلت الملكة : « إنما أنت غاضبة يا ابنة العم الحسنة لأنك سوف تفقدین خاتمك العزيز . استمعي إلى ، ما دمت تضنين ببذل الرهان ، فسوف تننازل عن حقنا فيه ؛ إنما أتى بالرجل إلى هنا اسمك وهذا الخاتم ، وإنا لا نقيم للطعم وزنا بعد أن يقع الصيد فی الشباك » .

فأجابت أدیث جازعة وقالت : « مولاتي ، إنك تعلمین جد العلم أن جلالتك لا تتعلمین إلى شيء مما أملك إلا صار لك فی التو والحین ، وإني لأبذل قنطارا من الياقوت علی ألا يُستخدم خاتمي أو اسمي للإيقاع برجل باسل فی الخطيئة ، أو سَوْقه إلى الخزي والعقوبة » .

فقلت الملكة مجيبة : « إننا لا نخشى إلا علی سلامة فارسنا الحق ، وإنك لتستخفين بنفوذنا يا ابنة العم الحسنة إذ تتحدثين عن حياة هذا الرجل وكأنها هريقت من جراء فكاختنا وتندرنا . أيتها السيدة أدیث ، من النسوة غيرك من لهن علی صدور المقاتلين الحديدية نفوذ كما لك — وحتى الليث ذاته ليس قلبه إلا من لحم ودم لا من حجر ، وصديقي إن لی برتشارد من الصلة ما يكفي لا نقاذ هذا الفارس — الذي تهتم السيدة أدیث بشؤونه اهتماما كبيرا — من العقوبة التي حقت علیه لعصيانه أمر مليكة » .

فقلت أدبث : « أستحلفك بحب الصليب المبارك أيتها الملكة . . . » وهنا أحس السر كئث بعاطفة كان عسيرا عليه أن يدرك كنهها وهو يستمع إلى أدبث ، وهى تنكب بوجهها لدى قدى الملكة وتقول : « ناشدتك بحب العذراء البتول ، وبكل قديس مبارك فى الوجود ، أن تحذرى فىما تفعلين ! إنك لا تعرفين الملك رتشارد — ولم يعض على قرانك به إلا زمن وجيز — والله لأيسر لك أن تناهضى بأنفاسك رباح الغرب حين يشتد هبوبها من أن تحملى هذا الملك قريبي على أن يعفو عن جريمة عسكرية . أستحلفك بالله أن تصرفى هذا الرجل الكريم ، إن كنت حقا قد أغويته إلى هنا ! تالله لأرضين أن يعلق بى عار دعوته لو أنى عرفت أنه عاد ثانية حيث واجبه يناديه ! »

فقلت الملكة برنجاريا : « انهضى يا ابنة العم ، انهضى ، وتيقنى أن الأمر سوف ينتهى على خير مما تظنين . انهضى يا عزيزتى أدبث ؛ إنى آسفة لأنى تفكمت بفارس ، لك فيه كل هذا الهوى — كلا ، كلا ، لا تهزى بيديك ؛ سوف أعتقد أنك لا تعنين بأمره ، لسوف أعتقد بأى شى حتى لا أراك فى هذا المظهر البائس الكئيب . اعلمى أنى سوف ألتقى من الملك رتشارد على نفسى العتاب نيابة عن صاحبك الكريم ابن الشمال — كلا ، بل ينبغى أن أقول أحد معارفك ، فإنك لا تعرفين به صاحبا لك — كلا ؛ لا تنظرى إلى بهذه العين العاتبة — سوف نبعث بنكتبانس كى يصرف هذا الفارس الذى وُكمت إليه حراسة العلم ، ويعود إلى مقره ، وسوف نتعطف عليه يوما نحن أنفسنا ونهيب له ظرفا يعوض به هذا الخطأ الفاحش ؛ ما إخاله الآن إلا مستلقيا متخفيا فى إحدى الخيام المجاورة . »

فقال نكتبانس : « أقسم بأكليل الزنبق الذى أحمل ، وبصولجان القصب الجميل الذى أرفع ، إن جلالتك لخاطئة — إنه أقرب مما تظنين — أنه يرقد متحجبا هناك خلف حاجز القسطاط . »

فصاحت الملكة بدورها ، وقد اشتد بها الذعر والغضب وقالت : « إنه إذن لعلى مسمع من كل ما تقول . اعزب عنى أيها الوحش الأحمق الخبيث ! » .

وما إن فاهت بهذه الكلمات حتى فرّ نكتبانس من السرادق وهو يصرخ صراخا يداخلك من طبيعته الشك : هل قصرت برنجاريا زجرها على اللفظ أم هل أضافت إلى ذلك تعبيراً آخر عن حنقها أشد توكيداً .

وقالت الملكة لأديث وهي تهمس همسا بادي القلق : « ماذا عسانا نصنع الآن ؟ » فقالت أديث رابطة الجأش : « لنصنع ما ينبغي ؛ يجب أن نرى هذا الرجل الكريم ، وأن نضع أنفسنا تحت رحمته » .

وبعد ما أتمت هذا الحديث ، خفت إلى سجاف ترفعه ، وكان السجاف يستر من أحد جوانبه مدخلا يصل الداخل بالخارج .

وقالت الملكة : « برب السموات لا تفعل ، انظري ، هذه غرفتي وذاك رداى - وفي أى ساعة ! وشرقى ! » .

ولكن قبل أن تدلى بكل عتابها ، سقط السجاف ، ولم يعد بين الفارس المسلح وجماعة النساء حجاب ؛ وكان ذلك في ليلة من ليالى الشرق الدفيئة ، التى حدثت بالملكة برنجاريا ووصيفاتها إلى أن يخلعن أثوابهن ولا يرتدين إلا لباساً خفيفاً لا كلفة فيه ، ولا يتفق وما يقتضى موقفهن ، ولا يلتئم ومثول شاهد من الرجال له مكانته . وما إن ذكرت الملكة هذا حتى صاحت صيحة عالية ، ولاذت بالفرار من الغرفة التى كشفت عن السر كنه ، وأظهرته للعيان فى غرفة أخرى من غرف السرادق الفسيح لم يعد يفصلها عن الغرفة التى وقف النسوة بها فاصل ؛ وكانت السيدة أديث فى حال من الأسى والهياج ، وأحست بلهفة شديدة وهى تتبادل الحديث مع الفارس الأسكتلندى متعجلة مسرعة ، فأدى بها ذلك إلى أن تنسى أن خصلات شعرها كانت على شعث ، وأن جسمها لم يكن محكم الحجاب ، ولم يكن ذلك مما تألفه بنات الأمر الكريمة فى عصر لم يكن - رغم هذا - أكثر عصور العهد القديم تحسباً أو بصراً ؛ وكان أهم ما تسترت به رداء رقيق فضفاض من الحرير الأحمر ، وخف شرق ، دفعت بقدميها العاريتين فيه على عجل ، ووشاح اتشحت به على كتفيها فى لهفة وبغير اكتراث ، وليس على رأسها ما يحجبه غير قناع من خصلات

شعرها الغزير الموش ، تتدلى حوله من كل جانب ، وتجبج بحياها حجبا خفيفا — وقد انتشرت الحمرة فيه مما اعترأها من مزيج المشاعر ، إذ أحست بالحياء والاستياء وغير ذلك من العواطف الثائرة العميقة .

وأحست أدبث بموقفها بكل تلك الرقة التي هي أشد ما يسحرنا في الجنس اللطيف ، ولكن لم يطرأ لها لحظة أن ترفع حياءها إلى حد التفاضى عن أداء الواجب نحو هذا الرجل الذى انساق إلى الخطأ والخطر من أجلها ؛ حقا إنها جرت وشاحها ، وقربته من جيدها وصدرها ، وأسرعت بنبذ مصباح كان بيدها ، يشع منه ضياء شديد على جسمها ؛ وبينما وقف السركنت لا يبدى حراكا في ذات المكان الذى شوهد به أول الأمر ، كانت هي إلى التقدم إليه أدنى منها إلى التقهقر عنه ، وهي تصيح مذعورة وتقول : « أسرع إلى مقر حراستك أيها الفارس الجسور ! لقد خُذعت إذ سيق بك إلى هنا . عد ولا تسل » .

فجأ الفارس على إحدى ركبتيه ، كأنه القديس أمام المذبح إخلاصا وتقديرا ، ثم قال : « ليس بي حاجة إلى سؤال » وأطرق بصره نحو الأرض خشية أن يزيد بمرآة ما كانت عليه السيدة من حيرة وارتباك .

فقال أدبث جازعة : « هل سمعت كل ما دار . يا كرام الأولياء ! إذن فلماذا أنت باق هنا ، وأنت تعلم أن كل دقيقة تنقضى معبأة بالخزى وامتهان الكرامة ؟ » فأجابها كنت وقال : « سمعتُ منك يا سيدتى أن الخزى قد أصابنى ، فلست أبالى أن يحل بى الجزاء بعد هذا ، إنما لى لديك مطلب واحد ، لا أعبا بعه أن أسير خلال سيوف الكفرة علنى أمحو الخزى بالدماء »

فقال السيدة : « كلا ، لا تفعل ذلك . كن حكيما ولا تلبث هنا ؛ ولئن هممت بالعودة فلربما ينتهى الأمر بخير العواقب » .

فقال الفارس وما برح جاثيا : « إنما أنا أنتظر العفو منك عن جرأتى فى الاعتقاد بأن خدماتى القليلة ربما سدت لديك حاجة أو لاقت منك تقديرا » .
« لقد عفوت عنك — يا إلهى ، ليس لى ما أعفو عنه ! — لقد كنتُ

السبيل إلى أذاك — ولكن بربك انصرف ! — لسوف أعفو عنك — وسوف أقدر خدمتك — وذلك بمقدار ما أقدر كل صليبي مقدم — ولن تنال منى ذلك إلا إن انصرفت ! » .

ثم عرض الفارس الخاتم على أدِيث ، وهي تبتدى من الشارات ما ينم عن الجزع ، وقال : « خذى أولاً هذا الميثاق النفيس القاتل » .

فقات وهي معرضة عن تناوله : « كلا ، كلا ، احتفظ به . احتفظ به دليلاً على تقديري — بل على أسنى . أوآه ، هلا انصرفت من أجلى ، إن لم يكن من أجل نفسك ! » .

فهب السر كئث من جثوة ، ورمق أدِيث بنظرة عجي ، وانحنى كثيراً ، وهمم بالانصراف وكأنه قد أئيب — بما بدا عليها من لهفة على سلامته — عن كل ما افتقد ، حتى عن ضياع شرفه الذى افتضحته بنبرة صوتها . وفي تلك اللحظة عينها غلب على أدِيث ذلك الحياء العذرى ، الذى تمكنت حتى آنئذ بشدة انفعال مشاعرها من أن تكبح جماحه ، ونحفت من الغرفة ، وأطفأت المصباح وهي تنصرف ، وخلفت في خواطر السر كئث من بعدها اكتئاباً في حسه ونفسه . وكان أول خاطر واضح أيقظ السر كئث من هواجسه وجوب طاعتها ، فسارع إلى المكان الذى وبلج منه السرادق ؛ ولكنه إن انزلق تحت السور كما دخل فإنه يحتاج لذلك إلى الوقت والحذر ، فثقب بخنجره السور الحائط ، وأصبح له بذلك مخرج ميسور ؛ وما إن خرج إلى الهواء الطلق حتى هاجمته المشاعر المتنازعة ، فتبدل حسه وغلب على أمره ، ولم يستطع أن يستوثق من كنه ما مر به ومن حقيقة الأمر ، واضطر أن يحفز نفسه للعمل حينما ذكر أن أمر السيدة أدِيث يتطلب العجلة ؛ وحتى بعد هذا كان لا بد له — وهو مشتبك بين الخيام وحبالها — أن يسير حذراً حتى يبلغ الطريق الجانبية التى سلكها القزم وإياه من قبل ، كي يتحاشى أعين الحراس الواقفين لدى سرادق الملكة ، واضطر إلى أن يسير وتبدأ حريصاً ، كي لا ينبه الأذهان إن هو خر على الأرض أو صلصل سلاحه ؛ وفي تلك

اللحظة عينها التي فصل فيها السر كئنت عن الفسطاق ، غشت القمر سحابة رقيقة ، واضطر الفارس أن يواجه هذه المشقة في وقت لم يكده يُبقى له دوار رأسه وخفقان قلبه من نفاذ البصيرة ما يكفي لأن يدبر به مسيره .

ولكن سرعان ما طرقت أذنيه الأصوات على حين غرة ، فثاب توا إلى رشده وإلى قواه العقلية كاملة ؛ وكان جبل سنت جورج هو مبعث هذه الأصوات ، وكان أول ما سمع نباحا منفردا هججيا غاضبا متوحشا تبعه على الفور صراخ الكرب والألم ، وما كان الظبي ليثب فازعا من صوت «رزوال» كما وثب السر كئنت ، إذ خشى أن يكون ذلك الصوت هو نزع الموت يصيح منه ذلك الكلب النبيل ، الذي ما كان لأذى مألوف أن يستخلص منه أدنى شكاية من الألم ، فذلل الفارس المدى الذي كان يفصل ما بينه وبين الطريق ، وما إن بلغها حتى شرع يجرى نحو الجبل ، ورغم أنه كان مثقلا بالزرد فسا. كان لرجل أن يلحق به ، حتى وإن كان مجردا عن السلاح ؛ ولم يتراخ في خطاه وهو يصعد جوانب الراية المصطنعة الشديدة الانحدار ، ولم تمض بضعة دقائق حتى كان فوق قمة الجبل .

وفي تلك اللحظة أرسل القمر سهام نوره ، وتبين له أن راية انجلترا قد اختفت ، وأن الرمح الذي كانت ترفرف فوقه كان ملقى على الأرض محطما ، وإلى جواره كلبه الأمين يعالج سكرات الموت .

الفصل الرابع عشر

... لقد أضعت أذيال الشرف الطويلة ،
وقد جمعتهما في شبابي وادخرتها لمشيبي !
ماذا ؟ هل غاض معين الشرف ؟
أجل ، لقد كان ،
ولتمض إذن صغار الأطفال بأقدام عارية
يجمعون الحصى من مخاضة العين بعد جفافها .
دون سبستيان

اتتاب السر كنت فيض من الإحساسات المتضاربة ، كاد أول الأمر أن يذهله ويشتت ذهنه ؛ ولما أفاق كان أول ما خطر له أن يبحث عن اعتدوا على العلم الإنجليزي ، ولكنه لم ير لهم أترأ في أية ناحية من النواحي ، فخطر له ثانياً أن يفحص حال (رزوال) الأمين ، وقد أصيب بجراح قاتلة وهو — على ما يظهر — يؤدي الواجب الذي أغمرى سيده بهجرانه ؛ وقد يبدو هذا الخاطر غريباً لبعض القوم ، ولكنه ليس كذلك لكل من كانت له بالكلاب صلات وثيقة . أخذ كنت يدلل الكلب مخلصاً حتى النهاية ، فتناسى الكلب آلامه من أثر السرور الذي أحس به من قرب سيده ، ولبث يهز ذيله ، ويلعق يديه ، حتى حينما كانت أماته الضعيفة تدل على أن آلامه كانت تزايد كلما حاول السر كنت أن يستخلص من الجرح شظايا الرمح أو النشاب الذي أصيب به ؛ وأخذ الكلب يضاعف من إعزازة لصاحبه — رغم فتوره وضعفه — كأنه كان يخشى أن يسيء إليه إن هو أبدى إحساساً بالألم الذي أصابه من جراء تعرضه للدفاع ؛ ولقد كان في هذا المظهر الذي ظهر به الكلب وهو يعالج سكرة الموت ، مظهر التعلق بصاحبه ، شيء من المرارة اختلط في نفس السر كنت بشعوره بالخزي والوحشة اللذين حاقا به ؛ وشعر كأن صديقه الأوحده قد رحل عنه في الوقت الذي كان يحس فيه بالازدراء والبغضاء لكل من عداه ، فلم يسع الفارس — رغم صدق عزيمته — إلا أن يستسلم للانفجار من هذا الكرب الأليم ، فأخذ يتأوه ويكي بكاء مرا .

وبينا هو كذلك مستغرق في الهم ، إذا بصوت جهورى وقور وراهه وعلى مقربة منه ينطق بهذه الكلمات ، برنين فيه نغم القراء في المساجد ، وباللغة الفرنجية التي كان يفهمها المسيحيون والأعراب على السواء .

« إنما المصائب كالطر المتلاحق — فيه للإنسان والحيوان برودة ومشقة وعداوة ، وفيه كذلك حياة للزهر والتمر والورد والرمان » .

فتلفت السر كئث فارس النمر صوب المتكلم ، ووقع بصره على الطبيب العربى وقد اقترب صامتاً ، وجلس خلفه وقريباً منه ، ووضع ساقاً فوق الأخرى ، وأخذ — فى هدوء ورزاقه وبنعمة تنطوى على العطف — ينطق بالحكم والأمثال التي فيها للإنسان عزاء ، وقد استمدتها من القرآن وأقوال المفسرين ؛ وليست الحكمة فى الشرق فى ما يُظهر الحكيم من قوة الابتكار بمقدار ما هي فى حضور الذاكرة وإجادة التطبيق والإشارة إلى « الكلام المسطور » .

وخجل السر كئث إذ بوغت وهو ينفس عن أساه كما تنفس النساء ، فسح دموعه ، وأزالها حياءً وخزيًا ، ثم أخذ يشغل ثانية بكلمه العزيز وهو يفارق الحياة . وواصل العربى حديثه ، ولم يسترع التفاته أن الفارس قد أشاح ببصره ، أو ما كان يعملو محياه من الاكتئاب ، وقال : « لقد قيل : (الثور للحقل ، والجل للصحراء) ، أليست يد الطبيب ألين من يد المقاتل لشفاء الجروح ، وإن تكن أقل منها قدرة على ثلها ؟ »

فقال السر كئث : « ليس لك بهذا المريض أيها الحكيم حيلة ، وهو فوق ذلك حيوان نجس فى شريعتكم » .

فقال الطبيب : « حيثما من الله بالحياة ، وأوجد الحس باللذة والألم ، فإنه لكبرياء باطل من الحكيم — وقد أنار الله بصيرته — أن يحجم عن أن يمد أجل البقاء ، أو يخفف وقع الألم . إنما علاج الخادم البائس ، أو الكلب المسكين ، أو الملك الظافر ، سواء لدى الحكيم ، كلها أمور لا نفرق بين أحدها وبين الآخر ؛ دعنى أخص هذا الحيوان الجريح » .

فأسلم له السر كئث صامتا ، وأخذ الطبيب يفحص ما برزوال من جراح ، ويقبله بين يديه بحرص وعناية كأنه مخلوق آدمى ، ثم استخرج حقيية بها بعض آلاته ، وأولج في جسم الكلب مسبرا بحكمة ومهارة ، واجتذب من كتفه الجريحة شظايا السلاح ، ثم أوقف بالأدوية الواقية والضادات ما عقب ذلك من تدفق الدماء ، والكلب خلال ذلك يكابد الألم صابراً ، ويستسلم للطبيب وهو يعالجه برفق ، كأنه يدرك طيب طويته .

وقال الحكيم موجهاً للسر كئث الخطاب : « إن في شفاء الكلب لرجاء لو أذنت لى أن أحمله إلى خيمتى وأعالجه بالعناية التى يستحقها نبل طبيعته ، ولتعلم أن خادمك « أذنبك » ليس بفصائل الكلاب وكرام الخيل وسلالاتها وطباعها ، أقل حذقا منه فى الأمراض التى تصيب البشر » .

فأجاب الفارس وقال : « إذن فلتصطحبه ، وإنى أهبك بغير مقابل إذا عوفى ، إنى مدين لك بالجزاء على عنايتك بخادى ، وليس لدى غير ذلك أرد لك به حسن صنعك . أما أنا فلن أنفخ بعد اليوم فى بوق أو أنادى كلبا ! »

فلم يجر العربى جوابا ، وإنما صفق بيديه إشارة أجيبت على الفور بمثول عبدىن أسودىن ، أصدر لهما أمره بالعربية وأجاباه « سمعا وطاعة » ، ثم حملا الكلب بين أذرعهما ، ورفعا بغير كبير مقاومة من جانبه ، لأنه — وإن يكن قد رفع بصره نحو سيده — لم يقو على المناضلة .

فقال السر كئث : « أستودعك الله إذن يا رزوال ، وداعايا صاحبي الأوحد والأخير ، إنما أنت أنفس من أن يملكك رجل له ماسوف يكون لى فى مستقبل أيامى » ، ولما تراجع العبدان قال : « وددت لو أنى بدلت بحالى حال هذا الحيوان النبيل ، رغم أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ! » .

فأجاب العربى مع أن السر كئث لم يتوجه إليه بهذا الرجاء وقال : « لقد كتب على المخلوقات جميعا أن تكون فى خدمة الإنسان ، فإذا كان سيد الأرض

يود لو يبدل - وهو جازع - بأمله في الدنيا والآخرة حالاً وضيعة يعيش عليها مخلوق دنيء كالكلب ، فإنه لا ينطق إلا حمقاً .

فقال الفارس عابسا : « إنما الكلب الذي يموت في أداء واجبه خير من الإنسان الذي يمينا بعد إهماله ؛ دعني أيها الحكيم . أجل ، إن لديك بطبك المعجز أعجب ما وصل إليه الإنسان من علم ، ولكن جراح الروح فوق طاقتك » .
فقال أدنبك الحكيم : « كلا ، ليس كذلك إن كان المريض يبوح برزئه ، ويسلس للطبيب القيادة » .

فقال السر كنت : « ما دمت تلحف كذلك فلتعلم إذن أن راية إنجلترا كانت الليلة البارحة مرفوعة فوق هذه الراية - وكنت على حراستها - لقد انبثق النهار - انظر ترى رمح العلم المحطم ملقى هناك - وقد افتقدت الراية نفسها - وهأنذا أجلس هنا على قيد الحياة ! »

فأجاب الحكيم وهو يتفرسه وقال : « كيف كان ذلك ! إنى أرى درعك سليما ولا أرى أثرا للدماء على سلاحك ؛ وذكرك بين الناس ينطق ببعد احتمال عودك هكذا بعد القتال . أجل ، لقد انسقت من منصبك ، وجذبتك بورد خديها ، وحوور عينيها ، إحدى أولئك الحور ، اللاتي يحملون لهن - أنتم أيها النصارى - ولاء يليق برب السموات ، لا جبا يجوز التوجه به شرعا لمخلوقات مثلنا من الطين . لا شك في أن الأمر كان كذلك ، فهكذا زل الإنسان منذ الأزل من يوم أينا آدم » .

فرد عليه السر كنت مكتئبا وقال : « وإن كان الأمر كذلك أيها الطبيب فما دواؤك ؟ » .

فقال الحكيم : « العلم فوق المقدرة ، كما أن الشجاعة فوق القوة - استمع إلى ، ليس الإنسان كالشجرة معقودا بمكان واحد من الأرض ، وليس مصاغا بحيث يتشبث بصخرة واحدة جرداء كالقوقعة تكاد لاتذب فيها الحياة ، وكتابكم المسيحي يأمركم إن لا قيم جورا يبلى أن تلوذوا ببلى آخر ، ونحن المسلمين كذلك

تعرف أن محمدا رسول الله بعدما فر من مكة المكرمة أوى إلى المدينة وألقى بها أنصارا». فقال الأسكتلندي : « وما شأن هذا بي ؟ » .

فأجابه الطبيب قائلا : « شأن كبير ، ألا تعلم أن الحكيم نفسه يتوارى عن العاصفة إن كان لا يستطيع لها ردا ؟ إذن فلتعمد إلى العجلة وتفر من نعمة رتشارد إلى ظل راية صلاح الدين الطاهرة » .

فرد عليه السر كوث ساخرا وقال : « إذن لسوف أخفى عارى في معسكر الكفرة الذين لا يعرفون لهذه الكلمة معنى ؛ ولكن أليس خيرا لي أن يلحق بي عارهم ؟ هلا توصيني بلبس العمامة ؟ تالله لم يعد لي إلا أن أردت عن ديني كي تبلغ فضيحتي منهاها » .

فقال الطبيب عابسا : « لا تجدف أيها النصراني ، إن صلاح الدين لا يقبل في دين محمد إلا أولئك الذين يؤمنون بقواعد الإسلام . افتح عينيك للنور — إن شئت — يهبك السلطان العظيم مُلكا ، فهو رجل ليس لجوده أو سلطانه حد ، وإن شئت فلتبقي أعمى البصيرة ، فلن يكون نصيبك من الحياة الآخرة غير الشقاء ، ولكن صلاح الدين سوف يغنيك ويسعدك في هذه الدار الفانية ؛ ولا تخش أن تطوق حاجبيك العمامة إلا إن أردت ذلك راغبا » .

فقال الفارس : « إنما إرادتي أن يسودَّ جيبني المقطب ، وهو ما يحتمل وقوعه عند مغيب الشمس هذا المساء » .

فأجاب الحكيم وقال : « كلا ، ليس من الحكمة في شيء أيها النصراني أن تنبذ ما عرضت عليك ؛ إن لي على صلاح الدين لسلطانا ، وأنا أستطيع أن أرفع من شأنك حتى تشملك رعايته . استمع إلي يا بني ، إن هذا المشروع الممجى الذي تسمونه الحرب الصليبية ليس إلا كالسفين يشق عباب الماء ؛ لقد حملت بنفسك شروط الهدنة من الملوك والأمراء — الذين تتجمع جيوشهم هناك — إلى السلطان العظيم ، وربما لم تكن تعلم كل ما كانت ترمي إليه رسالتك » .

فقال الفارس وقد تملكه الجزع : « لست أعرف ولا يهمني أن أعرف ؛

وماذا يعني أنى كنت منذ حين رسول الأمراء ، ما دمت سوف أسمى — قبل أن يسدل الليل ستاره — جثة مهينة تحت المقصلة ؟ » .

فأجاب الطبيب وقال : « كلا ، سوف أسمى فى أن يكون إلى غير ذلك منهاك ؛ إنهم جميعا يتوددون إلى صلاح الدين ؛ إن اتحاد الأمراء فى هذا المجمع ، الذى تألف لمعارضته ، قد تقدم إليه يعرض المهادنة والصلح ، ولو كنا فى زمان غير هذا لكان جديراً بشرف صلاح الدين أن يمنحهم سؤالهم ؛ وسى إليه غير هؤلاء بالأصالة عن أنفسهم يعرضون فصل قواهم عن معسكر ملوك الفرنجة ، بل ويعيرون أسلحتهم للذود عن راية الإسلام ، ولكن ليس صلاح الدين بالذى يقبل الخدمات من أمثال هؤلاء الخونة العاجزين ذوى المنافع الخاصة ؛ ليس الملك الملوك أن يأتى غير الملك الأسد . إن صلاح الدين لن يعقد مع أحد ميثاقا سوى الملك رتشارد ، وسوف يواتيه كما يواتى الأمير الأمير ، أو يقاتله كما يقاتل البطل البطل . إنه يسلم لرتشارد — لجوده وسخائه — بشروط ليس لسيوف أوروبا جميعا أن تفرضها عليه عنوة أو إرهابا ، إنه يسمح بالحج دون قيد أو شرط إلى بيت المقدس وإلى كل مكان يحب النصارى أن يتعبدوا فيه ؛ بل إنه ليقسم حتى دولته مع أخيه رتشارد ، فيسمح للجاليات المسيحية أن تقيم فى أشد مدن فلسطين الست قوة وفى بيت المقدس ذاته ، ويرضى لهم أن يكونوا تحت إمرة ضباط رتشارد مباشرة ، ويقبل لهؤلاء الضباط أن يحملوا اسم (حرس فلسطين الملكى) ، فضلا عن ذلك لتعلم ياسيدى الفارس — وقد يبدو لك ما سأحدثك به أمراً غريباً لا يحتمل التصديق ، ولكنى سأبوح إكراماً لك بهذا السر الذى يكاد لا يصدقه أحد — اعلم أن صلاح الدين سوف يختم بخاتم قدسى على هذا الائتلاف السعيد بين أشجع الشجعان وأنبس النبلاء فى بلاد الفرنجة وفى آسيا : وذلك بأن يرفع إلى مرتبة الزوجية الملكية فتاة مسيحية تصلها بالملك رتشارد أوامر الدم وتعرف باسم السيدة أديث بلانتاجنت^(١) .

(١) قد يبدو هذا الاقتراح شاذاً غير مقبول ، فبيني أن نقول إنه قد وقع حقيقة ، =

فصاح السر كنهث قائلا : « ها ! أفهذا ما تقول ؟ » وكان يستمع شاردا للب غير آبه إلى الشطر الأول من حديث الحكيم ، إلا أن هذا الخبر الأخير قد مس منه كامن حسه ، وأيقظه كما توقظ رجفة الأعصاب — حين تنتفض على حين بقتة — الحسّ بالألم حتى في سبات المفلوج ، ثم خفف من نبرة كلامه ، وإن يكن قد عانى في ذلك ما عانى ، واكتتم ما أحس به من امتهان الكرامة ، وستره بستار من الريبة والازدراء ، ثم واصل الحديث كي يظفر بأكثر ما يستطيع من علم عن هذه المؤامرة — وقد ظنّها كذلك — هذه المؤامرة التي كانت تدبر ضد فتاته ، ضد شرفها وسعادتها ، ضد تلك التي لم ينتقص من حبه لها ما أصاب جده وشرفه بسببها ، فقال في سكينته وهدوء : « وأى مسيحي ذلك الذي يصادق على عقد غير طبيعي ، كذلك الذي يكون بين مسيحية عذراء وعربي مسلم ؟ » .

فأجاب الحكيم وقال : « إنما أنت نصراني جاهل متعصب ، أفلم تر إلى الأمراء المسلمين كيف يتزاوجون كل يوم مع النبيلات من عذارى أسبانيا النصراري ، وما في هذا عار على مغربي أو مسيحي ؟ ولسوف يسمح السلطان النبيل — لثقتة التامة في دم رتشارد — للفتاة الإنجليزية بالحرية التي وهبتها المرأة طباعكم الفرنجية ، سوف يسمح لها بالحرية في ممارسة دينها ، وسوف يخضعها بمكانة ومرتبة فوق نساءه جميعاً ، فتبيت من كل وجه ملكته الفريدة المطلقة » .

فقال السر كنهث . « كيف تجرؤ أيها المسلم على أن تحسب أن رتشارد يتنازل عن قريبته ، وهي أميرة فاضلة كريمة النسب ، لتكون — أحسن ما تكون — فضلى الإماء بين (حريم) رجل مسلم ! اعلم أيها الحكيم أن أدنى مسيحي نبيل حر يأبى لابنته مثل هذا العار الشنيع » .

= ومع ذلك فإن المؤرخين يستبدلون ملكة نابلس الأرملة بأخت رتشارد هذه العروس ، وأخى صلاح الدين بهذا الزوج ؛ ولكن يجيل لي أنهم كانوا يجهلون وجود أدب بلاتنا جنت — ارجع إلى « تاريخ الحروب الصليبية » تأليف مل — صفحة ٦١ من الجزء الثاني .

فرد عليه الحكيم وقال : « والله لقد أخطأت ، ولقد نما هذا الرأى إلى فيليب ملك فرنسا ، وهنرى صاحب شبنانيا ، وغيرهما من زعماء أحلاف رتشارد ، ولم يصعق أحدهم للخبر ، ووعدوا جميعا أن يسعوا ما وسعهم السعى فى حلف قد تكون فيه نهاية هذه الحرب الضروس ؛ وقد أخذ الرجل الحكيم كبير قساوسة (صور) على نفسه أن يزف هذا المقترح إلى رتشارد ، ولا تداخله ريبة فى أنه سوف يستطيع أن يسوق الخطة إلى خير غاية ، وقد احتفظ السلطان — لحكمته — بهذا الأمر سرا ، وكتمه على أمثال صاحب منتسرا ورئيس فرسان المعبد ، لأنه يعلم أنهما وأمثالهما يسعون إلى الفلاح من وراء حثف رتشارد أو خزبه ، لا عن سبيل حياته وشرفه — فهيا إذن ياسيدى الفارس ، وامتنط صهوة جوادك ، وسأعطيك مكتوبا يرفع من شأنك لدى السلطان ، ولا تحسبن أنك تارك بلادك أو قضيتها أو دينها مادام صالح الملكين عما قريب سوف يتحد ؛ إن مشورتك سوف تلقى من صلاح الدين خير القبول ، مادام فى وسعك أن تخبره بالكثير عن الزواج لدى المسيحيين ، وكيف يعاملون أزواجهم ، وغير ذلك من أمور شريعتهم وعاداتهم ، فإن السلطان يهمله كثيرا أن يعرف ذلك من أجل المعاهدة . إن السلطان يقبض على كنوز الشرق ييميناه ، ومنها تنفجر عيون الجود والسخاء ؛ ولن يتعسر على صلاح الدين — إن تحالف مع انجلترا — أن يظفر من رتشارد لا بالعفو عنك وردك إلى حظيرة الرضى فحسب ، وإنما يستطيع أن يحصل لك كذلك على قيادة شريفة بين من قد يتخلف من جنود جيش ملك انجلترا للإبقاء على حكمهما المشترك فى فلسطين ، فهيا إذن واركب جوادك وأمأمك الطريق واضحة . »

فأجابه الفارس الأسكتلندى وقال : « أيها الحكيم ، إنما أنت رجل من رجال السلم — وإنك كذلك أنقذت حياة رتشارد ملك انجلترا — بل وحياة خادى المسكين (ستروخان) ، ولندا فلقد أصغيت إليك حتى النهاية وأنت تتحدث فى أمر لو أن رجلا مسلما غيرك تقدم به إلى لأوقفته بطعنة من خنجرى ! أيها الحكيم ، لى أنصح لك — جزاء رأفتك — أن تنصح العربى الذى يتقدم إلى رتشارد

يطلب وصل دم بلا تتاجنت بدمه الكريه ، بلبس خوذة تقوى على تلقي ضربة بالفأس كتلك التي دكت تحتها أبواب عكا ، وإلا فلا ريب أنه سوف يضع نفسه موضعا ينأى حتى عن حذقك ومهارتك » .

فقال الطبيب : « إذن فلقد اعترمت عامدا مصرا على ألا تفر إلى صفوف الأعراب ؛ ولكن ألا فلتذكر أنك قد قلت إن في هذا قضاءك المحتوم ، وحدود شريعتكم - كحدود شريعتنا - تحرم على المرء أن يعتدى على حرم حياته » .

فرسم الأسكتلندي علامة الصليب على نفسه وقال : « حاشا لله ، ولقد حرم علينا كذلك أن نتحاشى ما يحق على ذنوبنا من جزاء ؛ ولكن عقيدتك في الله ضعيفة أيها الحكيم ، وإنه والله ليحفظني أنى وهبتك كلبى الكريم ، لأنه إن عاش فسوف يكون له صاحب جاهل بقدره » .

فقال الحكيم : « إن العطية إن ضمن بها معطيها فكأنه يستردها ، ولكننا معشر الأطباء قد أقسمنا أن لا نرد مريضا بغير علاج ؛ لأن شئ الكلب فلسوف يكون ثانية لك » .

فأجاب السر كنت وقال : « اذهب أيها الحكيم ، إن المرء لا يتحدث عن البراة والكلاب حينها لا يكون بينه وبين الموت غير ساعة من نهار ، دعنى أذكر ذنوبى وأتقرب إلى الله » .

فقال الطبيب : « إني أدعك لعنادك ، إن الغيوم لتخفي وراءها المنحدر فلا يراه أولئك الذين كتب الله عليهم الهبوط من فوقه » .

ثم تسلل ويدا ، ولبث يتلفت وراءه الفينة بعد الفينة ، كأنه يرقب عسى أن يستدعيه هذا الفارس المخلص بكلمة أو إشارة ، وأخيرا اختفى هذا الرجل المغمم بين تيه الخيام التي كانت تمتد في أسفل الجبل ويباضها ينصع في ضوء الفجر الشاحب - وقد اندحر أمامه شعاع القمر .

ولم يكن لكلمات « أدنبك » الطبيب على السر كنت ذلك الأثر الذي كان يرى إليه الحكيم ، إلا أنها بعثت في الأسكتلندي حب الحياة ، وقد كان منذ حين

يود لو يفارقها كأنها ثوب ملوث لم يعد يليق به ارتداؤه ، وذلك رغم أنه كان يحسب أنه يتسم بالخزى والهوان ، وعاد إلى ذاكرته كثير مما دار بينه وبين الناسك ، ومما شهد بين الناسك وشيركوه (أو الضريم) ، ومال به ما ذكر إلى تأييد ما خبره به الحكيم عن الشرط الخفي الذي ورد بالمعاهدة .

ثم صاح محدثا نفسه : « ياله من محتمل في ثياب الشرف ^(١) ! ياله من منافق أشيب ! لقد تحدث عن الزوج المشرك كيف ترده عن شركة الزوجة المؤمنة ؛ وماذا عساي أن أعرف غير أن الخائن قد عرض على العربي ما جبا الله أدبث بلاتناجنت من جمال ، حتى يستطيع هذا الرجل أن يحكم إن كانت هذه الأميرة المسيحية تليق بأن تنخرط في سلك « حریم » رجل مسلم ؟ والله لو وقع ذلك الرجل « الضريم » - أو أيا كان اسمه - ثانية في قبضتي التي أمسكت عليه بها يوما إمساكا شديدا ، كما أمسك كلب الصيد بالأرنب ، فلن يأتي أحد ثانية - وهو خاصة - برسالة مشينة بشرف ملك مسيحي أو فتاة نبيلة فاضلة . . . إن ساعاتي تتناقص سريعا إلى دقائق ، ولكن لا بد رغم ذلك من أداء عمل ما ، ولا بد من أدائه سريعا ، مادام في عرق ينبض ونفس يتردد » .

وسكت بضع دقائق ، ثم رمى بخوذته ، وانطلق مسرعا من فوق الجبل ، وسار في الطريق المؤدية إلى سرادق الملك رتشارد .

(١) الضمير يعود على الناسك .

الفصل الخامس عشر

نفخ الديك — وهو ذاك المنشد المريش —
في البوق ؛ يعلن للقروى الباكر لإشراق الصباح .
ورأى إدوارد الملك خيوط الضياء الموردة
يتراجع من وهجها الظلام ،
واستمع إلى الغراب الأسخيم ناعبا ،
ينادى بانصرام يوم من الزمان .
فقال الملك : « إنك لعلى حق ،
وإنى لأقسم بالله الذى يتربع على العرش فى السماء ،
ليموتن اليوم (شارل بودوين) وصاحباها »
تشارتن .

فى الليلة التى استولى فيها السركنث على منصبه ، أوى رتشارد إلى فراشه بعد ذلك الحادث العاصف الذى عكر صفو المساء ، وهو أشد ما يكون ثقة بالنفس ؛ وقد أوحى إليه بهذه الثقة شجاعته التى لا تمهد ، وذلك الفضل الذى أحرزه على غيره حينما أصاب مرماه على مرآى من الجيوش المسيحية وزعمائها جميعا ؛ وكان يعلم أن كثيرا منهم من كان يرى فى دخيلة نفسه أن المهانة التى لحقت بدوق النمسا إن هى إلا انتصار عليه ؛ وإذن فلقد أشبع رتشارد كبريائه ، فإنه إذ كبح عدوا قداذل مئين . ولو أن هذا الأمر قد وقع لملك آخر لضاعف من حرسه فى المساء بعد هذا الحادث ، ولأبقى جانبا على الأقل من جنوده بالسلاح مدججين ، ولكن قلب الأسد صرف على أثر ما وقع حتى حرسه الذى اعتاد ، وخص جنوده بهبة من النيذ ، كي يحفلوا بشفائه ، ويشربوا نخب راية سنت جورج ؛ ولولا أن سرتوماس دى فو وإرل سولزبرى ، وغيرهما من الأشراف ، قد اتخذوا الحيطلة لحفظ السكينة والنظام بين الحافلين ، لا نطبع على هذه الناحية من المعسكر التى يشغلها الملك طابع الفوضى والاستهتار .

أما الطبيب فقد سهر على الملك مذ أوى إلى فراشه حتى انصرم الهزيع الأول

من الليل ، وفي هذه الفترة ناوله الدواء مرتين ، وهو في كل مرة يرقب في السماء ذلك البرج الذي يتربع فيه بدر التم ، فإن للبدر — كما يقول الطبيب — أثر أعلى فعل عقاقيره ، يجعل فيها الحياة أو الهلاك ، وانقضت ثلاث ساعات بعد ما تصرف النصف الأول من الليل ، ثم تسلل الحكيم من السرادق الملصق إلى سرادق آخر ضرب له ولأتباعه ، وإذ هو في طريقه إلى هناك ، عرّج على خيمة السر كنه فارس النمر ، كي يرى حال مريضه الأول في معسكر المسيحيين ، وهو (ستروخان) ذلك الرجل المسن خادم الفارس ، ولما استعلم هناك عن السر كنه نفسه ، علم الحكيم على أي واجب كان يقوم ، وقد دفع به هذا الخبر إلى جبل سنت جورج ، حيث ألقاه وهو في ذلك الظرف المنكوب الذي أشرنا إليه في الفصل السابق .

وقبيل شروق الشمس ، نما إلى سرادق الملك وقع خطوات وثيدة دانية من قوم مسلحين ، وما إن هب دى فو من مررقه وتساءل « من القادم ؟ » — وكان ينام إلى جوار فراش سيده نوما خفيفاً ، ولم يأخذ الكرى بمقد جفنيه إلا كما يأخذ بجفون كلاب الحراسة — حتى ولى الفسطاط فارس النمر ، تملو ملامح الرجولة فيه كآبة عميقة بعيدة المدى .

فقال دى فو عابسا ، وفي نعم كلامه نبرة الاحترام لسبات سيده : « فيم هذا التهجم الجرىء يا سيدى الفارس ؟ » .

فتيقظ رتشارد توا وقال : « صه يادى فو ! لقد أقبل علينا السر كنه إقبال الجندى الكريم ، يقص علينا قصة حراسته — ولثل هذا ينبغي أن يكون سرادق القائد أبداً قريب المنال ، ثم نهض من نومه ، وارتكز على مررقه ، ورمى المقاتل بعينه الواسعتين البراقتين ، وقال : « تكلم ياسيدى الأسكتلندى ؛ لقد أتيت تحدثنى عن حراسة يقظة آمنة شريفة ، أليس كذلك ؟ إن حفيف ثنايا راية انجلترا قمين وحده بحراسة العلم ، حتى دون أن يمثّل مثل هذا الفارس بشخصه فيراه كل ذى عينين » .

فأجاب السر كنه قائلاً : « كلا ، لن يرانى بعد اليوم أحد ، إن حراستى لم

تكن يا مولاي بقظة ولا آمنة ولا شريفة ، ولقد امتدت إلى راية أنجلترا يد واختطفها .

فأجاب رتشارد وفي صوته نبرة الازدراء والتكذيب وقال : « وما برحت على قيد الحياة تذكر ذلك ؟ عني ! إن هذا لن يكون . إني لا أرى أثراً لخدش على حياك . خبرني لماذا أنت مائل كذلك صامتا ؟ أصدقني واعلم أن المزاح مع الملوك خطير - ومع ذلك فلأعفون عنك إن كان كذبا ما تقول . »

فرد عليه الفارس البائس وقال : « لم يكن كذبا ما خبرتك يا مولاي المليك ! » وفي صوته نغم التأكيد الجاف ، وفي عينيه سهام من النار براقة نافذة متألقة ، كأنها وميض الصوان المتحجر البارد ، ثم قال : « ولكن ينبغي أن أصمد هنا كذلك - هذا هو الحق خبرتك به يا مولاي . »

فانفجر الملك في عاصفة من الغضب ، ما لبثت أن خمدت وسكن نأثرها ، وقال : « يا لله ! ويا لسنن جورج ! دى فو ، إذهب إلى المكان وألق عليه بنظرة - لقد عكّرت هذه الحمى صفو ذهنه - إن هذا لن يكون - حسب شجاعة الرجل مناعة - إن هذا لن يكون ! - إذهب - عني سريعا - أو أرسل من لدنك رسولا إن كنت لا تريد الانصراف . »

وهنا استوقف الملك السرى هنرى ثريل ، وقد أقبل متقطع الأنفاس يقول إن الراية قد اقتلعت ، وإن الفارس الذى كان يقوم على حراستها قد غلب على أمره ، وغالب الظن أنه قتل ، لأنه رأى بركة من الدماء إلى جوار رمح العلم المحطم . وما إن وقعت عينا ثريل بغتة على السر كنت حتى تساءل « من ذا أرى هنا ؟ » فهب الملك على قدميه ، وأمسك بالفأس القصيرة التى كانت أبدأ لا تبرح جوار فراشه ، وقال : « خائنا ، خائنا ! ولسوف تراه يموت ميتة الخونة » ثم جذب سلاحه إليه كأنه يريد أن يضرب به .

ووقف الاسكتلندى أمامه ممتقع اللون ، ولكنه رابط الجأش ، كأنه تمثال من الرمر ، ورأسه عار لا يقيه لباس ، وعيناه مطرقتان نحو الأرض ، وشفاه

لاتكادان تبسنان ، والراجح أنه كان يتمم بالدعوات ، ووقف الملك رتشارد قبالته على قيد رمح ، وقد ادر جسمه الضخم بين طيات ثوب من الكتان فضفاض ، وتستر جميعه ، إلا حيث أزال انفعاله الشديد الدثار من فوق ساعده الأيمن وكتفه وجانبا من صدره ، وبدا للعيان كأنه مثال من صورة إنسانية جديرة بالصفة التي كان يتصف بها سلفه السكسونى وهى « جانب الحديد » . ولبت هنيهة متأهبا للمضرب ، ثم أمال رأس السلاح صوب الأرض ، وصاح متعجبا وقال : « أفكانت هناك دماء يا ثقىل — هل كان لدى المكان دم . استمع إلى ياسر كنت — لقد كنت باسلا فى يوم من الأيام ، ولقد شهدتك وأنت تقاتل ، فهلا قلت لى إنك جندلت لصين دفعا عن العلم — بل جندلت واحداً — بل قل لى إنك ضربت ضربة قوية فى سبيلى ، ثم انصرف عن المعسكر بحياتك وخزيك ! » .

فأجابه كنت رابط الجأش وقال : « مولاي الملك ؛ لقد دعوتنى كاذبا ، ولقد أسأت لى فى هذا على الأقل ؛ أعلم أنه لم تُرق فى سبيل النود عن العلم دماء ، اللهم إلا دم الكلب المسكين ، حين تصدى للدفاع عن الواجب الذى هجره صاحبه ، والكلب أشد إخلاصا منه » .

فقال رتشارد : « بحق القديس جورج » ؛ وهم بساعده ثانية — ولكن دى ثورى بنفسه بين الملك ومحط نغمته ، وشرع يدلى بذلك الصدق الصراح الذى يتخلق به ؛ قال : « مولاي ، لن يكون هذا ، لن يقع هذا الأمر هنا ، ولن تتلوث به يداك ؛ وكفى حقا بين عشية وضحاها ، أن تكل أمر العلم لى رجل اسكتلندى — ألم أقل لك إنهم أبداً على ظاهر من الحق وباطن من الباطل ؟ » (١) .

فأجاب رتشارد وقال : « أجل ، لقد فعلت يادى ثو ، ولقد أصبت ، وإنى

(١) بهذه النعوت ألف الإنجليز أن يتحدثوا عن جيرانهم الساكنين من أهل الشمال ، ناسين أن اعتداءهم على استقلال اسكتلندا قد أكره هذه الأمة الضعيفة على أن تدفع عن نفسها بالدهاء كما تدفع عنها بالقوة ؛ وينبئ أن يقسم الحزبى فى هذا لإدوارد الأول وإدوارد الثالث اللذان فرضا سلطانهما فرضاً على أمة حرة ، وأهل اسكتلندا الذين أكرهوا لإكراهها على أن يقسموا يمينا وليس فى عزمهم أن يبروا بها .

بذلك أقر . كان ينبغي لي أن أعرفه خيراً من هذا ، وكان ينبغي أن أذكر كيف أن الثعلب وليم قد خدعني في أمر هذه الحرب الصليبية » .
فأجابه السر كنت وقال : « مولاي ، إن وليم الأسكتلندي لم يخدعك ، ولكن الظروف لم تمكنه من حشد جنوده » .

فقال الملك : « مهلاً بعض هذا واستح قليلاً ! إنك تلوث اسم الأمير حتى إن لفظت به » ، ثم أردف بقوله : « ولكن ، مع هذا ، إنه لعجيب يادى قو مسلك هذا الرجل ، إنه إما جبان أو خائن ، ولكنه صمد - رغم ذلك - لضربة رتشارد بلا تاجت حينما ارتفع ساعدنا لوسم الفروسية على كتفه^(١) ؛ والله لئن كان قد أبدى أتفه دليل على خوفه ، والله لو كانت قد ارتعدت منه فريضة أو ارتجف له جفن ، لهشمت رأسه كما يتهشم القدح من البلور ، ولكن ما كان لي أن أضرب حيث لا خوف هناك ولا صدود » .

ثم كان سكون .

ثم قال كنت : « مولاي . . . » .

فاعترضه رتشارد وأجابه قائلاً : « ها ! آلاآن عرفت الكلام ؟ أذع ربك الرحمة ولا تدعني ، لقد لحق بانجلترا العار من جراء خطئك . ووالله لو كنت لي أخوا ، ولولم يكن لي سواك أخ ، لما عفوت عن إثمك » .

فقال الأسكتلندي : « إنى لم أتكلم طلباً للرافة من إنسان فان ، إنما الأمر لجلالتكم إما جدتم أو ضنتم على بالوقت أ كفر فيه عن سوء آتى كما يكفر المسيحيون ؛ ولئن أنكر الإنسان على هذا فإله أ رجو أن يهينى المغفرة التي أطلب من الكنيسة بعد الله ! وسواء مت الآن أو بعد هذا بنصف ساعة فإني ألتمس من جلالتم أن تهينى الفرصة لحظة واحدة أ تحدث فيها إلى شخصك الكريم بما يمى ذكرك كملك مسيحي مساً شديداً » .

فأجابه الملك وقال : « هيا ، قل ما تريد » . ولم يشك في أنه إنما كان يتأهب

(١) يشير إلى العادة التي كانت تتبع في العصور الوسطى عند منح الرجل مرتبة الفروسية .

للإصغاء إلى شيء من الاعتراف في أمر يخص العلم .
قال السر كنت : « إن ما سوف أذكر يمس ملكية إنجلترا ، وينبغي أن لا يتطرق إلى غير أذنك » .

فقال الملك لنثيل ودي فو : « اعزبا عني سيدي » .
فصدع أولهما بالأمر ، وصمد ثانيهما في حضرة الملك لا يبدى حراكا .
وأجاب دي فو مولاه قائلاً : « ألم تقل مولاي إني على جادة الصواب ؟ إذن فلتعاملني كما ينبغي أن يعامل من هو على محجة الحق — وإذن فلتبق لي إرادتي ، وإني لن أتركك وحدك مع هذا الأسكتلندي الأفاك » .

فقال رتشارد غضباً وهو يضرب الأرض بقدمه ضرباً خفيفاً : « كيف هذا يادي فو ! وكيف لا تأمن على شخصنا مع خائن واحد ؟ » .
فأجاب دي فو وقال : « عبثاً يا مولاي أن تقطب جبينك أو تضرب بقدمك . إني لا آمن أن أترك رجلاً مريضاً مع آخر معافي ، رجلاً مجرداً عن السلاح مع آخر مسلح ممتنع » .

فقال الفارس الاسكتلندي : « ليس هذا بأمر ذي بال ، إني لن أتلمس المذرة كي أستأخر الزمن ، ولأتكلمن في حضرة لورد جزلاند فإنه سيد كريم صادق » .
فأجاب دي فو وفي صوته رنة الأمل ، وفيها مزيج من الحزن والحنق وقال :
« لقد كنت أقول عنك مثل هذا القول منذ نصف ساعة ! »

ثم استأنف السر كنت حديثه وقال : « إن القدر يحيط بك يا ملك الانجليز » .
فأجاب رتشارد قائلاً : « قد يكون صدقاً ماتقول ، فإن أممي لمثالا محسوساً » .
فقال السر كنت : « إنها خيانة سيكون أذاها أشد وقعاً عليك من ضياع مائة راية في ساحة الوغى ، إن... إن... » وهنا تردد السر كنت ، ثم استأنف الكلام أخيراً وقد خفض من صوته وقال : « إن السيدة أدبث... »

فاستجمع الملك نفسه بفته ، واتخذ هيئة المنصب المتكبر ، وحدث يبصره فيمن ظن فيه الإجرام ثم قال : « ها ! ما بها ؟ خبرني ما بها ؟ ما شأنها وهذا ؟ » .

فقال الاسكتلندي : « مولاي ، هناك دسيسة تدبر لتدنيس ذريتك الملكية الكريمة ، وذلك بمنح يد السيدة أدبث للسلطان العربي ، وشراء سلم مشين بالعالم المسيحي بحلف هو وصمة شديدة في جبين المجلثرا » .

وكان لهذا البلاغ أثر يختلف كل الخلف عما كان يتوقع السر كنه ، فلقد كان رتشارد بلاتاجنت أحد أولئك الذين لا يعملون لله انصياعاً لأمر الشيطان — كما يقول أياجو — ^(١) ولم يكن في غالب الأحيان ليتأثر بالنصح أو بالخبر بمقدار ما ينطويان عليه من صدق ، كما كان يتأثر بهما بمقدار ما يصطبغان به من شخصية المحدث ونظرته . ومن نكد الطالع أن أحبي ذكر هذه السيدة — وهي من ذوات قرباه — ذكرياته عن وقاحة فارس النمر في هذا الشأن ، حتى حينما كان في طليعة الفرسان . وقد بدا له أن في ما ذكر السر كنه — وهو في تلك الحال الراهنة — مهانة تكفي لأن تدفع بالملك ، وهو يشتعل غضباً ، إلى انفعال الجنون .

فقال : « ازم الصمت أيها الرذول الوقح ! وحق السموات لأمزقن لسانك بمقبض الحديد الحار لأنك ذكرت اسم سيدة من كرائم المسيحيات ؛ اعلم أيها الخائن الوضع ، أني كنت أعلم من قبل إلى أي حد بلغت بك الجرأة أن ترفع عينيك ، ولقد تحملت ذلك — رغم مافيه من قحة وجرأة — حتى حينما خدعتنا حتى ظننا أنك رجل له ذكر وصيت ؛ أما الآن وقد تقيحت شفتاك بما اعترفت به من خزيك — إذ كيف تجرؤ على أن تذكر الآن سيدة كريمة تربطها بنا صلة الرحم ، وكأنها سيدة لك في حظها سهم أو نصيب ! — ما شأنك إن هي تزوجت من عربي أو مسيحي ؟ — ما شأنك ونحن في معسكر الأُمراء فيه أنذال نهاراً ولصوص مساء ، وبواسل الفرسان فيه خونة أدنياء يفرون من الواجب — أقول ما شأنك ، أو ما شأن غيرك ، إن أنا أردت أن آتحالف مع الصدق والشجاعة متمثلين في شخص صلاح الدين ؟ » .

فأجاب السر كنه متشجعاً وقال : « شأني في هذا قليل حقاً ، وأنا رجل

(١) أياجو شخصية مشهورة بالحقد في رواية عطيل لشكبير .

سوف تصبح الدنيا لي عما قريب هباء ؛ ولكن ، حتى ولئن كنت الآن موثوقا
بسرير العذاب ، أقول إن ما ذكرت لك يمس ضميرك واسمك مساً كبيراً ، إني
أقول يا مولاي الملك إنك إن قبلت — ولو في خاطرك وحسب — أمر زواج قريبتك
هذه السيدة أدب . . . » .

فقال الملك : « لا تذكر اسمها ، ولا تفكر فيها لحظة واحدة » وضغط على
فأسه القصيرة ثانية بقبضته ، حتى برزت العضلات في ساعده المقتول تكيوط
الجلباب حول أعضاء السنديان .

فأجاب السر كئث قائلاً : « لا أذكر اسمها ! ولا أفكر فيها ! » وقد صق
وخيمت عليه الكآبة وتملكه انقباض النفس ، ثم أخذ يسترد مرونته بعد هذا
اللون من الحديث ، فقال : « والآن بحق الصليب الذي عقدت به آمالي ، ليكون
اسمها آخر ما يلوك في ، ولتكون صورتها آخر ما يخطر لذهني ! جرب قوتك
— التي بها تفخر — على هذا الجبين العاري ، وانظر هل أنت بمانئ عن مرماي ؟ » .
فقال رتشارد : « والله إنه ليدفعني إلى الجنون » ورده ثانية عن هدفه
— راغماً — عزم لا يلين مَلَكَ على الجاني نفسه .

وقبل أن يمحير توماس الجزلاندي جواباً ، نما إلى السرادق شغب من الخارج ،
وأعلن المعلن من ظاهر الفسطاط قدوم الملكة .

فصاح الملك : « ردّها يا ثقيل ، ردّها ! ليس هذا بالشهد الذي يليق بالنساء
— تبا ، تبا ، لقد عانيت من مثل هذا الخائن الوضع إغاظته لي كما ترون » ! —
ثم قال همساً : « ابعده عن مرآي يادي فو ، واخرج به من المدخل الخلفي من
سرادقنا ، وضيقوا عليه أشد ضيق ، واعلم أن حياتك رهينة بمحفظه في محبسه ،
وضع نصب عينيك أنه عما قريب يفارق الحياة ، فأت له بأب روي فإنا لن
نقتل فيه الروح والجسد — البث قليلا واستمع إليّ ، إنا لا نريد به خزيًا ولا عاراً
— لسوف يموتن ميتة الفرسان بنطاقه ومهازه ؛ فلئن كانت خيانتته مظلمة كالبحيم
فإنه ليباري بإقدامه الشيطان نفسه » .

ولا نعدو الحقيقة إذا نحن قلنا إن دي ثو قد سر سروراً عظيماً بانتها ذلك الموقف دون أن يتنزل رتشارد إلى عمل لا يليق بالملك ، ويقتل بنفسه سجيناً لا يدفع عن نفسه ، ثم سارع إلى إخراج السر كنه من منفذ خاص إلى خيمة منفصلة ، حيث جرده من سلاحه وكبله في الأصفاد ، كي يأمن جانبه ، ووقف دي ثو ينظر إلى ما يجري رابط الجأش حزيناً ، وضباط السجن ، الذين بات السر كنه تحت إمرتهم ، يتخذون هذه الحيلة الشديدة .

ولما فرغوا قال للآثم التعس مكتئباً : « هي إرادة الملك أن تموت محتفظاً بشرفك — فلن نبتز جسدك أو نشوه ساعديك — وأن يفصل رأسك عن جذعك سيفُ الجلالد » .

فقال الفارس : « إنها لرأفة منكم » وفي صوته نغم خافت ، فيه ذلة وخنوع ، كأنه رجل ظفر برضا غير منظور ، ثم قال : « إذن فأهلي لن يسمعوا عنى أسوأ القصص — آه يا أبتاه ! يا أبتاه ! »

وهذا الابتهاال الذي تتم به لم يغب عن الرجل الأنجليزى الجلف الطيب القلب ، فسح بظاهريده الكبيرة محياه الغليظ قبل أن يشرع في الجواب . ثم قال أخيراً : « ويريدك الملك كذلك أن تتحدث إلى رجل من رجال الدين ، ولقد التقيت في طريقى إلى هنا بقس من كرميل يليق بك وأنت تفارق هذه الدار الدنيا ، وهو ينتظر خارج الفسطاط حتى تتهيأ للقائه » .

فقال الفارس : « سارع به إلىَّ ، إن رتشارد في هذا كذلك لرؤوف بي رحيم ؛ لن أكون ساعة ما أكثر تأهباً للقاء القس الكريم منى الآن ، فلقد ودعت الحياة ، وافترت وأياها كراجلين بلغنا مفترق الطريق ، ثم اختلف سير أحدهما عن الآخر » .

فقال دي ثو متثدأ رزيناً : « هذا خير ، فوالله إنه ليضنيني بعض الشيء أن أذكر لك غوى رسالتى : وذلك أن الملك رتشارد يريدك على أن تتأهب للموت العاجل » .

فأجاب الفارس صابراً : « لتكن إرادة الله ومشيئة الملك ؛ إنى لا أعارض في عدالة الحكم ، ولا أرغب في تأجيل القضاء . »

وحيثُذ شرع دى فو يفصل عن الفسطاط في أناة شديدة ، ثم وقف لدى الباب ، والتفت خلفه ، ونظر إلى الأسكتلندى الذى وقف وكأن آمال هذه الدار الفانية قد انتفت من خاطره انتفاء تاماً ، وكأنه رجل قد توجه إلى الله بكل نفسه ؛ ولم يكن البارون الإنجليزى البدين عامة من ذوى المشاعر الحادة ، ولكن عاطفته في ذلك الموقف غلبت عليه — رغم ذلك — غلبة لم يعدها في نفسه من قبل ، فقفل راجعاً إلى فراش القصب الذى كان يرقد عليه الأسير ، وأمسك بإحدى يديه المغولتين وقال بنغم فيه من اللين بمقدار ما يستطيع صوته الأجنس أن يلفظ : « سيدى كنت ، إنك ما زلت في ريعان الشباب ، وإن لك لأباً ، وإن ابنى « رالف » الذى خلفته يدرب جواده الصغير الذى أتينا له به من (جالوى) على ضفاف (اردنج) قد يبلغ عمرك يوماً من الأيام — ولا أخفيك أنى ليلة أمس كنت أرجو الله أن أرى شبابه كشبابك — هلا تريدنى أن أقول شيئاً أو أفعل فعلاً نيابة عنك ؟ » فكان الجواب الحزين على ذلك : « لاشيء ، لقد أهملت واجبى ، وفقد العلم الذى عهد به إلى — فإذا ما أصبح الجلاد وباتت المفصلة على استعداد ، فإن رأسى وجذعى كليهما على أهبة أن يفترقا » .

فقال دى فو : « رحماك اللهم ، والله لوددت لو أنى قتت بحراسة العلم عوضاً عن رعاية جوادى الكريم . إن فى الأمر لسراً أيها الرجل الشاب ، سرا يلمسه الرجل الساذج وإن كان لا يدرك له كنهها ، هل كان جبناً منك ؟ كلا . ما قاتل جبان قط كما شهدتك تقاثل — هل كانت خيانة ؟ لا أظن الخونة يموتون فى حياتهم بمثل هذه السكينة . إنما صرفك عن مقرئ غدر بعيد المدى وخطة محكمة التدبير — إنما ملك عليك سمعك صياح فتاة منكوبة ، أو صرف عنك بصرك وجه ضاحك باش ، لا تستح من هذا ، فليس منا من لم يحده به يوماً مثل هذا الدافع عن جدته ؛ هيا ، هيا ، وبع لى عوضاً عن قسك بمكنون سريرتك — إن رتشارد

لرؤوف رحيم حينما تهدأ ثورته . أليس لديك ما تعهد به إلى « ؟
فأشاح الفارس البائس بوجهه عن هذا المقاتل الرحيم ، وأجابه بغير تردد أن :
« لا شيء » .

ولما أن استنفد دى فوكل حديث من أحاديث الإغراء ، نهض وفصل عن
القساط مطبق الدراعين ، تعلوه كآبة ظن أنها أظلم مما تقتضى الحال ، بل وناقماً
على نفسه لأنه رأى أن أمراً تافهاً — كموت رجل أسكتلندي — له مثل هذا
الأثر العميق في نفسه .

ولكن ، كما قال محدثاً نفسه : « لئن كان الأجلاف ذوو الأقدام الخشنه أعداء
لنا في كمبرلاند^(١) فإننا في فلسطين نكاد نحسبهم لنا إخواناً » .

(١) هي البلاد التي تقع بين إنجلترا وأسكتلندا .

الفصل السادس عشر

ليس الأمر ما تدرك فتاني ،
فهي في إدراكها لا تعدو ما ألقم ،
وما فطنها إلا لغو ،
كغيرها من بنات حواء .
أنشودة

كانت برنجاريا العريقة النسب ابنة (سانشر) ، ملك نافار ملكة حليلة لرتشارد الباسل ، وتعد من أجمل النسوة في زمانها ، قدّها نحيل ، وجسمها بارع الجمال في صورته ، حباها الله ببشرة غير مألوفة بين بنات جلدتها ، ولها شعر كث يضرب إلى الصفرة ، وملاحظها غاية في نضارة الشباب ، حتى إنها لتبدو للعيان أصغر سنا من حقيقتها بسنوات عدة ، وإن تكن في الواقع لما تعد الحادية والعشرين ، ولربما كان إحساسها بمظهرها هذا البالغ في حد ذاته ، باعثاً لها على أن تصطنع ، أو أن تقوم على الأقل ، بقليل من أعمال النرق الصيانية وصلابة الرأي في سلوكها ؛ وليس هذا — حسب ظنها — مما لا يليق بعروس شابة ، مرتبتها وسنها يعطيانها الحق في أن تتأدى في زواتها هذه ، وأن تأمر فتطاع ، وكانت بالسليقة غاية في طيب القلب ، وإذا ما أسلم لها رفيقاتها — غير منازعة — بحظها من الإعجاب والولاء لها (وهو حظ كبير فيما كانت ترى) فلن تجد من يفضلها مزاجاً أو ميلاً إلى المحبة والوداد ؛ ولكنها — ككل حاكم مطلق — كلما نالت زيادة في نفوذها من الناس طوعاً ، ازدادت شغفاً بمد سلطانها ؛ وإذا ما أشبعت جميع أطعمها تراها تتظاهر أحياناً بانحراف صحتها وتعكير صفو مزاجها ، فيقدح الأطباء الأذهان ، ويبتدعوا لها أسماء لأمراض ما أنزل الله بها من سلطان ، وتشخذ وصفاتها الخيال حتى يجدن لها ألعاباً مبتكرة ، وأزياء جديدة للرأس ، وفضائح في البلاط لم تسمع عنها من قبل ، تصرف بها تلك الساعات البغيضة — وهي ساعات لا يكون موقف

وصيقاتها فيها مما يغبطن عليه كثيراً . وأكثر ما كن يلجان إليه ليسرين عن الملكة علمها خدعة أو عمل ضار تعمله إحداهن بالأخرى ؛ ولا نعدو الحق إن قلنا إن الملكة ذات القلب الطيب — وهي في نشوة انتعاش مزاجها — كانت لا تبالي كثيراً إن كان هذا المزاج الذى يمزج به الوصيفات مما يليق بكرامتها كل اللياقة ، أو كان الألم الذى يكابده أولئك اللاتي يصيبهن وقعه لا يتناسب والهو الذى تظفر به هي منه ؛ وكانت أبدأ على ثقة من رضا زوجها ، ومن علو مرتبتها ، ومما كانت تفرض في نفسها من حق الإفادة من المرح مهما كلف غيرها ؛ أو قل في عبارة موجزة إنها كانت تثب من مكان إلى آخر حرة كأنها شبل من الأشبال لا يحس بثقل مخالبه على أولئك الذين تلهو بهم .

وكانت الملكة برنجارياً تحب زوجها جاجاً ، ولكنها كانت تخشى من خلقه الكبرياء والخسونة ؛ ولما كانت تحس من نفسها أنها لا تباريه ذكاء ، فلم تكن لتطمئن إليه حين تراه وهو يكثر من التحدث إلى أدبى بلاتاجنت ، راغباً فيها عنها ، لا لشيء إلا لأنه يجد في حديثها لذة ، وفي إدراكها سعة ، وفي خواطرها وعواطفها سيبا النبيل والشرف ، أكثر مما تبدى حليلته الحسنة ؛ ولم تكن برنجارياً تبغض أدبى من أجل هذا ، وما كان أبعدها عن أن تدبر لها أذى أو مضرة ، لأن خلقها — إن تهاونا في شيء من حب الذات — كان على الجملة سنجاً بريئاً ؛ ولكن حاشيتها من السيدات — وهن ببيدات النظر في مثل هذه الأمور — كن قد أدركن منذ حين أن التندر الصارم على حساب السيدة أدبى كان لجلالها فيه شفاء من توعك المزاج ، وقد خلصن بهذا الإدراك من كثير من كد الخيال .

ولم يكن في هذا شيء من كرم الخلق ، إذ كان يُعرف عن السيدة أدبى أنها يتيمة الأم والأبوين ؛ وهي وإن كان يطلق عليها اسم بلاتاجنت ، وقتاة انجوا الحسنة ، ولئن كان رتشارد قد أذن لها أن تستمتع ببعض المزايا مما لا يمنح إلا لأعضاء الأسرة المالكة ، فكانت وفقاً لهذا تبوأ مكانتها في الأوساط والدوائر ، إلا أنه رغم ذلك قل من كان يعرف على أية درجة من صلة الرحم هي من قلب الأسد ؛ ولم

يجرؤ على السؤال في هذا أحد ممن له صلة ببلاط إنجلترا . أتت مع « اليانور » أم ملك إنجلترا الشهيرة ، واتصلت برتشارد عند « مسينا » على أنها ممن قدر لمن أن يكن من وصيفات برنجاريا التي كان زواجها إذ ذاك وشيك العقد ؛ وكان رتشارد يعامل قريبته هذه بكثير من الاحترام والرعاية ، وجعلت الملكة منها أئرم وصيفاتها ، وكانت تعاملها على الجملة بما يليق بها من إجلال رغم ما شهدنا فيها من أثر الغيرة . ولبت سيدات البلاط طويلا دون أن يكون لمن على أدب فضل ، اللهم إلا ما تهيئه الفرصة حينما يأخذن عليها عدم الحذق في وضع لباس رأسها ، أو سوء اختيارها لثوبها ، إذ كن يحكمن عليها بالحطة والجهل بأمرار اللباس والتجمل ؛ ولم يمض ذلك الإخلاص الصامت — الذي كان يحمله الفارس الاسكتلندي لها — دون التفات ، فكن يرقبن عن كذب ما يرتدى من ثياب ، وما يبدى من دراية ، وما يظهر من حذق في الضرب بالسلاح ، وما يحمل من شعار ويدبر من مكائد ، وكثيرا ما اتخذن من هذا موضوعا لفكاهة عارضة ؛ وبقيت الحال كذلك حتى آن للملكة ووصيفاتها أن يحججن إلى عين جدة ، وهي رحلة قامت بها الملكة كي تبتهل إلى الله أن يرد لزوجها صحته ، وشجعهما على القيام بها رئيس أساقفة (صور) لغرض سياسي في نفسه ؛ وفي ذلك الحين ، في المبد القائم بذلك المكان المقدس ، الذي يتصل فوق الأرض بدير الراهبات في كرمل ، وتحت الأرض بكن الناسك ، لحظت إحدى وصيفات الملكة تلك الشارة الخفية التي أو مات بها أدب إلى عشيقها ، ولم يفهما أن تبلغ الملكة نبأها في الحال ، فعادت الملكة من حجها مزودة بهذا الدواء الناجع شفاء لها من الكآبة والضجر ، وقد انضم إلى حشمها قرمان شقيان وهبتهما إياها ملكة بيت المقدس المخلوعة عن العرش ، لها من تشويه الخلق والخلب (وهذا خير ما يتصف به هذا الضرب التمس من الناس) ما يجبهما إلى أية ملكة من الملكات ، وكان من ضروب اللهو العقيم تلهو به برنجاريا أن تحتبر ما لظهور هذه الصور الوهمية ، الشاحبة اللون ، على أعصاب الفارس من أثر ، حينما يخلو نفسه في المبد ، ولكن تندرهما لم يفلح إذ أن الرجل الاسكتلندي قد صمد

للموقف ، كما أن الناسك اعترض الأمر ، ولم تتم الفكاهة ، فحاولت الآن فكاهة أخرى ، وهي تأمل أن تكون عواقبها أشد خطراً .

وبعد أن انصرف السركنث عن الفسطاط ، اجتمع السيدات ثانية ، ولم تهتز الملكة أول الأمر إلا قليلاً من غضب أدِيث وعتابها ، فلم تجبها بأكثر من عدلها على اصطناعها الحشمة والخفر ، ومن تماذيها في التندر على حساب ثياب فارس النمر ، وعلى أمته ، وفوق هذا وذاك على فقره الذي سخرت منه كثيراً سخراً تستشف من خلفه الحقد والضعيفة ، وإن كان ممزوجاً بالبشاشة والمجون ؛ وبقيت على ذلك حتى اضطرت أدِيث أن تأوى إلى غرفتها المستقلة بهواجسها ولبالها ؛ ولما أشرق الصباح بعثت أدِيث بإحدى خادمتها تستعلم عما وقع ، فأنت إليها نبأ فخواه أن العلم قد افتقد وأن بطله قد اختفى ، فانطلقت أدِيث إلى غرفة الملكة ، وتضرعت إليها أن تنهض وتخف إلى سرادق الملك بغير توان ، وأن تستخدم وساطتها النافذة كي تمنع العواقب الوخيمة التي نجمت عن مزاحها .

وارتاعت الملكة بدورها ، وأتحت كعادتها باللائمة في عبثها هذا على من كن يتحوظنها ، وحاولت أن تخفف من أسي أدِيث ، وأن تخمد فيها نائر غضبها بألوف الأقوال المتضاربة ، وكانت على يقين من أن لم يحدث أذى ، وخيل إليها أن الفارس لا بد نائم بعد سهره ليلاً ؛ وفيم الخوف من غضب الملك إن كان الفارس قد فر بالعلم ؟ ليس العلم إلا قطعة من حرير ، وما الفارس إلا رجل جرىء معدم ؛ وإن كان كئنت قد زج به في السجن إلى حين فلسوف تستصدر له من الملك العفو سريعاً - وما عليها إلا أن تترث حتى تمر برتشارد هذه السحابة الكئيبة ثم تنقشع .

وهكذا واصلت حديثها بغير انقطاع ، وتفوهت بكل ضروب التناقضات ، وهي ترجو عبثاً أن تخدع أدِيث وتخدع نفسها بأن اللؤلؤ ينتهي إلى أذى ، ولكنها كانت الآن من صميم قلبها نادمة أحر الندم على هذا العبث الذي عبثت . وبينما أدِيث تحاول دون جدوى أن تعترض هذا السيل الدافق من الحديث العقيم ، دخلت إلى غرفة الملكة إحدى السيدات فلكت على أدِيث بصرها ، إذ كان

الموت في مرآها المروع الخائف ؛ وما إن وقع بصر أدبث على محياها حتى خرت على الأرض صريرة ، ولولا الضرورة الملحفة وعلو خلقها لما أمكنها أن تستبق على الأقل ظاهرا من رباطة الجأش .

وقالت للملكة : « مولاتي ، لا تنبسى هباء بكلمة واحدة تلفظنيها بعد هذا ، ولكن انقذى حياة .. » ثم أردفت وصوتها يختنق وهي تتكلم وقالت : « انقذى حياة إن كان للحياة من بعد هذا منجاة » .

فأجابت السيدة كالستا وقالت : « إن في النجاة لأملا ، فلقد نما إلى الآن أنه سيق إلى الملك — ولما ينته الأمر ولكن ... » ، ثم انفجرت في فيض من البكاء غزير ، كان لمخاوفها الذاتية فيه نصيب وقالت : « ولكن الأمر عما قريب ينتهي إلا إن سلكتن طريقا أخرى » .

فقال الملكة محتدة : « نذرت للقبر المقدس قنديلا من الذهب ، ولسيدتنا صاحبة عين جدة حرما من الفضة ، وللقديس «توماس أرثر» بساطا للرحمة قيمته مائة بيزنط .. » .

فقال أدبث : « هيا ، هيا يا مولاتي . ادعى القديسين إن شئت ؛ ولكن كوني أنت خير قديسة » .

فأجابت الوصيصة المرتاعة وقالت : « حقا مولاتي ، ما تقول السيدة أدبث إلا صدقا ؛ انهضى مولاتي وهيا بنا إلى سرادق الملك رتشارد نطلب العفو عن حياة هذا الرجل الفاضل » .

فقال الملكة : « إني ذاهبة ، سوف أتوجه إليه توا » ، ثم نهضت وهي ترتعد ارتعادا شديدا ، والنسوة حوالها في مثل حيرتها وارتبا كها ، عاجزات عن أن يؤدين لها تلك الخدمات التي لم يكن عنها مندوحة لهذه الزيارة الرسمية ، وتقدمت أدبث إلى الملكة هادئة رابطة الجأش ، إلا أن صفرة كصفرة الموت كانت تملو جبينها ، وناولت بيدها الملكة ما أرادت ، وسدت وحدها ما قصر فيه الوصيقات العديبات .

ولم تستطع الملكة حتى آتئذ أن تنسى ما تميزت به من الاستخفاف والاستهتار
فقالت : « أية خدمة تؤدين أيتها النسوة ، كيف ترضين أن تقوم السيدة أديث
بواجبك في الخدمة ؟ هلا ترين يا أديث أنهن لا يعملن شيئا — ما أظنني بمستطاعة
أن أتم ارتدائي في حينه ؛ لنبعثن إذن لرئيس أساقفة صور ونستخدمه لنا وسيطا .
فصاحت بها أديث قائلة : « كلا ، كلا ، بربك لا تفعل ؛ اذهبي بنفسك
يا مولاتي ، لقد صدرت عنك الإساءة وعليك محوها » .

فقالت الملكة : « إذن لأذهبن ، ولكن إن كان رتشارد لما يزل غاضبا فلن
أجرؤ على التحدث إليه ، إنه ليقتلني إن أنا فعلت ! » .

فقالت السيدة كالستا وهي خير من يعرف مزاج مولاتها : « ومع ذلك فلتذهبي
مولاتي الكريمة ، ولن ينظر إلى هذا الجبين وذاك الجسد ليث غاضب ثم يقوى
على استبقاء خواطره نائرة ، فما بالك بفارس محب شغوف كرتشارد الملك ، وما
أدنى كلمة منك إلا فريضة عليه ؟ » .

فقالت الملكة : « هل تظنين ذلك يا كالستا ؛ آه ، إنك لا تعرفين إلا قليلا
— ومع ذلك فإني ذاهبة ، ولكن استمعي إلي ؛ ماذا تعنين بهذا ! لقد كسوتني
بكساء أخضر وهو لون بغيض إلى نفسه ؛ عنى هذا ، وهات لي ثوبا أزرق واثت
لي بالبنيقة الياقوتية التي كانت بعض رداء ملك قبرص — وسوف تجدينها إما في
صندوق الحديد أو في مكان آخر » .

فقالت أديث ساخطة حانقة : « كل هذا وحياة الرجل في خطر ! إن هذا
لفرق ما يصبر عليه المرء ؛ مهلا مولاتي ، سأذهب أنا إلى رتشارد ؛ إن هذا
الأمر يهمني — وسوف أعرف إن كان يجوز العبث إلى هذا الحد بشرف فتاة
مسكينة من دمه ، وأن يُنتهك اسمها لصرف رجل فاضل عن واجبه ، والالتيان به
إلى دائرة الموت والمار ، وأن بيت مجد انجلترا ذاتها في الوقت عينه سخرية
للجيوش المسيحية قاطبة » .

وأصفت برنجاريا إلى هذه العاطفة التي تفجرت على غير انتظار ، وكاد أن يطير

لها خوفاً وعجباً ، ولكنها ، وأديث توشك أن تغادر الفسطاط ، صاحت بصوت ضعيف خافت وقالت : « أوقفها ، امنعها عن الذهاب ! » .

فقال كالستا : « حقا يجب أن لا تذهبي أيتها السيدة النبيلة أديث » وأمسكت بذراعها في لين ورفق ثم قالت : « وإني على يقين من أنك يا مولاتي الملكة سوف تذهبين ، وسوف تذهبين بغير توان بعد هذا ، ولئن ذهبت السيدة أديث وحدها إلى الملك ليثورن ثورة عنيفة ، وليبيتن رهينة غضبه الكثير من الناس » .

فقال الملكة وقد أذعنت للضرورة : « إذن لأذهبن » وتوقفت أديث عن المسير ، غير مطمئنة ، ترقب ما سوف تفعل الملكة .

وأسرع النسوة جميعاً كما أرادت أديث ، ولفت الملكة نفسها متعجلة في ملاءة كبيرة فضفاضة ، وارت بها كل ما فاتها من أسباب التجميل ، وفي هذا الستار — وأديث ونسوتها يتبعنها ، ويتقدمها ويخلفها قليل من الضباط والرجال المسلحين — خفت إلى سرادق زوجها المستأسد .

الفصل السابع عشر

لو أن كل شعرة في رأسه حياة ،
ولو أن أربعة أمثال هذه الشعرات عدا
تنضرع لكل حياة منها ،
لبنها جميعا حياة بعد حياة ،
وتناقص عديدها كالسكواكب قبل منبثق النهار ،
أو كالمصاييح توقد في المآدب
وتشع الضياء على اللاهين في منتصف الدجى
ثم ينطفئ بريقها والحافلون يفصلون !
من رواية تمثيلية قديمة

تصدى للملكة بنجاريا عند ولوجها إلى داخل سرادق رتشارد أو لثك الحجاب
القائمون على الحراسة في السرادق الخارجى ، وحقا لقد اعترضوا سبيلها باحترام
وتقدير ، إلا أنها تعطلت على أية حال ، واستطاعت أن تستمع إلى الملك وهو يأمر
من الداخل أمراً صارماً بمنع دخولهن .

فقال الملكة متوجهة إلى أدبث ، كأنها استنفدت كل ما تملك من وسائل
الشفاعة « الآن ألا ترين أنى كنت به عليمه — إن الملك يأبى أن يستقبلنا » .

وسمعن إذ ذاك رتشارد يتحدث في الداخل إلى شخص ما ويقول : « اذهب
واصدع بما تؤمر الآن أيها المولى ، فإن في هذا لرأفة بك ، ولك عشر بيزنطات
لو قضيت عليه بضربة واحدة — استمع إلى أيها الشقى ، راقبه وقل لى إن امتنع
لون خده أو فترت عيناه ، وخبرنى بأدق ما تلاحظ من لمحة في طلعتة أو طرفة في
عينه — إنى أحب أن أعرف كيف تلقى النفوس الجريئة الموت » .

وأجابه صوت أجش عميق يقول : « تالله لو رأى طبائى وهى تهتز عالية ولم
يتقهقر لكان أول من يفعل ذلك » . ولطف من حدة هذا الصوت إحساس
بالرعب لم يألفه ، وأحاله إلى نبرات أكثر خفضاً من نبراته الخشنة المعهودة .

فلم تستطع أدبث أن تلزم الصمت بعد هذا وقالت : « إذا لم تشقّ جلالتك لنفسها طريقاً فدعيني أفعل ذلك — وإن لم يكن لك ، فلي على الأقل — أيها الحجاب ؛ إن الملكة تريد أن ترى الملك رتشارد — الزوجة تريد أن تتحدث إلى زوجها » .

فقال الضابط وقد خفض عصاه « أيها السيدة النبيلة ، يحزنني أن أعترضك فيما تقولين ، ولكن جلالة الملك مشتغل بأمور فيها حياة أو موت » .
فقال أدبث « ونحن كذلك نريد أن نكلمه في أمور فيها حياة أو موت — سأجعل لجلالتك مدخلا » ، ثم أزاحت الحجاب جانبا باحدى يديها وأمسكت السجنان بالأخرى .

فقال الحجاب وقد أذعن لخدمة هذه الحسناء صاحبة الحاجة « إني لا أجرؤ على معارضة رغبة جلالتها » وألفت الملكة نفسها — والحجاب يخلى الطريق — مضطرة إلى دخول غرفة رتشارد .

وكان الملك مستلقيا على سريريه ، وعلى مقربة منه يقوم رجل كأنه يرتقب أمرا جديداً ، ولم تكن مهمته مما يشق حدسه ، فلقد كان يرتدى سترة قصيرة من القماش الأحمر لا تتدلى دون كتفيه إلا قليلا ، تاركاً ذراعيه عاريتين من منتصف ما فوق المرفق ، وكان يكسى معطفاً أو صدره بغير كم ، يرتديه فوق ذلك حين يهيم — كما هم الآن — بأداء واجبه الشاق ، وهو أشبه بمعطف الرائد مصنوع من جلد الثور المدبوغ ، ويلوث ظاهره نقط كثيرة كبيرة الحجم ولطخات حمراء قائمة ؛ والسترة والصدرة فوقها تبدليان حتى ركبتيه ، وجواربه السفلى — أو ما يغطى به ساقيه — من الجلد عينه الذى صنعت منه الصدرة ، وله تقيّة من الشعر الخشن ، يتخذها حجاباً للنصف الأعلى من وجهه الذى يشبه وجه البوم الصباح ، وتبدو عليه كالبوم الرغبة فى الاختفاء عن النور — أما النصف الأدنى من حياها فتخفيه لحية كبيرة حمراء تختلط بمخصلات مشعثة لونها من لون اللحية ، أما ما بدا من ملامحه فعليه سيما الفظاظلة وبنض الناس ؛ أما قامته فقصيرة ، ولكنه

قوى البنية ، له رقبة ثور ، وكتفان عريضتان ، وساعدان بالغا الطول لا تناسق فيهما ، وجذع كبير مربع جدا ، وساقان غليظتان عوجاوان ؛ وكان هذا الموظف الشرس يرتكز على حسام تبلغ ظبانه نحو أربعة أقدام ونصف قدم طولا ، وطول مقبضه عشرون بوصة ، وتحيط بالمقبض حلقة من خيوط الرصاص كي توازن ثقل مثل هذا السيف ، ويرتفع المقبض كثيراً فوق هامة الرجل ، وقد أسند الرجل ساعده فوق نصابه ينتظر إرشاداً جديداً من الملك رتشارد .

ولما دخل النسوة على حين غرة ، كان رتشارد مستلقياً على سريره ووجهه صوب الباب ، مرتكزاً على مرفقه وهو يتحدث إلى خادمه هذا البشع ، فارتدى على الجانب الآخر مسرعاً كأنه غاضب دهش ، وولى ظهره الملكة وحاشيتها من النسوة ، والتحف بغطاء سريره وهو يتألف من جلد ليشين كبيرين ، دبغا في البندقية بمهارة تدعو إلى الإعجاب ، حتى أصبحت أشد نعومة من جلد الغزال ، وهذا الغطاء ربما كان من اتقاء رتشارد نفسه ، أو ربما كان على الأرجح قد اختاره له حجاب له ملقاه ودهاناً .

وكانت برنجاريا كما وصفنا تعرف جيداً طريقها إلى الظفر — وأى امرأة لا تعرف الطريق إلى الظفر ؟ فبعد ما ألت نظرة عجيبة ، فيها رعب غير خاف ولا مصطنع من هذا الرفيق المروع ، رقيق زوجها وهو في مجالسه الخاصة ، اندفعت توا إلى جوار سرير رتشارد ، وخرت على ركبتيها ، وزعت ملاءتها عن كتفها ، فبدت منها جدائل شعرها الذهبية الجميلة وقد استرسلت بتمام طولها ؛ ومع أن طلعتها كانت تبدو كالشمس يشق ضياؤها ظلام السحب ، إلا أن جبينها الشاحب كانت — رغم ذلك — تبدو عليه آثار السن قد انطفأ بريقه ؛ وبهذه الصورة أمسكت يمين الملك ، وكانت يمينه وهو يستعيد رقدته التي ألف مشتغلة يجذب غطاء السرير ، ثم أخذت تجذب إليها يد الملك شيئاً فشيئاً بقوة قاومها الملك مقاومة طفيفة ، حتى تملك الساعد ، وهو دعامة العالم المسيحي ووزع المشركين المنافقين ،

ولما أن استولت على زمام الساعد بين يديها الدقيقتين الجميلتين ، ثنت جبينها عليه ولثمته بشفتيها .

فقال الملك ولما يزل منصرفاً عنها برأسه ، وإن تكن يده تحت سلطانها :
« فيم هذا يا برنجايا ؟ » .

فتمتمت برنجاريا قائلة : « اصرف هذا الرجل ، إنه يقتلني بمرآه ! » .

فقال رتشارد وما عم مشيحاً بوجهه : « اعزب عنا أيها الخادم ، فيم بقاؤك هنا ؟ وهل يليق بك أن تنظر إلى هؤلاء السيدات ؟ » .

فقال الرجل : « لتكن مشيئة مولاي » .

فأجاب رتشارد : « عني أيها الوغد ! قاتلك الله » .

ثم اختفى الرجل بعد ما رمق بنظره الملكة الحسناء وقد خلعت عنها رداءها ، وبدا للعيان جمالها الطبيعي ، وعلى شفثيه ابتسامة الإعجاب ، وبسمته أبيض إلى النفس من عبوسه المألوف وكراهيته الساخرة لبني الإنسان .

ثم قال رتشارد : « والآن ما ذا تريدن أيها المرأة الحمقاء » واستدار بجسمه في أناة وشبهه إباء نحو هذه الملكة المتضرعة .

وليس من الطبيعي لامرئ أيا كان — بله رجل كرتشارد يعجب بالجمال ويحله في المحل الثاني بعد المجد -- أن ينظر بغير عاطفة إلى طلعة مخلوق جميل كبرنجاريا وإلى ترنحه وارتجافه ، أو أن يحس بشفتيها وجبينها وهما على يده ، وقد بللتها بالدموع ، دون أن تفعم العاطفة قلبه ، فأخذ الملك يلفت نحوها محياها المسترجل شيئاً فشيئاً ، وفي عينيه الكبيرتين الزرقاوين اللتين كثيراً ما يشع منهما ضياء لا يحتمل ، كل ما وسعتا من نظرات اللين والدعة ، وأخذ يمسح برأسها الجميل ، ويرسل أصابعه الكبيرة خلال فرعها الفاتن السدول ، ثم رفع جبينها الملائكي ولثمه برفق وصاحبته تبتدى رغبتها في إخفائه في يده ؛ وهذا الجسم الضخم ، وذاك الجبين النبيل العريض ، وتلك النظرات المهية ، وذاك الساعد والكف العاريتان ، وجلود الأسد التي كان يستلقى عليها ، وذلك المخلوق الضعيف الذي خر إلى جواره على ركبتيه ،

كل هذا يصح أن يكون تمثالا لهركيوليز^(١) ، وقد اتفق وزوجه « ديمانيرا »
بعد ما وقع بينهما من خلاف .

« إنى لأتساءل ثانية ماذا تريد سيدة قلبي فى سرادق فارسها فى هذه الساعة
الباكرة التى لم تألف ؟ » .

فقال الملكة : « العفو ، العفو ، سيدى الكريم » وقد تملكها المخاوف
ثانية ، ولم يعد فى وسعها أن تؤدى واجب الشفاعة .

فسألها الملك : « فىم العفو ؟ » .

قالت : « العفو أولا عن مثولى لدى حضرتك الملكية بجرأة وبغير روية .. » .
ثم سكنت عن الكلام .

فقال الملك : « أفتقولين إنك كنت جريئة ! إذن فلشمس أن تطلب العفو
عن تسرب أشعتها خلال النوافذ إلى جب مظلم ذميم ؛ إنما أنا كنت مشتغلا
بأمر لا يليق بك أن تشهديه يا سيدتى الكريمة ، وفوق ذلك كنت لا أحب أن
تخطرى بصحتك العزيزة إلى حيث حل المرض من منذ حين » .

فقال الملكة : « ولكنك الآن بخير » وأرجأت التحدث فى الأمر الذى
كانت تحشاه .

« نعم إنى بخير ، وأستطيع أن أحطم الرمح فوق قمة رأس ذلك البطل
الجبور الذى ينكر أنك أجمل سيدة فى العالم المسيحى » .

« إذن فلن يتحدثنى هبة واحدة ليس غير ... تلك هى حياة رجل مسكين ؟ »
فقال الملك وقد قطب الجبين : « ها ! قولى ما تريدن » .

فتمتت الملكة وقالت : « هذا الفارس الاسكتلندى البائس » .

فصاح بها رنشارد عابسا وقال : « لا تتكلمى بشأنه سيدتى ، لسوف يموتن —
إن قضاءه محتوم » .

(١) هركيوليز رجل فى الحرافة اليونانية والرومانية ذو قوة عظيمة قام بالكثير من
جسيم الأعمال .

« كلا يا سيدي المليك ويا حبيب قلبي ، ما هي إلا راية من حرير قد أهملها ،
ولسوف تعطيك برنجاريا راية أخرى طرزتها بيدها ، راية ثمينة كأية راية أخرى
داعبها الريح ، سوف أحليها بكل ما أملك من جواهر ، وسوف أذرف مع كل
جوهره دمة شكر لفارسي الكريم ! » .

فعارضها الملك غضبا وقال : « إنك تهرفين بما لا تعرفين — جواهر !
أفتظنين أن جواهر الشرق جميعا تستطيع أن تكفر عن وصمة واحدة في شرف
انجارتا ، أو أن كل ما بكت نساء العالم من دمع يمحو لطفة لحقت برتشارد ؟ عنى
يا سيدتى واعرفى لنفسك مكانها وزمانها وحدودها ، أما الآن فلدينا من الواجبات
مالا تستطيعين أن تساهمي فيه » .

فهمست الملكة قائلة : « هل سمعت هذا يا أديث ؟ إنما نحن نثير كامن غضبه » .
فقالت أديث وقد تقدمت خطوة أو بعض خطوة : « ليكن ذلك ، سيدي !
أنا قريبتك المسكينة أطلب إليك عدلا ورحمة ؛ ولصوت العدالة يجب أن تفتح
آذان الملوك في كل حين وفي كل زمان وتحت كل ظرف » .

فهب رتشارد من مرقدته ، واستقام في جلسته على جانب السرير ، وأدثر بدنائه
الأحمر وقال : « هيه ! ابنة عمى أديث ؟ والله إنك لتنطقين أبدا بما ينطق الملوك ،
ولسوف أجيئك كما يجب الملوك ؛ إنك ما أتيت إلى بمطلب لا يليق بكرامتك » .
وكان جمال أديث عليه مسحة أشد فطنة وأقل شهوة مما يبدو على الملكة ،
ولكن الجزع والفرع قد رسما على محياها وميضها كانت تفتقر إليه أحيانا ، وكان
على طلعها سيبا الوقار والنشاط ، حتى لقد فرضت بمرآها السكون لحظة من الزمن
على رتشارد نفسه ، الذى كان فيما يبدو على ملاحظه يود لو يعارضها . قالت :
« سيدي ، إن هذا الفارس الكريم الذى توشك أن تريق دمائه قد أدى في حياته
خدمة للعالم المسيحي ، وإنه لم يقصر في واجبه إلا لأن مكيدة قد دبرت له في
ساعة ساد فيها لهو عقيم أخرج ؛ بُعث إليه برسالة باسم سيدة — ومالى لا أفوه
باسمها ؟ — باسمي أنا — فأغوته هذه الرسالة على أن يترك مكانه لحظة — وأى

فارس في معسكر المسيحيين لا يتخطى واجبه إلى هذا الحد انصياعا لإرادة فتاة ،
مهما كانت ضعيفة من بعض صفاتها ، فإن دم بلانتا جنت يجري في عروقها ؟ » .
فقال الملك وقد عض على شفتيه كي يكبح جراح غضبه : « وهل رأيته يا ابنة
عمي ؟ » .

فقالت أديث : « أجل لقد رأيته يا مولاي ، وليس لي الآن أن أبوح بما بعثني
على ذلك ، ولست هنا لأبري نفسي أو أعذل غيري » .
« وأنى صنعت فيه هذا الجميل ؟ » .
« في سرادق جلالة الملكة » .

فقال رتشارد : « في سرادق زوجي الملكة ! برب السماء ، وبالقديس جورج
الإنجليزي وبكل قديس صعد إلى القبة الزرقاء ، لقد أتيتن شيئا إذا ! إنني
لحظت على هذا المقاتل قحته في إعجاب به سيدة تملوه كثيرا وأغضيت عن ذلك ، ولم
أضن عليه بأن تسبغ عليه واحدة من ذوات قرباى مثل هذا الهوى وهي في عليائها
كما ترسل الشمس من علاها على الدنيا الضياء - ولكن وحق الأرض والسموات ،
كيف رضيت له أن يمثل لديك ليلا ، وفي خيمة زوجنا الملكية ! وكيف تجسرين
على أن تتقدمي بهذا معذرة له على عصيانه وإهماله في واجبه ! وروح أبي يا أديث
لتكفرن عن هذا حياتك في الدير ! » .

فقالت أديث : « مولاي ، إن عظمتك تجيز لك الظلم ؛ ولكن شرفي ،
يا سيدي المليك - كشر فك - لم يمسه أحد ، وتستطيع مولاتي الملكة أن
تشهد بذلك إن شاءت . ولكني قلت لك من قبل إنني لست هنا لأبري نفسي
أو أتهم غيري ، إنني أضرع إليك أن تمد إلي رجل ارتكب إيمه تحت تأثير
الإغراء الشديد ، تلك الرحمة التي سوف تلتمسها أنت نفسك يا سيدي المليك يوما
من حكم أعلى ولآثام ربما كانت أقل من هذى حقا بالغفران » .

فأجاب الملك بحرارة وقال : « أهذى أديث بلانتا جنت ، أديث بلانتا جنت
العاقلة النبيلة ؟ - أم امرأة مريضة بالحب ، لا تبالي بشرف اسمها من أجل

حياة عشيقها؟ والآن أقسم بروح الملك هنرى لن يصرفنى شيء عن أن آمر بأن
يؤتى بجمجمة حبيبك من المقصلة، وأن تُعلق حلية دائمة على الصليب في بيتك! » .
فقال أديث: « لو بعثت بها من المقصلة كي توضع على مرأى منى أبدا ،
فلسوف أقول إنها أثر لفارس كريم ساقه إلى الموت عنوة وجورا رجل ... » ، (ثم
كبحت جماح نفسها وقالت) : « ... رجل لا أقول عنه إلا أنه كان ينبغي أن يعرف
خيرا من هذا كيف يجزى الشهامة » ، ثم أردفت وقد زادت من حديثها وقالت :
« إنك تقول إنه كان عشيقى؟ حقا لقد كان لى حبيبا ، وحبيبا غاية فى الإخلاص ،
ولكنه لم يتقرب إلى بنظرة أو كلمة ، واكتفى بمثل تلك الرعاية وذلك الخضوع
الذى يقدمه للقديسين الرجال - ولكن هذا الرجل الطيب ، هذا الرجل الجسور ،
هذا الرجل المخلص ، ينبغي أن يموت من أجل ذلك ! » .

فهمست الملكة قائلة : « مهلا ، مهلا ، ورفقا به ، إنك إنما تريد من
الإساءة إليه ! » .

فردت أديث قائلة : « إني لا أبالى ، إن العذراء البتول لا تخشى الليث الثائر ،
لينفذ فى هذا الفارس الكريم إرادته ، فإن أديث التى يموت من أجلها تعرف
كيف تندب ذكراه ؛ ولن يكلمنى أحد بعد هذا عن حلف سياسى ويطلب إلى
عقده بهذه اليد الضعيفة ، ما كان لى - وكيف يكون لى ؟ - أن أكون له
عروسا فى الحياة ، إن بينى وبينه فى المرتبة فراسخ ، ولكن الموت يزاوج بين
الرفيع والوضيع - إني منذ الآن قرينة قبره » .

وأوشك الملك أن يجيئها غاضبا ، لولا أن راهبا من كرمل دخل الغرفة مسرعا
ورأسه مكم ، وجسمه مستتر فى عباءة طويلة وقلنسوة من القماش المخطط ذى
النسيج الخشن الذى يميز مذهبه الدينى ، وخر على ركبته أمام الملك ، وناشده بكل
كلمة وشارة مقدسة أن يقف إنفاذ الحكم .

فقال رتشارد : « أقسم بمهندي وصولجاني لقد تأمرت الدنيا على جنونى !

فكل غافل وكل امرأة وكل راهب يعترضنى فى كل خطوة أخطو ؛ كيف يعيش هذا الرجل حتى الآن ؟ » .

قال الراهب : « مولاي الكريم ، لقد توسلت إلى لورد جزلاند أن يوقف الإعدام حتى أرتعى لدى جلالتم .. » .

فقال الملك : « وهل بلغت به صلابة الرأى أن يمنحك مطلبك ؟ ولكن ما هذا إلا جانب من عناده المؤلف — والآن ماذا تريد أن تقول ؟ هيا وقل لى باسم الشيطان ! » .

« مولاي ، إن لدى لسرا عميقا — ولكنى أخفيه بحق الاعتراف — وإنى لا أجرؤ على التحدث به أو حتى على الإيماء إليه — ولكنى أقسم لك بحياتى المقدسة — بهذا الرداء الذى أرتدى ، « بإلياس » المبارك الذى وضع لنا الأساس ، وهو ذلك الرجل الذى انتقل إلى جوار ربه دون أن يعانى ما يعانى الناس من آلام الموت ، أقسم لك إن هذا الشاب قد فشا لى سرا ، إن بحت به إليك عدلت عدولا تاما عن هذه الغاية القاضية التى فرضت عليه » .

فقال رتشارد : « أبى الكريم ، إن هذا السلاح الذى امتشق الآن من أجل الكنيسة ليشهد بإجلالى لها ؛ يح لى بهذا السر ، وسوف أفعل ما أراه لاثقا فى هذا الشأن ، ولكنى لست رجلا أعمى البصيرة أعمل بغير روية إن أهاب بى رجل من رجال الدين ، لست « كيبارد » العاجز أقفز فى الظلام إذا استحثنى قس أو قسان » .

فطرح القس عنه قلنسوته وحلته الخارجية ، وكشف تحت الحلة عن كساء من جلد الماعز ، وتحت القلنسوة عن وجه استوحش ونحل من أثر الجو والصيام والتوبة ، حتى بات أشبه بصورة من هيكل عظمى تسرى فيه الروح منه بوجه الإنسان ، ثم قال : « مولاي ، لقد تقشفت عشرين عاما فى كهوف عين جدة ، حتى أضعفت هذا الجسد النديم تكفيرا عن ذنب عظيم ارتكبت ، فهل تظن أنى — وأنا ميت فى هذه الدنيا — أدبر زورا أو بهتانا أعرض بهماروحى للخطر ، أو هل

تظن أن رجلاً أقسم يمينا غليظة على أن يجانب الإثم ، رجلاً مثلي ليس له في هذه الدنيا أمل واحد يعقد به رجاءه — وذلك أن نعيد للكنيسة المسيحية بناءها — هل تظن أن رجلاً مثلي يفشى سر الاعتراف ؛ إن كليهما بغيض لنفسى .

فأجابه الملك « إذن فأنت ذلك الناسك الذى يتحدث عنه الناس كثيراً ، إنى أقر بأنك شديد الشبه بتلك الأرواح التى تسرى فى الأرض الخلاء ، ولكن رتشارد لا يخشى مarda ولا عفريتاً ؛ وما إخالك إلا ذلك الرجل الذى بعث أمراء المسيحية إليه بهذا الجارم كى تفاوض السلطان فى وقت أنا فيه طريح فراش المرض ، وأنا أول من تنبئ مشورته فى هذا الأمر ؛ فلتطمئن وليطمئنوا ، إنى لن أضع رقبتى فى سَمِّ نطاق رجل من كرملى ؛ أما رسولك فسوف يموت ، وهو بالموت العاجل أحق وأجدر بعد شفاعتك له وتضرعك » .

فقال الناسك وقد ملكت عاطفته نفسه : « بارك الله فيك يا مولاي الملك ! إنك والله لتخلق شراً ، سوف تود فى مقتبل الأيام لو أنك أفلعت عنه ، حتى ولو كلفك هذا شلواً من أشلائك . ليكن رجلاً مندفعاً أو أعمى ، ولكنى أضرع اليك أن ترفق به » .

فصاح به الملك ، وقد ضرب الأرض بقدميه : « عنى ، عنى ! لقد أشرقت الشمس على عار انجلترا ولما ننتقم له — أيتها السيدات وأيتها القس ، اعزبوا إن أردتم أن لا تسمعوا أمراً يسىء إليكم ، لأنى بحق القديس جورج أقسم ... » .

فأجابه صوت رجل دخل إذ ذاك السرادق وقال : « لا تقسم ! » .
فقال الملك : « ها ! هذا طبيبي النطاسى قد أقبل يستجدى سخاءنا » .
كلا ، إنما أطلب التحدث إليك فوراً فى أمور ذات بال » .

« أنظر أيها الحكيم إلى زوجتى ، ودعها تعرف فيك رجلاً أبقى لها زوجها » .
فأطبق الطبيب ساعداً فوق الأخرى ، ليظهر التواضع والاحترام على الطريقة الشرقية ، وأطرق ببصره نحو الأرض ، ثم قال : « ليس لى أن أنظر إلى جمال لا يحجبه قناع ، جمال يذود عنه رونقه وبهاؤه » .

فقال الملك : إذن فلتتراجى يا برنجاريا ، وأنت يا أديث تراجى كذلك ؛ كلا ، لا تعيدى على مسمى لجاجتك ! هذا ما أمتحكا : ليق نفاذ الحكم حتى تبلغ الشمس رابعة النهار - إذهبا بهذا مطمئنتين - إذهبي يا عزيزتى برنجاريا « ثم ألقى نظرة بعثت الرعب حتى فى نفس أديث قريبته الجريئة وقال : « اذهبي إن كنت حكيمة » .

فانسحب النسوة ، أو قل خففن من السرادق ، وقد نسين المراتب والرسوم وهن كسرب الطير البرى نزل به باز منذ حين فاختلط الحابل فيه بالنابل .
عدن من هنا إلى سرادق الملكة ، كي يسترسلن فى أسفهن ومهاترتهن ، وليس فى هذا أو ذاك ما يجدى . وكانت أديث وحدها من بينهن تستخف بضروب الأسمى هذه التى ألفن ، فوفقت بخدمة الملكة لا تتهد ولا تبكى ولا تنبس بكلمة لوم أو تأنيب ، وقد أبدت الملكة - لضعفها - أسفها ، فى نزوات كنزوات الجنون شديدة على النفس ، وفى صيحات حارة كأنها عليلة آدتها العلة ، وفى غضون ذلك كانت أديث تقوم بخدمتها بكل ما وسعت من جهد ، بل وبكل ما فى نفسها من حب .

وقالت « فلوريس » إلى « كالستا » رئيستها فى خدمة الملكة « محال أنها أحبت هذا الفارس ؛ إنا كنا خاطئات ؛ ما هى إلا آسفة على قضائه كما تأسف على غريب حلت به المصائب من أجلها » .

فأجابتها زميلتها ، وهى أكثر منها خبرة وأشد تأديبا « صه ، صه ؛ هى من ذلك البيت الفخور ، بيت بلاتاجنت ، الذى ما يقر أبناؤه قط بأن الأذى يحزنهم . قد يصيب الواحد منهم جرح مميت يدمى حتى الموت ، ولكنك تربته مع ذلك يضمده أخدasha خفيفة يكابدها أقرانه من ذوى القلوب الواهنة - فلوريس ! لقد أخطأنا خطأ كبيرا ؛ وإنى من جانبى أود لو بذلت كل ما أملك من جواهر لو أصبحت فكاهتنا هذه كأنها لم تكن » .

الفصل الثامن عشر

هذا أمر يتطلب من الشمس والمشتري وساطة الكواكب ،
ولكن هذين النجمين العالين
بأنفيهما شامخان ، وفي الخيال سابخان ،
وما أكثر ما يكلفانا
حتى ينصرفا عن فلكيهما ،
وينزلا لرعاية الأحياء .

اليومازار

سار الناسك خلف النسوة من سرادق رتشارد ، يتبعن كما يتبع الطفل شعاعاً
من الضياء حينما تنطلق السحب على وجه الشمس ؛ ولما بلغن الباب أدار وجهه
ورفع يده نحو الملك يحدده ، ووقف وقفة التهديد والوعيد وهو يقول : « الويل
لمن ينبذ مشورة الكنيسة وينصرف إلى « ديوان » الكفرة الدنس ! أيها الملك
رتشارد ، إنى لنا أنفض التراب عن قدمي وأفضل عن مقامك — والسيف لما
يهو — وإنما هو معلق بشعرة — أيها الملك الغطريس ، سوف نلتقي ثانية »
فرد عليه رتشارد وقال : « ليكن ذلك أيها القس الغطريس ، وأنت في جلد
الماعز أشد صلفاً من الأمراء في لباس الكتان الأرجواني الرقيق » .
ثم اختفى الناسك عن الفسقاط ، وأردف الملكُ موجهها خطابه للعربي وقال :
« هل للدراويش في الشرق أيها الطبيب الحكيم مثل هذه الألفه مع الأمراء ؟ »
فقال (أدنك) مجيباً : « الدرويش إما حكيم أو مجنون ، وليست هناك
طريق بين بين لمن يلبس « الخرقة » ويسهر الليل ويصوم النهار ، ولنا فهو إما حكيم
يستطيع أن يتأدب ، ويحرص وهو في حضرة الأمراء ، أو رجل لا يحمل تبعه
ما يفعل لأن الله لم يمنحه نعمة العقل » .
فقال رتشارد : « يخيل إلى أن أكبر رهباننا قد اتخذوا لأنفسهم هذه الصفة

الأخيرة ، ولكن دعنا من هذا ولنتكلم فيما أتيت من أجله ، كيف لي أن أدخل السرور على نفسك أيها الطبيب العالم ؟ »

فامثل الحكيم للملك امتثاله الشرق الخاشع ، وقال : « أيها الملك العظيم ، اسمح لخادمك أن ينبس بكلمة واحدة لا يموت بعدها ، إني أذكرك أنك مدين للوسطاء من الكواكب — ولا أقول لي ، فما أنا إلا أداة لها خاضعة ، أفيد منها وأنفع الأحياء وأرد لهم حياة . . . » .

فعارضه الملك قائلاً : « وأنا أكفل لك أن أجزيك حياة بحياة ، فهل هذا ما تريد ؟ » .

فقال الحكيم : « هذى ضراعتي المتواضعة للملك رتشارد العظيم — هي حياة هذا الفارس الكريم ، الذي قضى عليه بالموت من أجل إثم كذلك الذي ارتكب آدم أبو البشر » .

فعبس الملك قليلاً وقال : « وهلا ذكركت حكمتك أيها الحكيم أن آدم قد مات من أجل خطيئته » ثم شرع ينقل الخطى في حيز فسطاطه الضيق ، وقد غلبه الانفعال وأخذ يحدث نفسه ، ثم قال : « رحماك اللهم ، لقد عرفتُ فيم أتى حينما دخل الفسطاط ! هنا حياة واحدة بأئسة حكم عليها عدلاً بالإعدام ، وأنا ذلك الملك المقاتل الذي قتل الألوف بأمر منه ، والعشرات بيده ، ليس لي سلطان على تلك الحياة ، مع أن شرف سلاحى وبيتى ومليكتى قد لوئته جريمة الآثم — وحق القديس جورج إن هذا ليضحكنى ! — وبحق القديس « لويس » إنه ليذكرنى بقصة « بلندل والقصر المسحور » حيث وقفت في وجه الفارس البائس أشكال وجسوم متتابعة لا شبه بين بعضها وبعض ، ولكنها جميعاً تناصبه فيما أراد العداء ، ما إن اختفى واحد منها حتى بدا له آخر — زوجة ، ثم قريبة ، ثم ناسك ، ثم حكيم ، — إذا ما انهزم منهم واحد تصدى للدفاع آخر — ماذا ؟ والله إني إذن لفارس أوحد ينازل حشداً بأسره في ساحة الوغى — ها ! ها ! ها ! ، ثم أخذ رتشارد يضحك ضحكات عالية ، وبدأ فعلاً يبدل من حال نفسه حالاً أخرى ،

لأنه كان في حنقه عادة شديدا عنيفا بحيث لا يستطيع أن يبقى كذلك طويلا .
وإذ ذاك رناه الطبيب بنظرة دَهْشَة لا تخلو من الازدراء والاستخفاف ، لأن
أهل الشرق لا يتسامحون في مثل هذه التغيرات المتقلبة في المزاج ، ويظنون
الضحك الصراح - مهما كان الطرف - محطا بكرامة الرجل ، ولا يليق إلا بالنساء
والأطفال ؛ وأخيرا لما أن استقرت نفس الملك ، خاطبه الحكيم وقال :
« إن حكم الموت لا يصدر عن شفتين ضاحكتين - وما يخال خادمك إلا
أنك قد منحت الرجل حياته » .

فقال رتشارد : « لك أن تنال الحرية لألف أسير عوضا عنه ، ولك أن تعيد
من شئت من بنى جلدتك إلى خيامهم وأهلهم ، وسوف أمتحك هذا بغير توان ،
ولكن حياة هذا الرجل لا تجديك شيئا ، وقد صدر فيها القضاء واتتهى الأمر »
فقال الحكيم وقد مد يده إلى قلنسوته : « إن حياتنا جميعا إلى الضياع ،
ولكن الإله الأعظم الذى وهبنا الحياة بنا رحيم ، وهو لا يسلبنا وداعه عنوة
وبغير أوان » .

فقال رتشارد : « وهل لك صالح خاص في التوسط بينى وبين إنفاذ العدالة
التي أقسمت لها كملك على رأسه تاج ؟ » .

فقال الحكيم : « إنك أقسمت أن تقيم الرأفة كما تقيم العدل ، وإنما أنت
أيها الملك العظيم ترمى إلى تنفيذ إرادتك الخاصة ، وتعلم أن حياة الكثير من
الرجال تتوقف على جودك بالعفو في هذا الأمر الذى أتضرع إليك فيه » .

فقال رتشارد : « أفصح عن القول ، ولا نظن أنك سوف تفرض على إرادتك
بباطل دعواك » .

فقال أدنبيك : « ما أبعد خادمك عن هذا ، ولتعالمن إذن أن الدواء الذى
تدين له بالشفاء أنت يا سيدي الملك وكثيرون غيرك ما هو إلا طلسم ، تألف والسماء
في برج خاص ، ونجوم السماء ميمونة الطالع ، ولست إلا رسولا لفضائله ، أغمسه
في قدح من الماء ، وأرقب الساعة التى تليق بالمريض أن يتناوله فيها ، ثم تفعل الجرعة
فعلها بما فيها من قدرة على الشفاء » .

فقال الملك : « أندر بهذا من دواء وأنجع به ! ولما كان بوسع الطبيب أن يحمله في حقيبته ، فإنه يوفر عليه قافلة بأسرها من البعير قد يحتاج إليها لحل العقاقير والأدوية — وإني لأعجب إن كان هناك غير هذا الدواء دواء يتعاطاه الناس » .

فأجاب الحكيم في رزانه وغير اضطراب يقول : « لقد كتب على الناس ألا يسيثوا إلى الدواب التي تحملهم من ساحة القتال ؛ ولتعلم أن أمثال هذه التمام يمكن حقا أن تُسطر ، ولكن قلّ من النطاسيين من جرؤ على الانتفاع بفضائلها ؛ إذ أن الحكيم الذي يستخدم هذا الضرب من العلاج ينبغي له أن يتعرض لقيود شديدة وشروط أليمة ، وللصوم والتكفير العنيف ؛ ولو فاتته أن يشفي ما لا يقل عن إثني عشر شخصا كل شهر إهمالا منه ، أو جبا للدعة والراحة ، أو لاسترساله في الشهوات الحسية ، فإن مزية هذه الهبة الإلهية تسقط عن التيممة ، ويتعرض الطبيب ومريضه الأخير كلاهما لنكد الطالع يحل بهما سريعا ، ولن يبقى بعد الحول أحدهما على قيد الحياة ؛ وقد بقيت لي حياة واحدة أبلغ بها العدد المضروب » .

فقال الملك : « اذهب أيها الحكيم الكريم إلى المعسكر حيث تجد هناك الكثير ، ولا تفكر في أن تسلب جلادى أسراه ، فإنه لا يليق بطبيب له مكاتك أن يتدخل في عمل غيره ، وفضلا عن ذلك فإنني لا أرى كيف أن إنقاذ جرم من الموت الذي يستحق يُتم لدوائك هذا المعجز قصته » .

فقال الحكيم : « إن استطعت أن تربني كيف أن جرعة من الماء البارد قد جلبت لك الشفاء حيث باءت بالفشل أنفس العقاقير ، إذن فلك أن تفكر في العجائب الأخرى التي تتعلق بهذا الأمر ؛ أما أنا فلست قنينا بهذا العمل العظيم ، إذ أني لست هذا الصباح حيوانا دنسا ، وإذن فلا توجّه إليّ بعد هذا سؤالاً ، وحسبك أن تعرف أنك إن استبقيت لهذا الرجل حياته إذعانا لرجائي ، أنقذت خادمك ونفسك أيها الملك العظيم من خطر جسيم » .

فأجاب الملك قائلا : « استمع إلي يا « أدنيك » ، إني لا أعترض على الأطباء براوغون في الحديث ويزعمون أنهم يستمدون من النجوم علما ، ولكنك

حينما تريد رتشارد بلا تاجنت على أن يخشى خطرا ينزل به من طيرة سقيمة ، أو لإيهال في المواصفات ، فلسبت تخاطب رجلا سكسونيا جاهلا ، أو امرأة عجوزا خرفة تتخلى عن هدفها لأن أربنا يعبر الطريق ، أو لأن غرابا أسخم ينعب أو قطا يعطس»
فقال أدنك : « ليت بوسى أن أقف بينك وبين ريبتك فيما أقول ، ولكن ليعلم سيدى المليك أن الحق على لسان خادمه ؛ هل ترى عدلا أن تحرم الدنيا وكل بائس يعاني مما أصابك أخيرا من آلام ألزمتك الفراش ، من نفع هذه التيممة ذات الفضل العظيم ، ولا تمد عفوك إلى رجل واحد آثم بائس ؟ هل ترى يا جلالة الملك أنك — وقد استطعت أن تقتل الألوف — لاتستطيع أن ترد إلى رجل واحد صحته ؛ إن للملوك لقوة الشيطان على التعذيب ، وللحكماء قدرة الله على الشفاء ، إن كنت لا تستطيع أن تفعل الخير للإنسانية فذار أن تقف في سبيلها ؛ إنك تستطيع أن تفصل الرأس عن الجسد ، ولكنك لاتستطيع أن تعالج سنا موجهة .»

وتكلف الحكيم في حديثه نغمة الترفع ، بل الإشراف والتسلط ، فشد الملك من أزر نفسه وقال : « إن هذه لقحة منك ، بل وأكثر من قحة ، لقد اتخذناك لنا طبيبا لا ناصحا ولا على الضائر قائما .»

فقال الحكيم : « وهل هكذا يرد أعلى أمراء الفرنجة فضلا أصاب شخصه الكريم ؟ » وبدل من وقفته الخاشعة الدلييلة ، التي وقف حتى ذاك متضرعا إلى الملك ، ووقفه الشامخ الأمر ، ثم قال : « فلتعلم إذن أنى سوف أذيع في كل بلاط في أوروبا وآسيا — لكل مسلم ونصراني ، ولكل فارس وسيدة — وحيثما يضرب على وتر أو يمتشق حسام — وأنى يستحب الشرف ويمقت الخزى والعار — أن الملك رتشارد جحود ضيق الفكر ، وستبلغ فضيحتك هذه كل بلد لم يسمع باسمك — إن كان هناك منها ما هو كذلك ! »

فأجاب رتشارد وقد أفجح في خطاه نحوه غاضبا وقال : « هل هذه شروط تشرطها على أيها الرجل ؟ هل كللت من حياتك ؟ » .

فقال الحكيم : « دق عنق ! إذن ليخسن عملك قدرتك أكثر مما تستطيع كلماتي ، وإن كان لكل منها لدغ الزنبور » .

فأشاح رتشارد عنه بوجهه هائجا ، وقد أطبق ساعديه ، وعبر السرادق من جانب إلى آخر كما فعل من قبل ، ثم صاح : « جحود ضيق الفكر ؟ إذن فلتصمني بالجبن والكفر ! — أيها الحكيم ، لقد أعطيت سؤالك ، وإني وإن كان خيرا لي أن تطلب إلى جواهر تاجي ، ليس لي فلك أن أنكر عليك ما أردت ؛ خذ هذا الاسكتلندي إذن تحت حفظك ، وسيسلمك إياه السجنان على هذه البينة » :
ثم خط مسرعا سطرًا أو سطرين وسلمهما إلى الطبيب .

ثم قال : « واستخدمه لديك عبداً رقيقاً ، وتصرف في أمره كيفما شئت — ولكن حذره من أن يأتي تحت بصر رتشارد ؛ استمع إلي ، فأنت رجل حكيم ، إنه جاوز المرأة بين أولئك اللاتي نودع شرفنا في جميل محياهن وضعف كلمهن ، كما تودعون أنتم أهل الشرق كنوزكم في صناديق من سلوك الفضة دقيقة رقيقة تحيوط الشمس » .

فاستعاد الحكيم لتوه في أسلوب خطابه ذلك الاحترام الذي بدأ به وقال : « إن خادمك يدرك كلمات مليكة . إذا تلوث البساط النفيس أشار الأحمق إلى ما يشوبه ، وستره الرجل الحكيم بعباءته ؛ لقد سمعت ما يريد مولاي ، وما سمعي إلا طاعة » .
فقال الملك : « خير له أن يُبقي على سلامته ، وألا يظهر في حضرتي بعد هذا — هل هناك أمر آخر أستطيع أن أدخل به السرور على نفسك ؟ » .

فقال الحكيم : « والله لقد ملأ الملك بسخائه كأسى حتى حافتها . أجل لقد كان جودك غزيرا كتلك العين التي انبثقت وسط نخيم بني إسرائيل حينما ضرب موسى بن عمران الحجر بعصاه » .

فقال الملك باسمًا : « أجل ولكن هذا الجود قد تطلب — كما تطلبت الصحراء — ضربة قوية فوق الصخر قبل أن يُخرج ما به من كنوز ، والله لو ددت لو أني عرفت ما أسرك به ، إذن لو هبتك طائماً كما تلفظ العين الطبيعية ماءها » .

فقال الحكيم : « دعني ألمس هذه اليد الظافرة ، ليكون في ذلك دليل على أن أدنك الحكيم ، لو طلب بعد هذا إلى رتشارد ملك إنجلترا مطلباً ، فله أن يفعل ذلك على أن يتوسل ويضرع فيما يريد » .

فأجاب رتشارد قائلاً : « لك يدي وقفازها فوقها أيها الرجل ، ولكنك إن استطعت أن تتم قصة مرضاك سليمة دون أن تطلب إلى أن أنقذ من العقوبة من حقت عليه ، لدفعت إليك ديتني في صورة أخرى ، وأنا أشد رغبة وأكثر اختياراً » .

فأجاب الحكيم قائلاً : « مد الله في أيامك ! » ثم خرج من الغرفة بعد ما امثل خاضعاً خاشعاً كما ألف .

ولما هم بالرحيل ، نظر إليه الملك رتشارد نظرة لا تتم عن الرضا بكل ما فات . ثم قال : « ما أعجب هذا الحكيم في إصراره ، وما أغرب هذه الفرصة التي ساقته كي يتدخل بين ذلك الاسكتلندي الجريء وبين ما حق عليه من جزاء هو الحق ، ولكن ليعش هذا الرجل ! فإنه شجاع يستحق الحياة — والآن ما بال ذلك النمساوي — ها ! هل بارون جلزلاند خارج الفسطاط ؟ » .

وما إن صاح الملك هكذا بتوماس دي فو ، حتى هروول وأظلم مدخل السرادق يجسمه الضخم ، ووراءه ناسك عين جدة بصورته الوحشية ، متلفعاً في عباءة من جلد الماعز ، يتسلل كأنه طيف من الأطياف ، لم يدعه للمثول أحد ولم يعارضه أحد . ولم يلحظ رتشارد وجوده ، فصاح بالبارون في صوت مرتفع وقال : « أي سر توماس دي فو صاحب (لانركست) و (جلزلاند) ، أصعب معك البوق والمنادي ، واذهب توا إلى خيمة ذلك الذي يسمونه أرشدوق النمسا ، وارتقب حتى يكون احتشاد فرسانه وأتباعه حواليه على أشده — وهو ما سيكون ، على ظني ، في هذه الساعة ، لأن هذا الخنزير الألماني يتناول طعام الإفطار قبل الصلاة — وامثل لديه بقليل من الاحترام بقدر ما تستطيع ، وأهمه باسم رتشارد ملك إنجلترا بأنه قد اختطف هذا المساء بيده ، أو بيد غيره ، راية إنجلترا من فوق عضاها ، ثم

قل له إنا نريد — قبل أن تنقضى ساعة بعد هذه اللحظة التي أحدثك فيها — أن يعيد الراجية بكل احترام ، وأن يعيدها بنفسه مصحوباً بكبار الأمراء المحيطين به برؤوس عارية وبغير ثياب الشرف ؛ وأنه فوق ذلك ينبغي أن يضرب إلى جوار رايثنا من ناحية رايته — راية النمسا — مقلوبة ، كأنها أشينت بالسرقة والخيانة العظمى ، وأن يضرب من الناحية الأخرى رمحاً يحمل رأس ذلك الرجل اللعين الذي نصح له بهذه الإساءة الدنيئة ، وقل له إنه إن قام بإفناذ إرادتنا هذه في حينها ، فسوف نغفو عن خطاياه الأخرى ، حفظاً لليمين التي أقسمنا ، ومراعاة لخير الأرض المقدسة » .

فقال توماس دي فو : « وماذا لو أن دوق النمسا أنكرك كل صلة له بهذا العمل السيء الأثيم » .

فأجاب الملك قائلاً : « إذن فقل له إنا سوف نثبته على جثمانه — أى والله ، حتى ولئن كان بطلاه الجريثان بنصرته ؛ إنا سوف نثبت عليه هذا ونحن كالفرسان على ظهور الخيل ، أو ونحن راجلين ، في الفلاة أو في الميدان ، وله أن يختار الزمان والمكان والسلاح كما يريد » .

فقال بارون جازلاند : « فكر يا مولاي في سلامة الله والكنيسة ، وفي أولئك الأمراء المشتغلين بالحرب الصليبية المقدسة » .

فأجابه رتشارد وقد نفذ منه الصبر : « فكر أنت يا مولاي الكريم كيف تصدع بأمرى ، والله إني لا أخال الرجال يظنون أنهم سوف يصرفوننا عن مرمانا بأنفاسهم ، كما تنفخ الأطفال الريش فتطوح به هنا وهناك — سلامة الكنيسة ! — بربك قل لي من ذا الذي يرعى لها حرمة ؟ ، إن سلامة الكنيسة بين الصليبيين معناها محاربة العرب ، وقد هادنهم الأمراء ، وفي هدوتهم قضاء على سلامة الكنيسة ، وفضلاً عن ذلك هلا ترى كيف أن كل أمير منهم يرمى إلى غرضه الخاص ؟ فسوف أقصد أنا كذلك إلى مرماى ، وما ذاك إلا الاحتفاظ بشرفي ؛ وما أتيت إلى هنا إلا من أجل الشرف ، فإن لم أنه على حساب الأعراب ، فلا أقل من ألا أضيع

ذرة منه من أجل هذا الدوق الخسيس ، حتى وإن تحصن واحتمى بكل أمير في الحرب الصليبية .

فهم دى ثو بالانصراف إذعانا لأمر مليكه ، ولكنه هز بكتفيه ، إذ أنه — لصراحة طبعه — لم يستطع أن يخفى أن مشيئة الملك لا تتفق وما يرى ؛ ولكن ناسك عين جده تقدم إلى الأمام ووقف وقفة رجل يحس بملو مرتبته على مراتب الملوك ؛ وحقا لقد كان بزيه الخشن الجلدى ، ولحيته وشعره الأشعث غير المشذب ، وملاحمه الهزيلة الوحشية الموحجة ، وتلك النار التي توشك أن تكون نار الجنون تشع من تحت حاجبيه الكثرين ، كان بكل هذا أشبه ما يكون بالصورة التي ترسم في أذهاننا عن هيئة نبي من أنبياء الكتاب المقدس ، وقد كُلف برسالة عالية يبلغها ملوك (يهودا) أو بنى إسرائيل الآثمين ، فهبط من ثنايا الصخور وظلام الكهوف التي كان يقطنها منعزلا فريدا ، كي يخزي الظالمين فوق الأرض وهم في معمران كبريائهم ، وذلك بأن ينزل بهم من رب السماء سخطه وتقمته ، كما يرسل من السحاب الصواعق يسوقها وينزلها فوق الحصون والقصور ، قمها وبروجها . وكان رتشارد مهما — اشتد عناده وصلابته — يحترم الكنيسة ورجالها ، ولئن ساءه دخول الناسك سرادقه فلقد حياه — رغم ذلك — باحترام وإجلال ، ولكنه أشار إلى سر توماس دى ثو في ذات الوقت أن يسارع برسالته .

ولكن الناسك ، بالإشارات والنظرات والكلمات ، منع البارون من أن يسير في رسالته هذه ذراعا واحدة ، ورفع ساعده العارية — وقد سقطت عنها عباءة جلد الماعز — وانظرحت إلى الخلف من عنف حركته — وهزها إلى أعلى ، وهي من قلة الغذاء نحيلة ، ومن أثر السياط في تكفيره الشديد جريحة . ثم قال :

« باسم الله وأيدنا الذى يتقدس فى السماء ، وباسم خليفة الكنيسة المسيحية فى الأرض ، أنا أنهى عن هذا التحدى الدموى الوحشى الدنس بين أميرين مسيحيين ، ترسم على كتفيهما العلامة التى أقسما تحتها ليحافظان على الإخاء . الويل لمن يحنث فى هذى اليمين ! أى رتشارد ملك أنجلترا ، ارجع عن هذه الرسالة التى

حملتها هذا البارون ، فإنها حرام ما بعده حرام — إن الخطر والموت على كذب منك — والخنجر مصوب نحو حلقك — ! » .

فأجاب الملك شامخا بأنفه وقال : « الخطر والموت زميلان يلعب معهما رتشارد ، وكم من ضربة سيف لم يكثر لها ، فهو لا يخشى بعد هذا الخناجر » .

فقال الكاهن مجيبا : « الخطر والموت منك قريان » ، ثم انخفضت نفثات صوته ، وأصبحت جوفاء كأنها من غير هذه الدنيا وقال : « وبعد الموت الحساب ! » .
فقال رتشارد : « أيها الأب الصالح المقدس ، إنى أجل شخصك وطهارتك — » .

فعارضه الناسك وقال : « لا تجلسنى ، وإنما أجل من قبلى أدنى حشرة تحرف على شيطان البحر الميت وتطعم على مدرها الكريه ، وأجل ذلك الذى أبلغك أمره — أجل ذلك الذى أقسمت لتنقذن قبره — وأجل يمين التضامن التى أقسمت ، ولا تقطن خيط الوحدة والإخلاص الفضى الذى ربطت نفسك به مع زملائك الأمراء » .

فقال الملك : « أيها الأب الصالح ، إنما أنتم رجال الكنيسة تزعمون لأشخاصكم المقدسة — إن جاز لرجل علمانى أن يقول بهذا — شيئا من الكرامة ، وإنى — دون أن أنازعكم حقكم فى السيطرة على ضمائرنا — أرى أنه يجدر بكم أن تتركونا نسهر على شرفنا » .

فكرر الناسك لفظ الملك وقال : « نزعم لأنفسنا ! ليس لى أيها الملك رتشارد أن أزعم ، وما أنا إلا جرس مطواع فى يد خادم الكنيسة — ما أنا إلا بوق لا يحس ولا قيمة له ، يبلغ صوت ذلك الذى ينفخ فيه ؛ انظر لى ، هأنذا آخر أمامك على ركبتى متضرعا إليك أن ترأف بالعالم المسيحى وبأنجلترا وبفسك ! » .

فقال له رتشارد وقد أكرهه على الوقوف : « انهض من مكانك ، انهض . لا يليق بركبتيك اللتين جثوت عليهما لله كثيرا أن يمسا الأرض إجلالا لإنسان من البشر . أى خطر ذلك الذى يرتقبنا أيها الأب المبجل ؟ ومتى كانت قوة

انجلترا بهذه الذلة بحيث تنزعج ، أو يأبه ملكها ، لهذا الشعب الصاحب بشيره غضب هذا الدوق المحدث ؟ » .

« لقد أرسلت النظر من برجي فوق الجبل إلى جيوش النجوم في السماء ، وكل واحد منها ينبس بالحكمة للآخر وهو يدور دورته في منتصف الليل ، وينطق بالعلم للقليل من بني الإنسان الذين يدركون أصوات النجوم . مولاي الملك ، إن في (منزل الحياة) عدوا لك يتربص بكرك وبرفاهيتك — وينبعث من زحل نذير يتهددك بالخطر العاجل الدامى ، وإن لم تسلم جيروت إرادتك لحكم الواجب فسيسحقك سرعيا ، وأنت في عنفوان كبرك وصلفك » .

فقال الملك : « عني ، عني ، إن هذا إلا علم المشركين ، علم لا يمارسه المسيحيون ولا يصدق به الحكماء — وإنما أنت أيها الرجل الهرم تهرف وتقول هراء » .

فأجاب الناسك قائلا : « أنا لا أهرف يارتشارد ، ولست بالرجل السعيد ، وإنما أنا أعرف حالي ، وأعرف أنى ما فتى لى شعاع من نور العقل أستخذه لا لنفسي ، وإنما لصالح الكنيسة ورفع الصليب . أنا ذلك الرجل الأعمى الذى يحمل النور لغيره ولا يستضيء به ؛ سلتى عما يتعلق بخير العالم المسيحي والحرب الصليبية أحدثك كأحكم ناصح ما فارقت لسانه قط الهداية والإرشاد ، وحدثنى عن حياتى التعسة تجد كلماتى كلمات المعتوه النبوذ ، وما أنا إلا كذلك » .

فقال رتشارد وقد خفض من نعم كلامه وأسلوب حديثه : « لن أفصم عرى الوحدة بين الأمراء الصليبيين ، ولكن أية معذرة يقدمون لى للظلم والإهانة التى عانيت ؟ » .

« وفى ذلك أنا على أهبة أن أتحدث إليك ، وقد فوضنى فى هذا الشأن المجمع ، بعد أن التأم على عجل — بدعوة من فيليب ملك فرنسا — وأصدر فى هذا الأمر قراره » .

فأجاب رتشارد : « عجيب أن يتشاور الآخرون فى أمر هو من حق جلالة انجلترا الجريحة ! » .

وأجاب الناسك بقوله : « هم يريدون أن يتعرفوا مطالبك إن أمكن هذا ، وهم جميعا متفقون على أن راية إنجلترا ينبغي أن ترد إلى جبل سنت جورج ، ويجبون أن يحكموا بالإدانة والحرم على ذلك الآثم الجريء - أو أولئك الآثمين الجسورين - الذين انتهكوا حرمتها ، وسيعلنون عن ثواب جزيل لمن يفضح جرم الآثم ، ثم يقدمون لحمه طعاما للذئاب والغربان » .

فقال رتشارد : « وما رأى في دوق النمسا الذي تلابسنا أقوى الظنون بأنه هو الذي فعل ذلك الصنيع ؟ » .

فرد عليه الناسك قائلا : « إن دوق النمسا سوف يخضع لما يفرض عليه بطريق بيت المقدس من محن ، كي يزيل ما يحيط به من الظن والريبة ، وذلك كي لا ينشب في صفوف الجيش خلاف » .

فقال الملك رتشارد : « وهل بالنزال يرى نفسه ؟ » .

فأجاب الناسك : « إن اليمين التي أقسمتَ تحرم عليه ذلك ، وفضلا عن هذا فإن جميع الأمراء ... » .

فعارضه رتشارد وقال : « إن مجمع الأمراء لا يبيح قتال الأعراب ولا قتال أحد من غير الأعراب ؛ حسبك هذا أيها الأب ، لقد أبت لي عن الخطأ في متابعة هذا الأمر كما رسمتُ من قبل . والله لأقرب إليك أن توقد في حمأة الأمطار مشعلك من أن تستخرج من هذا الجبان ذى الدم البارد شرارة من نار ؛ إن النمسا لن تنال شرفا ، ولذا فلندعه وشأنه - ولكني - مع ذلك - سوف أجعله يحنث في يمينه ، وسوف ألح في امتحانه - والله لسوف يضحكني أن أستمع إلى أصابعه تطلق حينما يقبض على كرة الحديد المصهورة ! - أي نعم لسوف يضحكني أن أرى فيه الكبير يتشقق ، وحلقه ينتفخ من الاختناق وهو يحاول أن يتلع الخبز المقدس ! » (١) .

(١) كانوا في العصور الوسطى يعرضون المتهم لهذه المحن وأشباهاها ، فإن أصابته بسوء فهو آثم ، وإن نجا منها سليما فهو بريء .

فقال الناسك : « مهلا ، مهلا يارتشارد ، هدى نائرة نفسك خجلا إن لم يكن إحسانا ! من ذا الذى يمدح أو يكيل الشرف للأمرء الذين يسبون ويشلبون بعضهم بعضاً؟ وأسفاه على مخلوق نبيل مثلك ، شب على خواطر الملوك وجسارتهم ، وخليق به أن يشرف العالم المسيحي بعمله ، وأن يحكمه بحكمته ، وهو أهدأ منك الآن مزاجا . وأسفاه على رجل مثلك يصيبه غضب الأسد الهمجي المتوحش ، ممزوجا بالوقار والإقدام وهما من صفات ملك الغاب ! » .

ولبت لحظة يتدبر ويتأمل وعيناه صوب الأرض ، ثم استأنف حديثه وقال : « ولكن الله الذى يعرف عجز طبائنا ، يتقبل منا طاعتنا على تقصها ، وقد استأخر نهاية حياتك الجريئة الدامية ، ولكنه لم يعدل عنها . لقد وقف ملك الموت ساكنا — كما وقف فى قديم الزمان إلى جوار المكان الذى كان يدق فيه (أرونا جيوست) الحنطة — ويده ظبابة مجردة ، سوف يكون بها عما قريب رتشارد قلب الأسد وضيقاً كأحط فلاح من المزارعين » .

فقال رتشارد : « وهل نهايتى هكذا قريبة جدا ! إذن ليكن ذلك . اللهم إن كانت حياتى قصيرة فلتجعلها مضيئة مستنيرة » .

فقال الرجل صاحب الخلوة ، وكأن دمة — وهى له زائر غير معهود — كانت تتجمع فى عينه البراقة الجافة : « وأسفاه أيها الملك النبيل ! إن المدى الذى يفصل ما بينك وبين القبر مظلم ، عليه سمات الفناء والنكبة والأسر ، والقبر فاغر فاه ليلتلعك ، وهو قبر سوف تُوارى فيه دون أن يعقبك خلف ، أو يذرف عليك شعبك الدمع رثاء عليك ، وقد أنهكته بحروب موصولة غير مقطوعة ، ولم تمد فى علم رعيتك أو تفعل شيئاً يزيد من سعادتها » .

« ولكن حياتى لم تحل من بعض الصيت أيها الراهب ، ولم تحرم دمعات المرأة التى أحب ! وإن فى هذا لعزاء لرتشارد حتى مماته ، عزاء لا تستطيع أنت أن تعرفه أو تدركه » .

فأجاب الناسك فى نبرة كان لها — مدى برهة من الزمن — رنين أشبه ما يكون

بنبرة رتشارد نفسه وحميته ، وقال : « أنا لا أعرف ذلك ، ولا أستطيع أن أدرك قيمة ما يمتدحك به الشعراء ، وما لحب غادتك من قدر ! » ثم واصل حديثه وقد مد ذراعه الهزيلة وقال : « أي ملك أنجلترا ، إن الدم الذى يغلى فى عروقك الزرقاء ليس أشد نبلا من ذلك الذى يركد فى عروقي ، ولئن كانت قطرات دمي قليلة فهي من دم (الوزجنان) الملكى — هي من دم (جدفرى) البطل المقدس . أنا (ألبريك مرثمار) — أو لقد كان هذا اسمي حينما كنت فى هذه الدنيا » .

فقال رتشارد : « أنت ذلك الرجل الذى تتمسّدق بذكره الأبواق ! أفهذّا صحيح ؟ وهل يجوز ذلك ؟ هل يمكن لضوء كضوءك أن يهبط من أفق الفروسية ، ويبقى — مع ذلك — الناس وهم بالسكان الذى استقر فيه هذا الضياء جاهلون ؟ » .

فقال الناسك : « لئن بحثت عن نجم إذا هوى ، ما وجدت إلا سديما قائما كانت له — وهو يشق الأفق — صورة زاهية بهية برهة من الزمن . أى رتشارد ، تالله لو كنتُ بتمزيق الحجاب الدامى ، الذى أستر به سرّاً مفزعا أستطيع أن أطأطأ قلبك الشامخ لنظام الكنيسة ، إذن لألفيتُ فى صدرى قصة أقصها عليك ، وقد أقيمتها حتى الآن تقرض فى عروق الحياة فى الخفاء ، وأنا كالشاب الوثنى الذى كرس لدينه قلبه . اصغ إلى إذن يارتشارد ، جعل الله للأسمى واليأس — وهما لن يجديانى فتىلا — من القوة ما يجعلها مثلا لكائن مثلك ، كائن هو رغم توحشه نبيل شريف ؛ نعم ، لأكشفن عن جراح لبثت فى الخفاء أمداً طويلا ، لأكشفن عنها رغم أنها ربما تدمى حتى أموت وأنا فى حضرتك ! » .

ثم أخذ الملك رتشارد يستمع — وكله احترام — إلى موجز قصة فيها ما يكفى للإبانة عن سبب شبه الجنون الذى أصاب ذلك الإنسان الفريد البائس ؛ وقد كان لتاريخ (البريك مورثمار) على رتشارد فيما مضى أثر قوى فى سنيّه الباكرة ، حينما كان المنشدون يملأون قاعات أيه طربا وسرورا بما يروون من قصص عن الأرض المقدسة .

وقال الناسك : « لستُ بحاجة إلى أن أخبرك بأنى كنت كريم المولد ، سعيد الطالع ، قوى السلاح ، حكيم المشورة ، فلقد كنت كذلك ، ولكن بينما كان أنبل السيدات في فلسطين يتسابقن : أيهن تضر الأكاليل لرأسي ، كان حبي معقوداً بفتاة من مرتبة وضيعة انعقاداً لا يحول ولا يلين ، هي فتاة أبوها جندي قديم من جنود الصليب ، رأى ما بين قلبينا من عاطفة ، وعرف ما بيننا من فرق ؛ فلم ير لشرف ابنته ملاذاً غير أن يسوقها إلى ظل الدير . ولما عدت من حملة بعيدة محملاً بفنائم الشرف ، ألفت سعادتي وقد تهدمت إلى أبد الأبدان ! . فقصدت أنا كذلك إلى الدير ، ونفخ الشيطان في قلبي — وكان يظنني من أتباعه — نفساً من من روح الكبرياء ، وما إخاله إلا منبعثاً من أعماق جحيمه ، وارتفعتُ إلى مرتبة عالية في الكنيسة ، كما ارتفعت في الدولة من قبل — ولقد كنت حقاً رجلاً حكيماً مستقلاً منزهاً عن الخطأ ! — وأنسى لي أن أخشى الإغراء ؟ ياويلتي ! لقد بت معرفاً^(١) للراهبات ، وبين هاتيك الراهبات ألفت تلك التي أحببت طويلاً ، وفقدت من زمن بعيد . ربك إلا أغنيتني عن الاعتراف بأكثر من هذا ! — إن راهبة ساقطة كفرت عن إثمها بالانتحار ترقد هادئة في لحدها في عين جدة ، وفوق قبرها يتمم ويئن ويزار مخلوق لم يبق له من العقل إلا ما يكفي لأن يجعله يحس بشقائه كل الإحساس ! » .

فقال رتشارد : « أتعس بك من رجل ! إني لن أعجب لبؤسك بعد هذا ؛ قل لي كيف خلصت من الحكم الذي يقضى به الشرع في مثل جرمك هذا ؟ » .
فقال الناسك : « سل في هذا رجلاً ما برح شغوفاً بهذه الدنيا المريرة يحدثك عن حياة بقيت لأسباب خاصة ولا اعتبار النسب الكريم ، ولكن إن سألتني أنا يارتشارد أقل لك إن العناية الإلهية قد أبقتني كي ترفعي إلى العلا مناراً وهدى ، وبعد ما يحترق مني هذا الوقود الدنيوي تتبدد رفاقي في النار . هذا الجسد الذي تراه ذواياضامراً يسرى فيه روحان ، أحدهما فعّال ثاقب نافذ يدفع عن قضية

(١) المرثف هو النفس الذي يعترف له المسيحيون بخطاياهم .

الكنيسة في بيت المقدس ، والآخـر وضيع حقير بائس ، يتذبذب بين الجنون والبؤس ، يبكي شقائى ويسهر على الآثار المقدسة ، والآثار التي إن أنا رمتها بعينى كنت آتما جارما . بربك لا تشفق على ! إن هو إلا إثم إن تشفق على ضياع شيء دنى كهذا — لا تشفق على وأفد من مثالى . أنت تقف فوق أعلى قمة يشغلها أمير مسيحي ، ولذا أنت في أشد المواقف خطراً . أنت متكبر في نفسك ، متهاون في حياتك ، دام في يدك ، أبعد عنك الذنوب التي هي منك بمثابة البنين ؛ أنف من صدرك هذا الغضب وذلكم الكبرياء والترف والتعطش للدماء ، مهما تكن هذه العواطف عزيزة على الإنسان الآثم فيك ! » .

فتحول رتشارد يبصره عن هذا الرجل الناسك ، والتفت إلى دى فو ، كأنه أحس ببعض الألم من هذا التهم الذي لم يستطع له ردا ، وقال : « إنه يهذى ! ثم التفت إلى الناسك في سكينه وهدهوء ، وفي شيء من الازدراء والاستخفاف ، وقال : « إنك قد وجدت أيها الأب المبجل مربيا من حسان البنات (١) لرجل لم يتزوج إلا منذ أشهر قلائل ، ولما كان من واجبي أن أبعدهن عن ظل بيتي ، فقد زودتهن بأزواج يليقون بهن ، كما يفعل الآباء بيناتهم ، فتخلت عن كبريائى لشرف الكنيسة الكريم ، وعن ترفى — كما تقول — لرهبان الدير ، وعن تعطشى للدماء لفرسان المعبد » .

فأجابه الناسك وقال : « إن لك قلبا من الصلب ، ويدا من الحديد ، لا يجديهما نصح أو مثال ! — ومع ذلك فلسوف نعطيك فرصة من الزمن ، ربما تحولت بعدها وفعلت ما يرضى الله في سمائه — أما أنا فيبغى لى أن أعود إلى مكاني — رحماك اللهم ! أنا ذلك الرجل الذى تحترقه أشعة الرحمة الإلهية — كما تحترق أشعة الشمس العدسة الحارقة ، ثم تتجمع فوق جسم آخرى فتشتعل الجسم وتآهب ، بينما تبقى العدسة باردة ما بها أثر — رحماك اللهم ! لقد نبذت الغنى المادية ، فللفقير أن يتقدم — رحماك اللهم ! » .

(١) مشيراً إلى التهم التي وجهها إليه الناسك .

ولم يكديتم حديثه حتى انطلق من السرادق يصيح صياحا عاليا ؛ وهذه الصيحات الجنونية من الناسك محت من ذهن رتشارد شيئا من الأثر الذي تركه تفصيل ما ضيه وأرزائه الخاصة ، فقال الملك : « تالله إنه لقس معتوه ! اتبعه يا دى فو ، وراقبه كي لا يصيبه أذى ، لأننا وإن كنا صليين ، إلا أن للشعوذين سوقتنا تقدير فوق تقدير القس أو القديس ، وربما ألحقت به السوقة بعض المهانة . »

فصدع الفارس بالأمر ، وأفسح رتشارد لتوه في المجال للخواطر التي أوجت بها نبوءة الراهب الساذجة ، فقال محدثا نفسه : « هل أموت عاجلا ولا يخلفني من بعدى ولد ، ولا يبكي على باك ؟ » . أثقل به من حكم ، والحمد لله على أنه حكم لم يصدر عن قاض كفاء قدير ؛ ومع ذلك فالأعراب ، الذين بلغوا الذروة في علم الروح ، كثيرا ما يقولون إن الله — الذي ليست حكمة الحكماء في تقديره إلا حمقا وجهلا — يوحى بالحكمة والكهانة في ثنايا الخيل البادية على المعتوهين من الرجال . إن ذلك الناسك يقال عنه كذلك إنه يقرأ النجوم ، وهو فن كثيرا ما يُمارس في هذه البلاد التي كانت فيها جيوش السماء من قديم الزمان موضع العبادة . وددت والله لو أني سألته في شأن ضياع رايتي فليس (تَشْبِيَتْ) المبارك ذاته مؤسس مذهبه بأكثر منه صراحة وسذاجة ، أو يتكلم مثله بلسان أشبه ما يكون بلسان نبي — والآن ما ذا رأيت يا دى فو ، وما خبر هذا القس المعتوه ؟ » .

فأجاب دى فو قائلا : « هل تقول عنه يا مولاي إنه قس معتوه ؟ والله إنى لإخاله أشبه ما يكون (بالعمدان) نفسه حينما خرج من القفر مباشرة ، لقد اعتلى آلة من الآلات الحربية ، وأخذ من فوقها يعظ الجند موعظة لم ينطق بها منذ بطرس الناسك إنسان ، وقد دُعر المسكر من صياحه ، فتجمع الخلق حوله ألوفا ألوفا ، وهو بين الحين والآخر يحيد عن مجرى حديثه الأول ، ويخاطب الشعوب العديدة كلا بلسانه ، ويرميهم بأحسن ما يستفزهم من برهانه كي يثابروا على تخليص فلسطين » .

فقال الملك رتشارد : « وحق هذا النور إنه لناسك نبيل ! ماذا عسى أن

يصدر من دم (جدفري) غير ذلك؟ هل هو من السلامة يائس لأنه عاش بالحب في سالف أيامه؟ لأطلبين إلى البابا أن يبعث إليه بالمغفرة الكاملة، ولن أكون أنا نفسي أقل رغبة في أن أتوسط له، حتى وإن كانت معشوقته الحسناء من الراهبات» .

وإذ هو يتحدث كذلك إذا بأسقف صور يلتمس المثول لديه، كي يرجوه أن يحضر — إن سمحت له صحته — جلسة سرية سوف يعقدها زعماء الصليبيين، وكي يشرح له الحوادث الحربية والسياسية التي وقعت إبان مرضه .

الفصل التاسع عشر

إذن فلنغمد سيوفنا ولما ترل ظافرة ،
ولترجع إلى الورااء بخطانا بعد أن سرنا بها قُدُما ،
ووطأنا بها طريق المجد صعدا ،
فوق رقاب الخصوم .
ولنترزع من فوق أكتافنا زرد الحديد ،
وقد أفسمنا أغلظ الأيمان في بيت الله لنحملته ،
بينا لم توفى ،
كوعد الحاضنات لأطفالهن في القرى ،
يهدثهم به حيناً ،
ثم من بعد لا يذكرن .

من مأساة « الحروب الصليبية » .

كان أسقف صور خير رسول لا بلاغ رتشارد نبأ لو سمعه الملك قلب الأسد
من رجل آخر ما أطاق سمعه دون أن ينفجر غضبا انفجارا لا حد له ، وحتى هذا
الأسقف الحكيم الجليل لم يكن باليسير عليه أن يغرى الملك بالإصغاء إلى ذلك
النبا الذى هدم كل آماله في استرداد القبر المقدس بقوة السلاح ، والفوز بتلك
الشهرة التى كان صوت العالم المسيحى قاطبة يتأهب لمنحه إياها كبطل الصليب .
ولكن بلاغ الأسقف كان يتبين منه أن صلاح الدين كان يجمع قوى قبائله
المائة جميعا ، وأن ملوك أوروبا - وقد كانوا من قبل لكثير من بواعث هذه
الحملة كارهين ، هذه الحملة التى دلت الأيام على أنها مغامرة شديدة ، والتى كان
خطرها يتفاقم يوما بعد يوم - قد اعزموا أن يتنحوا عن مقصدهم ، وشد من
أزرهم فيما قصدوا إليه ممثل فيليب ملك فرنسا ، الذى أعرب عن عزمه على العودة
إلى أوروبا ، بعدما قدم البرهان على احترامه لأخيه ملك إنجلترا ، وأكد أنه سوف
يطمئن على سلامته قبل الرحيل ؛ وبات على مثل هذا العزم تابعه الأكبر أمير
شبانيا ، وليس عجيبا أن يرحب ليوبولد أمير النمسا - وقد ألحق به رتشارد الذلة

والإهانة — بفرصة تمهد له هجران هذه الحرب التي كان يُعدّ خصمُه المتصالف لها زعيما؛ وأعلن الآخرون مثل هذه النية، حتى بات جليا أن ملك إنجلترا إن أحب البقاء فسيخولونه، ولا معين له غير أولئك المتطوعين الذين قد ينضمون إلى الجيش الإنجليزي في مثل هذه الظروف السيئة، وغير معونة غير أكيدة يقدمها كثراد منتسرا والجنود من رجال المعبد ورجال القديس يوحنا، وهؤلاء جميعا — رغم أنهم قد أقسموا ليظهرن حربا على الأعراب — كانوا على الأقل لا يقلون عن سواهم غيرة من أي ملك أوروبي تتم له الغلبة على فلسطين، حيث كانوا، من قصر النظر ومن سياسة تقوم على حب الذات، يطمعون في إنشاء ولايات مستقلة لهم.

ولم يحتج الأسقف إلى نقاش طويل كي يبين لرتشارد حقيقة موقفه، وبعدها انفجر الملك نائرا غاضبا أول الأمر — استوى على مقعده هادئا ساكنا؛ وبنظرات كثيية ورأس مطأطأ، وذراعه على صدره منطبقتان، أخذ يصغي للحجج التي أدلى له بها الأسقف على استحالة مواصلة الحرب الصليبية بعد تخلي أقرانه عنه، بل لقد أمسك الملك عن اعتراض الأسقف، حتى حينما بلغت بهذا الرجل الجراءة على أن يلعب في عبارة مترنة إلى أن اندفاع رتشارد كان من الأسباب القوية التي بقضت الأمراء في الحملة.

فنظر رتشارد نظرة كثيية، وابتسم ابتسامة حزينة، وأجاب قائلا: «إني أقرّ أيها الأب الوقور، بأنه ينبغي لي في بعض الظروف أن (أعترف بخطئي)، ولكن ليس شديدا على أن ألقى على ضعف جبلتي مثل هذا الجزاء، وأن يُقضى عليّ، لثورة أو ثورتين انفجرت بهما لانفعال طبيعي في نفسي، بأن أرى مثل هذه الثمار النفيسة، ثمار المجد لله والشرف للفروسية، تتبدد قبل أن تتجمع؟ — ولكنها سوف لا تتبدد — أقسمت بروح المنتصر الجبار لأرفعن الصليب فوق بروج بيت المقدس أو ليرفعن فوق قبر رتشارد!»

فقال الأسقف: «لك أن تفعل هذا، ولكن لن تراق بعد اليوم في هذا الصراع قطرة واحدة من دماء المسيحيين».

فقال رتشارد : « إنك يا سيدي الأسقف تتحدث عن الصلح — ولكن
دماء الكلاب النافقين ينبغي كذلك أن تتوقف عن السريان والتدفق » .

فأجاب الأسقف قائلاً : « حسبنا فخاراً أن نستخلص من صلاح الدين بقوة
السلاح ، وبما يوحيه ذكرك من تقدير ، شروطاً نسترد بمقتضاها القبر المقدس
توا ، ونفتح للحجاج الأرض المقدسة ، ونضمن لهم سلامتهم بقوى الحصون ،
وفوق هذا وذاك نؤكد سلامة المدينة المقدسة بأن يمنح رتشارد لقب ملك بيت
المقدس وحاميه » .

فطائر الشرر من عيني رتشارد بدرجة غير مألوفة وقال : « كيف هذا ! أنا !
أنا — أنا أكون ملك المدينة المقدسة وحاميا ! إن هذا إلا النصر عينه ، ولن
نكسب بالظفر في القتال أكثر من هذا ، بل وقل أن نبلغ هذا بقوانا المشتتة
التي لا إرادة لها . ولكن صلاح الدين ما برحت له مآرب يرمى إلى الاحتفاظ بها
في الأرض المقدسة ، أليس كذلك ؟ » .

فأجاب الأسقف : « إنما يحتفظ بها كملك شريك وحليف ، أقسم ليخلصن
لرتشارد العظيم — وإن شئت فقل لصهره بصلة الزواج » .

فدهش لهذا الخبر رتشارد دهشة أقل مما كان يتوقع الأسقف وقال : « بصلة
الزواج ! ها ! — أي نعم ، أنت تعني أدبث بلانتاجنت ، هل نما إلى هذا في حلم
من الأحلام ؟ أم هل نبأني به إنسان ؟ والله إن عقلي ما يزال من أثر الحمى مضطرباً
ثأراً ضعيفاً — ترى من ألمع لي بهذه الصفة الحمجية ؟ آلاسكتلندي ، أم الحكيم ،
أم ذلك الناسك المقدس ؟ »

فقال الأسقف : « الراجح أنه ناسك عين جدة ، لأنه جاهد في هذا الأمر
كثيراً ، ومذ تبين له تبرم الأمراء ، وأن تشتت قواهم أمر لا مناص منه ،
أكثر من الاجتماع بالمسيحيين والمسلمين للتشاور معهم ، كي يمهد لهذا الصلح الذي
يحقق للعالم المسيحي جانباً على الأقل من أغراض هذه الحرب المقدسة » .

فتطير الشرر من عيني رتشارد وصاح عاجبا : « امرأة من دى لرجل مسلم
- ها ! »

فسارع الأسقف إلى صرفه عن غضبه وقال :
« لا ريب أنه ينبغي لنا أن نحصل أول الأمر على رضا البابا ، وسوف يفاوض
أبانا المقدس في هذا ذلك الناسك القديس المعروف في روما » .
فقال الملك : « كيف يكون هذا قبل أن يصدر منا الرضا والقبول ؟ »
فقال الأسقف وفي صوته نغمة التهدة والإيعاز : « كلالن يكون ذلك إلا
بتصديق خاص منك » .

فقال رتشارد : « تريدون رضاي عن زواج فتاة من دى لرجل من المنافقين ؟ »
ولكنه كان يتكلم بنغمة تلمس فيها الشك أكثر مما تلمس اللائمة الصريحة على
هذا المقترح ، ثم قال : « والله ما حملت بمثل هذا التآلف حينما وثبت من مقدم
سفنتي ووطأت أرض سوريا كما يثب الليث لفريسته ! والآن - ولكن دعني
من هذا ، وواصل حديثك فسوف أستمع إليك صابرا » .

وقد سُرَّ الأسقف حين ألقى مقصده من الملك أشد يسرا مما كان يخشى ،
فبادر إلى عرض الأمثلة لرتشارد من أشباه هذا التحالف في أسبانيا مما لم تتم بغير
رضا السدة البابوية ، وإلى سرد المزايا العديدة التي سوف يظفر بها العالم المسيحي
من توثيق العرى بين رتشارد وصلاح الدين برباط له كل هذه القداسة ؛ فضلا
عن ذلك كان الأسقف يتكلم بحماسة شديدة وروح ديني عن احتمال اعتناق
صلاح الدين للمسيحية لو تم هذا الحلف المقترح » .

فقال رتشارد : « وهل أبدى السلطان ميلا إلى اعتناق المسيحية ؟ إن كان
هذا كذلك ، فليس على وجه الأرض ملك أمنحه يد قريبتى ، بل أختى ، قبل أن
أقدمها لصاحبي صلاح الدين النبيل - أى والله ، حتى وإن جاء الأول يقدم التاج
والصولجان تحت قدميها ، وجاء صلاح الدين خالي الوفاض لا يملك غير سيفه الكريم
وقلبه الطيب ! » .

فقال الأسقف مراوغاً بعض المراوغة : « لقد استمع صلاح الدين إلى معلمينا المسيحيين ، وأصغى إلى شخصي الضعيف كما أصغى إلى غيري ، ولما كان يصغى صابراً ، ويجيب هادئاً ، فما إخال ذلك إلا لأنه كان ينتزع نفسه كما ينتزع الميسم من النار ، ولقد قيل : « ما أعظم الحق وما أشد سلطانه » وفضلاً عن ذلك فإن ناسك عين جدة - وهو ذلك الرجل الذي قلما صدرت عنه كلمات لم تثمر - على يقين تام بأن بين الأعراب ومن إليهم من المشركين رأياً بأن هذا الزواج سوف يكون له أثره ؛ إنه يقرأ مسالك النجوم ، ولما كان يقطن ، زاهداً في شهوات الجسد ، في تلك الأماكن المقدسة التي وطأها القديسون في قديم الزمان ، فقد تلبس بروح (أليجا تَشَيْت) مؤسس مذهبه المبارك ، كما تلبس بها من قبل (اليشع) الرسول حينما نشر فوقه عباءته .

وأصغى الملك رتشارد للحجج التي أدلى بها الأسقف بعين كسيرة ، ونظرة كلية .

ثم قال : « إنى لا أستطيع أن أقول ما شأن هذا بي ، ولكنى أظن أن هذه الآراء الباردة ، آراء أمراء العالم المسيحي ، قد أصابتنى كذلك بفتور روحي ؛ لقد انقضى وقت لو أن رجلاً علمانياً تقدم لي فيه بمثل هذا الحلف لطرحت أرضاً - ولو تقدم لي به رجل من رجال الكنيسة لبصقت في وجهه على أنه كافر ومن قساوسة (بعل) ، ولكن هذا الرأي منهم الآن ليس غريباً على مسمى ، وإنى لأقول : ما لي لا أسعى في إخاء العربي ومحالفته ، وهو رجل شجاع عادل كريم ، يجب عدوه الفاضل ويجله ، كأنه له صديق ، بينما يتنحى أمراء العالم المسيحي عن جانب حلفائهم ويهجرون قضية الله والفروسية الطيبة ؟ ولكنى سوف أتمالك الصبر ولا أفكر بعد فيهم ، لن أقوم بعد هذا إلا بمحاولة واحدة كي أبقى على تماسك هذه الأخوة السامية إن أمكن ذلك ، ولو فشلت فيها ياسيدي الأسقف ، فلنتحدث معاً في أمر مشورتك ، التي لا أقبلها الآن في الظرف الراهن ولا أنبذها كل التبذ . هيا بنا إلى المجمع يا سيدي - إن الوقت يناديننا . إنك تقول إن رتشارد مجول

متفطرس — سوف تراه يذل نفسه كذلك العشب الوضع الذى يشتق منه لقبه .

ثم خف الملك يساعده رجال غرفته الخاصة ، وارتدى صدره وعباءة سوداء لونها رسمى ، ولم يلبس من شارات الأبهة الملكية غير حلقة من ذهب يطوق بها رأسه ، ثم سارع وأسقف صور كي يحضر المجمع الذى كان منعقدا ينتظر قدومه كي يبدأ جلسته .

وكان السرادق الذى يلتئم فيه المجمع فسطاطا فسيحا ، تنتشر أمامه راية كبيرة عليها شارة الصليب ، وأخرى ترسم عليها امرأة جاثية على ركبتها ، شعرها غير ممشوط ، وزياها غير مهندم ، قصد بها أن تمثل كنييسة بيت القدس المقفرة المنكوبة ، وكانت تحمل هذا الشعار : « لاتس محتك » ، ووقف لدى هذا الفسطاط جماعة من الحراس عنى باختيارهم ، وأخذوا جميعاً أمكنة بعيدة عن السرادق كي لا يتسرب الجدل — وكان أحيانا يعلو ويعصف — إلى آذان غير تلك التى أريدت به .

وفى هذا المكان اجتمع الأمراء الصليبيون ، ولبثوا ينتظرون قدوم رتشارد ؛ وحتى هذا التأخير الوجيز الذى اعترض رتشارد ، فسره خصومه تفسيراً لا يرضيه ، وأخذوا يتداولون فيما بينهم أمثلة عديدة من تكبره واستعلائه عليهم استعلاء لا مبرر له ، حتى إن هذا التأخير الراهن القصير ، الذى لم يكن للملك مندوحة عنه ، قد سبق مثالا لذلك ، وأخذ الرجال يجاهدون فى تأييد بعضهم بعضاً فى هذه الآراء السيئة عن ملك إنجلترا ، ويررون الأخطاء التى ارتكبوها من قبل بالبالغة فى أتفه الأمور ؛ وربما كان ذلك كله لأنهم كانوا يحسون بتقدير غريزى لهذا الملك البطل ، تقدير يتطلب لمغالبته مجهوداً غير عادى .

ولذا فقد قر بينهم الرأى على أن يستقبلوه حين مقدمه بقليل من الرعاية ، ولا يولونه احتراماً أكثر من مجرد ما ينبغى للمحافظة على حدود الحفاوة الباردة ؛ ولكنهم ما إن رأوا تلك الهيئة النبيلة ، وتلك الطلعة الملكية وعليها أثر من

شحوب المرض الذى انتابه أخيرا ، وتلك العين التى أطلق عليها المنشدون اسم النجم اللامع فى مواقع القتال والظفر ، وما إن هاجمت ذا كرتهم مآثره التى تكاد تفوق شجاعة الإنسان وطاقة البشر ، حتى هب مجمع الأمراء جميعا فى آن واحد — وحتى ملك فرنسا الفيور ، ودوق النمسا المكتئب المستاء هبًا راضيين — وانفجر الأمراء الحاشدون جميعا فى صوت واحد مهللين هاتفين : « سلام الله على الملك رتشارد ملك إنجلترا ! — وليحى قلب الأسد الجسور ! » .

وبجيبين واضح جلي كشمس الصيف المشرقة ، أخذ رتشارد ينثر شكره يمنة ويسرة ، وهنأ نفسه على عودته ثانية بين إخوانه أمراء الحرب الصليبية . ثم خطب الحاشدين وقال : « إنه كان يريد أن يقول كلمة موجزة حتى وإن تكن فى أمر — كمثل — تافه زهيد ، مخاطرا بتأجيل تشاورهم فى صالح العالم المسيحى بضع دقائق ، وبإيقاف تقدمهم فى مشروعهم المقدس » .

فعاد الأمراء المجتمعون كل إلى مقعده ، وسار بينهم جميعا سكون عميق . واستطرد ملك إنجلترا الخطاب وقال : « اليوم عيد كبير للكنيسة ، وما أجدر رجلا مسيحيين — فى مثل هذا الظرف — أن يزيلوا ما بينهم وبين إخوانهم من خصومة ، وأن يعترف كل منهم بخطئه ؛ أيها الأمراء النبلاء وآباء الحملة المقدسة ، إن رتشارد إلا جندى ، ولقد كانت يده أبدا أخف من لسانه — وقد ألف لسانه خشن اللفظ — ولكنى أتوسل إليكم أن لا تنتحوا عن الغرض النبيل الذى قصدتم ، عن تخليص فلسطين ، لما يُلقى بلا تاجنت من كلام طائش ، ويعمل من فعال تخرج عن اللياقة ؛ بالله لا تنبدوا حسن الذكر فى الدنيا والخلاص فى الآخرة — ولكم هنا مجال لإحرازهما إن كان للإنسان أن يحرزهما — من أجل جندى قد يكون عجولا فى فعاله ، شديدا فى كلامه كالحديد الذى لبسه منذ نعومة أظفاره . إن كان رتشارد قد قصر فى حق أحدكم ، فرتشارد سوف يعوض ذلك بالفعل واللفظ — أى أخى ملك فرنسا النبيل ، هل كان من سوء طالى يوما أن أسأت إليك ؟ » . فأجاب فيليب وعليه جلال الملك : « إن جلالة فرنسا لا تطلب الكفارة من

جلالة إنجلترا « ، ثم صافح بيده يد رتشارد — وقد مدّها إليه — وقال : « ومهما يكن رأيي في شأن مواصلة ما شرعنا فيه ، فهو رأي يقوم على أسباب نشأت عن حال مملكتي ، ولا ريب في أنه لم يقم على غيرة أو بغض لأخي المليك أشجع الشجعان » .

ثم سار رتشارد نحو دوق النمسا ، وفي نفسه مزيج من الصراحة والوقار ، بينما نهض ليوبولد من مقعده ، وكأنه كاره ، وتحرك كما تتحرك الآلة الميكانيكية يتوقف مسيرها على دافع خارجي ؛ وقال الملك : « إنما دوق النمسا يحسب أن لديه ما يبرر استيائه من ملك إنجلترا ، وملك إنجلترا يرى أن لديه من الأسباب ما يدعو إلى الشكاية من النمسا ، إذن فليتبادلا العفو حتى يبقى السلم في أوروبا ، ويبقى التضامن بين هذه الصفوف سليما لا ثلثة فيه ؛ نحن الآن جميعا نصراء لراية أعلى مجدا من أية راية رفرفت يوما أمام أمير من أمراء هذه الدار الفانية ، تلك هي راية الخلاص ؛ فلا تجعلوا إذن للإحزن سبيلا إلى قلوبكم ، من أجل هذا الرمز ، رمز شرفنا في الدنيا ، وليرد ليوبولد علم إنجلترا إن كان تحت سلطانه ، وسيقول رتشارد إنه نادم على طبعه العجول الذي حدا به أن يسىء إلى علم النمسا ، ولن يبعثه على هذا القول غير محبته للكنيسة المقدسه » ، فوقف الأرشدوق ساكنا مكتئبا غير راض ، حاسر الطرف مطأطيء الرأس ، يكتم في نفسه الغضب ، ويمتنع الوجل وخشية الشذوذ أن ينفس عن نفسه بكلمة .

فسارع بطريق بيت المقدس إلى تلم هذا السكون وتلك الحيرة ، وشهد لأرشدوق النمسا بأنه قد برأ نفسه يمين غليظة من كل علم مباشر وغير مباشر بالاعتداء الذي لحق براية إنجلترا .

فقال رتشارد : « إذن فلقد أسأنا إلى الأرشدوق النبيل أشد الإساءة ، ونحن نطلب إليه العفو عن آتهامنا إياه بالعدوان والجبن ، ونمد إليه يدنا إشارة إلى تجديد السلم والمودة بيننا — ما هذا ؟ دوق النمسا يرفض يدنا هذه العارية كما رفض من قبل قفازنا الحديدي ؟ ماذا ! ألسنا له أقرانا في السلم ولا أعداء في القتال ؟ ليكن

ذلك ، ولسوف نعدُّ ضعف تقديره لنا وحطه من مكانتنا كفرارة لأى صنيع ربما اندفعنا إليه ساعة ونحن في حمية الغضب ، وسنعد الأمر بيننا بهذا قد انتهى .
وبعد أن أتم حديثه ، أشاح بوجهه عن الأرشدوق وعليه من علامات الوقار والحشمة أكثر مما عليه من الازدراء والاستخفاف ، وترك الدوق — وقد بدا عليه الفرج بعد ما صرف الملك عنه بصره — كالتلميذ المكتئب الشارد عن الدرس حينما يصرف عنه معلمه القاسى نظرتة .

« أى إيرل شيماني النبيل — أى مركيز منتسرا الأمير — أى رئيس الفرسان الأعظم الجسور — اعلّموا جميعاً أنى هنا نائب معترف بخطئى ، فهل منكم من له على إدانة ، أو من يطلب منى ترضية ؟ » .

فقال كتراد صاحب اللسان الناعم : « والله إني لا أدرى على أى أساس نقيم إدانتك ، اللهم إلا إن كان ملك إنجلترا يأخذ من إخوانه فى الحرب الساكنين كل صيت كانوا يطمعون فى إحرازه من هذه الحملة » .

وقال رئيس فرسان المعبد : « لو سألتنى أن أدبتك فأدانتى إياك أشد وأخطر من إدانة مركيز منتسرا لك ، وقد تظنون أنه لا يليق براهب عسكري مثل أن يرفع صوته حين يبقى العدد العديد من الأمراء صامتين ؛ ولكن الأمر يخص صفوفنا جميعاً ، ومهم ملك إنجلترا هذا النبيل — كما بهم غيره — أن يستمع إلى رجل يدينه علانية فى وجهه تبهم هناك الكثير من الناس ممن يكيلونها له كيلا فى غيبته ؛ نحن جميعاً نحمد ونحمد فى ملك إنجلترا شجاعته ورفيع أعماله ، ولكننا يسوءنا منه أن يستولى أبداً فى كل ظرف على السبق والرفعة علينا جميعاً ، وليس يليق بالأمراء المستقلين أن يستكينوا لذلك ؛ نحن نسلم راضين بالكثير لبيساته وغيرته وثروته وسلطانه ؛ ولكن ذلك الذى يختطف منا كل شئ على أنه حق من حقوقه ، ولا يترك لنا شيئاً يمنحه إيانا عن رضا وطواعية ، يحط بنا من مرتبة الأحلاف إلى مرتبة الخدام والأتباع ، ويعتم فى أعين جنودنا ورعيتنا بريق نفوذنا ، إذ يرون أننا لا نباشره مستقلين ؛ وحيث أن رتشارد الملك قد سألنا أن نصدقه ، فينبغى له أن لا يدهش أو بغضب إن سمع رجلاً حرّمت عليه أبهة الدنيا ،

وليس للسلطان الدنيوى لديه وزن إلا بمقدار ما يزيد به من نجاح بيوت الله وإذلال الأسد الذى يتجول هنا وهناك يبحث عمن يفترس - أقول يجب ألا يدهش أو يغضب إن استمع إلى رجل مثلى يصدقه القول ردا على سؤاله ، وهو ذلك القول الحق ، الذى يؤيده بقلبه فى هذه الآونة التى آحدث فيها إلى كل مصغ لى ، مهما كظم صوته احترامُ المليك .

وبينا كان رئيس الفرسان الأعظم يهاجم مسلك رتشارد هذه المهاجمة المباشرة ، التى لا يسترها من اللفظ طلاء ، علا الدم فى وجنتى الملك علوا شديداً ، وتمتم الحاضرون إثر الخطاب بالرضا ، مما كان يدل أوضح دلالة على أنهم يكادون جميعاً يؤيدون هذه التهم ، وأحسنى الملك هذا ، بل كاد يقتله كمدأ ، ولكنه مع ذلك رأى بثاقب بصره أنه إن استسلم لما فى قلبه من ضعيفته ، وأطلق نفسه على سجيئتها ، أعطى ذلك المدعى الحذر حقاً له عليه ، وهو أهم ما كان يرمى إليه رئيس فرسان المعبد ، ولذا فقد لبث رتشارد صامتا - رغم شدة وقع الحديث على نفسه - إلى أن أتم دعاء « أبانا الذى فى السماء ... » سرا ، وهى الطريقة التى نصح له قسيسه باتباعها كلما أوشك الغضب أن يملك منه زمام نفسه ، ولما هدأت نائرة الملك ، شرع يتكلم كلاماً لا يخلو من نغم مرير ، وبخاصة فى مستهل الخطاب ، قال :

« هل بلغ الأمر هذا المبلغ ؟ وهل بلغ من إخواننا ألم النفس حداً يجعلهم يلحظون ضعف مزاجنا الطبيعى ، وغلظتنا فى التعجل والغيرة اللذين قد يدفعا لنا أحياناً إلى إصدار الأمر حينما يضييق الوقت عن عقد المجلس للتشاور ؟ ما كنت أحسب أن الإساءة - إن كانت عارضة وبغير إصرار سابق - تجدها فى قلوب أحلافى مرتعاً خصيباً فى هذه القضية المقدسة التى نسمى لها ، وأنهم من أجلى يسقطون المحراث من أيديهم ، بعد ماخط الأخدود حتى قرب نهايته ، وأنهم من أجلى يحيدون عن الطريق المستقيمة التى تؤدى إلى بيت المقدس ، والتى بسلامتهم شقوها ؛ حقاً لقد كنت أخدع نفسى حينما كنت أظن أن خدماتى القليلة ترجح أخطائى الطائشة - وأنكم إن ذكرتم أنى خففت إلى الطليعة مهاجماً فما نسيتم أنى كنت أبدأ فى

ذيل المقهورين - وإني إن رفعت رايتي فوق بلد مقهور ، فإن في ذلك لكل الجزاء الذي أرجو ، تاركا لغيري اقتسام المغانم ؛ كنت أستطيع أن أطلق اسمي على المدائن التي نغزو ، ولكني أسلمت لغيري البلاد ، وإن كنت عنيداً صلب الإرادة ، أفرض الرأي بجرأة وإقدام ، فما أحسب أني ضننت بدمي ودم قومي في إنفاذ ذلك الرأي بمثل تلك الجرأة وذلك الإقدام ؛ وإن كنت في عجلة السير أو في ساعة القتال زعمت لنفسي على جنود الآخرين سلطاناً ، فقد كنت أبدأ أنظر إلى هؤلاء الجنود وكأنهم جندي ، أشتري لهم بمالي المؤونة والدواء إن قصر أربابهم عن إحرازها ؛ وإنه والله ليخجلني أن أذكركم بما يبدو لي أنكم جميعاً من دوني قد نسيتموه ، وخير لنا أن ننظر قُدماً إلى مستقبل أعمالنا ، وصدقوني أيها الإخوان . . . »

وهنا واصل الملك خطابه ، وقد اشتعل وجهه حماسة وغيرة ، وقال : « صدقوني إنكم لن تجدوا في كبرياء رتشارد أو غضبه أو أطاعه إساءة تقف لكم حجرة عثرة في السبيل التي ينادىكم إليها الدين والمجد نداءً عالياً ، كأن الملك الأعلى ينفخ في الصور كلا ! كلا ! والله إني ما أستطيع العيش لو عرفت أن ضعفي ووهني كانا سبباً في التفرقة بين هؤلاء الإخوان الكرام من الأمراء الحاشدين ، ووالله لأقطعن يميني يساري لو كان لديكم دليل ينهض شاهداً ضد إخلاصي ، ولسوف أنزل لكم طائماً عن كل حق لي في قيادة الجيوش ، بل وفي رعيتي الخاصة من أتباعي ، وليتسرو بهم أي نديتهم من الملوك ، ومليكمهم - وما كان أحب إليه أبداً من أن - يستبدل بعصا القائد رمح المقاتل - وسوف ينضوي تحت لواء (بوسان) يخدم بين أصحاب المعبد ، أي والله ، بل وتحت لواء النمسا ، لو أتت النمسا رجل مقدام يقود جيوشها . أما إن كنتم أنتم أنفسكم قد مللتم هذه الحرب ، ومحسون بسلاحكم يعمر بضّ جلودكم ، فما عليكم إلا أن تتركوا رتشارد ونحو عشرة آلاف ، أو خمسة عشر ألفاً من جنودكم ، يعمل لكم على البرّ يمينكم » ثم صاح بهم وقد هز برأسه إلى أعلى كأنه ينشر علم الصليب فوق بيت المقدس وقال : « وإذا ما ظفرنا بصهيون ، فسوف لا نكتب على أبوابه اسم رتشارد بلاتناجت ، وإنما أولئك

الأمراء الأكرمين الذين عهدوا إليه بوسائل الظفر والانتصار .
هذه الفصاحة الجاهلية ، وذلك القول بالباسم الذى ألقاه الملك العسكرى ، أثار
فى الصليبيين خائر العزيمة ، كما بث الحياة من جديد فى إخلاصهم ، وتنبهت أذهانهم
إلى الغرض الأول من حملتهم ، فعرا أكثرهم الحياء من تأثرهم بتافه الشكاوى التى
غمرتهم أمثالها من قبل ، وانتقلت النار من عين إلى عين ، وسرت الحمية من صوت
إلى صوت ، ففكروا — وكانهم مجمعون — نداء الحرب الذى سبق لهم أن رددوا به
ضراعة بطرس الناسك ، وصاحوا بصوت مرتفع : « سر بنا قلب الأسد الهمام —
ليس لأحد أن يتقدم إن تخلف الشجعان ؛ سر بنا إلى بيت المقدس ! هذه هى
إرادة الله ! هذه هى مشيئة الرحمن ! بارك الله فىمن يقدم لإنجازها سلاحه ! » .
هذه الصيحة ، التى صاحوا جميعا على حين غرة ، نمت إلى ما وراء حلقة الحراس
القائمين على سرادق المجمع ، وانتشرت بين جند الجيش ، الذين فت من قوائم
المرض والجو حتى باتوا متعطلين خائرى العزيمة ، وأخذوا كزعمائهم يهن منهم العزم ؛
ولكن ظهور رتشارد ثانية فى نشاطه المتجدد ، وتلك الصيحة المعروفة التى تردد
صداها بين مجمع الأمراء ، أثار فى فهم الغيرة بفتة ، وأجابت الألوف وعشرات
الألوف مرددين الصيحة عنينا : « صهيون ، صهيون ! — الحرب ، الحرب ! —
هيا توا إلى قتال الكفار ! هى إرادة الله ! هى مشيئة الرحمن ! » .
وهذا الهتاف فى الخارج ضاعف بدوره الغيرة التى سادت داخل السرادق ،
وخشى أولئك الذين لم تشتعل النار فى قلوبهم فعلا أن يظهروا أقل حرارة من
غيرهم ؛ ولم يعد هناك حديث آخر غير حديث الزحف نحو بيت المقدس بأتوف
شائخة بعد انقضاء الهدنة ، وحديث الوسائل التى تتبع فى عين الوقت لإمداد
الجيش وإعداده بالرجال ؛ ثم انفض المجمع وظاهرهم جميعا الإيمان التام بغرض
واحد — غرض سرعان ما ذوى فى صدور أكثرهم ، وما كان له البتة وجود فى
صدور الآخرين .

ومن هذه الجماعة الأخيرة كان المركز كتراد والرئيس الأعلى لفرسان
المعبد ، فأوياما إلى كنفهما على مهل ، غير راضيين عما أسفر عنه يومهم هذا .

وقال ثانيهما وعليه سبب الاستخفاف البارد الذي عرف به : « كم من مرة
ذكرت لك أن رتشارد يستطيع أن يشق طريقه وسط الجبال الرقيقة التي تنشر
له ، كما يشق الأسد نسيج العنكبوت ؛ أفلم تر أنه ما إن تكلم حتى لعبت أنفاسه
بأولئك الحمقى المترددين ، كما يلعب الإعصار بالهشيم المنثور فيجمعه أو يبدده كيفما
شاء » .

فقال كتراد : « إذا ما انقشع الإعصار استقر الهشيم فوق الأرض ثانية بعد
هبوبه على متن الرياح » .

فأجابه رئيس المعبد وقال : « لكن هلا علمت فوق ذلك أنه يرجح - إذا ما
اتبهينا من هذا المقصد الجديد الذي قصدنا بالغزو ، وقضى الأمر ، وعاد كل أمير
جليل يسترشد بما يهديه إليه عقله الضعيف - أن يمسى رتشارد برضا من الأمراء
ملكاً على بيت المقدس ، وأن يقبل حدود المعاهدة مع صلاح الدين ، التي ظننت
أنت نفسك أن ليس أقرب منه أحد بازدرائها والغض منها » ؟

فقال كتراد : « والآن بعد ما أصبحت الأيمان المسيحية عتيقة بالية ، أستحلفك
بمحمد وبرب محمد إلا قلت لي إن كنت تحسب أن ملك إنجلترا العاق سوف يربط
دمه بدم السلطان المسلم ؟ لقد كان من سياستي أن أدخل في المعاهدة هذا الشرط ،
حتى أجعلها بأسرها بغيضة إلى نفسه - وكلا الأمرين شر لنا ؛ إن أصبح سيداً
علينا بالقلبة والنصر ، أو بالاتفاق والرضا » .

فأجاب صاحب المعبد قائلاً : « لقد أخطأ دهاؤك مرمى رتشارد ، أنا أعلم
هوى الملك مما وسوس لي رئيس الأساقفة ، ومن ضربتك القاضية التي ضربت
بذلك العلم ؛ ألم تنقض بتقدير لا يزيد عما تستحق ذراعان من الحرير المزركش ؟ !
- أي مركز منتسرا ، لقد خبت منك شعلة ذكائك ، وسوف لا أثق بعد اليوم

في مكائدك الدقيقة الحبك ، ولا عمدن إلى حيلتي . هلا سمعت بأولئك القوم الذين يسميهم الأعراب بالحوارج ؟ »

فأجاب المريكز بقوله : « لا مرأى في أنهم قوم تملك اليأس قلوبهم ، وسلبت الغيرة عقولهم ؛ وقفوا حياتهم على نصرته الدين — وبينهم وبين أصحاب المعبد في هذا بعض الشبه — إلا أنا ما عرفنا عنهم قط أنهم وقفوا لحظة عن السير في سبيل دعوتهم . »

فأجاب الراهب عابساً مقطب الوجه وقال : « صاح لا تمزح ، واعلم أن واحداً من أولئك الرجال قد ذكر — في يمين غليظة أقسمها — اسم عاهل الجزيرة ذلك ، وأقسم لينادين به ألد أعداء دين الإسلام . »

فقال كتراد : « أعدل به من أمي مشرك ، وما أجدره بيجنات الخلد جزاء له ! »

فقال الرئيس الأعظم : « لقد هداه إلى المعسكر واحد من أتباعنا ، ولما سئل سرا أقر إلى صراحة بمرماه الثابت الذي اعتزم . »

فأجاب كتراد : « اللهم اغفر لأولئك الذين وقفوا في سبيل هذا (الخارجي) العادل ! »

فرد عليه صاحب المعبد وقال : « هو الآن سجينى ، وأظنك تعلم أنه قد حُرِّم عليه أن يتحدث إلى غيره ؛ ولكن السجون قد هوجمت ^(١) و .. »

فأجاب المريكز : « ... وكانت السلاسل مسترخية ، فلاذ الأمرى بالفرار — وقد يمّا قيل : ليس من جب أ كيد غير القبر . »

ثم استأنف القس العسكري حديثه وقال : « ولما ينفك إيساره يواصل مسعاه ، فانه من طبع هذه الطائفة من السفاكين ألا يتخلى الواحد منهم أبداً عن طريق الفريسة بعد أن يشتم رائحتها . »

(١) هذه هي المكيدة التي يدبرها رئيس فرسان المعبد

فقال المركز : « حسبك هذا ، إني ألس سياستك ، إنها لهيئة ، ولكن سبيل الخلاص قريبة » .

فقال صاحب المبدأ : « إنما ذكرتها لك حتى تأخذ لنفسك حذرهما ، إذ سوف يكون الضجيج مروعاً ، ولن تدري على من يصب الإنجليز جام غضبهم — أى والله وإن هناك لخطر آخر — إن حاجبي يعرف ما بدخيلة هذا (الخارجى) ، وفضلا عن ذلك فإنه أحق ، سريع الغضب ، قوى الإرادة ؛ وددت والله لو خلصت منه فهو يعترض سبيلى ، ويزعم أنه يرى بعينه لا بعيني ؛ ولكن طائفتنا المقدسة تخول لى أن أزيل أمثال هذه الحواجز . البث قليلا — قد يجد العربى خنجراً طيباً فى جيبه ، وأنا قمين لك أنه سوف يعمد إليه حينما يريد الانطلاق ، وهذا أمر لا مرية فيه إذا ما دخل عليه الحاجب بالطعام » .

فقال كتراد : « هذا يلبس الأمر بالشبهات ولكن ... »

فأجاب صاحب المبدأ : « إنما (ليت) و (لكن) من كلمات الحق الأغبياء ، ولكن الحكماء العقلاء لا يترددون ولا يتراجعون — إنهم إذا قالوا فعلوا » .

الفصل العشرون

إذا أوقعت الليثَ في جبالها الحسناء ،
سحرته فلا ينتفض غضباً ،
ولن ينشر من مخالبه رعباً .
وقديما جعل من عصاه مغزلاً .
(السديز العظيم) وبات (لأمفالي الحسناء) .
يفزل كي يسر قلبها .

لشاعر غير معروف

كان رتشارد لا تداخل قلبه الريبة ، ولا يعلم بتلك المؤامرة التي كانت تدبر له في الظلام والتي فصلنا في مختتم الفصل السابق ، وقد نجح الآن على الأقل في الظفر بتوحيد الأمراء الصليبيين ، معززاً أن يواصل الحرب بعنف وشدة ، ولو لم يكن أحب إلى قلبه بعد هذا من أن يقر السكينة بين أهله ؛ والآن ، وقد أخفى في حكمه أشد اتزاناً ، أراد أن يدقق البحث في الظروف التي أدت إلى ضياع رايته ، وفي طبيعة العلاقة بين ذات رحمه أدبث والمخاطر الاسكتلندي الطريد .

ومن أجل هذا باغت السر توماس دي فو الملكة ووصيفاتها بالزيارة ، يطلب مشول السيدة (كالستا منتفوكن) أول رفيقات الملكة في مخدعها ، لدى الملك رتشارد .

فقال كالستا للملكة وهي ترتجف : « ماذا عساي أن أقول يامولاتي ، إنه سوف يقتلنا جميعاً » .

فأجابها دي فو وقال : « كلا . لا تخشى ياسيديتي ، لقد أبقى جلالته للفراس الاسكتلندي حياته ، رغم أنه كان أشد من أساء إليه ، وخلعه على الطبيب المغربي فلن يكون جلالته شديداً على سيدة حتى وإن كانت خاطئة » .

وقالت برنجاريا : « ابتكرى لك قصة ماكرة أيتها المرأة ، فإن زوجي وقته يضيق بالبحث وراء الحقيقة » .

وقالت أدِيث : « قصى عليه القصة كما وقعت وإلا قصصتها نيابة عنك » .

وقال دى فو : « إني أئتمس من مولاتي المليكة خاضعا أن تأذن لي أن أقول بأن السيدة أدِيث قد أصابت فيما أشارت به ؛ فالملك رتشارد قد يسره أن يعتقد فيما يلذ لجلالتك أن تقصى عليه ، إلا أنني أشك في أنه يقيم للسيدة كالستا مثل هذا الاحترام ، وبخاصة في هذا الأمر الذى نحن به » .

وخطر لكالستا ما سوف يجرى من بحث وتدقيق في هذا الشأن ، فعراها اضطراب شديد وقالت : « لقد أصاب لورد جزلانيد . وفضلا عن ذلك فإنه لو كان لي من حضور الدهن ما يكفي للخداع بقصة معقولة ، فصدقوني إني لأحسب أنى سوف لا أجد من نفسى الشجاعة على قصها » .

وبهذا الميل إلى الصراحة في القول ساردى فو بكالستا إلى الملك حيث أقرت — كما اعتزمت — إقراراً صريحاً بالخدعة التى أغرى بها فارس النمر التمس على أن يهجر مقر واجبه ؛ وبذا برأت السيدة أدِيث ، وكانت تعلم أنها لن تقصر في تبرئة نفسها ، وألقت بالعبء كله على عاتق المليكة سيدتها ، وكانت تعرف حق المعرفة أن حظها في هذا المزاج بالفارس سوف يكون في عيني قلب الأسد أشد ما هو جدير بالعمو . وحقا لقد كان رتشارد زوجاً متبهاً ، بل خاضعاً لزوجته ذليلاً لها ؛ وقد طال الأمد منذ انفجر غضباً أول الأمر ، ولم يعد الآن يميل إلى اللوم الشديد في أمر لا سبيل إلى تقويمه ؛ وكانت السيدة كالستا الخبيثة قد تعودت منذ نومة أظفارها أن تسهر غور دسائس البلاط ، وترقب ما قد يدل على إرادة المليك ، نفخت كالطائر مسرعة تحمل أمر الملك إلى زوجه بأن تنأهب لزيارة مباغته منه ، وزادت على هذا الأمر رفيقة المليكة في مخدعها تعليقا من عندها ، يقوم على ملاحظاتها الخاصة ، أرادت أن تبين به أن رتشارد لم يقصد إلا إلى أن يظهر ببعض الشدة ، كي يحمل زوجه المليكة على أن تقر بندمها على مزاحها ، ثم يحبوها هي وكل من له يد في الأمر بعموه الكريم .

وسرى هذا النبأ عن المليكة كثيرا فقالت : « هل هذا كل ما في الأمر أيتها

المرأة؛ صديقي إن رتشارد قائد عظيم ، لكنه سوف يتمسر عليه أن يراوغنا في هذا الشأن ، وهو في هذا ينطبق عليه قول رعاة (البرانيس) المألوف في وطني (نافار) : « ما أكثر من أتى طلبا لصوف الأغنام وعاد بغنمه مجزوزا » .

وبعد ما ألمت الملكة برنجاريا بكل ما حدثها به كالستا من خبر ، ارتدت فآخر الثياب ، ولبثت هادئة الخاطر ، مستقرة النفس ، ترقب قدوم رتشارد الجسور . ولما أن قدم الملك ألقى نفسه وهو في موقف الأمير الذي يدخل إقليما أساء أهله إليه (إلى الأمير) ، وهو على ثقة من أن عمله سوف لا يعدو توقيع الملامة وتلقى الخضوع ، فإذا به يجد أهل الإقليم — على غير ما كان ينتظر — في أشد حال من المناوأة والعصيان ؛ فلقد كانت برنجاريا تعرف حق المعرفة سحر جمالها ، ومبلغ حب رتشارد لها ، وتمس بالثقة في أنها تستطيع أن تتفق معه على ما يرضيها بعد ما انقشعت عنه نائرة الغضب المخوفة الأولى دون أن يصدر عنه أذى أو ضرر ، وما كان أبعدها عن أن تستمع إلى ما اعترم الملك من عدل حق عليها لرعونتها في مسلكتها ، فقد أخذت تلتمس العاذير عما اتهمت به ، بل وتدفع عنه على أنه مزاح لا ضرر منه ، وقد أنكرت — وكانت صيغة الإنكار جميلة حقا — أنها بعثت بكتباناس كي يغري بالفارس إلى أبعده من حافة الجبل الذي وقف حارسا على قمته ؛ وحقا لقد صدقت فيما قالت ، إذ أنها لم ترد بالسر كنه أن يدخل فسطاطها ؛ ولئن كانت الملكة في سياقها لدفاعها ذلقة فصيحة ، فلقد كانت أفصح وأذلق في اتهامها لرتشارد بالقسوة لضنه عليها بمنحة حقيرة يمنحها إياها ، وتلك هي حياة فارس بائس ، ساقه إلى خطر القانون العسكري مزاح غير مقصود ، ثم بكت ونشجت وبالغت في وصفها لعناد الملك في هذا الأمر ، وقالت إن صرامته تهددها بالشقاء في حياتها ، كما فكرت في أنها كانت — على غير قصد منها — الباعث الأول على هذه المأساة ، فلسوف ينتابها في أحلامها مرأى الفريسة الصريمة ، وسوف يقف إلى جوار سريرها شبحه بعينه ويحرمها النوم ، وما تعرف لهذا من سبب ، ولكن هذا هو ما يحدث في غالب الأحيان ؛ ولن تستهدف

لهذا الشقاء النفسى إلا من قسوة رجل ، بينما هو يزعم أنه يموت هوى فى أدنى إشارة منها ، لا يتخلى عن نعمته على ذلك الرجل المسكين مهما نجم عن ذلك من شقاء لها .

وصحبت كل هذه الفصاحة النسوية المتدفقة لغة الدموع والحسرات ، وكان فى حديث الملكة من النعم والحركات ما يدل على أن استيائها لم ينشأ عن كبر أو نزق ، وإنما عن شعور انتم حينما أدركت أن نفوذها على زوجها أضعف مما كانت تظن .

وكان رتشارد الملك الصالح شديد الحيرة والارتباك ، وعبثا حاول أن يتفاهم وامرأة أعجزتها غيرتها على محبته عن الإصغاء للحديث ؛ ولم يستطع الملك أن يعمد إلى ماله من نفوذ شرعى يسيطر به على سيدة لها هذا الجمال ، وهى فى شدة الحزن الذى ليس له ما يبرره ، فتراجع إلى حدود الدفاع ، وحاول متلطفًا أن يعذلها على ريتها ، ويخفف من غلوائها ، ويذكرها أن لاجحة بها إلى ذكر الماضى بالذم أو بالخوف الشديد ، مادام السر كنه ما برح على قيد الحياة وما به من سوء ، فقد خلعه الملك على الطبيب النطاسى العربى ، وهو رجل — من دون الرجال لاريب — عرف كيف يحفظ له حياته ؛ ولكن هذه الكلمة الأخيرة كانت أشد كلمات الملك على نفسها وقعا ، فتجددت للملكة أحزانها حينما ذكرت أن عربيا طبييا قد فال هذا العطاء الذى طلبته هى إلى زوجها جائية على ركبتيها ، ورأسها حاسر ، ولكن بغير جدوى ؛ وما إن فرغت من هذه المهمة الأخيرة حتى نفذ صبر الملك ، وقال فى نغمة الجد : « أى برنجاريا ، اعلمى أن هذا الطبيب قد أنقذلى حياتى ، فإن كان لحياتى فى عينيك وزن فلن تضنى عليه بجزء خير من هذا الجزاء الوحيد ، الذى استطعت أن أحمله على قبوله » .

وسرت الملكة لبلوغها بر السلامة بعد غضبها ودلالها .

فقال : « حبيبى رتشارد ، لم لم تأت لى بهذا الحكيم ، حتى تستطيع ملكة إنجلترا أن تبين له قدره فى عينها ، وقد أنقذ من الخبو مصباح الفروسية ،

ونغار انجلترا ، ونور حياة برنجاريا الضعيفة ، وأملها ورجاءها ؟ » .
وهكذا انتهى النزاع الزوجي ، ولكن الملك والملكة كليهما ارتأيا أن العدالة تتطلب بعض العقاب ، واتفقا على صب اللوم بأسره على عاملهما نكتبانس ، وكانت الملكة إذ ذاك قد ملت نكات القزم المسكين ، فأصدرت مع الملك حكما عليه وعلى حليته الملكة جنفرا بإبعادهما عن البلاط . وما كان للقزم التعس أن ينجو من الضرب بالسياط ، لولا أن الملكة قد أكدت أنه قد نال عقوبته الشخصية من قبل ؛ وكذلك أصدر صاحبا الجلالة إرادتهما بأنه لما كان لا بد من بعث رسول إلى صلاح الدين في وقت قريب لإخطاره باعترام المجمع على مواصلة العداء بعد انتهاء الهدنة مباشرة ، ولما كان رتشارد يفكر في إرسال هدية قيمة للسلطان اعترافاً بالجميل الكبير الذي ناله على يدى الحكيم ، فإن زينك الشخصين البائسين يبنى أن ينضما إلى الهدية طرفتين تصلحان للإهداء من ملك إلى ملك ، لما لها من ظاهر غاية في الغرابة ، وعقل موزع شتيت » .

وكان على رتشارد ذلك اليوم أن يكابد مقابلة نسوية أخرى ، ولكنه تقدم إليها قليل الاكتراث غير آبه ، وذلك لأن أدبث وإن كانت جميلة يحلها قريبها الملك محلا رفيعاً ، بل ولئن كانت قد عانت فعلا من جراء شكوكه الجائرة ذلك الأذى الذى تظاهرت برنجاريا بالشكاية منه ، إلا أنها لم تكن لرتشارد زوجاً ولا حفلية ، فكان يخشى عتابها — على ما فى عتابها من حق — أقل مما كان يخشى عتاب الملكة ، رغم مافيه من جد وشذوذ . وبعد ما طلب الملك أن يتحدث إليها منفردة ، سيق إلى غرقها المتاخمة لجزيرة الملكة ، وما برح جاريتها القبطيتان جاثيتين على الركب فى أقصى زاوية طوال المقابلة ؛ وكان يستر هذه الفتاة الكريمة النسب حجاب أسود رقيق ، تتدلى ثناياه الكثيفة على قدها الفاتن المشوق ، ولم تتحل بأية زينة مما يتجمل به السيدات ، وما إن دخل عليها رتشارد حتى نهضت وانحنت إجلالا ، ثم عادت إلى مقعدها بعد ما أشار إليها بذلك ، ولما جلس إلى جوارها لظمت الصمت ، ولم تنبس بىنت شفة ، حتى يبدأها الحديث بما يريد .

وقد ألف رتشارد مع أدith الصراحة التي تخولها لها صلة الرحم ، إلا أنه أحس ببرودة هذا اللقاء ، وافتتح الحديث في شيء من الحيرة والارتباك .
وأخيراً قال : « إن ابنة العم الحسناء غاضبة منا ؛ وأنا نقر بأن ظروفنا قاسية قد حدث بنا - لغير ماسبب - إلى أن نعزو إليها مسلكاً لا يتفق وما عرفنا من قديم عن سيرتها في حياتها ، ولكننا إذ نسير في وادي الإنسانية المظلم نخطئ الأشباح نحسبها جسوماً ، فهلا صفحت ابنة العم الحسناء عن ابن جلدتها رتشارد ، الذي يشوبه شيء من الشدة والعنف ؟ » .

فأجبت أدith وقالت : « من ذا الذي يضمن بالصفح عن رتشارد ، إن كان رتشارد الرجل يأتي بالعفو من رتشارد المليك ؟ » .

فأجابها قلب الأسد قائلاً : « تعالى قريبتى ، هذا جد صارم ، أقسم بالسيدة العذراء إن هذه النظرات الكئيبة ، وهذا الحجاب القاتم الطويل ، لتحذو بالرجال إلى أن يحسبوك أرملة محدثة ، أو على الأقل امرأة فقدت عشيقها وخطيبها ، سرتى عن نفسك - ألم يبلغك أن ليس هناك سبب حق للحزن والأسى - فلماذا تظهرين بمظهر الحداد ؟ » .

« أظهر به أسى على شرف بلانتاجنت الضائع ، وعلى الجلال الذي خلف بيت أبى » .

فقطب رتشارد الجبين ، وكرر قولها غاضباً وقال : « الشرف الضائع ! والجلال الذى خلف بيتنا ؟ ولكن ابنة عمى أدith على حق ، فلقد حكمت عليها متعجلاً ، فمن حقها إذن أن تغلظ على وتقسو ، ولكن لا أقل من أن تخبرينى فيم كان خطئى » .

فقلت أدith : « كان على بلانتاجنت إما أن يتسامح في الإساءة أو يجازيها ، وما يليق به أن يكبل في قيود الكفار رجالاً أحراراً من المسيحيين وبواسل الفرسان ، وما ينبغى له أن يفاوض ويساوم ، أو أن يمنح الحياة على أن يسلمها حريتها ؛ والله لو أنك قضيت على هذا البائس بالموت لكان قسوة منك وغلظة ، ولكنها

الغلظة في ثياب العدالة ؛ أما أن تحكم عليه بالرق والنفي فهذا ظلم صراح .
فقال رتشارد : « ما أحسب ابنة عمي الحسناء إلا من أوليا تكن الغيد اللواتي
يرين بعد العاشق وموته سواء ؛ صبراً فتاتي ، إن عشرة من خفاف الفوارس
يستطيعون أن يتبعوا الرجل ويصلحوا ما أخطأنا ، إن كان لدى محبك هذا سر
من الأسرار يجعل موته خيراً من نفيه » .

فاشتد احمرار أديث وقالت : « كفاك بذاءة في المزاج ، واعلم أنك كي تسترسل
في هواك بترت من هذا المشروع العظيم عضواً كريماً ، وحرمت الصليب دعامة
من أقوى دعامته ، وأسلمت خادماً من خدام الإله الحق إلى أيدي الكفرة المشركين ؛
وأعطيت كذلك لعقول مرتابة — كعقلك الذي أبديت في هذا الشأن — بعض
الحق في القول بأن رتشارد قلب الأسد قد نفي من معسكره أشجع جنوده ، خشية
أن يبارى باسمه في القتال اسمه » .

فصاح بها رتشارد ، وقد غلت نأثرته الآن حقاً ، وقال : « أنا — أنا ! أفتحسيني
ممن يغارون من الذكر وبعد الصيت ؟ — وددت لو كان هنا وأقرّ بمساواته بي !
إذن لنفضت عني شرفي وتاجي ، ولاقيته كما يلاقى الرجل الرجل في ساحة النزال ،
حتى يبدو للعيان إن كان رتشارد بلا تاجت لديه مجال للحسد أو للخوف من جرأة
إنسان فإن أيا كان . تعالى أديث ، إنك لا تعتقدين بما تقولين ؛ لا تكوني لغضبك
أو حزنك على غياب عشيقك لقريبك ظالمة ، وهو — رغم هياجك وثورتك —
يحمل لحسن طويتك تقديراً كبيراً لا يعلوه تقدير لأي امرئ على قيد الحياة » .
فقالت السيدة أديث : « غياب عشيق ؟ أي نعم ، تستطيع أن تسميه عشيق
بعد أن دفع لهذا الاسم ثمنًا غالياً ؛ إنني يامولاي — وإن كنت غير قينة بولائه هذا —
إلا أنني كنت له كالضياء أهديه سبيله قُدماً في طريق الفروسية النبيلة ؛ أما أنني
قد نسيت مكانتي ، وأما أنه قد زعم لنفسه ما ليس له فوزور وبهتان ، حتى وإن
كان مَلِكاً من يقول بهذا » .

فقال رتشارد : « لا تتقولي علي يا ابنة العم الحسناء بما لم أقل ، أنا لم أذكر

أنك حبوت هذا الرجل بأكثر مما قد يكسبُ فارس كريم من رضا — حتى من أميرة — مهما يكن منبته . ولكنني أقسم لك بالسيدة العذراء إنى أعلم شيئا عن هذا الضرب من الحب . إنه يبدأ بالاحترام مع الصمت ، والتقدير مع البعد ؛ ولكن ما إن تسنح الفرصة حتى تنمو الألفة ، ثم . . . ولكن دعينا من هذا ، فليس من الكياسة أن أحدث إلى سيدة ترى نفسها أحكم العالم طرا » .

فقال أديث : « يسرنى أن أصغى عن طيب خاطر لما يشير به قربي ، إن كانت مشورته لا تتطوى على المهانة لمكانتى وخلقى » .

فأجابها رتشارد وقال : « إن الملوك يا ابنة عمى الحسنة لا ينصحون ، وإنما هم يأمرون » .

فقال أديث : « حقا إن السلاطين ليأمرون ، وما ذلك إلا لأن لهم رقيقا يحكمون » .

فرد عليها الملك وقال : « هيا أديث ، ولا تزدري السلطنة جانبا ، ما دمت ترفعين رجلا اسكتلنديا إلى هذه المرتبة العالية . والله إنى لأرى صلاح الدين أبر بكلمته من وليم صاحب اسكتلندا ، الذى يلقب بالليث ؛ لقد أساء إلى إساءة شنعاء بتقصيره فى إرسال المدد والمعونة التى وعدنى ؛ دعينى أخبرك يا أديث أنك قد تحيين حتى يأتى يوم تؤثرين فيه تركيا صادقا على اسكتلندى كاذب » .

فأجابته أديث قائلة : « كلا . أبدا ! إن رتشارد نفسه لن يعتنق الدين الكاذب الذى عبر البحار لإقصائه عن فلسطين » .

فقال رتشارد : « لك الكلمة الأخيرة ، وسوف تُعطينها ، ولتظنى بى ما شئت يا أديث الحسنة ، فلن أنسى أنا بنو عمومة قريبة وعزيرة » .

وما إن أتم حديثه حتى انصرف فى رقة وكياسة ، ولكنه قليل الرضا بما انتهت إليه زيارته .

وفى اليوم الرابع منذ أبعاد السركنت عن المعسكر ، جلس الملك رتشارد فى سرداقه يستمتع بنسيم المساء يهب من الغرب ، ويحمل على جناحيه برودة غير

معهودة فيه ، كأنه يصاعد من انجلترا الطرودة لانهاش مليكها المخاطر ، وهو يسترد شيئا فشيئا كامل القوى الضرورية لانهاش مشروعاته الخطيرة ؛ وكان وحيدا لأنه بعث بدى فو إلى عسقلان كي يأتي بالمدد والمؤونة من الذخيرة الحربية ، وكانت الكثرة الأخرى من حاشيته مشتغلة بمختلف المهام ، كلهم يتأهبون لفتح باب العداوة من جديد ، ولاستعداد عظيم إعدادى لجيش الصليبيين يقام فى اليوم التالى ؛ وجلس الملك منصتا للطنين والضجيج بين الجند ، وللططقة المنبعثة من الأكوار ، حيث كانت الخيل تُعد بمخوافر من حديد ، وللشغب يصدر من صانعى الأسلحة الذين كانوا يصلحون عدة الخيول ؛ وكذلك كانت أصوات الجند — وهم يسرون جيئة وذهابا — عالية مرحة ، فى نبراتها ما يؤكد الهمة القعساء والبسالة الثائرة ، وما يبشر بالنصر القريب ؛ فاهتزت أذنا رتشارد طربا لهذه الأصوات واسترسل لأحلام الظفر والمجد التى أثارها فى نفسه هذا الصخب . وبيننا هو كذلك إذا برئيس الحجاب يخبره أن رسولا من صلاح الدين ينتظر واقفا بالباب . فقال الملك : « أدخله توا ، وأدِّ له ما يجب من الاحترام يا جوسلين » .

فصدع الفارس الانجليزى بالأمر ، وأقبل ومعه رجل يدل هيئته على أنه لا يعمل على العبد النبوى مرتبة ، ولكن ظاهره — رغم ذلك — يسر الناظرين . كان طويل القامة ، سمح البزة ، ملامحه نافذة حالكة ، ولكنها لا تتم عن شىء من سلالة الزنوج ؛ وكانت تغطى خصلات شعره الفاحم عمامة ناصعة البياض ، وعلى كتفيه وشاح قصير من لون العمامة ، منفرج من مقدمه ومن كفيه ، ويظهر من تحته صدر من جلد النمر المدبوغ ، يتدلى إلى ما فوق الركبتين بعرض الكف ، وأما ما بقى من أطرافه المقتولة ، ساقيه وساعديه ، فقد كان عاريا ؛ اللهم إلا خفين فى قدميه ؛ وكان يلبس طوقا على رقبته ، وسوارا من فضة ، ويتدلى من خصره سيف مستقيم عريض النصل ، له مقبض من خشب البقس ، وغمد يكسوه جلد الأفعوان ، ويمينه نشابة قصيرة ، رأسها عريض لامع صلب ، طولها شبر ، ويساره يقود كلبا كبيرا نبيلًا يجذبه برباط من خيوط الذهب والفضة المقتولة .

وخر الرسول ساجدا ؛ وقد عرّى جانبنا من كتفيه إشارة إلى خضوعه ؛ وما إن لمس الأرض بجبينه حتى نهض جاثيا على ركبتيه ، وناول الملك منديلا من الحرير يضم آخر من قماش من صفائح الذهب ؛ بداخله خطاب من صلاح الدين ، عربي أصله ، ومصحوب بترجمة إلى الإنجليزية النورماندية تعريبها كما يلي :

« من صلاح الدين ملك الملوك ، إلى الملك رتشارد ليث انجلترا ؛ نما إلينا من رسالتكم الأخيرة أنكم قد آثرتم الحرب على السلم ، وعداوتنا على صداقتنا ، وما نحسبك في هذا إلا رجلا أعمى الله بصيرته ، وأنا على يقين أنا عما قريب سوف نقنعك بخطئك ؛ تعاونا في ذلك جيوش ألف قبيل لا تقهر ؛ سيفصل الله فيما بيننا من خصومة . وأما ما خلا ذلك فنحن نعتقد في نبل خلقك ؛ ونقدر الهدايا التي بعثت بها إلينا قدرا كبيرا ؛ كما نقدر القزمين الفريدين في تشويه خلقهما كأن كلا منهما (عيسو) ، الطرويين كقيثارة إسحق ؛ ردا على هذه الهدايا التي بعثت من كنوز جودك ، نرسل إليك عبدا نوبيا اسمه (زوهاق) لا تحكم عليه ببشرته كما يحكم الأغبياء في هذه الدنيا ، فإن الثمر إذا اسودت قشوره حلا مذاقه ؛ واعلم أنه يقوى على تنفيذ إرادة سيده ، كما كان (رسم زبلاستن) . وإن تعلمت مخاطبته ألفيته حكما في مشورته ، واذكر أن (رب الفصاحة) قد أصابه المي وهو بين جدران قصره العاجية . نحن نسلم لرعايتك آمين أن لا يطول الأمد قبل أن يؤدي لك خدمة طيبة ؛ ونحن مع هذا نقرئك السلام راجين أن يمن عليك نبينا صلى الله عليه وسلم بإدراك الحق ، ولئن فاتك نور الحق فرجاؤنا لك أن تسترد صحتك العزيزة عاجلا ، حتى يحكم الله بيننا وبينك في ساحة الوغى » .

وكانت الرسالة مذيلة بتوقيع السلطان وخاتمه .

وحدد رتشارد في النوبى صامتا ، والرجل مائل أمامه ، خافض الطرف ، وقد أطبق ذراعيه على صدره ، يشبه في وقفته تمثالا من المرمر الأسود ، دقيق الصنع ، ينتظر الحياة من ملمس (بروميتيس^(١)) ؛ وقد قال هنرى الثامن خليفة ملك انجلترا

(١) إله من آلهة اليونان يخلق الإنسان من الطين ، ويسرق النار من فوق (أولمب) ويعلم الناس استخدامها كما يعلمهم فنونا أخرى .

بصيفة التأكيد عن رتشارد إنه يجب النظر إلى الرجال ، وحقا لقد سره كثيرا أن يشهد من ذلك المائل أمامه عصبه ومفتول عضلاته واتساق جسمه ، ووجه إليه السؤال باللغة الفرنجية ، وقال له : « هل أنت وثني ؟ » .

فهز العبد برأسه ، ورفع إصبعه إلى جبينه ، ورسم علامة الصليب على نفسه دليلا على إيمانه بالمسيحية ، ثم عاد إلى وقفته خاشعا لا حراك به .

فقال رتشارد : « لا مشاحة في أنه نوبي مسيحي ، وقد حرمه القدرة على الكلام هؤلاء الأوغاد المنافقون ، أليس كذلك ؟ » .

فهز الرجل الأبكم رأسه ثانية في تودة وأناة دلالة النفي ، وأشار بسبابته إلى السماء ، ثم وضعها على شفتيه .

فقال رتشارد : « إنى أدرك ما ترى إليه ، إنك تعاني من الله بلواه ، ولا تشكو قسوة الإنسان . هل تستطيع أن تجلو السلاح وتنظف النطاق ، وتمعده عند الحاجة ؟ » .

نفض الأبكم رأسه ، ثم سار نحو الزرد الذي كان معلقا — مع درع الملك الفارس وخوذته — بدعامة من دعامات السرادق . وأمسك به بهوادة ورفق ، وكان في ذلك دليل كاف على أنه كان يعرف حق المعرفة واجب حامل السلاح .

فقال الملك : « حقا إنك لهذا لكفاء ، ولا ريب في أنك تصلح خادما نافعا . عليك أن تقف بحجرتي وتقوم على خدمتي ، حتى يرى الناس كم ذا أنا أقدر عطية السلطان المسكي ؛ وليس لك لسان ، فجلي إذن أنك لا تستطيع رواية ما ترى ، ولن تستغزني فأتمجبل بجواب غير لائق » .

نخر النوبي ساجدا ثانية حتى مس جبينه الأرض ، ثم انتصب قائما بعيدا عن الملك يبضع خطوات ، كأنه يرتقب ما يأمر به سيده الجديد .

فقال رتشارد : « أي والله ، لتبدأن عمملك توا ، فإنني أرى أثر من صدإ يسود وجه هذا الدرع ، وأنا أوده — إذا ما هزرت به في وجه صلاح الدين — أن يكون براقا لا قتام فيه ، كشرفي وشرف صلاح الدين » .

وفي تلك الآونة نفخ في البوق نافخ خارج السرادق ، ودخل في الحال السر هنرى شيل ومعه ثلة من الرسائل ، قال وهو يقدمها : « هذه الرسائل من إنجلترا يا مولاي » .

فكررتشارد قوله بنغمة التلهف الحزين وقال : « من إنجلترا ! من بلادى العزيزة ! وأسفاه ! إنهم لا يفكرون إلا قليلا كيف حاق بملكهم المرض العضال والأسى الشديد — ما أوهى صداقتهم وما أجرأ عداوتهم ! » ثم فض الرسائل ، وقال عاجلا : « ها ! ليست هذه الرسائل من بلد آمن ، إن أسباب الشحنة بينهم كذلك — اعزب عنى يا شيل — ينبغي أن أطلع هذه الأخبار وحيدا وعلى مهل » .
فانسحب شيل على إثر ذلك ، وسرعان ما انهمك رتشارد في تفصيل الأمر الأليم الذى جاءه نبأه من إنجلترا ، وهو يتعلق بالخصومات الحزبية التى كانت تمزق وطنه إربا إربا من جراء الخلاف بين أخويه (جون) و (جوفرى) ، والنزاع الذى نشب بينهما من ناحية ، وبين كبير القضاة (لنجتشامب) أسقف (إبلى) من ناحية أخرى ، كما يتعلق بالمظالم التى يفرضها النبلاء على أهل القرى ، وثورة هؤلاء على أولى الأمر منهم ثورة نجمت عنها ضروب من الخسومة فى كل مكان وإراقة الدماء هنا وهناك ، ووردت إليه فى الرسائل أنباء مفصلة عن حوادث قاتلة لكبريائه ، ومحطة بنفوذه ، يصحبها النصيح الشديد من أحكم مستشاريه وأقربهم إليه ، يشيرون عليه بالعودة إلى إنجلترا عاجلا ، إذ أن فى وجوده بينهم الأمل الوحيد فى إنقاذ المملكة من مخاوف الخسومة الأهلية جميعا ، تلك الخسومة التى يرجح أن تفتيد منها فرنسا واسكتلندا ؛ وجزع رتشارد لهذه الأنباء أشد الجزع ، فقرأ تلك الرسائل المشثومة مرة تلو الأخرى ، ووازن بين ما يحتويه بعضها من خبر وبين الحقائق عينها كما سيقف فى بعضها الآخر سياقا آخر ، وسرعان ما أضفى وهو لا يحس بما كان يدور حوله ، رغم أنه كان يجلس قريبا من مدخل فسطاطه قصد الاتعاش بالهواء البارد ، وقد أمر برفع السجف حتى يمكنه أن يرى الحراس وغيرهم من الواقفين فى الخارج وبرونه .

وفي ظل السرادق كان العبد النوبى يجلس مستغرقاً فى عمله ، مشتغلاً بالواجب الذى فرضه عليه سيده ، مولياً ظهره شطر المليك ، وكان قد فرغ من إعداد الزرقة والدرع وتنظيفهما ، وشرع يشغل بدرقة عريضة كبيرة الحجم مكسوة بصفايح الصلب ، كثيراً ما يستخدمها رتشارد ، حينما يخرج لاستطلاع الأماكن الحصينة أو لضربها فعلاً ، حماية له وذريعة تقيه قذائف الأسلحة أكثر مما يقيه الدرع الضيق الثلاثى الذى كان يستخدمه وهو على ظهر الجواد ؛ ولم تتسم هذه الدرقة ، لا بأسد انجلترا ، رمز سلطانها ، ولا بأى رسم آخر فتجتذب أنظار التائدين عن الجدر التى كانت الدرقة تنطلق صوبها ؛ فكانت إذن عناية خادم السلاح مقصورة على إجلاء وجهها حتى يضىء ضياء البلور اللامع ، وقد نبج الخادم فى هذا العمل غاية النجاح . وإلى ما وراء النوبى كان يرقد الكلب الكبير ، وتكاد لا تراه العين من الخارج ، وتستطيع أن تقول عن هذا الكلب إنه صنو النوبى فى رقه واستعباده ، وكان كأنه يحس بالخوف من الانتقال إلى حيازة الملك ، فاستلقى ملاصقاً لجوار الرجل الأكبر ، ورأسه وأذناه إلى الأرض ، وذيله وأطرافه متجمعة قريب بعضها من بعض تحته وحواليه .

وبينا كان الملك وخادمه الجديد مشتغلين بما هما فيه ، انضم إلى هذا المنظر الذى وصفنا رجل آخر ، واختلط بجماعة العامة من الإنجليز ، وكان نحو العشرين منهم يقومون بالحراسة أمام سرادق الملك صامتين — خلافاً لما عهد فيهم — نظراً لهيئة التأمل والتفكير العميق والاهتمام الشديد الذى استرسل فيه مليكهم استرسالاً لم يألوه فيه من قبل ، ولكنهم — رغم هذا — لم يكونوا فى حراستهم أشد يقظة منهم فى أى وقت آخر ، فكان بعضهم يلعب بالحصى الصغير مقامراً ، وبعضهم يتهايمسون عن يوم القتال القريب ، وكثيرون منهم قد استلقوا وأغرقوا فى النعاس ، وأطرافهم الجسمية منطوية فى برودهم الخضر .

تسلل وسط هؤلاء الحراس الغافلين رجل تركى هرم ، صغير الجسم ،

الهيئة ، حقير اللباس ، يشبه بزيه وليا أو شيخاً من شيوخ الصحراء
محمسين للدين ، الذين كانوا أحياناً يقتحمون معسكر الصليبيين ، رغم ما كانوا
يلاقون دائماً من سخرية ، بل ومن قسوة وشدة في غالب الأحيان . وحقاً لقد
كان الترف والانفاس في الملاذ الذي يسرف فيه زعماء المسيحيين يأتي إلى ضياعهم
بمجرد خليط من المطربين والعاشرات والتجار اليهود والأقباط والترک ومختلف
الرجال من أمم الشرق ، وجميعهم من سقط المتاع ، حتى باتت العمامة والقفطان
شيئاً مألوفاً في معسكر الصليبيين ، رغم ما كان يسود بينهم من أن الحملة إنما ترمى إلى
إقصائهما من الأرض المقدسة ؛ ولما دنا هذا الرجل الصغير الحجم ، الزرى
الهيئة ، الذي وصفنا ، وبات على مقربة من الحراس ، حتى وقفوا في سبيله ، طرح
عمامته الداكنة الخضراء عن رأسه ، وظهر للرأى أنه حليق الدقن والحاجبين
كأنه مهرج محترف ، وأن سبناه ملامحه الملتوية العجيبة ، وعينه الصغيرتين السوداوين
اللتين كاتتا تتألقان كالكهرمان الأسود ، تم عن خيال شارده نجبول .

وكان الجند يعرفون أساليب هؤلاء المعتوهين المتجولين ، فصاحوا بالرجل :
« ارقص لنا أيها الشيخ ، ارقص وإلا ضربناك بحمال نبالنا حتى يدور جسمك كما
يدور الخذروف يحركه الصبي بسوطه » . وهكذا علا صياح الحراس الطائشين ،
فرحين جذلين لأنهم وجدوا بينهم رجلاً يفيظونه ، كما يفرح الطفل حيناً يمسك
بالفراشة ، أو التلميذ إذا كشف عن عشب طائر .

وكان الشيخ قد سره أن يصدع بما أمر فقفز من الأرض واستدار بجسمه
المائد أمامهم بخفة ما بعدها خفة ، إذا قرنت بها جسده النحيل المزبل ، ومظهره
الضئيل ، ألفتته شبيها بورقة زاوية من أوراق الشجر ، تترشح على هوى ريح الشتاء
العاصف ، وله ذؤابة من الشعر تمتد من رأسه الأضلع الحليق إلى أعلى ، كأن عفريتاً
من الجن يعلقه بها . ويظهر أن فنا سماويا كان يلزمه للقيام بهذا الرقص الهمجي
الدائر ، الذي توشك معه أن لا ترى أطراف قدمي الراقص وهي تمس الأرض ؛
وبينا كان الرجل يرقص هذا الرقص العجيب ، كنت تراه يتأبل يمناً ويسرة ، وينتقل

من مكان إلى آخر ، مقتربا شيئا فشيئا من مدخل السرادق الملكي ، بحيث لا يكاد
الرائي يدرك منه ذلك ، حتى إنه لما خر على الأرض أخيرا منهوك القوى ، بعد
ساقفز قفزتين أو ثلاث أعلى من كل وثبة وثبها من قبل ، لم يكن بينه وبين شخص
الملك ما ينيف على ثلاثين ذراعا .

فقال أحد العامة : « اعطه ماء . إنهم جميعا يتشوقون إلى الشراب بعد
الرقص والطرب » .

فأجابه نبال آخر بصيغة التأكيد والازدراء بهذا الشراب الحقيير وقال :
« آه ! أتقول ماء يا (لنج ألن) وكيف تحب أنت شرابا كهذا بعد رقص مغربي
كذلك الذي رأيته » .

وقال ثالث : « لن نعطي الوغد قطرة ماء ، وسوف نعلم هذا المنافق الهرم
الخفيف القدم أن يكون مسيحيا صالحا ويحتسى نبيذ قبرص » .
وقال رابع : « أي والله ، ولئن كان شموسا فلتأت بكأس (دك هنتر) التي
يسقى بها فرسه » .

وسرعان ما أحاط (بالدرويش) — وهو منهوك طريح الأرض — حشد من
الرجال ، ورفع واحد منهم طويل القامة جسم الرجل المهزبل عن الأرض ، بينما
قدم له الآخر قدحا كبيرا من النبيذ ، ولكن الرجل الهرم ، وقد عبي عن الكلام ،
هز رأسه وأبعد بيده الشراب الذي حرمه عليه النبي ؛ ولكن القوم الذين أرادوا
به العذاب ما كانوا بهذا يرجعون .

فصاح أحدهم : « الكأس ، الكأس ! ما أشبه الرجل التركي بالجواد التركي ،
ولسوف نعامله معاملة الخيول » .

وقال (لنج ألن) : « أقسم بالقديس جورج إنكم لتخفقنه ! وإنه لإثم أن
تموا وغدا وثنيا بمقدار من النبيذ يغني رجلا مسيحيا عن ثلاثة أضعاف ما يحرز
من سكرة النوم » .

فرد عليه (هنري وُدستول) وقال : « إنك لا تعرف طباع هؤلاء الأتراك

الملحدين يا (لنج أُن)؛ إعلم أيها الرجل أن قدحا من نبيذ قبرص تلعب برأسه وتديره في اتجاه غير الاتجاه الذي تدحرج إليه وهو يرقص ، فيثوب إلى رشده ، ويعود كما بدأ — الحجر تخنقه؟ إنها لا تخنقه إلا كما يخنق رطل من الزبد كلب (بَن) الأسود .

فقال (تمالين بلاكلين): « وهل تضنون على هذا الشيطان المسلم المسكين بقطرة من شراب في هذه الدار ، وأنتم تعلمون أنه لن ينال قطرة يرطب بها طرف لسانه في دار البقاء؟ » .

فأجاب (لنج أُن) يقول: « تالله إن هذه لشريعة صارمة ، أفكل هذا لأنه تركي كما كان أبوه من قبله؛ إني أؤكد لكم أن أشد الأرجاء حرارة لتكونن عليه بردا وسلاما لو أنه كان مسيحيا مرتدا » .

فقال (هنري ودستول): « ازم الصمت يا (لنج أُن) ، وصدقني أن لسانك ليس بأقصر جوارحك ، وإني أتنبأ لك أنه ليسوقنك إلى الخزي من أيننا (فرنسيس) كما حدث مرة للمرأة السورية الحوراء — ولكن دعنا من هذا فهي هي ذى الكأس قادمة — أنشط قليلا أيها الرجل ، وافتح فمه عنوة بنصاب خنجرك » .

فقال (تومالين): « ارجعوا عن هذا . إنه طبع غير عصى ، انظروا تجدوه يشير إلى القدح . افسحوا له أيها الرجال . أي والله ، إنهم قوم إن شرعوا يشربون ما تركوا الحجر حتى ثملوا؛ إن هذا التركي لا يسعل في الكأس ، ولا يترث في الشراب » .

وحقا لقد شرب ذلك (الدرويش) — أو سمه ما شئت — القدح الكبير حتى ثملته في جرعة واحدة ، أو تظاهر بذلك على الأقل ، ولما رفع الكأس عن شفثيه ، بعد ما غاض كل ما به ، تنهد تنهدا عميقا وتمتم قائلا: « الله كريم » ، فسرى الضحك بين العامة الذين شهدوا الرجل وهو يجترع الكأس في شربه ، وكانت ضحكاتهم عجاجة سخابة حتى هب الملك من نومه مضطربا ، ورفع إصبعه وقال

غاضبا : « ما هذا أيها اللثام ، أما لديكم لغيركم احترام ، وهل لا ترعون لنا حرمة ؟ » فسكت الجميع ولزموا الصمت ، إذ كانوا يعرفون مزاج رتشارد ، الذي كان يسمح بالكثير من الألفة الحربية أحيانا ، وأحيانا أخرى يتطلب أجل الاحترام ، وقلما كان هذا المزاج الأخير يملك عليه نفسه . وبعدئذ سارع الرجال إلى مكان قصي عن شخص الملك حتى يبقى له جلاله ، وحاولوا أن يجذبوا معهم الشيخ الولي ، الذي بدا عليه الإنهاك من المشقة السابقة ، أو غلبته الجرعة القوية التي غلبها غبا منذ حين ، فقاوم إبعاده عن هذا المكان تارة بالنضال وطورا بالأنين .

فهمس (لنج أن) لزملائه قائلا : « خلوا سبيله أيها الغافلون ؛ ناشدكم القديس « كرسطوفر » لتخلفن الرجل وإلا طاح منه خنجره ، وشق رؤوسنا عاجلا ، خلوا سبيله ، فإنه سوف ينام كالسنجاب بعد دقيقة » .

وفي تلك الآونة رمى الملك بسهم آخر من سهام نظراته إلى مكان الزحام ، ففكروا جميعا قائلين ، مخلفين الشيخ فوق الأرض عاجزا — كما يبدو — عن أن يحرك عضوا أو مفصلا من جسمه . وما انقضت لحظة حتى ساد الهدوء والسكينة ، وعادت الأمور كما كانت قبل قدوم الشيخ .

الفصل الحادي والعشرون

أنا القاتل الواهن ،

وهذا الذئب يعوى كأنه يرقبني ؛

بخطي خفيفة الوطء تخطي « تاركوبن » (١)

أسير نحو الفريسة كما تسير الأشباح .

من « ماكبث » لشكسبير

ما انقضى ربع ساعة أو ما يزيد بعد الحادث الذي روينا حتى ساد السكون التام أمام مسكن المليك ، وجلس الملك لدى مدخل السرادق بين القراءة والتأمل ، وكان العبد النوبي ما يزال يجلو الدرقة الضخمة ، مولياً ظهره باب الفسطاط . وأمام هذا المشهد — على بعد نحو مائة خطوة — وقف بعض من عامة الحراس ، وجلس بعضهم الآخر أو رقدوا مستلقين فوق العشب ، لا يحفلون بغير قصفهم وطربهم ، ويتبعهم في صمت وسكون ذلك الشيخ لا يحس به أحد ، وما فتى في الرحبة التي تمتد بين الحراس والسرادق ، ما تكاد تميزه عن حزمة من الخرق البالية .

وكان النوبي يستخدم الدرقة كالمرآة ، إذ كان لوجهها بريق وهاج تنعكس عليه المرئيات انعكاساً واضحاً ؛ ولشد ما كانت دهشته وذعره حينما رأى فيها أن الشيخ قد رفع رأسه قليلاً عن الأرض حتى يرى كل ما كان يدور حواليه ، وأخذ يتحرك بحذر وإحكام لا يتفقان ألبتة وما كان عليه من ثمل ، ثم نكس رأسه في الحال ، وكأنه اطمأن إلى أن أحداً لم يكن يرقبه ، وشرع يزحف وما يكاد الرأى يلمس في حركته جهداً تلقائياً ، كأنه يتقدم عفواً نحو الملك شيئاً فشيئاً ، ولكنه بين الحين والحين يقف ويلبث ساكناً ، كالعنكبوت يسير نحو غايته ثم تراه وكأن معين الحياة قد نصب منه ، إذا ظن أنه بات محط النظر ؛ فارتاب النوبي في هذا الضرب من الحركة ، وتأهب من جانبه — مسرعاً على قدر ما يستطيع —

(١) اسم فارس من فرسان قصة آرثر الخيالية المعروفة في الأدب الإنجليزي .

حتى يتدخل في اللحظة التي يمسي تدخله فيها أمراً لا مندوحة عنه .
وواصل الشيخ الزحف شيئاً فشيئاً كالأفعى أو القوقعة ، وما يكاد الرائي يحس به ، حتى بات على بعد عشر أذرعاً من شخص رتشارد ، ثم نهض على قدميه ، ووثب قدماً كما يثب النمر ، ووقف إلى ظهر الملك في أسرع من لمح البصر ، ولوح بخنجره في الهواء ، وكان قد أخفاه في كفه ، وما كان جيش رتشارد بأسره حينئذ بمسطيع أن ينقذ مليكه البطل ، ولكن النوبى كان - كذلك الشيخ المهوس - يسير بقدر ، فما إن هم الثانى بالظعن حتى أمسك الأول بذراعه المرفوعة ، فحول «الخارجى» - وظاهره للأولياء - ثورة غضبه نحو ذلك الذى اعترض ما بينه وبين مرماه فجاءة وبغير انتظار ، وطقن النوبى بخنجره طعنة سحجت ذراعه ، بينما انقض عليه النوبى وطرحه أرضاً ، وما أيسر ما هشمه بقوته التى ترجح قوة الشيخ أضعافاً مضاعفة ؛ وحينئذ أدرك رتشارد ما دار بين الرجلين ، فهض ، وما عراه من الدهشة والغضب ، أو ارتسم على محياه انفعال ما ، غير ما يبدى الرجل العادى حينما يبعد عن نفسه زنبورا دخيلاً أو يسحقه . ثم أمسك بالمقعد الذى كان يستوى عليه ، وما زاد على أن صاح قائلاً : « ها ! وغد دنى ! » ، ثم هشم رأس القاتل تهشياً ، وصاح الرجل وقال : « الله اكبر ، الله اكبر » مرتين ، مرة بنغم عال ، ومرة بصوت متهدج ، ثم أسلم الروح عند قدمى المليك .

هذا الشعب الذى صحب ما وقع ، نبه النباليين من أتباع رتشارد ، فاندفعوا إلى السراشق مرتاعين صاحبين ، فصاح بهم رتشارد فى صوت فيه نغم العتاب والتهم وقال : « حقا إنكم لحفظة ساهرون ، وحراس نابهون ، فلقد تركتمونى أقوم بعمل الجلالد بيدى لا بيد عمرو - أنصتوا جميعاً ، وقفوا فجيحكم هذا الذى لا ينطوى على شئ ! هلا رأيتم أبداً من قبل رجلاً تركيا قتيلاً ؟ هو ذا - انبذوا هذه الجيفة من المعسكر ، وافصلوا الرأس عن جذعه ، وعلقوه فوق رمح ، وولوا وجهه شطر مكة ، حتى يتيسر له أن يقول لذلك المدعى الدنس ، الذى أوحى له أن يأتى إلى هنا ، كيف بلغ الرسول رسالته » . ثم قال وقد التفت نحو الأتيوبى : « أما أنت

يا صاحبي الأسود الصامت - ولكن ما هذا؟ - إنك جريح - وبسلاح في
ظبانه السم لا ريب ، إذ أن حيوانا ضعيفا كهذا لا يستطيع بقوة الطعن وحدها
أكثر من أن يصيب إهاب الليث - ليمتص السم من جرحه أحدكم - إن
السم قاتل إذا اختلط بالدماء ، ولكنه لا يؤذى الشفاه إن مسته .

فأخذ عامة الحراس يتبادلون النظر مضطربين مترددين ، وغلب الرعب من
هذا الخطر الدائم أولئك الرجال الذين ما كانت الخشية تنطرق إلى قلوبهم .

ثم واصل الملك حديثه وقال : « ثم ماذا أيها الرجال ؟ هل أنتم ذوو شفاه
رقيقة ، أم هل تخشون الموت فتتأخرون ولا تتقدمون ؟ » .

فقال (لنج أن) وكان الملك ينظر إليه وهو يتكلم : « نحن لا نخشى موت
الرجال ، ولكني لا أحب أن أموت كما تموت الفأر السمومة في سبيل تلك الكتلة
السوداء الملقاة هناك ، التي تباع وتشتري في السوق كثور (مارتلما) » .

فتمتم رجل آخر وقال : « إن جلالة الملك يطلب إلينا مص السم وكأنه يقول
لنا هيا احتسوا من هذه الحجر ! » .

فقال رتشارد : « كلا ، والله ما سألت يوما رجلا أن يعمل ما لم أعمل » .
ثم وضع الملك شفتيه على جرح العبد الأسود ، غير آبه ولا مكترث بأصوات
الاحتجاج ممن أحاط به ، ولا بمعارضة النوبي نفسه الذي كان يبجل سيده ، فلقد
هزأ رتشارد بكل عتاب وغلب كل مقاومة ، وما إن توقف لحظة عن هذا العمل
الفريد الذي أقدم عليه ، حتى امسك منه النوبي ، ورمى فوق ساعده وشاحا ، وألمع
- بشارات تم عن الحزم كما تم عن إجلاله للملك - إلى عزمه على أن لا يسمح
للملك أن يعود إلى هذه الخدمة المحطية به ؛ وتعرض (لنج أن) كذلك وقال :
إن كان لا بد من إبعاد الملك عن الاشتغال بمثل ذلك العلاج فإنه يقدم شفتيه
ولسانه وأسنانه لخدمة العبد (وكان يسمى الأتيوبي كذلك) ، وإنه ليلتهم جسده
التهاما قبل أن يلمسه الملك رتشارد بفمه .

ثم دخل ثقيل مع ثلة من الضباط ، وضم صوت احتجاجه إلى أصوات الآخرين .

فقال الملك « كلا ، كلا ، لا تصيحوا صياحا لا طائل منه بعد أن يفلت الظبي من كلاب الصيد ، أو بعد ما يقبل الخطر ثم ينقضى . سوف يكون الجرح طفيفا لأنى لم أكد أمتص من الدماء قطرة . وإله لو كان قطا غضبا لكان خدشه أشد وأعمق - أما أنا فحسبى أن أتناول حبة من بلسم شاف أتقى بها ، وإن تكن لا حاجة لى بها » .

وهكذا كان يتكلم رتشارد غير مستح من تنازله من عليائه ، بل لقد كساه جلالا حنوه واعترافه بالجميل ، ولما واصل ثقيل اللوم والعتاب على تعريض الملك ذاته الكريمة للخطر ، فرض عليه الملك أن يلزم السكون .

وقال : « أرجوك الصمت وأن لا تذكر هذا الأمر بعد هذا - إنما فعلت ذلك كي أبين لهؤلاء السفلة الجهلة المتحاملين كيف يستطيعون أن يعاون بعضهم بعضا إذا ما هاجنا أولئك الأذنياء الأندال بحبالهم ونبالهم المسمومة » ، ثم قال : « خذ هذا النوبى إلى مسكنك يا ثقيل ، لقد عدلت عن رأى فى أمره ، وأسبغ عليه رعاية كافية ، ولكن اسمع منى هذا فى أذنك - تنبه كى لا يفر منك - إن مخبره خير من مظهره ؛ أعطه الحرية كاملة كى لا يترك المعسكر ، وأما أنتم أيها الأوغاد الإنجليز أكلة اللحوم ونهلة الخمر ، فعودوا إلى أما كن حراستكم ثانية ، واستوثقوا من زيادة الحذر فى رقابتكم . لا تحسبوا أنكم الآن فى بلادكم حيث الصراحة فى المعاملة ، وحيث يتكلم الرجل قبل أن يضرب ، ويصافح قبل أن يحز الرقاب . إنما الخطر فى بلادنا يسير صراحا وظيفاته مسنونة مسالولة يتحدى العدو الذى يريد به الهجوم ، وأما هنا فخصمك يستهدك وعلى يديه قفاز من الحرير لا من الحديد ، ويحز رقبتك بربيش اليمام ، ويطعنك بطرف دبوس القس ، أو يخنقك برباط ثياب العيد . اذهبوا وافتحوا أعينكم وأغلقوا أفواهكم ، وأقلوا من شرايكم ، وأحدوا من أبصاركم ، واشهدوا ما حوالىكم ، وإلا قصرت فى إطعام بطونكم الكبيرة حتى يشكو الجوع أشد الاسكتلنديين صبرا » .

فجبل الحراس وخارت نفوسهم ، ثم عادوا إلى أماكنهم ، وبدأ ثقيل يعتب على سيده مخاطرته بتهاونه في إهمال الحراس لواجبهم ، وضربهم لغيرهم مثلاً سيئاً في أمر بالغ الخطر كما حهم لرجل مريب كالشيخ أن يدنو حتى يصير من شخص الملك قاب قوسين ، وهنا عارض الملك ثقيل وقال : « لا تذكر هذا الأمر يا ثقيل ، أفكنت تريدني على أن أتقم لنفسى من خطر زرى كهذا بأشد من نعمتى على ضياع راية إنجلترا ؟ لقد انتزعت وسرقها لص ، أو اختطفها خائن ثم أسلمها ، ولم ترق في سبيلها قطرة من دم — أى صاحبي الأسود ، يقول السلطان المجيد إنك تدرك من الأمور خفيها ، والآن لو استخدمت رجلاً أشد منك حلوكة ، أو أى وسيط آخر أردت ، كى تكشف لى عن اللص الذى ألحق بشرى الإساءة ، أعطيتك وزنك ذهباً ، ماذا تقول فى هذا ؟ ها ! » .

وبدت على الرجل الأبكى الرغبة فى الكلام ، ولكنه تم بصوت خافض متقطع ، صادر عن نفس حزينة كثيفة ، ثم أطبق ذراعاً فوق الأخرى ، ونظر إلى الملك بعين فيها لمحة الأريب ، ونكس رأسه إجابة على ما سئل .
فقال رتشارد جازعاً متلهفياً : « ماذا تقول ! هل تأخذ على نفسك أن تكشف عن هذا الأمر ؟ » .

فكرر العبد النبوى الإيماء الأولى .

وقال الملك : « كيف لنا أن تفاهم ؟ هل تستطيع الكتابة أيها الرجل الكريم ؟ » .

فنكس العبد رأسه ثانية إيجاباً .

فقال الملك : « أعطوه ما يكتب به ، لقد كانت أداة الكتابة أبداً فى فسطاط أبى أقرب منالاً منها فى فسطاطى ، ولكن إن بحثتم وجدتموها هنا أو هناك ، اللهم إلا إن كان هذا الجو المحرق قد جفف المداد — والله يا ثقيل إن هذا الرجل لجوهرة ، بل لؤلؤة سوداء » .

فقال ثقيل : « هل لا بأذن لى مولاي أن أقول ما أرى ، والله ياسيدي

ما أحسب هذا الأمر إلا صفقة خاسرة ، وما أحسب هذا الرجل إلا ساحراً ،
والسحرة ينضمون إلى الخصوم الذين يريدون أن يدسوا لنا السم في الدسم ، وأن
يبتثوا الشقاق في صفوف مجامعنا و . . . » .

فقال رتشارد : « صه يا شيل ، إذا ما دنا كلبك الشاملى من ردف الغزال فصح
به وارح تلييته ، ولكن إذا ما كان بلانتاجنت يأمل أن يسترد شرفه فلا تحاول
أن تقف في سبيله » .

وفي غضون ذلك الحديث كان العبد يكتب وكأنه قد حذق فن الكتابة ، ثم
نهض ورفع ما سطر إلى جبينه ، وخر ساجداً — كعادته — قبل أن يسلم
المكتوب إلى يدى رتشارد ؛ وكان المخطوط بالفرنسية ، رغم أن رتشارد كان يتكلم
بالفرنجية حتى ذلك الحين .

« إلى رتشارد الملك الظافر الذى لا يقهر ، ملك إنجلترا ، يقدم هذا أشد
رفيقه خضوعاً . إنما الأسرار الخفية صناديق السماء المغلقة ، ولكن الحكمة قد
تفتق الوسيلة لفض ما أوسد . لو كان لعبدك أن يقف حيث زعماء الجيش المسيحى
يسرون أمامه واحداً تلو الآخر ، فكن على يقين أنه إن كان بين جموعهم من
صدرت عنه الإساءة التى يشكوها الملك ، فسوف يبدو للعيان إثمه ، حتى وإن كان
مستوراً وراء حجب سبعة » .

فقال الملك رتشارد : « أقسم بالقديس جورج لقد تحدثت بأحسن حديث ،
شيل ! أنت تعرف أنا سوف نحشد جنودنا غداً ، وقد اتفق الأمراء أن يسير
الزعماء برايتنا الجديدة وهى ترفرف فوق قمة سنت جورج ، ثم يحيونها بما يليق من
إجلال ، تكفيراً عن الهوان الذى لحق بإنجلترا من ضياع العلم . صدقنى إن الخائن
المتستر لن يجرؤ على التغيب عن هذا المشهد الرائع الذى تتمحى به الإهانة ،
خشية أن يكون غيابه موضعاً للريبة . هنالك سوف نقيم هذا الرجل الأسود
صاحب رأى السيد ، وإذا استطاع بغنه أن يكشف عن الوغد الدنىء ، فدعنى
أفعل به ما أريد » .

فقال ثهيل في صراحة البارون الإنجليزى : « مولاي ، احذر ما أنت شارع فيه ، لقد تجدد الوثام بين أفراد عصبتنا المقدسة ، وهو أمر لم يكن في الحسبان ، فهل تريد على أساس واه من الريبة ، بيعتها عبد أسود ، أن تلم جراحاً ما اندملت إلا منذ عهد قريب ، أم هل تريد أن تجعل من الموكب المهيب — الذى سوف يحتشد لاسترداد شرفك وتأسيس الوحدة بين الأمراء المتنافرين — وسيلة جديدة لإيجاد سبب آخر للأذى ، أو إحياء إحن قديمة فى النفوس ؟ وما كان أغنانى عن هذا القول ، فما هو إلا لمحة من البيان الذى أدلت به جلالتك لمجمع الصليبيين الحاشد » .

فعبس الملك واعترض ثهيل وقال : « أى ثهيل ، لقد جعلتك غيرتك وحقاً لا خلاق لك ، إني ما وعدت قط أن أحجم عن السير فى أية سبيل تؤدي إلى الكشف عن ذلك الرجل المقوت الذى ابتعث تهجم على شرفى . والله ما كان أجدرنى أن أنزل عن ملكى — بل عن حياتى — قبل أن أفعل ذلك . إن كل بيان أدليت به كان لا يخلو من هذا الشرط الضرورى الحاسم ، وما كنت لأعفو عن دوق النمسا من أجل العالم المسيحى إلا إن تقدم وأقر بإثمه إقرار الرجال » .

ثم استأنف البارون حديثه جازعاً والهأ وقال : « ولكن أى أمل لنا فى أن هذا العبد المحتال لن يخدع جلالتك ؟ » .

فقال الملك : « صمماً ثهيل ، إنك تحسب نفسك حكيماً قديراً ، وما أنت إلا أحمق جاهل . فإن ذكرت أمرى مع هذا الرجل فخاذر — واعلم أنه أسحق غوراً من أن تدرك كنهه بفطنتك وذكائك ، ذكاء « وستمورلاند » ؛ وأما أنت أيها الأسود الصامت ، فأعدّ عدتك لتتنجز العمل الذى وعدت ، وخذها كلمة من ملك أنك سوف تختار لنفسك جزاءها . صه ، صه ! لقد عاود الكتابة » .

وخط الرجل الصامت إذ ذاك وريقة أخرى ، قدمها إلى الملك ماثلاً كما فعل أول مرة ، وجاء فى مکتوبه هذه الكلمات : « إن إرادة الملك شريعة عبده ، ولا يليق للعبد أن يطلب الجزاء على أداء واجبه » .

فتوقف الملك عن القراءه وقال متعجباً : « الجزاء ، والواجب ! » ثم وجه

الخطاب إلى ثقيل ، وكله باللسان الإنجليزية وبصيغة التأكيد قائلا : « سوف يفيد أهل الشرق هؤلاء من الصليبيين — إنهم يتعلمون منهم لغة الفروسية ! — أنظر يا ثقيل إلى هذا الرجل كيف هو مضطرب جازع ، ولولا لونه الأسود لبدأ الاحمرار على وجنتيه . والله ما عجبت لو أنه أدرك ما أقول ، فهم في حذق اللغات بارعون » .

فقال ثقيل : « ليس في الأمر إلا أن هذا العبد المسكين لا قبَل له بنظرة جلالتك » .

ثم واصل الملك كلامه ، وضرب على الورقة بإصبعه وهو يقول : « ولكن هذا المكتوب الجريء يذكر أن رجلنا هذا الصامت ، الذى وثقنا فيه ، يحمل رسالة من صلاح الدين إلى السيدة أديث بلاتاجنت ، وهو الآن يرجو الوسيلة والفرصة لإبلاغ ما حُمِّل ، فماذا ترى يا ثقيل فى هذا المطلب المتواضع ؟ » .

فقال ثقيل : « إنى لا أدرى كيف تستسيغ جلالتكُم مثل هذه الحرية ، ولكنى ما أشك فى أنك لو بعثت من لدنك رسولا يحمل إلى السلطان مثل هذا المطلب ما استقام على كتفى رسولك رأسه طويلا » .

فقال رتشارد : « الحمد لله على أنى لا أشتهى واحدة من حسانه اللائى لفتحهن الشمس ، وأما أنى أجازى هذا الرجل على أداء رسالة سيده ، وأن أجازيه بعد ما أنقذ حياتى بزمن وجيز ، فما أحسب إلا أن هذا عمل جائر . سوف أبوح لك بسر يا ثقيل ؛ ولئن كان خادمنا الأسود الصامت واقفاً إلا أنه لا يستطيع — كما تعلم — أن يعيد الكلام ، حتى وإن أدرك ما نقول ؛ اعلم يا ثقيل أنى فى الأسبوعين الماضيين كنت تحت تأثير تعويذة عجيبة ، وكم وددت لو خلصت من سحرها ، وما تقدم لى رجل بخدمة طيبة حتى محامى ما عمل من خير بأذى بالغ ، وما استحق الموت على يدى نخيانة أو إهانة إلا — رجل من بين الرجال جميعا — صنع بى جميلا يرجح كل ما به من مثالب وأصبح له — رغم ما يستحق من جزاء — دين على شرفى ؛ وهكذا ترى أنى حرمت خير جانب من جوانب وظيفتى ، فأنا لا أستطيع أن أجزى خيرا

ولاشراً ؛ والله إلى أن يبدل الله الأرض غير الأرض ، لن أقول عن مطلب خادمنا هذا الأسود إلا أنه مطلب جرىء جرأة ما بعدها جرأة ، وإن خير فرصة له لكسب عفونا ورضانا ، هي أن يحاول أن يكشف لنا عن الجارم كما عرض ، وحتى آتئذ أو له رعايتك يا ثقيل واسع في العناية به عناية لاثقة . ثم قال الملك في صوت خافت : « واستمع إلى مرة أخرى ، اذهب في طلب ناسك عين جدة وتعال به إلى تورا ، قديساً كان أو هجياً ، عاقلاً أو مجنوناً ، ودعني أكله خفية وسراً .

ففصل ثقيل عن السرادق الملوكي ، وأشار إلى النوبي أن يتبعه ، وهو شديد العجب مما رأى وسمع ، وبخاصة من مسلك الملك مسلوكاً غير معهود . ولم يكن على الجملة هناك أيسر على المرء من أن يكشف عن مشاعر رتشارد وإحساساته المباشرة العاجلة - وإن يكن عسيراً في بعض الأحيان أن تعرف كم ذا يطول بقاؤها ، فلقد كان الملك لعواصف انفعاله أطوع من الريشة في مهب الريح القلب ، ولكن طبعه في هذا الظرف كان - على غير المعهود - هادئاً غامضاً ، ولم يكن من اليسير أن تحكم أيها غلب عليه في معاملته لهذا الرجل الذي انضم إلى حاشيته أخيراً : الغضب أم الشفقة ، أو أن تعرف بأي عين كان ينظر إلى الرجل الفينة بعد الفينة ؛ ولقد كان في الخدمة العاجلة ، التي أداها الملك للنوبي كي يقيه ما قد ينجم عن جرحه من سى الأثر ، كفاء للجميل الذي صنعه العبد فيه ، حينما تعرض لضربة القاتل المغتال ، ولكن يظهر أن حساباً طويلاً ما برح بينهما رهن التصفية ، وكان الملك في شك هل سيخرج من هذه التصفية على الجملة دائماً أو مديناً ، ولذا فقد اتخذ في ذلك الحين طريقاً وسطاً تليق به إن كان هذا أو ذلك ؛ أما عن النوبي وأتى تعلم فن كتابة اللغات الأوروبية ، فقد كان الملك يعتقد أنه لم يحذق اللسان الإنجليزى على الأقل ، لأنه راقبه عن كثب خلال ما دار أخيراً ، ورأى أنه يستحيل على رجل يفقه حديثاً يدور بشأنه أن يظهر وكأنه لا يابه البتة بالحديث .

الفصل الثاني والعشرون

من هناك ؟ — هيا اقترب — إنه فضل منك —
هو طببي الحكيم ، وصديق الحميم .
السر يوستاس جرى

والآن نود بروايتنا إلى الفترة التي سبقت ما ذكرنا أخيراً من حوادث بئمة وجيزة ، وذلك حينما أبعاد فارس النمر البائس عن معسكر الصليبيين ، وقد تميز بين صفوفه امتيازاً كبيراً ؛ ووجهه الملك رتشارد الطبيب العربي — كما يذكر القارىء — وهو إلى مرتبة الرقيق أقرب منه إلى أى شئ آخر . تبع الفارس سيده الجديد — كما يصح لنا الآن أن نسمى الحكيم — وقصدوا خيام المغاربة التي كانت تضم حاشيته وأملاكه ، وشعوره فاقد الرشد كرجل سقط من قمة جبل ونجا بحياته على غير انتظار ، وهو لا يقوى إلا على أن يسير متخاذلاً من المكان الذي صرع فيه ، ولكنه لا يستطيع أن يسبر مدى ما لحق به من أذى وضرر ؛ وما إن بلغ الفسطاط حتى ارتعى دون أن ينبس ببنت شفة فوق فراش من جلد الجاموس المدبوغ ، دلّه عليه مرشده ، ثم أخفى وجهه بين يديه ، وأخذ يئن أنينا عالياً وكأن قلبه يوشك أن يتفطر ، وقد سمعه الطبيب — وهو يلقى بأوامره على خدمه العديدين كي يستعدوا للرحيل صبيحة اليوم التالي قبل منبثق النهار — فتحرّكت في نفسه الشفقة ، وتوقف عما كان مشغولاً به ، ثم جلس ملقياً ساقاً فوق الأخرى إلى جانب سريره ، وأخذ يواسى الرجل كما يفعل أهل الشرق عادة .

وقال : « أى صديقي ، هوّن على نفسك ، فلقد قال الشاعر ما معناه : « خير للرجل أن يكون خادماً لسيد شفيق من أن يكون عبداً لشهوانه القوية الخالصة ، وتشجع ، فإن يوسف بن يعقوب قد باعه إخوته إلى فرعون ملك مصر ، ولكن مليكك وهبك رجلاً سوف يكون لك كالأخ الشفيق » .

وجاهد السر كنت أن يشكر الحكيم ، ولكن قلبه كان مفعاً ، فصدرت عنه أصوات غامضة وهو يحاول دون جدوى أن يجيب ، فدفعت هذه الأصوات الطبيب الشفيق إلى أن يكف عن محاولاته المتسرة لتعزية الفارس ، وخدّف خادمه هذا الجديد — أو قل ضيفه هذا — وادعاً ساكناً يسترسل في أحزانه . وبعد ما أمر بكل ما يلزم من إعداد للرحيل صبيحة الغد ، جلس على بساط الفسطاط ، وتناول وجبة وسطا بين بين ، ولما اتمش بالطعام قليلاً ، قدم للفارس الاسكتلندي قوتاً كقوته ؛ ورغم أن العبيد قد أفهموا السر كنت أنهم لن يقفوا في اليوم التالي للطعام إلا بعد أن تتقدم من اليوم ساعات عديدة ، فإن الرجل لم يستطع أن يتغلب على النفور الذي كان يحس به من تناول القوت ، وعبثاً ألحفوا عليه أن يتذوق شيئاً اللهم إلا جرعة من الماء البارد .

واستيقظ السر كنت بعد ما أدى مضيفه فريضة الصباح ثم أوى (المضيف) إلى فراشه بزمن طويل . ولم يزر الكرى جفنى العربى حتى اتصف الليل ، وسرت بين خدمه حركة لم يصحبها حديث ولا نحيب كثير ، ولكنه علم منها — رغم ذلك — أنهم كانوا يحمّون البعير ويتأهبون للرحيل ، وبيننا هذا الإعداد قائم على قدم وساق ، كان فارس اسكتلندا آخر من هب من رقادته إذا استثنينا الطبيب . وما كانت الثالثة صباحاً أو ما إلى ذلك ، قال له رئيس الخدم إنه ينبغي له أن ينهض ، ففعل دون أن يحير جواباً ، وتبعه في ضياء القمر حيث الجمال قائمة ، وأكثرها يحمل على ظهره عبئه ، ولم يبق منها غير واحد أناخ حتى يتم تحميله .

وعلى كئيب من النوق وقف عدد من الخيل ملجمة مسرجة ، ثم أقبل الحكيم نفسه وامتنطى واحداً منها برشاقة تتفق ورزاقته مركزه ، وأشار إلى آخر كي يساق إلى السر كنت ، وكان بانتظارهم ضابط انجليزى كى يخفرهم خلال معسكر الصليبيين ويتثبت من رحيلهم آمنين ؛ وكان كل شئ على أهبة للسفر ، ثم أقتلع السراق الذى خلفوه بنخفة عجيبية ، وكان حمل الناقة الأخيرة يتألف من أغطية الفسطاط وقوائمه العشرة ، ثم كرر الطبيب هذه العبارة في مهابة وخشوع « الله

يهدينا ومحمد يقينا في البر والبحر » ثم فصلت القافلة بأسرها في الحال .
واعترض سبيلهم — وهم يشقون المعسكر — الخفراء العديدون الساهرون على
الحراسة هناك ، وإذا ما مرت القافلة بجى من أحياء الصليبيين الغيورين ، سار
رجالها اضطرارا في سكينته وهدوء ، أو استمعوا إلى اللعنات تنصب على نبيهم
تمتمة فغضوا عنها الطرف كارهين ؛ وأخيرا تخطوا آخر العقبات ، والتأمت جماعتهم
وهي تسير سيرا عسكريا حذرا ، وتقدمهم اثنان أو ثلاثة من الركبان طليعة لهم ،
يتبعهم واحد أو اثنان على قيد رمح ، وكلتا تهيأت الظروف انفصل بعض منهم
ليرقب الجناحين ، وهكذا سار الجميع قُدُماً ، ونظر السركنت وراءه إلى المعسكر
يفضضه ضياء القمر ، فأحس إحساساً قويا بحرمانه من الشرف والحرية ، وبإقصائه
عن الأعلام الخفاقة التي كان يأمل أن يحظى تحت ظلها يبعد الصيت ، وأحس
كذلك يبعده عن خيام الفروسية والمسيحية و... عن أديث بلاتاجنت .

وكان الحكيم راكبا جواده إلى جواره ، فأخذ بنغمه المألوف يسرى عن
السركنت بسديد الحكم وقال : « إن كان السفر أمامك فليس من الحكمة
أن تتطلع وراءك » وبينما هو يتكلم زلّ جواد الفارس في مشيته زلة خطيرة كأنها
درس خلقى عملي يتم قصة العربي .

وقد اضطر الفارس من هذه العثرة أن يشتد في إمتلاك زمام الجواد ، واضطر
أكثر من مرة أن يلجأ إلى العنان ويستعين به ، وأما فيما عدا ذلك فلم يكن ثمة
أسلس قيادا ولا أخف حركة من هذه الفرس وهي تسير وخذأً بخطى مترنة .

وقال الطبيب صاحب الأمثال : « ما أشبه جوادك هذا بحظ الإنسان . لا بد
للراكب — والجواد يخف به بخطى هينة لينة — أن يحذر من السقوط ، وكذلك
الأمر إن بلغ بنا الجدُّ ذروته ، ينبغى لحكمتنا أن تتيقظ وتنبه كي ننجو من
سوء الطالع » .

ولكننا إذا ما امتلأت منا البطون ، نفرنا حتى من أقراص الشهيد ؛ فليس
عجيبا إذن أن يضيق بالفارس الصبر — وقد أذله نكد الطالع ، وخارت عزيمته مما

لحقه من الهوان — فلا يستمع إلى شقوته وقد باتت في كل مناسبة مضرباً للحكمة
والمثل ، مهما صدق المثل وأصاب .

فقال متبرماً : « ما أحسبني بحاجة إلى زيادة الإيضاح عن تذبذب الجَدِّ ،
ولأشكرنك يا سيدي الحكيم على حسن انتقائك لجوادى لو أنه زل زلة قاضية
تنكسر فيها رقبتى ورقبته » .

فأجاب الحكيم العربي مهيباً رزينا رابط الجأش وقال : « أخى ! إنما أنت تتكلم
كما يتكلم الحقى ؛ أنت تقول فى سريرتك إن الحكيم كان ينبغى له أن يعطيك
— كضيف له — خير الجوادين وأصغرهما ، وأن يحتفظ بالفرس العجوز لنفسه ،
ولكن اعلم أن مثالب الفرس العجوز يقابلها نشاط الراكب الشاب ، وأن شدة
الجواد الفتى يكسر من حدتها طبع الشيخ البارد » .

هكذا تكلم الحكيم ، ولكن السر كنت لم يجر لهذا الخاطر جواباً مما قد يؤدى
إلى مواصلة الحديث بينهما ؛ ولعل الطبيب قد كلَّ من التعزية يتقدم بها إلى رجل
لا يقبل التعزية ، فأشار إلى واحد من حاشيته .

وقال : « أليس لديك ، يا حسن ، شىء نقتل به ملل الطريق ؟ »

وحسن هذا قصاص شاعر ومحترف ، دفعه هذا السؤال إلى أن يجيب إلى
ما سئل ، فقال محدثاً الطبيب : « أى مولاي ، ياسيد دار الفناء ، أنت ذلك الذى
إن رآه الملكُ غزرائيل نشر جناحيه وطار ، أنت أحكم من سليمان بن داود الذى
انطبع على خاتمه (اسم الجلالة) ، هذا الاسم الذى يسيطر على الأرواح فى هذه
الدنيا — أنت تسير على جادة الخير تحمل حيث تحمل الشفاء والأمل ، فحاشا لله
أن تكتئب حياتك من قلة القصص أو الفناء . إستمع إلى ! ما دام خادمك إلى
جوارك ، فسوف تتدفق كنوز ذاكرته كما يتدفق من النبع فى الدرب تيار الماء
ينتعش به كل من سار على الطريق » .

وبعد هذه الديباجة ، رفع حسن صوته ، وشرع يقص قصة حب وسحر ،
تتخللها مآثر الظفر والقتال ، وتحليها القتبسات من شعر الفرس ، والمحدث بأقوالهم

علم ، وإذ ذاك احتشدت حول القصص حاشية الطيب كلها ، ما خلا أولئك الذين كان لا بد لهم من التخلف لرعاية البعير ، وتراحوا — على قدر ما يسمح لهم احترامهم لسيدهم — كي ينعموا بتلك اللذة التي يجدها أبداً أهل الشرق في هذا الضرب من الرواية .

ولربما لذ للسركنت في ظرف غير هذا أن يستمع إلى هذه الرواية ، التي كانت شديدة الشبه بقصص الفروسية الخيالية النائعة في أوروبا في ذلك الحين ، وذلك رغم مجزه عن فهم اللسان العربي فهما صحيحا ، ورغم أن هذه القصص كانت من إملاء خيال أشد إسرافا ، ومسوقة في لغة أكثر مبالغة ، ومليئة بالاستعارة والكناية ، لكنه — في هذا الظرف — لم يكدي يحس حتى بأن رجلا قد توسط القافلة وأخذ ينشد ويغنى في نعم خافت نحواً من ساعتين ، مترنماً بصوته ترنماً يقابل به شتيت العواطف وألوانها المختلفة التي ساقها في قصته ؛ وهو يستمع لقاء ذلك مرة إلى الإعجاب به في دمدمة خافته ، ومرة إلى استحسانه في تمتمة خافضة ، وحيناً إلى النجيب والبكاء ، وحيناً إلى إثابته بالبسات ، بل وبعالي الضحكات — والضحك على قلوب سامعيه ثقيل .

وسهما بلغ بالرجل الطريد من شرود الدهن والاسترسال في الأحران ، فقد كان يوقظ انتباهه الفينة بعد الفينة خلال هذا القصص نباح خافت يصدر عن كلب وضع في صندوق من الصفصاف يتدلى من إحدى النوق ؛ وفارسنا — كالحاطب المحنك — لم يتردد في معرفة الكلب ، فلقد كان كلبه الأمين بعينه ، ولم يشك من نباح الكلب وأنيته أن الكلب كان يدرك قرب سيده ويناشده — بطريقته — العون على إنقاذه وتحريره .

فقال : « وأأسفاه يا (رزوال) المسكين ، أنت تطلب النجدة والعطف من رجل مكبل في أصفاد أضيّق مما أنت فيه . سوف أظاھر بعدم الاكتراث لك ، ولن أجوابك المحبة ، ما دام ذلك لن يؤدي إلا إلى اشتداد المرارة عند الفراق » . وهكذا انقضت ساعات الليل ، وانقشع الفجر المعتم القاتم الذي يسبق تبشير

الصباح في سوريا ، ولكن ما إن أشرق الخيط الأول من قرص الشمس وعلا فوق الأفق ، وما إن اندلع الشعاع الأول وتألّق في قطرات الندى — التي كانت تنتثر فوق القفر الذي بلغه الركب إذ ذاك — حتى علا صوت الحكيم الجمهوري على صوت القصّاص ، وقطع عليه روايته ، وأخذ يردد فوق الزمال ذلك النداء المهيب الذي يدوي به المؤذنون في المساجد فوق المنائر كل صباح ، ويقول : « حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، لا إله إلا الله — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، محمد رسول الله — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، هذه الدار إلى الفناء — حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، إن يوم الحساب قريب »^(١)

وفي أسرع من لح البصر ، نزل المسلمون جميعاً من فوق الجياد ، وولوا وجوههم شطر مكة ، وتيمموا بالرمال عوضاً عن الوضوء بالماء ، ودعا كل منهم ربه ونبيه — في عبارة موجزة حارة — أن يشمله بالرعاية ويغفر له ذنوبه وآثامه .

ولما رأى السر كنت أقرانه يقومون بعمل لا يحسبه إلا الوثنية بعينها ، تألم في قلبه وفي نفسه ، ولكنه رغم ذلك لم يسعه إلا أن يجلب فيهم إخلاصهم وحماسهم هذه ، وإن يكن في طريق الضلال ؛ واستحثته حرارة إيمانهم على أن يضرع إلى الله هو ذاته بدعاء أظهر من دعائهم ، ولكنه عجب — مع ذلك — من هذا الإحساس الجديد الذي دفع به إلى مشاركة أولئك الأعراب في الصلاة — حتى وإن يكن بابتهاال غير ابتهالمهم — أولئك الأعراب الذين رأى في صلاتهم إجراماً مشيناً بالأرض التي قامت فيها عجائب المعجزات ، وأشرق فيها نجم الخلاص^(٢) .

هذا الابتهاال — الذي تضرع به السر كنت في هذه البيئة الغريبة — كان يتفجر من شعور طبعي خالص بالواجب الديني ، وكان له الأثر المهودي في تهديّة الخواطر التي اضطربت طويلاً من هذه النكبات التي توالّت عليه واحدة إثر الأخرى ؛ وتقرّب المسيحي إلى عرش الواحد القهار مخلصاً جاداً يعلمه خير درس في الصبر تحت الأرزاء ، لأننا إن كنا نبرم بحكم الله فنحن إذن نسيء إليه ، وإن كنا نسيء

(١) ليست هذه صيغة الأذان المشروعة في الإسلام . (٢) يقصد أرض فلسطين .

إليه فكيف لنا أن نتظاهر بالضراعة إليه ؟ أو إن كنا في صلواتنا نقر في كل عبارة بعث هذه الدار الفانية وهبائها إذا قيست بما في دار الخلود والبقاء ، فكيف لنا أن نأمل في خداع علام الغيوب ونسمح للدنيا وللشهوات الدنيوية أن تملكنا في كل حين ، بل وبعد الدعاء الخاشع لله توا ؟ ولكن السر كنت لم يكن من هؤلاء ؛ فلقد أحس بالراحة والقوة ؛ وشعر بأنه أكثر استعداداً للخضوع أو للقيام بما تتطلبه الظروف من العمل والعناء .

وكان جماعة الأعراب إذ ذاك قد عادت إلى ظهور الجمال ، واستأنفت المسير ، وواصل حسن القصاص جبل روايته ، ولكن سامعيه لم يعودوا — كما كانوا — مصغين منصتين ؛ وكان أحد الخيالة قد صعد على نشز من الأرض إلى عيين الصف القصير ، والآن عاد يهرول مسرعاً إلى الحكيم وأخذ يحادثه ، وعلى إثر ذلك بعث بأربعة أو خمسة من الفرسان ، وشرعت القافلة الصغيرة — وعدتها نحو من عشرين أو ثلاثين رجلاً — تتبعهم بالنظرات ، كأنهم قوم في شاراتهم أو تقدمهم أو تقهقرهم ما يبشر بالخير أو يندر بالشر . ولما رأى حسن أن سامعيه غير منصتين ، أو قل لما صرفته هو نفسه هذه المظاهر المرعبة في جناح القافلة ، وقف عن الغناء ، وسار الركب في صمت لا يضطرب إلا حيناً يحدو البعير الصابر راكب من الركبان ، أو حيناً يتحدث رجل قلق من أتباع الحكيم إلى جاره في همس خافت وعلى عجل . وبقوا على هذا الركود حتى أتوا سفح رابية من الرمال أخفت عن قافلهم ما كان قد حدا بطلائعهم إلى الذعر ، واستطاع السر كنت إذ ذاك أن يرى على بعد ميل أو ما ينيف ، شيئاً أسود يتحرك في قلب الصحراء سريعاً ، نظر إليه بعين المحنك فأدرك أنه قافلة من الفرسان أوفر من قافلهم عديداً ؛ وكان الوميض الكثيف المتلاحق الذي يعكس الأشعة الأفقية من الشمس المشرقة يدل على أن تلك الجماعة كانت ثلة من الأوروبيين في كامل عدتهم وسلاحهم .

فألقي فرسان الحكيم على زعيمهم نظرات جازعة قلقة تم عن خوف في النفوس شديد ، أما الحكيم فلبث رزيناً رابط الجأش كما كان حينما دعا قومه

للصلاة ، ثم بعث باثنين من خيار فرسانه الركبان وأمرهما أن يدنوا — ما سمح لهما الحذر — من أولئك المسافرين في الصحراء ، وأن يرقبا عديدهم على وجه دقيق ، وأن يتعرفا صفاتهم ومراميمهم إن استطاعا إلى ذلك سبيلا ؛ وهذا الخطر — أو شبه الخطر — كان وهو يقبل على القافلة حافزاً يحث كل غافل ، فتنبه السر كنت إلى نفسه وإلى موقفه .

وقال للحكيم : « ما إخال أولئك الرجال إلا فرساناً مسيحيين ، فإن كانوا كذلك ، فم أنت خائف ؟ » .

فرد عليه الحكيم قائلاً : « خائف ! » مردداً لفظ السر كنت باستخفاف وازدراء ، ثم قال : « إن الحكيم لا يخشى غير الله ، ولكنه أبدأ يرتقب من أشرار الرجال أسوأ ما يفعلون » .

فقال السر كنت : « إنهم مسيحيون ، ونحن في وقت الهدنة ، فلماذا نخشى الحث في اليهود ؟ » .

فقال الحكيم : « هم جنود العبد من القساوسة الذين تحظر عليهم عهودهم أن يعرفوا مهادة السلمين أو الثقة فيهم ؛ أصبهم بالوباء يارسول الله جذورا وفروعا وأغصانا ! — سلمتهم حرب ، وعهودهم بهتان وزور ؛ إن غيرهم من غزاة فلسطين لهم فترات وأحوال تُشرب فيها قلوبهم بالشفقة والرحمة ؛ فرتشارد الأسد إذا ظفر عفا ، والنسر فيليب يخفض جناحه إذا أصاب الفريسة — وحتى دب النمسا إذا امتلأت بطنه أوى إلى النوم ؛ ولكن هذه العشيرة من الذئاب الجياع لا تعرف السكون ولا الشبع فيما تسلب وتغتصب — أما ترى أنهم قد فصلوا عدداً من جماعتهم ، وأنهم يسرون شرقاً ؟ هنالك ترى غلمانهم وأتباعهم الذين ينشئونهم على مبادئهم الخفية اللعينة ، والذين بعثوا بهم — لحقتهم — كي يحولوا بيننا وبين الماء ؛ ولكن والله ليوءن بالخبية والفشل ؛ أنا أعلم منهم بحرب الصحراء » .

ثم وجه إلى كبير ضباطه بضع كلمات ، وتبدل مسلكه ومحياه في الحال من الاسترخاء والوقار — وهما في الشرق من صفات الحكماء الذين تعودوا التأمل أكثر

مما تعودوا الحركة - إلى الظهور بالهمة والكبرياء - وهما من صفات الجندي
الباسل يستفز نشاطه دون الخطر يلجحه من بعيد ويستخف به .
ولكن هذا الخطر المقبل كان له في عيني السر كنه وجه آخر ، فلما
أن قال له (أدبك) : « عليك أن تتمهل وتلزم أبداً جواري » أجابه بالنفي مطمئناً
رابط الجأش .

وقال : « هنا لك أرى صحابي بالسلاح مدججين ، هنالك أرى رجالاً أخذتُ
على نفسي أمامهم أن أقاتل أو أموت - وعلى رأيهم تتألق علامة خلاصنا المبارك -
إني لا أستطيع أن أفر من الصليب إلى صحبة الهلال » .

فقال الحكيم : « أحق بك من جاهل ! والله لو استطاعوا إخفاء الحنث في
شروط الهدنة ، لكان أول ما يقطعون به من عمل هو أن ينزلوا بك الموت » .
فأجاب السر كنه قائلاً : « عليّ أن آخذ لنفسي حذرهما من ذلك ، ولكني
إن استطعت أن أنزع عن قيود الكفار فلن أتكبل بها لحظة واحدة بعد ذلك » .
فقال الحكيم : « إذن فانا أمرك أن تتبعني » .

فأجابه السر كنه غاضباً وقال : « تأمرني ! والله لولا جميل صنعتَ بي ، ولولا
أنك أردتَ بي خيراً ، ولولا أني مدين لثقتك بحرية هاتين اليدين اللتين كان
بوسمك أن تكبلهما بالأصفاد ، لولا ذلك لأريتك أن إرغامي - وإن كنت من
السلاح أعزل - ليس بالأمر الهين أو اليسير » .

فأجاب الطبيب العربي وقال : « حسبك هذا وكفي ، إننا نضيع الوقت
وهو نفيس » .

وما إن أتم حديثه حتى لوح بساعده في الفضاء ، وصاح صياحاً عالياً أجش ،
نذيراً لمن كان في حاشيته ، فتفرقوا على الفور جميعاً على صدر البادية ، وكانهم عقد
انقطع حبله ، وانتثرت حباته كل منها في ناحية . ولم يكن لدى السر كنه من
الوقت ما يمكنه من أن يقرب ما جرى بهمد ذلك ، لأن الحكيم في تلك اللحظة
عيناها أمسك بزمام فرسه وأطلق لجواده العنان ، وانطلقاً معاً كالبرق الخاطف ،

وبسرعة كادت أن تسلب الفارس الاسكتلندي القدرة على الشهيق ، ولئن أراد أن يوقف قائده عن المسير لعجز كل العجز ؛ والسر كنهت مدرب على الفروسية منذ نعومة أظفاره ، ولكن أخف ما امتطى من جواد — رغم ذلك — لم يكن إلا كالسلحفاة إذا قيس بخيول الحكيم العربي . وأثار الجوادان وراءهما النقع ، وكأنهما ينهبان الفلاة نهباً ، ويطويان الفراسخ في لحظات ، ومع ذلك فإن قوتيهما لم تفترا ، وبقيت أنفاسهما خالصة كما كانت حينما بدءا هذا العدو العجيب . والحركة كلها يسرها وخفتها كانت بالتحليق في الهواء أشبه منها بالركض على الأديم ، ولم يصحبها شعور أليم اللهم إلا ذلك الرعب الذي يحس به المرء بطبيعته وهو يتحرك بسرعة فائقة ، وعسر التنفس الذي ينشأ عن شق الفضاء بسرعة الريح .

ومضى ما ينيف على الساعة بعد هذا الركض الرائع ، الذي يقصر مجهود البشرية بأسرها عن اللحاق به ، ثم أرخى الحكيم من سيره وأبطأ من خطى الخيل ، حتى بات عدوها محتملاً ، وشرع يحدث الاسكتلندي حديثاً طويلاً عن جدارة خيوله في صوت هادئ مطمئن ، كأنه إنما كان يمشى على قدميه في الساعة التي انقضت ، والاسكتلندي مقطوع الأنفاس ، أعشى البصر ، قليل السمع ، وجسمه كله في دوار شديد من سرعة هذا العدو الشديد ، فلم يكده يفهم الكلمات التي كانت تتدفق من صاحبه تدفقاً .

قال العربي : « هذه الخيول من سلالة تعرف (بذات الجناح) تبارى بسرعتها كل شيء عدا براق النبي ، وهي تطعم شعير اليمن الذهبي ممزوجاً بالتوابل ، وقليلاً من لحم الضأن المجفف ؛ وكم من ملك بذل ما يملك ليظفر بها ، وهي في شبيها نشيطة كما في شبابها ، وأنت أيها النصراني — إذا استثنينا المسلمين — أول من علا بمتنه جواداً من هذه الفصيلة الكريمة ، وهي من هدايا النبي لعلي كرم الله وجهه ، وهو قريبه وخليفته ويسمى بحق (أسد الله) ؛ هلا عرفت أن الزمن لا يمس هذه الخيول الكرام إلا مساً خفيفاً ، وأن الفرس التي تمتطى صهوتها الآن قد عمرت خمسة وعشرين عاماً وما تزال تحتفظ بقوتها وبسرعتها الفطرية ،

ولو كان عنانها في يد أكثر حنكة من يدك ، ما احتاجت في مسيرها إلى أكثر من أن يمسك الراكب بزمامها ؛ صلى الله على نبينا الكريم الذى خلع على المؤمنين وسائل يتقدمون بها ويتأخرون ، وسائل تجعل خصوصهم المتشجين بالحديد ينهكون من ثقل ما يحملون ! كم ذا نفخت خيول أولئك الأوغاد أصحاب المعبد ، وتصادت منها الأنفاس ، بعد ما جاهدت وضربت بحوافرها فى رمال الصحراء كى تطوى عشر معشار ما نهبت بخطاها هذه الجياد الفوارس دون أن تنهد مرة أو تعلق ظهورها الناعمة الملساء قطرة واحدة من عرق ! » .

والآن حينما بدأ الفارس الاسكتلندى يسترد أنفاسه ، ويستجمع قوة انتباهه ، لم يسهه إلا أن يعترف فى نفسه بالهزيمة التى يتميز بها هؤلاء المقاتلون من أهل الشرق فى الركض بالخيول مهاجمين أو متراجعين ، وهى ميزة تلتئم كل الملاءمه والصحارى الرملية المستوية فى بلاد العرب وسوريا ؛ ولكنه لم يرد إلى أن يزيد من كبرياء ذلك المسلم بأن يقر له بما كان يزعم لنفسه من فضل ، ولذا فقد توقف عن مواصلة الحديث ، وتلفت حواليه ، واستطاع حينئذ — بعدما أبطأ وصاحبه فى المسير — أن يحس بأنه إنما يشق بلادا ليست غريبة عنه .

فتخوم البحر الميت الجرداء ، ومياهه الكثيفة ، وسلسلة الجبال الشاهقة المعقدة التى كانت ترتفع إلى يساره ، والنخيل المتلاصقة التى يتألف منها المكان الوحيد الأخضر على صدر القفار الجرداء — وهى مشاهد إن وقعت عليها العين مرة لن تغيب عن الذكر أبدا — كل ذلك دل للسر كنه على أنه وصاحبه كانا يقتربان من العين المعروفة باسم (درة الصحراء) ، التى التقى لديها فيما مضى بالأمر العربى شيركوه أو (الضريم) ، وبعد قليل من اللحظات أوقف الرجلان جواديهما إلى جوار العين ، ودعا الحكيم السر كنه أن ينزل عن ظهر الحصان ، وأن يأوى إلى الراحة كأنه فى دار مطمئنة ، وجردا جواديهما من زماميهما ، ورأى الحكيم فى ذلك ما يكفیهما من عناية ، لأن بعضا من خيار الفرسان من عبيده سوف يقدم عما قريب ويقوم بما تقتضيه الضرورة بعد ذلك .

ثم قال وقد طرح فوق العشب قليلا من طعام : « الآن اطعم واشرب يا صاح ولا تيأس ، فالرء قد يعلو نجمه وقد يأفل ، ولكن عقل الحكيم والجندی ينبغى أن يعلو سلطان النجم » .

وحاول الفارس الأسكتلندى أن يبين عن شكره بوداعته ولين عريكته ؛ وجاهد أن يأكل شيئا تأدبا ومجاملة ، إلا أن البون الشاسع بين موقفه حينذاك ، وموقفه حينما كان بهذا المكان من قبل رسولا من الأمراء ، وظافراً في النزال ، مرّ بخاطره مر السحاب ، واسترخت قواه البدنية من أثر الصوم والإعياء والكلال ، ففحص الحكيم نبضه السريع ، وعينه الملتببة الحمراء ، ويده الحارة ، وأنفاسه المتلاحقة . وقال : « كلما سهر العقل زادت حكمته ، ولكن الجسد - وهو صنو العقل وأحسن منه مادة - يحتاج إلى معونة الراحة ؛ فلتنم يا صاح ، ولكي يصح نومك خذ جرعة من ماء ممزوجة بهذا الإكسير » .

ثم أخرج من صدره قارورة صغيرة من البلور في صندوق من الفضة المخزومة وصب قليلا من سائل قائم أسود في قنح صغير من الذهب .

ثم قال : « هذا مما أنبت الله لنا في الأرض من خيرات ، ولكن الإنسان بضعفه وبما ركب فيه من سوء كثيراً ما أحاله إلى الشر ؛ هذا الشراب قوى كنييد النصراني ، يسدل على العين الساهرة حجاب النوم ، ويخفف العبء عن الصدر المؤود ، ولكنه إن استخدم في أعراض الاستهتار والتهتك ، فهو يفتت الأعصاب ، ويهدد القوى ، ويضعف العقل ، ويقوض الحياة من أساسها ، ولكن لا تخش أن تستغل فضائل هذا الشراب إذا دعتك الحاجة ، فالرجل الحكيم يدق نفسه بعين الجدوة التي يحرق بها الأحق خيمته » (١) .

فقال السر كنت : « لقد شهدت كثيراً من حدقك أيها الحكيم العاقل ، وإني لا أجادل في نصحك » وابتلع المخدر ممزوجاً بماء من العيين ، ثم التف في برده وكان موثقاً برمانه سرجه ، واستلقى وفقاً لإرشاد الطبيب مسترخياً في

(١) الظاهر أن الإشارة هنا إلى بعض مركبات الأفيون .

الظل يرتقب الراحة المرجوة ؛ ولم يزر عينيه الكرى أول الأمر ، وتوالت عليه سلسلة من الإحساسات اللذيذة ، لا هي إلى اليقظة ولا هي إلى النهوض ، ثم عرته بعد ذلك حال شعر فيها — ولما يزل يحس بوجوده وما صار إليه — بأنه يستطيع أن يتأمل ما مر به بغير زعر أو أسف ، بل وبطأئينة كأنه يشهد قصة نوائبه ممثلة على المسرح ، أو كأنه روح بغير جسم ينظر إلى ما عمل في ماضى حياته . ثم انتقل بخواطره من هذا المجوع ، الذى كاد أن يفقد فيه الشعور بالماضى ، إلى المستقبل الذى كان — رغم كل ما يخيم عليه من سحب معتمة ليس وراءها من رجاء — يتألق بألوان زاهية ، ما كان لخياله الضيق المحدود — وهو فى ظرف خير من هذا الظرف — أن يبدع خيرا منها ، حتى حينما يكون الخيال فى أشد حالاته إرهافا ؛ فإن هذا الطريد الأسير ، هذا الفارس المهين ، بل هذا المحب اليائس ، الذى عقد رجاء سعادته على مدى بعيد عن مجال الأمل ، فى أيدى القدر القاسى الذى لا يشد أزره فيما يريد ، كان يرجو رجاء أكيدا أن يظفر فى وقت غير بعيد بالحرية وبعد الذكر والحب الموصول . ثم أخذت هذه الصورة الذهنية تظلم شيئا فشيئا ، وأصبحت هذه الأحلام المرحلة مبهمة غامضة كأشعة الشمس تذوى ساعة الغروب ، حتى هوت أخيرا فى وهدة النسيان السحيق ؛ وبقى السر كئيب مستلقيا لدى قدمى الحكيم ، ولولا أنفاسه العميقة لحسبه الرأى جسدا بغير روح ، كأن الحياة فعلا قد فارقتة .

الفصل الثالث والعشرون

وسط هذه المشاهد الموحشة

مد السحر يديه ،

يغير وجه هذه الأرض ذات السر العجيب ،

حتى تبدى ما حوالتنا من فيافي القفار

عبثاً أبدعتة ترهات الأحلام .

من روايات خيالية لأستلفو

لما هب فارس النمر من هذا السبات الطويل العميق ، ألقى نفسه في بيئة تخالف تلك التي نام في أحضانها ، ولم يدرك هل هو ما فتى مستغرقاً في الأحلام ، أم هل بدل السحر من بيئته ، فقد رأى نفسه بعد العشب الرطب ملقى على فراش دونه فُرُش الشرق الوثيرة ، وقد امتدت إليه خلال نعاسه يد رحيمة ، ونزعت عنه ثوب الجلد الذي كان يرتدى تحت درعه ، وألبسته عوضاً عنه رداء للنوم من الكتان الرقيق ووثوباً فضفاضاً من الحرير ؛ وما كان من قبل يظلمه غير نخيل الصحراء ، أما الآن فهو يرقد في سرادق من الحرير ، يتألق بأزهى ألوان نسيج الضيق ؛ وقد انتشر حول سريره ستار خفيف من الحرير الرقيق بقي نعاسه من الحشرات التي وقع لها - مذ حل في هذه الأقاليم - فريسة دأمة لا حول له ولا طول ؛ وتلفت الفارس حواليه كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يقظ حقا ، فكان كل ما وقع تحت بصره ينم عن سناء مخدعه وجلاله ، فقد أعد طست من السدر فضض داخله ، خفيف المحمل ، يفوح منه عبق العطور التي ألقيت فيه ، وإلى جوار السرير على قائم صغير من الأبنوس وضع إناء من الفضة يحوى شراباً من أنغر الأصناف ، بارد كالثلج ، مذاقه بعد الظمأ الذي عقب تناول المخدر القوى شهي فائق اللذة ؛ ولكي ينفض الفارس كل أثر من آثار التمل الذي خلفه الدواء ، اعتزم أن يستخدم الحمام ، وكانت له في ذلك لذة واتعاش ، وبعد ما جفف جسده

بقطيعة من صوف الهند ، لم يكن أحب إلى نفسه من أن يعود إلى ارتداء ملبسه الخشن ، حتى يستطيع أن يخرج ويرى إن كان العالم في الخارج قد بدل وجهها غير وجهه ، كما تبدل مقر نومه ؛ ولكنه لم يعثر على هذا اللباس ، بل وجد في مكانه رداءً عربياً من النسيج النفيس ، ومعه حسام وخنجر ، وكلها مما يليق بأمر جليل ، ولم يستطع أن يتخربص بالباعث على هذه العناية الفارطة ، ولشد ما كان يخشى أن يكون القصد من هذه الرعاية أن يترشح عن دينه وعقيدته ، فلقد كان يعرف حقا عن السلطان أنه يقدر العلم الأوروبي والبسالة الأوروبية قدرا عاليا ، فكان يكيل العطايا بغير حساب لأسراه ويفريهم بلبس العمامة ، ولذا فقد رسم السر كنث علامة الصليب على نفسه متورا خاشعا ، واعتزم أن يتحدى كل هذه الشباك والأحاييل ، ولكي يتم له ذلك تماما عقد النية عامدا على أن يفيد مما كيل له بسخاء من أسباب الترف والرفاهية بقدر يسير ، ولكنه كان يحس بدوار في رأسه ، وثقل في جفونه ، وكان يدرك أنه لا يلبق به أن يظهر خارج القسطنطينية وهو عار ، فاستلقى على الفراش ، وطوقه الكرى بذراعيه مرة أخرى .

ولكن نعاسه هذه المرة لم يكن متصلا ، فقد أيقظه صوت الطبيب وهو لدى مدخل القسطنطينية يستفسر عن صحته ، ويسأل هل أخذ بقسط وافر من الراحة ، ثم ختم كلامه بقوله : « إني أرى الستار مسدولا على الباب ، فهل لي أن أدخل خيمتك ؟ » .

واعتزم السر كنث أن يظهر له أن الدهشة لم تبلغ به حدا ينسيه مركزه فأجاب قائلا : « ليس السيد بحاجة إلى أن يطلب الإذن كي يلبق فسطاط العبد » .

فأجاب الحكيم دون أن يدخل وقال « وهب أني ما أتيتك سيدا ؟ » .

فقال الفارس : « للطبيب أن يدخل إلى سرير مريضه بغير قيد » .

وقال الحكيم : « وما أتيتك الآن طيبيا ، ولذا فإني ما زلت أطلب إليك الإذن قبل أن أدخل تحت خباء خيمتك » .

فأجاب السر كنث وقال : « بيت الصديق مفتوح على مصراعيه لمن جاء صديقا ، ولقد أريتني حتى الآن أنك لى صديق » .
فقال الحكيم الشرق بأسلوب الكناية المألوف بين بني قومه : « وهب أنى ما أتيتك صديقا ؟ » .

ولما نفذ صبر الفارس الاسكتلندى من هذه المراوغة قال : « تعال كما شئت — وكن من شئت — فإنك تعرف أنى لا أستطيع ، بل ولا أحب ، أن أمنعك عن الدخول » .

فقال الحكيم : « فإنى أتيتك إذن بصفتى عدوك القديم ، ولكنى الآن عادل كريم » .

ثم دخل وهو يتكلم ، ولما وقف إلى جوار سرير السر كنث بقى فى صوته (أدنبك) الطبيب العربى ، ولكن هيئته زرية وملامحه كلها كانت تدل على أنه (الضريم) الكردستانى المعروف باسم (شيركوه) ، فخدق فيه السر كنث وكأنه ينتظر من هذا الشبح أن يختفى كما تختفى الصورة التى يخلقها الخيال .

فقال (الضريم) : « هل يدهشك — وأنت مقاتل معروف — أن ترى جنديا يعرف شيئا من فن الشفاء ؟ اعلم أيها النصرانى أن الفارس الكامل ينبغى له أن يعرف كيف يضمد جراح جواده كما يعرف كيف يمتطى صهوته ، وأن يعرف كيف يرهف سيفه فى كور الحداد كما يعرف كيف يستخدمه فى ساحة الوغى ، وأن يعرف كيف يجلو السلاح كما يعرف كيف يمتشقه ؛ وفوق كل ذلك يجب أن يعرف كيف يشفى الجراح كما يعرف كيف يشخصها » .

وكان الفارس المسيحى يعلق عينيه بين الآونة والأخرى والعربى يتكلم ؛ ثم أغمض جفنيه ، وتمثل فى مخيلته صورة الحكيم فى ثيابه الطويلة الفضفاضة السود ، وعمامته التترية المرتفعة ، وحمياه الثابت الرصين ؛ وما إن فتح عينيه حتى عرف من العمامة الرشيقة المرصعة بالجواهر ، والقميص المصنوع من حلق الحديد المجدول بالفضة ، الذى كان يتألق ويلمع كلما ترنح الرجل بجسمه ، ومن الطلعة التى لم يعد بها أثر من

وقار العلم ، ومن الوجه المشرق الذي لم يعد يظلمه الشعر الكث ، (ولم يبق منه الآن سوى لحية مشدبة جميلة) عرف أن المسائل أمامه هو الجندي لا الحكيم .
وقال الأمير : « أفأفتئت ذاهلاً ؟ عجباً ! كيف سرت في هذه الدنيا ولم تلحظ أن الرجال ليسوا دائماً كما يدل عليهم ظاهرهم ! انظر إلى نفسك — هل أنت كما يتم عنك ظاهرك ؟ » .

فصاح الفارس قائلاً : « كلا ، وحق القديس أندراوس . إن ظاهري في معسكر المسيحيين بأسره ظاهر الجندي الخائن ، وأنا أعرف أي رجل مخلص رغم ذنوبي » .

فأجابه (الضريم) وقال : « والله لقد عرفتك كذلك ، ولما كنا قد تناولنا من ملح الطعام معاً فقد رأيت أن في ذمتي أن أنقذك من الموت والعار — ولكن هلا خبرتني لماذا أنت ما تزال على فراشك ، أفأ تعلم أن الشمس قد ضربت في كبد السماء ؟ أم هل الثياب التي بعتُ إليك على ظهر ناقتي لا تليق بملبسك ؟ » .
فأجابه الفارس وقال : « كلا إنها تليق بي ، ولكنني لست بها خليفاً . أعطني ثياب الرق أيها (الضريم) التبييل أردتها جذلاً مسروراً ، ولكنني لا أطيق ارتداء زي المقاتل الشرقي الحر ، ولبس عمامة المسلمين » .

فأجاب الأمير قائلاً : « أيها النصراني ؛ إنكم أمة اتخذتم الرية ديدنكم حتى حق لنا أن نرتاب فيكم ؛ ألم أقل لك إن صلاح الدين لا يجب أن يدخل في حظيرة الإسلام سوى أولئك الذين يهديهم النبي الكريم لأن يدينوا بشريعته ؟ إنما الشدة واللين كلاهما ليسا من سياسته في نشر الدين الخفيف . استمع إلى يا صاح ! لما ارتد للأعمى بصره بمعجزة من ربه سقطت عن عينيه الغشاوة بإرادة الله — أفتظن أن طبيياً من هذه الدار كان قادراً على أن يزيل الحجاب عن عيني الرجل ؟ كلا . ما كان لمثل هذا الطبيب إلا أن يعذب المريض بعدته وآلاته ، أو أن يخفف عنه يلسمه ومنهاته ، ولكن الضرير سوف يبقى ضريراً ؛ وما أعمى البصيرة إلا كذلك ؛ إن كان بين الفرنجة من لبس العمامة واتبع شريعة الإسلام ، كي

يجنى المال الحرام فهو آثم لا ضمير له ، وهو الذى سلك طريق الغواية ، وما شقها له السلطان . وإذا ما لاقى فى الدار الآخرة جزاء نفاقه وزُج به فى أسفل سافلين ، فى جحيم تحت جحيم النصارى واليهود والسحرة وعبدة الأوثان ، وقضى عليه أن يأكل من شجرة الزقوم ، وهى شجرة طلعتها رؤوس الشياطين ، فأثمه وجزأؤه فى عنقه لا فى عنق السلطان . وإذن فلترتد ما أعد لك من لباس ، ولا تداخلك ريبة أو شك ، لأنك إن سرت إلى معسكر صلاح الدين فإن زيك الوطنى يعرضك للمشقة والرقابة ، بل وللمذلة والمهانة .

فقال السر كنت مررداً ألفاظ الأمير : « إن سرتُ إلى معسكر صلاح الدين ؟ واحسرتاه ! خبرنى هل أنا رجل طليق ، وهل لى أن لا أذهب حيثما شئت ؟ » .
فقال الأمير : « سر أننى شئت ، وانطلق حراً كالريح التى تلعب بالرمال فى الصحراء وتثيرها حيثما أرادت ؛ ما كان للعدو النبيل الذى تلتقى مهندي ، وكاد أن ينزعه من كفى ، أن يكون لى عبداً كمن خر تحت ظبانه . والله لو كان المال والسلطان يحضنانك على أن تنضم إلى أمتنا لكفلتهما لك ، ولكنى أخشى أن الرجل الذى أبى على نفسه هبات السلطان ، والسيف مشهور على رأسه ، أن لن يقبلها الآن ، وأنا أقول له إنه حر فيما يريد . »

فقال السر كنت : « أتم على نعمتك أيها الأمير النبيل ، واجتنب أن تربى طريقاً للمثوبة بأبى على ضميرى أن أسلكها ، واسمح لى أن أعبرك — وقد طوقتني برفقك — عن عرفانى لهذا السخاء الكريم ، وهذا الجود الذى لست به قميناً . »
فأجابه الأمير (الضريم) قائلاً : « لاتقل إنك لست به قميناً ، ألم يكن حديثك مى ، وما رويت لى عن الحسان اللاتى يجلمان بلاط الملك رتشارد هو مادفع بى إلى أن أسير متخفياً إلى هناك ، وأظفر بمنظر هو أروع ما رأيت ، وما سوف أرى ، إلى أن تكتحل عيناي بجلال الجنان ؟ » .

فتناوبت وجه السر كنت الحمرة مرة والشحوب أخرى ، وكأنه أحس بأن الحديث قد أخذ يضرب على وتر حساس أليم ، ثم قال : « إنى لا أفهمك » .

فصاح به الأمير : « لاتفهمنى ! إن كان المنظر الذى شاهدت فى مرادق الملك رتشارد قد فاتك أن تراه ، إذن فبصرك أكل من حدّ العضب الخشبي فى يد المهرج . نعم إنك كنت إذ ذاك تحت حكم الموت ، أما أنا فوالله لو كان رأسى يسقط عن جذعى لصوبت من مقلتى لحاتهما الأخيرة الكليمة على تلك الصور الحسناء وكلى جبور ، ولتدحرج رأسى صوب أولئك الحور البارعات جمالا ، يلثم بشفتيه المرتعدتين أهداب أردتيهن - هنالك شهدت ملكة إنجلترا ، وهى بحسبها الفاتن جديرة بأن تكون ملكة على العالم بأسره - أى رقة تلك التى تشع من عينها الزرقاء ! وأى بريق ذلك الذى يتألق فى فرعها الذهبى المهديل ! أقسمت بالرحمن ما أحسب الحوراء التى سوف تقدم لى كأس الخلود اللؤلؤى بأحق من هذى بأحر العناق . »

فقال السركنث عابسا مقطب الجبين : « أيها العربي ، إنك تتحدث عن زوج رتشارد ملك إنجلترا ، وهى امرأة ليس للرجال أن يفكروا فيها أو يذكروها كما تُذكر النساء اللواتى تجوز حيازتهن ، وإنما يذكرونها كملكة احترامها واجب . »
فقال العربي : « ناشدتك الرحمة ، والله لقد نسيت إجلالكم الخرافى الذى يحملون للنساء اللاتى تحسبونهن بالإعجاب والعبادة أقن منهن بالعشق والمواناة ، وإنى على يقين أنك إن كنت تكنّ هذا الإجلال الرفيع لتلك المخلوقة الرقيقة الضعيفة ، التى تم كل حركة وكل خطوة من خطاها ، وكل نظرة تنظر ، على أنها امرأة حتى الصميم ، فإن ذات الجدائل السود ، والعين التى تم عن النبيل والشرف ، جديرة منك بما لا يقل عن العبادة الخالصة ؛ وإنى لأقر حقا أن لها فى قدها وسيماها الجليل شيئا من العفة والثبات - ولكن صدقتى أن المرأة لو أقدم عليها محب جرىء ، وضافت بها الحيلة ، لشكرت من أعماقها ذلك المحب الذى يعاملها كمخلوق فان لا إله باق . »

فقال السركنث فى نعمة بينة الغضب : « احترم قرية قلب الأسد . »
فأجاب الأمير هازئا : « أحترمها ! وحق الكعبة لو احترامها لجعلتها عروسا لصلاح الدين . »

فصاح المسيحي وقد هب من مرقدته وقال : « إن هذا السلطان الكافر ليس قميماً بأن يلثم الأرض التي تطؤها أدبث بلاتناجنت بقدميها ! » .

فصاح به الأمير وقال : « ها ! ماذا تقول يا منافق ؟ » ووضع يده على مقبض خنجره ، وتآلق جبينه كما يتآلق النحاس البراق ، وارتجفت شفتاه وخداه حتى لسكأن كل خضلة من خضلات لحيته قد أخذت تهتز وتلتوى كأنها أحست بالغضب الفطري ، ولكن الفارس الاسكتلندي ، الذي وقف في وجه الليث الغاضب رتشارد ، لم يرتع لهذا العربي الهاج ، وما هو في ثورته إلا كالنمر الحانق .

ثم واصل السر كنه حديثه وذراعه مطبوقتان ، ولا أثر للجبين في عينيه وقال : « والله طالما كانت يداي طليقتين لأقفن مدافعا عما قلت - راجلا أو راكبا - في وجه الأحياء جميعا ؛ وليس كثيراً على سيفي هذا العريض الكريم أن يحطم عشرين من هذه المناجل والثاقب » مشيراً إلى سيف الأمير المعقوف ، وخنجره الصغير .

فهدأت نائرة العربي والمسيحي يتكلم ، ورفع يده عن سلاحه كأن حركته الأولى لم يكن لها معنى ، ولكنه ما فتى في وطيس ثورته .

وقال : « وحق سيف النبي يا صاح ، وهو مفتاح الجنة والنار ، إن من يقول بقولك هذا لا يقيم حياته وزناً ! صدقتي أن لو كانت يداك طليقتين - على حد تعبيريك - فإن مسلماً واحداً مؤمناً قد يشغلها طويلاً حتى لتود لو تكبلتا في أصفاد الحديد من جديد » .

فأجاب السر كنه قائلاً : « والله لأن أبترها بعظام اللوح خير لي من هذا » . فقال له العربي في نعم أكثر تودداً : « إذن فهذه العاطفة الرقيقة تغل يديك الآن ، وليس في عزمي أن أطلق سراحهما ؛ لقد كنا قبل الآن متكافئين قوة وبسالة ، وربما نلتقي ثانية في ساحة النزال العادلة - ويا لعار من يفصل من خصمه قبل أخيه ! أما الآن فنحن صديقان ، وإني لأنتظر منك العون لا شديد العبارة والتحدى » .

فأجابه الفارس مررداً عبارته : « أجل نحن صديقان » ، ثم كانت بينهما فترة من السكون ، أخذ العربي المتقد يجوب فيها الفسطاط بخطاه ، كالليث يشد هياجه ثم يشوب إلى إطفاء حرارة دمه قبل أن يستلقي للراحة في عرينه ؛ أما الأوروربي - وهو أكثر من صاحبه برودة - فقد لبث في وقفته وهيئته لا يبدل منهما ، ولكنه كان - لاريب - رغم ذلك يكابد إطفاء مشاعره وقد توقدت غضبا واشتعلت على غير انتظار .

ثم قال العربي : « دعنا نفكر في هذا الأمر هادئين . إني كما تعلم طبيب ؛ ومن أراد لجرحه التثاماً ينبغي له أن لا ينقبض إذا جاءه الطبيب يسبر جرحه ويضع فيه الفتيل . أما ترى أني أوشك أن أضع إصبعي على مكن الداء ؛ أنت تحب هذه المرأة قريبة الملك رتشارد - فلتمزقن ذلك الحجاب الذي يستر خواطرك - أو إن شئت فلا تمزقه ، فإن عيني تنفذان إلى ما وراء الحجاب » .
فسكت السر كئث هنيهة ثم قال : « لقد أحببتها كما يحب الرجل رحمة ربه ، وطلبت رضاها كما يطلب الجاني غفران السماء » .

فقال العربي : « أو ما تحبها بعد ؟ »

فأجاب السر كئث قائلاً : « واحسرتاه ! إني لم أعد بحبها قيناً . بربك إلا قطعت هذا الحديث ، إن كلماتك على فؤادي كالخنجر » .

ثم استأنف (الضريم) حديثه وقال : « عفوك لحظة ، وقل لي أفلم ترج أن يشر لك هذا الحب حينما جسرت - وأنت جندي مسكين مجهول - على أن تعقد حبك بهذه الفتاة الكريمة » .

فقال الفارس : « ليس هناك حب بغير أمل ، ولكن حبي كاد أن يكون حليف اليأس ، ومثلي في ذلك مثل الملاح الذي يريد لنفسه الحياة فيسبح ويسبح ويطوى موجاً إثر موج ، وأمام بصره شعاع من ضوء ناء يراه الفينة بعد الأخرى فيعلم أن في الأفق مرسى ، ولكن قلبه الواهن وأطرافه المهوكة تؤكد له أنه لن يبلغه » .

فقال (الضريم): « والآن غاص الأمل وانطفأ ذلك الضوء الفريد إلى الأبد؟ »
فأجاب السر كنه بنغم كالصدى يصدر عن جوف أطلال القبور وقال:
« أجل إلى الأبد » .

فقال العربي: « أحسب إن كان ما ينقصك لمحة من السعادة خاطفة بعيدة
كثلك التي كانت لك من قبل ، فإن الضوء الذي عقدت به الرجاء قد يتقد ثانية ،
والأمل الذي غاص منك في لجج الأمواج قد يطفو ، وتعود أيها الفارس الكريم
إلى الاستمتاع بتغذية عواطفك الخيالية بفداء كضياء القمر شفوفا ورقة ؛ فلئن
بقيت إلى الغد طيب الأحدوث — كما كنت أبدأ — فسوف ترى معشوقتك في
مكانة لا تقل عن مكانة بنات الأمراء ؛ سوف تراها عروس صلاح الدين المنتقاة . »
فقال الأستلندي: « وددت لو تم ذلك ، وإذن فوالله إن لم ... »

ثم سكت عن الكلام كرجل يخشى المفارقة في ظروف لا تسمح له بأن يثبت
بالفعل صدق ما يقول ، فابتسم العربي وعقب قائلاً: « هل أنت تتحدى السلطان
للسجال؟ »

فأجابه السر كنه شامخاً بأنفه وقال: « ولئن تحديته فما عمامة صلاح الدين
بأولى العمام ولا خير ما طعنت برمحي » .

فقال الأمير: « أجل ، ولكنني أحسب أن السلطان قد يرى هذه وسيلة غير
عادلة ، يستهدف فيها للخطر حفظه في العروس الملكية ونهاية الحرب الضروس . »
فتألفت عينا الفارس بالحواطر التي أوحى بها إليه هذا الرأي وقال: « قد
ألاقيه في طليعة معركة من المعارك » .

فقال (الضريم): « لقد كان أبدأ في الطليعة ، وما كان من سجيته أن
ينصرف بجواده عن منازل جرى . ولكنني ما كنت أريد أن أحدث عن
السلطان . وموجز القول إن كان يرضيك أن تنال من الذكر ما يستحق من
يكشف عن اللص الذي سرق راية إنجلترا ، فإنني أستطيع أن أرشدك إلى خير

سبيل تؤدي بك إلى القيام بهذا العمل — أعني إن أردت أن تنساق لي ؟ ولقد قال لقمان : « إن أراد الصبي أن يسير فليسترشد بمريئته ، وإن أراد الجاهل أن يفهم فعلى العاقل أن يعلمه » .

فأجابه الأسكتلندي بقوله : « وإنك لعاقل أيها (الضريم) ، عاقل رغم عروبتك ، وكريم رغم كفرتك ، ولقد شهدت فيك الخلتين ، إذن فلتكن في هذا الأمر رائدي ؛ وما دمت لا تسألني شيئاً يتنافى وإخلاصي أو يناقض مسيحيتي فلاصعدن بأمرك في حينه ، افعل كما قلت ثم خذ مني حياتي بعد ذلك » .

فقال العربي : « إذن فاستمع لي ، لقد عوفي كلبك الكريم ببركة ذلك الدواء السماوي الذي يشفي الإنسان والحيوان ، وسوف يكشف لك بحكمته عن هاجميه » . فضحك الفارس وقال : « والله لقد أدركت ما تعني ، وما كان أغباني ألا أفكر في ذلك ! »

فأردف الأمير وقال : « ولكن خبرني ، هل لك في المعسكر من الأتباع أو الخدم من يعرف الكلب ؟ »

فقال السر كنت : « لقد عزلت خادمي المعجوز مريضك الذي باشرت ، والصبي الذي كان يرعاه حينما كنت أتوقع أن الموت سوف ينالني ، وأعطيته رسائل يبلغها أصدقائي في أسكتلندا ؛ ولا يألف الكلب غير هذين ؛ ولكني إن ذهبت بنفسى فأنا جد معروف ، وسيفضحني كلامي في معسكر لعبت فيه دوراً شريفاً عدة شهور » .

فقال العربي : « سوف تتخفيان كلاكما ، ولن يعرفكما أحد حتى وإن أمن فيكما عن كذب ؛ وصدقتي أن زملاءك في السلاح ، بل وإخوتك الذين هم من لحم ودمك ، لن يكشفوا أمرك لو استمعت لنصحي ؛ ولقد شهدتني أقوم بأمر أشد من هذه عمراً ؛ إن من يخرج الميت من ظلام ظلال الموت يسير عليه أن يسدل حجاباً من الظلمة على أعين الأحياء ؛ ولكن استمع إلي ، إن هناك شرطاً يرتبط

بهذه الخدمة ، وذلك أن تحمل من صلاح الدين رسالة إلى قرية الملك رك (رتشارد) ،
واسمه على لساننا وشفاهنا الشرقية عسير ، كما أن جالها في أعيننا بهيج .
فسكت السر كنت هنية قبل أن يجيب ، ولحظ العربي تردده ، فسأله إن كان
يخشى أن يؤدي هذه الرسالة .

فقال السر كنت : « كلا ، حتى وإن كان في أدامها الهلاك ؛ إنما سكت كي
أفكر إن كان يليق بشرفي أن أحمل رسالة صلاح الدين ، أو يليق بشرف السيدة
أديث أن تتسلمها من أمير مشرك » .

فقال الأمير : « بحق محمد ، وبشرف الجنديّة وبحرم الكعبة ، وبروح أبي
أقسم لك إن الرسالة لا تحمل بين سطورها إلا الشرف الرفيع ، والاحترام السامى ،
ووالله لتفريد البلبل أقرب إلى إفساد العش الوردى الذى يعشق من أن تسيء
كلمات السلطان إلى أذنى قرية ملك أنجلترا الحسنة » .

فرد عليه الفارس وقال : « إذن فسوف أحمل خطاب السلطان مخلصاً كأنى
ولدت له عبداً — ولتعلم أننى ، فيما عدا هذا العمل الساذج وهذه الخدمة التى
سوف أقوم بها صادقاً أميناً ، أبعد الرجال قاطبة عن أن يرتقب منى السلطان وساطة
أو نصحاً فى أمر هذا العشق الغريب » .

فأجابه الأمير قائلاً : « إن صلاح الدين رجل نبيل ، ولن يحفز جواداً كريماً
على أن يشب وثبة لا قبّل له بها » .

ثم قال : « تعال معى إلى فسطاطى ، وسوف أعدك فى الحال بزى تتنكر به ،
وكأنه ظلام الليل الدامس لا ينفذ إلى ما وراءه أحد ، وبعدهذا تستطيع أن
تسير فى معسكر النصارى وكأن على إصبعك خاتم جيوجى ^(١) » .

(١) ربما كان العربي يشير إلى جيبيز ، وجيبيز هذا من ملوك ليديا عاش فى القرن
السابع قبل الميلاد ، ويعرف فى القصص الخرافية بخاتمه السحرى وثروته الطائلة .

الفصل الرابع والعشرون

إن خالطت كؤوسنا ذرةً من تراب ،
لفظنا الشراب عيافة
وقد كنا لرّبه ظمأى ؛
وإذا ما جانب المسار الصدى ،
لمرة الملاح — وهي دقيقة —
أمالها عن الحق ، وتحطم السفين .
وهكذا أدنى باعث للفضب والنفور
يقطع بين الأمراء حبل المودة
ويحطم فيهم أنبل الأغراض .

من « الحرب الصليبية »

لا يشك القارىء بعد هذا إلا قليلا في من كان ذلك العبد الأتوبى في حقيقته ،
ولأى غرض سعى إلى معسكر رتشارد ، ولماذا وبأى رجاء وقف على كعب من
شخص ذلك الملك الذى أحاط به أمراؤه الشجعان من الإنجليز والنورمان ، على
كعب من قلب الأسد وهو على قمة جبل سنت جورج ، وإلى جواره راية إنجلترا
يرفعها خير رجال الجيش جميعا ، أخوه الطبيعى ، ولیم صاحب السيف الطويل إيرل
سالزبرى سليل هنرى الثانى من محبوبته (روزامند) الشهيرة ابنة (ودستك) .
وقد دار بين الملك وثقيل فى اليوم السابق حديث تبين للنوبى من خلال
الكثير من عباراته ما أدخل فى نفسه الشك والقلق على أن تنكره قد انكشف ،
وبخاصة حينما بدا على الملك أنه يدرك الأسلوب الذى سوف يكشف به الكلب
الوسيط عن اللص الذى سرق الراية ، وذلك رغم أن الظروف التى أدت إلى جرح
الكلب فى حادث العلم لم يكدر لها ذكر فى حضرة رتشارد ؛ ولكن الملك لبث
— رغما عن كل هذا — يعامل الرجل المعاملة التى يتطلبها مظهره ، فبقى النوبى فى
شك من اكتشاف أمره ، واعتزم أن لا يطرح زى التنكر عنه طوعا .
وإذ ذاك توالى على سفح الجبل الصغير جيوش الأمراء الصليبيين المتعددين

في خط طويل ، مصطفىين خلف زعمائهم من الملوك والأمراء ؛ وبينما كانت جنود الدول المختلفة تسير متتابعة ، تقدم زعمائهم خطوة أو خطوتين إلى أعلى التل ، وقدموا دلائل المجاملة لرتشارد وللراية الإنجليزية « إشارة إلى الاحترام والمحبة » كما جاء النص صريحاً في الاتفاق الذي عقد بشأن هذا الحفل « لا إلى الخضوع أو التبعية » ؛ أما رجال الدين الروحانيون — وكانوا في تلك الأيام لا يطأطئون الرؤوس لمخلوق كائن — فقد خلعوا على رتشارد وعلى شارة زعامته بركاتهم بدلا من أن يقدموا له ولاءهم وطاعتهم .

وهكذا أخذت الصفوف الطويلة تسير ، ورغم تناقص عديدها لأسباب عدة ، كان ظاهرها ظاهر الجيش المسلح الذي ليس غزوه فلسطين له إلا عملاً يسيراً . وكانت تسرى بين الجنود روح الإحساس بوحدة القوى ، فيجلسون منتصبى القامة على سروجهم الصلبة ، وينفخون في الأبواق بأنغام طروبية . أما الخيول فبعد أن اتعمشت بالراحة والعلف ، أخذت تفرك أزمتهما ، وتضرب في الأرض مرحاً ؛ وسار الجمع فيلقاً إثر فيلق ، والأعلام تخفق والرماح تتألق ، والريش يرقص وهم يسيرون صفا صفا ؛ وكان جيشاً يتألف من أمم مختلفة وبشرات متباينة ولفسات عديدة وأسلحة متنوعة ومظاهر متلونة ، ولكنهم كانوا جميعاً إذ ذاك يشتملون حماسة لذلك الغرض المقدس الخيالي ، وهو إنقاذ ابنة صهيون المنكوبة من ذل الاستعباد ، وتخليص الأرض المقدسة ، التي وطأها أقدام الأنبياء ، من نير الوثنيين المنافقين . وبيننا هنا أن نذكر أنه إن كان في الطاعة يقدمها إلى ملك إنجلترا — في ظرف غير هذا الظرف — مثل هذا العدد العديد من المحاربين الذين ما كان له عليهم حق الخضوع الطبعي ، نقول إنه إن كان في طاعتهم له شيء من التذلة والخنوع ، فإن طبيعة الحرب التي هم فيها وبواعثها كانت تلائم صفة الفروسية الممتازة فيه ، كما تتفق ومآثره المعروفة في القتال ، حتى إنه لو كان لأحد في وقت غير هذا أن ينازعه أو يدينه فما كان له إذ ذاك إلا أن يتناسى أسباب الإذانة والنزاع ؛ فتقدم الشجاع طوعاً بالولاء إلى من هو أشجع منه في حملة يتطلب نجاحها إقداماً لا يفتر ولا يلين .

وكان الملك الصالح على صهوة الجواد في منتصف الطريق إلى قمة الجبل ، وعلى رأسه خوذة مفتوحة يملوها تاج ، وملامح الرجولة فيه بادية لعين الرائي ، وهو بنظرة ، فيها استهانة وفيها إمعان ، يطالع صفوف الجيش وهي تمر به ، ويرد للقواد التحية ؛ وقيصه من الخمل ، لونه لون السماء ، تغطيه صفائح الفضة ، وجواربه من الحرير القرمزي المحلى بالذهب ، وإلى جواره يقف الرجل الذي كان ظاهره ظاهر العبد الأتوني ممسكا الكلب النليل بمقود ، كذلك الذي كان يستخدم وفقا لقواعد الصيد في تلك العصور ؛ ولم يكن في وجود هذا الرجل ما يلفت النظر ، إذ أن كثيراً من الأمراء الصليبيين كان يستخدم الرقيق الأسود في حاشيته محاكاة لأبهة العرب الوحشية .

وكانت ثنايا العلم الكبيرة ترفرف فوق هامة الملك ، وهو ينظر إليها الفينة بعد الفينة وكأنه يرى في خفقاتها احتفاء لم يوجه إليه ، ولكنه ذو خطر لأنه كان بمثابة التكفير عن المهانة التي لحقت بالملكة التي يسود عليها . ووراء هذا كله ، على رأس الجبل وفوق قمته ، أقيم برج من الخشب لهذا الطرف كي تأوي إليه الملكة بنجاريا وكبريات سيدات البلاط ، وكان الملك يتطلع إلى هذا البرج حيناً بعد الآخر ، ثم يوجه بصره من وقت لآخر صوب النوبي والكلب كما دنا قائد ، ممن عرف فيهم من قبل سوء الطوية فارتاب في مساهمتهم في سرقة العلم ، أو رأى فيهم القدرة على مثل هذا الجرم الوضع .

وعلى ذلك لم يرفع بصره إلى قمة الجبل حينما دنا فيليب أغسطس ملك فرنسا على رأس جنده الباهر من فرسان الغال - كلا ، بل لقد كان يرتقب مجيء ملك فرنسا فهبط من الجبل وفيليب يصعده ، حتى التقيا في منتصف الطريق ، وتبادلا التحية بلطف ، حتى إن الرائي ليحسب أن في المقابلة مساواة الإخاء ؛ وهذا المنظر ، منظر أعظم أميرين في أوروبا مرتبة وسطوة وهما يملنان للامتنان بينهما ، دفع بالجيوش الصليبية على بعد أميال إلى أن تنفجر بهتاف كهزيم الرعد ، كما جعل كشافه الصحراء من العرب الجواله تسارع إلى معسكر صلاح الدين تنذره بزحف

جيوش المسيحيين ؛ ولكن مَنْ غير ملك الملوك يستطيع أن يعلم ما تخفى أفئدة الملوك ؟ وتحت هذا المظهر الرقيق من الملاطفة كان رتشارد يكن لفيليب السخط والريبة ، وفيليب يفكر في الانسحاب بجنوده من جيش الصليب ، مخلفا بعده رتشارد كي يتم المشروع أو يفشل فيه بجيوشه وحدها من غير معين .

وتغيرت ملامح رتشارد حينما دنا رجال المعبد ذوو الأسلحة السوداء من فرسان وأتباع ، وهم رجال اسمازت بشرتهم حتى باتوا بسواد أهل آسيا على شبه عظيم ، وذلك من أثر الشمس في فلسطين ، وخيولهم الباهرة وأزياؤهم الفاخرة تفوق كثيراً ما لخيار الجنود الفرنسية والانجليزية ؛ وحينئذ رنا الملك جانبا بنظرة عجلى ، ولكن النوبى لبث صامتا ، وقبع كلبه الأمين لدى قدميه ، يقب بعين مستبشرة حكيمة ، تلك الصفوف التي كانت تسير تحت بصره ، ثم عرج الملك بصره ثانية صوب رجال المعبد الفرسان حينما مر به كبيرهم واستغل صفته المزوجة — المدينة والحربية — وجبا رتشارد بيركاه كقس بدلا من أن يقدم له الولاء كقائد من قواد الحرب .

فقال رتشارد إلى إيرل سولزبرى : « إن هذا الوغد المتصلف ، هذا الرجل المتلون يقابلنى راهبا ، ولكن دعها تذهب يا (لنجسورد) ؛ لا ينبغي لنا أن نضيّع على المسيحية من أجل هذه التقاليد خدمات هؤلاء المقاتلين المدربين الذين أدخل الظفر في قلوبهم الغرور — صه يا صاح ! ها هو ذا قد أقبل خصمنا الباسل دوق النمسا ، انظر إلى صورته وهيئته يا (لنجسورد) ، وأنت أيها النوبى دع الكلب يملأ ناظريه ، وحق السماء لقد أتى نديمه معه ! » .

وحقا لقد أقبل ليوبولد يتبعه المحدث والمهرج ؛ إما لأنه تعود حبهما ، أو لأنه — على الأرجح — أراد أن يلمع إلى استخفافه بالحفل الذى أوشك أن ينضم إليه ، ثم تقدم إلى رتشارد وأخذ يصغر صغيراً أراد أن يدل به على قلة اكرامه ، ولكن رزاة ملامحه كانت تم عن اكتئاب في نفسه يمازجه خوف تكوف الصبي الهارب من المدرسة وهو يقترب من أستاذه .

أقبل الدوق في حشمة ووقار ، وأدى التحية وهو كاره ، وفي عينيه التجهم والعبوس ، فهز المحدث بعصاه ، وأعلن كما يعلن الرائد أن أرشدوق النمسا ، وهو يقدم لرتشارد الخضوع والولاء ، لا ينزل عن امتيازته ومرتبته مرتبة الملك الأمير ، فأجابه المهرج بصوت جهورى وقال : « اللهم آمين ! » فأثار الضحك بين الواقفين . وتطلع الملك رتشارد إلى النوبى وإلى كلبه أكثر من مرة ، ولكن النوبى لم يبد حراكا ، ولم يجذب الكلب مقوده ، حتى إن رتشارد قال للعبد فى شيء من السخرية والازدراء :

« إنى لأخشى أن نجاحك فى هذا المشروع يا صاحبي الأسود — وقد أتيت بكلكبك يؤيدك بحكمته — لن يرفعك إلى مرتبتك بين السحرة ، ولن يزيد من حقك علينا . »

فلم يجب النوبى كعادته بأكثر من انحناء قليل .

ثم سارت بعد ذلك أمام ملك إنجلترا جنود المركز منتسرا متتابعين حسب مراكزهم ، ولكى يعرض هذا البارون القوى الماكر صفوف جيشه عرضا يبهر الأبصار ، قسمهم كتيبتين ، ووضع أخاه (انجراند) على رأس أولاهما ، وهى تتألف من أنصاره وأتباعه الذين جمعهم من أملاكه فى سوريا ، ثم جاء بنفسه يتبع أخاه على رأس فرقة بأسلة من مائتين وألف مقاتل من خفاف الفرسان الذين جمعهم أهل البندقية من أملاكهم فى دلماشيا وأسلموا قيادتهم للمركز ، وهو يرتبط بالجمهورية بروابط عدة . وكان هؤلاء المقاتلون يرتدون أزياء نصف أوروبية ، عليها كثير من سمات اللباس الشرقى ؛ كانوا يلبسون الزرد ويفظونه بجلباب من فاخر الثياب بهيج اللون ، ويلبسون السراويل الفضفاضة والأحذية القصيرة ، وعلى رؤوسهم قلنسوات مستقيمة معتدلة تشبه قلنسوات الإغريق ، ويحملون تروسا صغيرة مستديرة ، وسهاما وقسيًا وخناجر وسيوفا ، وكانوا يمتطون جيادا عنى بانتقائها وأعدت كامل الإعداد على حساب دولة البندقية ، وسيوفهم وعددهم تشبه ما يستخدمه الأتراك ، وكانوا كذلك — كهؤلاء — يضعون أقدامهم على ركابات قصيرة

ويجلسون على مقاعد مرتفعة ؛ وكان هؤلاء الجند ذوى نفع عظيم فى مناوئة الأعراب ، ولكنهم ما كانوا يقدرّون على الحرب السجال ، مثلهم فى ذلك مثل رجال الحرب فى غرب أوروبا وشمالها المدججين بالسلاح .

وفى طبيعة هذه الفرقة الرائعة أقبل كتراد فى زىّ كأزياء الجند ، ولكنه أنخر ثيابا ، حتى لقد بدا للرأى وكأنه يتألق ذهباً وفضة ، وقد علق بقلنسوته ريشة ناصعة البياض ، ووثقها بمشبك من الماس ، وهى تكاد بطولها تناطح السحاب ، وكان الجواد النبيل الذى يمسك بعنانه يقفز ويدور يمنة ويسرة ، مبدىا خفته ورشاقتة على صورة ربما كلّ منها فارس أقلّ مهارة من المركز الذى ملك زمامه برشاقة بإحدى يديه ، ورفع بالأخرى عصاة لها من مطلق النفوذ على صفوف جيشه ما للمركز على جواده ، ولكن سلطان المركز على محاربيه — رغم هذا — كان ظاهرا أكثر منه حقيقة ، إذ كان يسير الهوينى إلى جواره رجل ضئيل الجسم ، يستر جسمه كله بالسواد ، أجرد اللحية والشارب ، ومظهره على الجملة وضيع زرى إذا قيس بالأبهة والعظمة التى تحيط به ؛ ولكن هذا الرجل السن الزرى الهيثة كان أحد أولئك المندوبين الذين كانت حكومة البندقية تبعث بهم إلى المعسكرات كي يرقبوا مسلك الزعماء الذين وكلت إليهم القيادة ، ولكي يقوا على الغيرة ويحافظوا على نظام التجسس والرقابة اللذين تميزت بهما سياسة الجمهورية زمنًا طويلا .

وكان كتراد قد أخذ عن رتشارد روح الفكاهة فأحرز شيئا من رضاه ، وما إن اقترب من رتشارد حتى هبط ملك أنجلترا خطوة أو خطوتين كي يقابله ، وصاح به فى الوقت ذاته قائلا : « ها ، أفقد أتيت أيها اللورد مركزى على رأس جندك ، وظلك — كما دته — يتبعك سواء أشرقت الشمس أو لم تشرق ؛ — هل لى أن أسألك إن كانت إمرة الجند بيدك أم بيد ظلك ؟ »

فهم كتراد بالجواب وعلى شفثيه ابتسامة ، حينما أخذ رزوال ذلك الكلب النبيل ينبح بناح الهاجج المستشرى ، ثم قفز إلى الأمام ، وأفلت النوبى زمام الكلب من يده ، فانطلق الكلب ووثب على جواد كتراد النبيل ، وأمسك بالمركز من حلقه

وأنزله عن صهوة الجواد ، فأخذ الراكب ذو الريشة يتدحرج فوق الرمال ، وفر الحصان — وهو يرتعد — يعدو عدواً نائراً خلال المسكر .

فقال الملك للنوبي : « أشهد لقد أصاب كلبك الفريسة الحق فيمن أنزل ، وإني لأقسم بالقدّيس جورج إنه لحيوان نبيل ! — أبعد خشية أن يخنق الرجل . »
فباعد النوبي ما بين الكلب وكنزاد ، ولم يتم له ذلك دون مشقة ، ووثق الكلب وما برح في حمى هياجه يناضل كي يفلت من مقوده ؛ وإذ ذاك احتشد لدى المكان جم غفير ، وبخاصة من أتباع كنزاد وضباط جيشه الذين ما إن رأوا قائدهم مستلقياً يحدق في السماء وهو نائر مهتاج ، حتى رفعوه وهم يضجون صاخبين ، ويقولون : « بالعبد وقلبه ومزقوها إرباً إرباً . »

ولكن صوت رتشارد علا إذ ذاك ورن رنينه وتميز واضحاً جهورياً فوق كل صياح وهتاف ، واستمع إليه الجميع وهو يقول : « من أصاب الكلب بأذى فجزاؤه الموت الزؤام ! إنما قام الحيوان الجسور بواجبه ورائده الحكمة التي حباه بها الله والطبيعة — أي كنزاد مركز منسراً ، تقدم ، إنك نخاتل خدّاع ، وإني أمهك بالغدر والخيانة . »

وحينئذ أقبل كثير من القواد السوريين ، فصاح كنزاد — والغضب والفضيحة والارتباك تصارع حدة العاطفة في صوته وأسلوب كلامه — وقال : « ما معنى هذا؟ بم تدينونني؟ وفيم هذه المعاملة الوضيعة ، وهذه الألفاظ التي تنطوى على اللوم والتأنيب؟ هل هذا هو عهد الوفاق الذي جددته أنجلترا منذ زمن غير بعيد؟ »
فقال كبير رجال المبد في صوت كأنه ينبعث عن القبور : « هل انقلب الأمراء الصليبيون في عيني الملك رتشارد أرانب أو غزلانا يرسل الكلاب في طلب سيدها؟ »

وقال فيليب ملك فرنسا ، وقد أقبل إذ ذاك راكباً : « لا بد أن يكون حادثاً فريداً أو إنماتياً . »

وقال رئيس أساقفة صور : « خدعة من العدو . »

وقال هنرى أمير شيبانيا : « إنها مكيدة من الأعراب ، ما أجدر هذا الكلب بالإعدام وذلك العبد بالعذاب » .

فقال رتشارد : « لا يمدد أحدكم عليه يده فهو يجب الحياة ! أى كتراد ، تقدم إن جرؤت ، وأنكر التهمة التى رماك بها هذا الأبيكم بغريزته النبيلة ، تهمة الأذى أصبته به ، والمهانة الدينثة ألصقتها ببلاد الانجليز؟ »
فقال كتراد متعجلا : « إني ما مسست الراية قط » .

فقال رتشارد : « إن كلمتك تفضحك يا كتراد ! إذ أتى لك أن تعرف أن الأمر يتعلق برايتنا ؟ اللهم إلا إن كنت بالجريمة تحس ! »

فأجاب كتراد قائلا : « أفن أجل هذا الباعث وحسب أثرت فى المعسكر هذا الاضطراب ؟ وهل أنت تعزو إلى أمير وحليف جرماً ربما ارتكبه آثم دنىء طمعاً فى الخيط الذهبى^(١) ؟ أم هل أنت الآن تتهم أخاك على شهادة كلب ؟ »
وحينئذ عم بين الحشد الدعر وذاع ، حتى تدخل فيليب ملك فرنسا فى الأمر .

وقال : « أيها الأمراء النبلاء ، إنكم تتكلمون على مسمع من رجال سوف يسارعون إلى المقارعة بالسيوف إذا هم أنصتوا إلى زعمائهم وقد توترت بينهم العلاقات ؛ فبالله ناشدتكم أن تصرفوا جندكم إلى ثكناتهم ، ثم نلتق نحن جميعاً بعد ساعة فى سرادق المجمع كى نتخذ قراراً فى هذه الحال الجديدة المضطربة » .

فقال الملك رتشارد : « إني بهذا راض ، وإن كنت أحب أن أسائل هذا الوغد وهو فى ثوبه الزاهى يتمرغ فى الرمال ، ولكن لتكن إرادة فرنسا فى ذلك إرادتنا » .

ثم تفرق الزعماء كما أشار فيليب ، كل أمير على رأس جنده ، وعلا الهتاف بالحرب من كل جانب ، ونفخ فى الأبواق ، وتردد صداها نداءً لسكل هائم وكل شارد كى يتطوى تحت راية أميره ؛ وسرعان ما اضطرب الجند وسلك كل منهم

(١) يقصد الخيط الذى علق الراية به .

سبيله نحو ثكناته خلال المعسكر ؛ وهكذا امتنع كل عمل عنيف مباشر ، إلا أن الحادث الذى وقع ترك — رغم ذلك — أثره فى كل ذهن ، وعاد الآن إلى التحامل على كبرياء رتشارد وشدة أولئك القوم الأعراب الذين هتفوا صباحا لرتشارد على أنه أجدر من يقود الجيوش ؛ أما الانجليز فلما كانوا يرون أن شرف بلادهم يتعلق بالنزاع الذى ذاع أمره بين الناس ، فقد كانوا يرمون أهل البلاد الأخرى بالغيرة من صيت انجلترا واسم مليكها ، وبالليل إلى إحاطتهما بأحط ضروب الدسائس ؛ وما أكثر الاشاعات التى انتشرت فى هذا الظرف وما أشدها اختلافا ، وكانت منها واحدة تجزم بأن الملكة وصاحباتها قد أصابهن من الضجيج ذعر شديد ، وأن واحدة منهن قد سقطت مغشيا عليها .

وفى الساعة المضروبة التأم الجمع ، وكان كتراد قد نزع عن نفسه رداءه الذى انشبهت حرمة ، وخلص بخلعه من خزيه وبلبلته اللذين غلبا عليه — رغم ذكائه وسرعة خاطره — نظراً لغرابة الحادث ومفاجأة الاتهام ، وكان الآن يرتدى ثياب الإمارة ، ودخل غرفة الاجتماع وفى ذيله أرشدوق النمسا ، وكبير رجال العبد ورهبان القديس يوحنا ، وكثير غيرهما من ذوى النفوذ الذين تظاهروا بتأييده والدفاع عن قضيته ، وكان أشد ما حفزهم إلى هذا باعث سياسى ، أو أنهم هم أنفسهم يكتنون لرتشارد عداوة شخصية .

هذا المظهر — مظهر الاتحاد فى صف كتراد — كان أبعد ما يكون عن أن يؤثر فى ملك الانجليز ؛ فلقد دخل إلى المجمع وعليه سيم الاستخفاف الذى ألف ، وهو بزيه الذى نزل به عن ظهر جواده منذ حين ، ثم رنا بنظرة فيها عدم المبالاة وشيء من الازدراء ، رى بها الزعماء الذين اصطفوا حول كتراد يؤيدونه فى كثير من التكلف والتصنع ، وفى صريح العبارة رى كتراد منتسرا بسرقة الراية الانجليزية وجرح الكلب الأمين الذى وقف للدفاع عنها .

فنهض كتراد للجواب بشجاعة ، وأعلن براءته من الجريمة التى رُمى بها متحديا فى ذلك — على حد قوله — الإنس والوحش والملوك والكلاب .

وتطوَّع فيليب لأن يقف في المجمع موقف التوسط والاعتدال وقال : « أى أخى ملك أنجلترا ! إن هذه التهمة شنعاء ؛ إنا لا نسمعك تتحدث بما تعرف أنت نفسك في هذا الشأن ، وإنما عقيدتك تستند إلى مسلك هذا الكلب نحو مركز منسرا ، ولا مرء في أن كلمة الفارس والأمير ينبغى أن تنصره على نباح الكلب » .
فرد عليه رتشارد وقال : « أخى المليك ، أذكر أن الله القدير الذى خلق الكلاب لتكون لنا رفاقا فى السراء والضراء ، قد جباها بطبع نبيل لا يحتمل الخداع ؛ إن الكلب لا ينسى صديقه ولا عدوه ، وإنه ليذكر النفع والضر أدق الذكر ، إنه يشارك الإنسان فى ذكائه دون أن يكون له فى نفاقه نصيب ، وإنك لتستطيع أن ترشو الجندى ليقتل بسيفه امرأ ، أو الشاهد ليغتصب الحياة ياطل التهم ، ولكنك لا تستطيع أن تحث الكلب على أن يسيء إلى من أحسن إليه ؛ إنه صديق الإنسان ، إلا إن جلب الإنسان على نفسه عداوته ، ولا تتريب على الكلب فى هذا — استر المركز بما شئت من زاهى الثياب — احجب عن العين ظاهره — بدّل من لون بشرته بالساحيق والأصباغ — خبئه وسط مئين من الرجال — فوالله — رغم ذلك — إنى لأطرحن عنى صولجانى إن لم يميزه الكلب ويعبر عن استيائه كما شهدت اليوم ؛ وليس هذا الحادث بمجديد ، وإن يكن غربيا فى باه ، فلقد أدين من قبل القتلة واللصوص وكابدوا الموت على مثل هذا البرهان ، وقال الناس إن ليد الله فى الأمر نصيب ، وجرى مثل ذلك فى بلادك ذاتها يا أخى المليك ، وفى مثل هذا الظرف ، وقضى فى الأمر بمبارزة الرجل والكلب ، كأنهما مدع ومدافع فى قضية قتل ، وانتصر الكلب وجوزى الرجل ، واعترف بالجرم ؛ صدقتى يا أخى الملك إن خفى الجرائم كثيرا ما يبرزها إلى الضياء والنور شهادة حتى من الجمد ، بله الحيوانات الذى هو أدنى فى حكمته الفريزية من الكلب صديق الإنسان وزميله » .

فأجابه فيليب قائلا : « أجل ، لقد وقعت هذه المبارزة يا أخى الملك ، وكان ذلك فى عهد أحد أسلافنا عليهم رحمة الله ، ولكن ذلك كان فى قديم الزمان ، ولانستطيع

أن تتخذة سابقة نقيس عليها هذا الحادث ؛ وكان التهم في ذلك الحادث رجلا من عامة الناس وضيع المرتبة ، قليل الهية ، ولم يكن من أسباب الاعتداء إلا عصا ، ومن أسباب الدفاع إلا سترة قصيرة من الجلد ؛ ولكن لا يسعنا أن نحط من قدر أمير ونشينه باستخدام مثل هذا السلاح الساذج ، أو نسوقه إلى عار مثل هذا النزال .

فقال الملك رتشارد : « إننى ما فكرت في ذلك قط ، وإنما لصفقة خاسرة أن نخاطر بحياة الكلب العزيز في سبيل خأن ذى وجهين — كما برهن كتراد على أنه كذلك ؛ ولكن هاهو ذا قفازى ، وإنى أدعوه للنزال بناء على التهمة التى وجهناها إليه ، ولا أقل من أن يكون الملك خيراً من صنو المركيز . »

ولكن كتراد لم يخف إلى مجاوبة هذا التحدى الذى قذف به رتشارد وسط الجماعة ، فتوفر الوقت للملك فيليب لأن يجيب قبل أن يتحرك المركيز لرفع القفاز . فقال صاحب فرنسا : « الملك أكبر من أن يكون ندا للمركيز كتراد ، كما أن الكلب أقل من أن يكون له قرينا ؛ أى رتشارد يا صاحب الملك ، إن هذا لا يجوز ؛ أنت قائد حملتنا ، أنت درع المسيحية وسيفها . »

فقال الضابط البندقى : « إنى أحتج على مثل هذا النزال إلى أن يرد ملك انجلترا الخمسين ألف بيزنط التى يدين بها للجمهورية ؛ حسبنا أنا فى خطر من خسران ديننا لو أن مديننا وقع فى أيدي المنافقين ، فكيف نزيد الطين بلة ونعرضه للموت فى هذه المنازعات تقوم بين المسيحيين من أجل الكلاب والأعلام . »

فقال وليم صاحب السيف الطويل إيرل سولزبرى : « وأنا بدورى أحتج على أخى المليك يخاطر بحياته فى مثل هذا الأمر ، وحياته ملك لأهل انجلترا — أى أخى النبيل ، هذا قفازك نغذه ثانية ، وسأرمى بقفازى بديلا عنه ؛ إن ابن الملك حتى وإن كان فى درعه ما يدل على أنه ليس ابنا شرعيا — ند على الأقل لهذا المركيز القرد . »

وقال كتراد : « أيها الأمراء النبلاء ، إنى لا أقبل من الملك رتشارد التحدى ، لقد انتخبناه قائداً لنا فى وجه الأعراب ، وإن كان ضميره يستطيع أن يجيب

على تهمة التحرش بحليف ، واستفزازه إلى ساحة النزال على نزاع طفيف كهذا ، فإن ضميري أنا ، على الأقل ، لا يسهه أن يحتمل التأنيب على قبولها ؛ أما فيما يخص أخاه ابن الزنا ، وليم أف ودستك ، أو أيا غيره ممن يحتضن هذه التهمة الباطلة أو يجسر على مؤازرتها ، فإنني سوف أدفع عن شرفي ، وأثبت أن من يكيلها إن هو إلا كذاب أشر .

وقال رئيس أساقفة صور : « لقد تكلم مر كيز منتسرا كما يتكلم الرجل الكريم العاقل العادل ، وإنني أرى أن هذا الجدل قد يقف عند هذا الحد دون أن يصيب أحد الطرفين خزي أو عار » .

فقال ملك فرنسا : « أرى أن ينتهي الجدل عند هذا على شريطة أن يسحب الملك رتشارد تهمة على أنها بنيت على أساس واه » .

فأجاب قلب الأسد : « أي فيليب ملك فرنسا . إن كلاتي لن تسيء إلى ضميري إلى هذا الحد ، لقد أهمت كتراد هذا كلص استترت تحت جناح الليل ، وسرقشارة الشرف الإنجليزي من مكانها ، وإنني ما زلت أعتقد فيه ذلك وأتهمه بهذا ، وإذا ما حددنا للنزال يوما فلا تشكّن يا صاح في أنني سوف أجد بطلا يؤيد دعواي ما دام كتراد لا يجب أن يلقاني ، أما أنت يا ولیم فلا ينبغي لك أن تزعج بسيفك الطويل في هذا النضال دون إذن خاص منا » .

فقال فيليب ملك فرنسا : « إن مرتبتي تجعل مني حَكَمًا في هذا الأمر الأليم ، ولذا فإنني أحدد لكم اليوم الخامس بعد اليوم لحسم النزاع بالنزال وفقا لتقاليد الفروسية ، وعلى رتشارد ملك إنجلترا أن يأتي وبطله كمدّع ، وكتراد مر كيز منتسرا بشخصه كمدافع ، ولكنني لا أعرف أنني أجد أرضا محايدة بين بين يقوم عليها هذا الصراع ، فهي لا تنبني أن تكون إلى جوار هذا المعسكر ، حيث يختصم الجند وينضم كل فريق إلى حزب » .

فقال رتشارد : « ما أجددنا أن نعمد إلى كرم السلطان صلاح الدين ، فهو وإن يكن وثنيا إلا أنني لم أعرف فارسا مثله يتوفر فيه النبل ؛ ونستطيع أن

نكل إلى عدله وكرمه أمرنا يقطع فيه ، وإني إنما أقول بهذا لأولئك الذين قد يرتابون في سوء العواقب — أما أنا فإني حينما لقيت عدوى كان موضع اللقاء ساحة نزالي .

فقال فيليب : « ليكون ذلك ؛ سوف نخطر بهذا الأمر صلاح الدين ، وإن يكن في ذلك ما يكشف للعدو عن الروح السيء ، روح التفرقة الذي نود أن نستره حتى عن أنفسنا إن استطعنا ؛ وأنا الآن أفض هذا الاجتماع ، وأكلفكم جميعاً — بصفتم رجالاً مسيحيين وفرساناً نبلاء — ألا تولدوا من هذه الحصومة الأليمة شغباً جديداً في المعسكر ، ولتتركوا الأمر لعدالة الخالق خاشعين ، وتضرعوا لله أن يجعل النصر في النزال حليف الحق في أسباب الحصومة ؛ ولتكن مشيئة الله ! » .

فرددت الأصوات من كل جانب : « آمين ، آمين ! » ووسوس كبير رجال المعبد للمركز وقال : « كتراد ، هلا طلبت إليهم أن تخلص من سلطان الكلب كما جاء في (المزامير) ؟ » .

فأجاب المركز : « أنصت يا ؟ إن بظاهر الفسطاط عفريتاً من الجن أماغ عن نفسه اللثام ، وقد يأتينا نبأ من الأنباء ويخبرنا إلى أي حد أنت تؤمن بشعار هيئتكم الذي يقول : « لا تخش الأسد » .

فقال كبير رجال المعبد : « وهل تستطيع أن تقف في معمعان النزال ؟ » . فأجابه كتراد وقال : « لا ترتب في أمرى ، حقا إني ما كنت لألقى — طائماً — الحديد من رتشارد ؛ وإني لا أستحي أن أقر بأنى قد اغتبطت لخلاصى من لقائه ؛ أما أخوه ابن الزنا ومن دونه جميعاً من صفوف الجيش ، فليس من بينهم رجل يتنفس أخشى لقاءه » .

فعاود كبير رجال المعبد حديثه وقال : « ما أحسن هذه الثقة في نفسك ، وإذن فقد عملت مخالب هذا الكلب على تفكيك عرى عصابة الأمراء أكثر مما عمل مكرك ودهاؤك ، وأكثر مما عمل خنجر العربي (الخارجي) . ألا ترى كيف

أن فيليب — رغم السحب القائمة التي يتكلف إظهارها فوق جبينه — لا يستطيع أن يخفي ما يحس به من رضا لما لاح له من الأمل في التحلل من الحلف الذي كان على نفسه ثقيلًا؟ انظر كيف أن هنرى صاحب شيبانيا يسم لنفسه كقدحه الوهاج الذى يحتسى فيه التبيذ؛ وانظر إلى دوق النمسا تره يكتم الضحك والسرور وهو يظن أن خصومته توشك أن تنال ثأرها دون أن يتعرض لخطر أو مشقة؛ أنصتوا، إنه يقترب — أى دوق النمسا الملكى! ما أسوأ الظرف الذى تكون فيه هذه الشقوق فى جدر صهيون.»

فأجاب الدوق قائلاً: «إن كنت تعنى هذه الحرب الصليبية، فوالله كم ووددت لو تشئت إجماعها وآب كل منا إلى وطنه آمناً مطمئناً! — وإني لأقول بذلك واثقاً.»

فقال مركز منتسرا: «ولكن ما أشد على النفس أن تم هذه التفرقة على يدى الملك رتشارد، وما رضينا أن نكابد كل ما كابدنا إلا فى سبيله، وما خضعنا له خضوع العبد لسيدته إلا ليستخدم بسالته ضد خصومنا، ولا يوجهها إلى أصدقائنا!»

فقال الأرشدوق: «إني لا أرى أنه أكثر من غيره شجاعة بكل هذا، وإني على يقين أن المركز النبيل لو التقى وإياه فى ساحة النزال لقلبه على أمره، فلئن كان رجل الجزيرة يضرب بفأسه ضرباً شديداً فهو لا يحدق الطعن بالرمح، والله ما كان أخف على نفسى من أن ألقاه بنفسى — على ما بيننا من خصومة قديمة — لو كان خير العالم المسيحي يسمح للأمرء الملوك أن ينفسوا عن أنفسهم بالنزال. وإن شئت، أيها المركز النبيل، ثبت عنك فى هذا النزال.»

وقال كبير رجال المعبد: «وأنا كذلك.»

فقال الدوق: «إذن فلتأتيا سيدى إلى فسطاطى، وتقضيا لى قبولة هذا النهار، حيث نستطيع أن نتحدث فى هذا الشأن على مائدة الشراب الرحيق.»
فدخلوا إثر قوله فسطاطه.

وكان المحدث قد استغل حريته ودنا من سيدة بعد ما افرقع الجميع ،
ووقف المهرج « جوناس شوانكر » على بعد احتراماً لسيدة ، وقال لصاحبه
المحدث : « ماذا كان بين مولانا وهذه الجموع الفقيرة ؟ »

فقال المحدث : « خفف من تشوفك يا ابن التهريج ؛ لا يليق بي أن أخبرك
بمشورة مولانا » .

فقال جوناس : « لقد أخطأت يا رجل الحكمة ؛ إنما نحن كلانا خادمان
ملازمان لولئ أمرنا ، وبهم اثنا نينا سواء أن نعرف أيننا أكثر به اهتماماً من أخيه ،
أصاحب الحكمة أم رجل التهريج ؟ »

فقال المحدث : « لقد قال للمركيز ولرئيس رجال المعبد إنه كَلَّ من هذه
الحروب وكم يسره أن يعود إلى وطنه آمناً » .

وقال المهرج : « ما هذا بالأمر الهام وما به من خطر ، ومن الحكمة أن
يخطر له هذا الرأي ، ولكن من الحق الشديد أن يخبر به الآخرين —
أتم حديثك » .

فقال المحدث : « ها ، ثم قال لهما بعد ذلك إن رتشارد ليس بأشد من غيره
شجاعة أو أكثر حذقا في الطعان » .

فقال شوانكر : « أشدد بهذا من حق يا قرّة عيني ، ثم ماذا ؟ »
فأجابه رجل الحكمة قائلا : « قاتل الله النسيان ؛ لقد دعاها كذلك إلى
كأس من النبيذ » .

وقال جوناس : « في هذا ظاهر من الحكمة ، وهو من فضل مشورتك ؛ ولكنه إن
أكثر من الشراب وهو الراجح — فسوف يكون ذلك من فضلي أنا — ثم ماذا ؟ » .
قال الخطيب : « ليس بعد هذا ما يستحق الذكر إلا أنه ودلو أنه حظي ببقاء
رتشارد في ساحة النزال » .

فقال جوناس : « مرحى ، مرحى ! إن هذا إلا هراء من الباطل ، وإني
لأستحي أن أظفر عن هذه السبيل ، ولكننا رغم حمقه سوف نتبعه أيها المحدث
الحكيم ، وسوف نأخذ بنصيبتنا من شراب النبيذ » .

الفصل الخامس والعشرون

هذا حيود عنك تجليته قرّة عيني ،
فما أحببتك وأفرطت فيك حبا ،
إلا لأني للشرف أشد حبا وأقوى .

من شعر منتروز

لما عاد الملك رتشارد إلى سرادقه أمر أن يؤتى له بالنوبي ، فدخل الرجل يقدم آيات الاحترام التي ألف ، وانكبّ على وجهه ، ثم لبث مائلا أمام الملك كما يقف العبد يرتقب ما يأمر به سيده ؛ وربما كان من حسن طالعهِ أن القيام بواجبه كان يتطلب منه أن يعض الطرف ، فلو أنه تلقى كل مارمقه به رتشارد من نظرات حادة صوبها نحوه فترة وهو صامت ، لما كان له قبّل باحتمالها .

وبعد هنيهة قال الملك : « إنك تعرف قواعد الصيد حق المعرفة ، وقد شرعت في مطاردة الفريسة حتى أوقفها عند حدها بجدارة كأن (ترسترم) نفسه قد علمك هذا^(١) ؛ ولكن ليس هذا كل ما في الأمر — إنما ينبغي أن نسحق الصيد سحقا ، ما كان أحب إلى نفسي من أن أصوب رمح صيدي نحوه ، ولكن يظهر أن هناك أسبابا تحول دون ذلك ؛ إنك توشك أن تعود إلى معسكر السلطان برسالة تطلب فيها إلى عظمتهِ أن يعين مكانا على الحياض تقوم عليه أعمال الفروسية ، وأن يُجمع معنا على مشاهدتها إن شاء ؛ والآن ما أحسب — رجما بالغيب — إلا أنك واجد في ذلك المعسكر فارسا يقبل تزال هذا الخائن (منتسرا) حبا في الحق ورغبة في الزيادة من شرفه » .

فرجع النوبي بصره ، وصوبه نحو الملك وهو ينظر نظرة فيها حرارة وغيره ، ثم رفع عينيه إلى السماء يحمده الله من الأعماق حتى تألق الدمع في مقلتيه ، ثم طأطأ

(١) هذه أسطورة عالمية تعزى إلى السر (ترسترم) الذي عرف بحبه للملكة (لايزلت) الجميلة — وقد كانت القواعد المتعلقة بالصيد ذات خطر كبير في العصور الوسطى .

رأسه تأييدا لإرادة رتشارد ، وعاد إلى وقفته الأولى ، وقفة الخادم الخاضع .
وقال الملك : نعمَ هذا ؛ إنى أراك راغبا في التكرم علىّ في هذا الشأن ، وينبغى
لى أن أقول إن في هذا فضل خادم مثلك ليس له لسان يجادل به أغراضنا ، أو
يطلب شرحاً لما اعتزمنا . لو كان مكانك خادم انجليزى لنصح لى وأصر على أن
أكلّ بالنزال إلى رمّاح متين من أتباعى ، وهم جميعا من أخى (لنجسورد) فنازلا
يتحرقون للقتال فى صنى ؛ ولو كان فرنسيا ثرئارا لحاول ألف مرة أن يعرف لماذا
أنا أبحث عن بطل فى معسكر المسلمين ؛ أما أنت أيها الوسيط الصامت ، فستطيع
أن تؤدى رسالتى دون أن تجادل فيها أو تفهمها ، السمع لديك طاعة .
فكان الجواب اللائق من الأيوبى على هذا التعليق أن انحنى بجسمه وجثا
إجلالا واحتراما .

وقال الملك وقد تكلم مفاجئا ومسارعا : « والآن لتكلم فى شأن آخر ، هل
رأيت أدب بلانتاجنت ؟ » .

فرفع الصامت بصره كأنه يوشك أن ينبس بكلمة — بل انفرجت شفثاه
عن نقى صريح — ولكن هذه المحاولة العقيمة — محاولة الكلام — تلاشت فى
تمتمة الأبكم تمتمة ملتوية .

وقال الملك : « ما هذا ! والله لكأن رنين اسم العذراء الملكية ذات الجمال
البارع ، ابنة عمنا الحسنة ، له من السلطان ما يكفى لأن ينطق الأبكم ؛ أى المعجزات
إذن تصنع عينها بمثل هذا الرجل ! لأقومن بالتجربة يا صاحبي العبد ، وسوف
ترى هذا الجمال المصطفى من بلاطنا ، ثم تؤدى للسلطان المليك الرسالة » .

هذا والنوبى تارة ينظر نظرة فيها النشوة والسرور ، وطورا يجثو إجلالا ؛
وما إن نهض حتى وضع الملك يده ثقيلة على كتفه ، وفى رزانه رصينة استأنف
الكلام وقال : « دعنى أحذرك يا رسولى الأسود من أمر واحد : لو أحسست
بأن لتلك التى سترها عما قريب أثرا على نفسك شقيقا يحل عقدة لسانك —
وهو ، على حد تعبير السلطان الكريم ، ينحبس الآن فى قلعة جدرانها من

العاج^(١) — لو أحسست بهذا ، فاحذر أن تبدل من نفسك هذه الكتومة نفساً أخرى ، وحذار أن تنبس في حضرتها بينت شفة ، حتى وإن استعدت قوة منطلقك استعادة تدعو إلى الإعجاب ؛ إذن فصدقني لأخرجن لسانك من جذوره ولأحطمن جذره العاجية — وما أحسبها إلا صفوف أسنانك — واحدا بعد الآخر ؛ وإذن فلتلزم الصمت والحكمة .

وما إن رفع الملك قبضته القوية عن كتف النوبي ، حتى طأطأ الرجل رأسه ، ووضع يده على شفثيه إشارة صامتة إلى طاعته .
ولكن رتشارد وضع يده فوقه ثانية ثم قال : « هذا الأمر نكلفك به بصفتك مولى ؛ ولو أنك كنت فارساً ورجلاً كريماً لطلبنا إليك أن تعدنا بالصمت ، وهو من أسباب ثقتنا فيك الآن » .

فاتصّب النوبي بصلف وكبرياء ، وحدث في الملك ، ووضع يمينه على قلبه .
ودعا بعد ذلك رتشارد كبير حجابيه وقال : « اذهب وهذا العبد يا ثهيل إلى فسطاط زوجنا الملكة ، وقل إننا نريد به أن يمثل وحيداً أمام ابنة عمنا أديث ، فإن لديه رسالة لها ؛ وتستطيع كذلك أن تدله إلى الطريق إن احتاج إلى إرشادك ، وإن يكن — كما رأيت — قد بات يعرف كل ما جاور معسكرنا معرفة تدعو إلى الإعجاب » . ثم واصل الملك الحديث وقال : « وأنت كذلك يا صاحبي الأتيوبي اصنع ما أنت صانع على عجل ، وعد إلى هنا بعد نصف ساعة » .

ولعب الشك في نفس النوبي المزعوم ، وظن أن الملك قد كشف أمره ، وتبع خطى ثهيل العاجلة نحو فسطاط الملكة برجاريا وهو مطرق البصر ، مطبق الذراعين وقال محدثاً نفسه : « لا مهرب في أن الملك رتشارد قد كشف أمرى ، وعرف حقيقتي ولكني لا أرى رغم ذلك أن بغضه لى شديد ؛ إن كنت لم أخطئ فهم كلماته ، — ومحال أنى فعلت — فلقد أعطاني فرصة سعيدة أسترد بها شرفي على رأس هذا المركز الخداع ، الذي قرأت إعمه في عينيه الواهنتين ، وشفثيه المرتجفتين ، حينما

(١) يقصد منه وأسانه البيض .

ووجهت إليه التهمة — (أى (رزوال) ، لقد خدمت صاحبك مخلصاً ، ولسوف يدفع الثمن غالباً ثأراً لك ! — ولكن ماذا عسى أن يكون الغرض من الإذن لي بأن أنظر إلى من بنيت من رؤيتها ثانية حياتي ؟ ولماذا وكيف يرضى بلانتاجت المليك بأن أشهد قريبتة الإلهية ، سواء كنت رسولا من صلاح الدين المشرك أو آتماً طريداً أقصاه عن معسكره أخيراً — وقد كان اعترافه الجريء بحبه الذى يفخر به هو أشد ما يدعو إلى العجب من جرمه — ؟ أما أن رتشارد يرضى لها بأن تسلم مكتوباً من محب منافق ، ومن يد رجل مثل وضع المرتبة ، فكلها أمران تصديقهما عسير ، ويناقض أحدهما الآخر . ولكن رتشارد ، إذا كان لا يندفع بثأرة نفسه ، رجل سمح كريم ونبيل حقاً ، ولسوف أجازيه على صفاته هذه وأعمل وفقاً لما يأمر به تصریحاً أو تليحاً ، ولن أسمى فى أن أعرف أكثر مما يتكشف لى شيئاً فشيئاً دون أن أستعلم بالفضول عن شيء ؛ وإنى حقاً لمدين له بالطاعة والخضوع ، إذ أعطانى هذه الفرصة الباسلة أبرى بها شرفى الملوث ، ومهما يكن عسيراً على النفس فلسوف أرد الدين » ، ثم انتفض قلبه انتفاضة الكبرياء ، وخطر له ما يأتى ، وقال محدثاً نفسه : « إن قلب الأسد — كما يدعونه — ربما كان يقيس مشاعر الآخرين بمشاعره ؛ كيف لى هذا وأنا لم أوجه إليها كلمة حينما ناولتنى بيدها الهبة الملكية — حينما كنت لا أعد من أدنى الرجال فى أعمال الفروسية بين حماة الصليب ! كيف لى أن أدنو منها وأنا فى تنكر وضع وفى لباس خسيس ! يا ويلتى ! إن حالى حقاً لحال العبد ، يلطخ العار شرفى ، وقد كان يوماً درعى وحمائى ! كيف لى أن أفعل ذلك ؟ إنه لا يعرف عنى إلا القليل ، ولسكنى أشكره على هذه الفرصة التى قد تقرب بين قلبينا » .

وما إن استقر به الرأى على هذا ، حتى كان وصاحبه يباب سرادق الملكة ، فأدخلهما الحراس ، بطبيعة الحال ، وخلف ثيل النوبى فى غرفة صغيرة للانتظار كان يذكرها تمام الذكر ، ثم انسل إلى الغرفة التى كانت تستقبل الملكة فيها زائريها ، وبلغها إرادة مولاه المليك فى صوت خافت النغم يرن بالأجلال ، ويخالف

أشد المخالفة إقدام توماس دى فو ، الذى كان له رتشارد كل شيء ، وبقية البلاط (وفيه برنجاريا ذاتها) لاشيء ، وما إن أتم إبلاغ رسالته حتى علت الأصوات بالضحك . وارتفع صوت قوى ، سرعان ما أدرك أنه صوت برنجاريا ، وقال : « وما هيئة هذا الرقيق النوبى الذى أنا سفيراً فى مثل هذه الرسالة من السلطان ؟ أليس يا ثريل عبدا أسود الجلد ، شعره مجعد كشعر الكبش ، وأنفه أفطس ، وشفته غليظتان — أليس كذلك يا سر هنرى ، يأبها الرجل الكريم ؟ » . وقال صوت آخر : « ولا تنس جلالتك منه عظم الساق المنحنى إلى الأمام كظبابة الأحبب العربى » .

فقات الملكة : « بل كسهم (كيويد) إذ قد أنا فى رسالة محب عاشق . أى ثريل يا كريم النفس ! إنك أبدأ متأهب لأن تدخل السرور على قلوبنا نحن السيدات المسكينات ، اللاتى ليس لديهن إلا القليل من أسباب المرح نصرف بها ساعات الخمول ؛ ينبغى أن نرى رسول الحب هذا ، فلقد شهدت كثيراً من الأتراك والمغاربة ، ولكنى ما رأيت عبداً أسود قط » .

فقال الفارس الظريف : « إنما خلقت لأن أطيع أمر جلالتك ؛ وإنك سوف تبليغنى الخطوة لدى سيدى إن سمحت لى أن أفعل ذلك ؛ ودعبنى أوكد لجلالتك أنك سوف ترين رجلاً يخالف ما تتوقعين » .

« خير لنا هذا — هل هو أقبح مما يتصور خيالنا ، وهو مع ذلك رسول الحب المصطفى من هذا السلطان الباسل المجيد ! »

وقالت السيدة كالستا : « مولاتى صاحبة الجلالة ، هل لى أن أتوسل إليك أن تسمحى للفارس الكريم أن يذهب وهذا الرسول رأساً إلى السيدة أدبث التى ينبغى له أن يوجه إليها الخطاب ؛ إننا ما كدنا نتجو من مثل هذا المزاح » .

فكررت الملكة كلمها هازئة وقالت : « نتجو ؟ أى والله ، وقد تكونين مصيبة فى حذرک يا كالستا ؛ ليؤد هذا النوبى — كما تسمينه — رسالته أولاً إلى ابنة عمنا — وفضلاً عن ذلك فهو أبكم ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب الفارس قائلاً : « أجل مولاتي الملكة » .

فقالت بنجاريا : « إنه للهو ملكي تتلعي به نساء الشرق ، إذ يقوم بخدمتهن رجال يستظمن أن يقلن بحضرتهم ما شئن ، وما يقدرن على رواية شيء منه ؛ أما في معسكرنا ، فالطيور في سمائها تحمل الأخبار ، كما يقول أسقف سنت جود » .

فقال دي شيل : « ذلك لأن جلالتك قد نسيت أنك تتكلمين داخل جدران من الوبر » .

وما إن قال كلمته هذه حتى خفتت الأصوات ، وبعد قليل من الهمس عاد الفارس الإنجليزي ثانية إلى الأتيوبي ، وأشار له أن يتبعه ، ففعل ، وسار به ثقيل إلى سرادق ضرب على بعد من سرادق الملكة ، وأعد — كما يبدو — لايواء السيدة أديث وحاشيتها ، وقد تسلمت إحدى وصيفاتها القبطيات الرسالة التي حملها هنرى ثقيل ، وبعد بضع دقائق سيق النوبى إلى حضرة أديث ، ويقي ثقيل خارج الفسطاط ، وأشارت السيدة إلى الملوكة التي قدمت الرجل بالانسحاب ، ثم جثا الفارس البائس — وهو في هذا التنكر العجيب — على إحدى ركبتيه خاضعاً خاشعاً لا يوقفه غضب ، بل ومن صميم قلبه وفؤاده ، ورنًا يبصره نحو الأرض ، وأطبق ذراعيه فوق صدره كأنه جرم يرتقب قضاءه وقدره . وكانت أديث ترتدى الرداء عينه الذي استقبلت به الملك رتشارد ، وحجابها الطويل الشفاف يتدلى حولها كالظل في ليلة من ليالى الصيف على أرض جميلة المنظر ، والحجاب يخفى بعض جمالها ويعتم بعضه الآخر الذى لا يخفيه ، وكانت تمسك بيدها مصباحاً من الفضة يتقد بسائل عبق يتلألأ حين يحترق تلالؤا غير معهود .

وما إن دنت أديث من العبد الساكن الجاني ، وأصبحت منه على قيد خطوة ، حتى صوبت الضوء على وجهه كأنها تريد أن تستشف ملامحه بدقة ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، ووضعت مصباحها بحيث يرتمي ظل وجه العبد من أحد جانبيه على

سجاف يتدلى جانبا ، وأخيراً تكلمت بصوت فيه الطمأنينة ، ولكن رنين الأسي فيه شديد .

وقالت : « أفهذا حقاً أنت فارس النمر الباسل - السر كنت الاسكتلندي الشهم - أفهذا أنت حقاً ؟ - تنكرت هذا التنكر المشين ، وأحاطت بك مئين المخاطر ؟ »

وما إن سمع الفارس نبرات صوت معشوقته ، وقد وجهت إليه الخطاب على غير انتظار ، وبنغم فيه من العطف ما يوشك أن يكون خفة ورقة ، حتى استبق الجواب إلى شفثيه ، وكاد أن يرد ويخرج على ما أمره به رتشارد وما وعد من صمت ؛ فلقد كان المنظر الذي رأى ، والصوت الذي سمع ، يكفيانه عوضاً عن رق مدى الحياة ، وأخطار يستهدف لها في كل حين ؛ ولكنه استجمع قواه ، ولم يزد جوابه على سؤال أديث ابنة البيت الكريم عن تنهد عميق شديد الانفعال .

واستأنفت أديث حديثها وقالت : « أجل لقد أصاب حدسي ، إني عرفتك منذ ظهرت أول الأمر قريبا من المنصة التي وقفت عليها مع الملكة ، وعرفت كذلك كلبك الجسور ؛ إن كان تنكر الزى أو تغير اللون يخفى عن فتاتك خادما مخلصا أمينا ، فهي ليست سيدة مخلصه ، وليست قيمته بخدمات أمثالك من الفوارس . تكلم إذن ولا تخش أديث بلاتاجنت ، فهي تعرف كيف ترفق بالفارس الكريم وهو في محنته ، ترفق بالفارس الذي أدى واجبه وأحرز الشرف وأصاب المرمى من أجل اسمها حيناً كان الخطر له حليفاً - أما زلت صامتا ! أمن الخوف أو العار أنت لا تنطق ؟ ينبني لك ألا تعرف الخوف ، أما العار فليصب أولئك الذين أساءوا إليك » .

فيئس الفارس من الإبقاء على الصمت في مثل هذا اللقاء الممتع ، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن خزيه بغير النهد العميق ، ووضع إصبعه على شفثيه ، فتراجعت أديث كأنها مستاءة .

ثم قالت : « ما هذا ! هل أنت أبكم آسيوى في فعالك ، كما أنت في ردائك ؟

إني ما كنت أرتقب هذا ؛ ولربما ازدريتني لأنني اعترفت لك صراحة بأني لحظت .
ولاءك لي واكثرت له ، ولكن ناشدتك السماء ألا تسيء الظن بأديث من أجل
هذا ! إنها تعرف جد المعرفة الحدود التي تنحصر فيها بنات البيوت الكريمة ،
والخفر الذي يحق عليهن ، وهي تعرف متى وإلى أي حد ينبغي لتلك الحدود وذلك .
الحفر أن يفسحها في المجال للاعتراف بالجميل — لرغبتها الصادقة في أن تتمكن من
إثابتك على خدماتك ، وأن تخفف من آلامك التي نالتك من جراء الإخلاص
الذي حملته لها ، كما يفعل الفارس الكريم — لماذا تطبق ذراعيك وتضغط عليهما
بكل هذا الانفعال ؟ » ، ثم قالت وقد خطر لها خاطر اقشعر بدنها منه : « أخفا
بلغت بهم القسوة حدا يجرمك فعلا من نعمة الكلام ؟ إنك تهمز رأسك ؛ لأن
كان هذا سحرا أو عنادا ، فلن أسألك بعد هذا ، وسوف أتركك تؤدي رسالتك
كما تحب ، فإني أستطيع كذلك أن أؤزم الصمت » .

فتحرك الفارس المتنكر حركة تدل على أنه يندب حاله ويستعيد من غضبها ،
وقدم لها في نفس الوقت رسالة صلاح الدين مطوية كالعادة في حرير رقيق وقماش
من ذهب ، قسستها وتصفحها بغير اكثرات ، ثم طرحها جانبا وصوبت بصرها
بعدها ثانية نحو الفارس ، وقالت بنغم خافت : « أما تقول ولو كلمة واحدة وأنت
تؤدي الرسالة لي ؟ »

فضغط الفارس بكتفا يديه على جبينه ، كأنه يشير إلى الألم الذي أحس به لأنه
لا يستطيع أن يصدع بأمرها ، ولكنها انصرفت عنه غاضبة .

وقالت : « اعزب عني ، لقد تكلمت كثيرا — بل وكثيرا جدا — إلى رجل
لا يريد أن يصرف في سبيلي كلمة واحدة جوابا علي . اعزب عني ! — وقل إن
كنت قد أسأت إليك من قبل ، فقد كفرت الآن عن إثمي ؛ فلئن كنت أنا ذلك
السبب التعس الذي هوى بك من منزلة الشرف ، فلقد نسيت في هذه المقابلة
مكانتي ، وحططت من قدر نفسي في عينيك وفي عيني » .

ثم سترت عينيها بيديها ، وبدا عليها الارتباك الشديد ، وكاد السر كنه أن

يدنو منها ، ولكنها أشارت إليه أن يعود وقالت : « قف بعيدا ! لقد أعدت
السماء روحك لأمر جديد ! لو كنت أقل غباء ورعبا من عبد أيكم لنطقت بكلمة
شكر تواسيتني بها في حظتي وعاري — لماذا تترث ؟ اعزب عني ! »
وكان الفارس المتنكر قد وقع بصره على الرسالة عفواً إذ ذاك ، فحدق فيها
معتذراً بها عن إطالة بقاءه ، فاختطفت الفتاة الرسالة ، وقالت بلهجة التهمك
والازدراء : « أجل لقد نسيت — إن العبد الطائع ينتظر ردأ على رسالته —
ما هذا — أهي رسالة من السلطان ! »

وتصفحت فحوى الرسالة على عجل ، وكانت مكتوبة بالعربية والفرنسية ، وما إن
فرغت من قراءتها حتى ضحكت ضحك الغضب المرير .

ثم قالت : « إن هذا لفوق ما يبلغ الخيال ! ما أظن أن هناك مشعوذاً يستطيع
أن يرينا مثل هذه الألعاب الحاذقة ! قد يستطيع بحيلته أن يحيل نقد تركيا
ويزنطة إلى نقد هولندا وأسبانيا ، ولكنه لا يستطيع بفنه أن يقلب الفارس
المسيحي — الذي كان أبداً موضع التقدير بين أشجع الشجعان في الحرب الصليبية
المقدسة — إلى عبد يلثم الأديم للسلطان المشرك ، وإلى رجل يحمل الخطبة من
مسلم وقح إلى فتاة مسيحية ؛ كلا بل وينسى قواعد الفروسية الشريفة وقواعد
الدين ! ولكن ماذا عسى أن يجدى الحديث مع عبد مخلص لكاب مشرك ؟ قل
مولوك ، حينما يحل بسوطه عقدة لسانك ، ما رأيتني أفعل » — وما إن أتمت
حديثها هذا حتى رمت برسالة السلطان فوق الأرض ، وداستها بقدميها ثم قالت :
« وقل له إن أديث بلانتاجت تردري ولاء مسلم لم يعتقد دين المسيح » .

وأوشكت بعد هذه الكلمات أن تنطلق من الفارس ، ولكنه جثا لدى
قدميها ، وهو يعاني صرارة الألم ، ثم استجمع جرأته ، ووضع يده على ثوبها معترضاً
رحيلها عنه .

فقال : وقد التفتت إليه التفاتة يسيرة ، وتكلمت بلهجة التأكيد « أفلم
تسمع ماقلت لك أيها العبد الغبي ؟ قل للسلطان المنافق مولاك إنى أزدري خطبته ،

كما أحتقر انكباب رجل زرى خرج على الدين والفروسية — ارتدّ عن الله وعن
حبيبة قلبه ! » — .

وما إن فرغت من كلامها حتى فصلت عنه وتمزق ثوبها من قبضته ، ثم
خلفت الفسطاط .

وأتذّعلا صوت ثقيل من الخارج يستدعى صاحبه ، فخرج الفارس البائس
وتبع البارون الأنجليزى ، وهو يتعثّر فى مشيته منهوكا مسترخيا من المحنة التى كابد
عناؤها خلال المقابلة التى ما خلص منها إلا بعد أن حنث فى العهد الذى أخذ على
نفسه أمام الملك رتشارد ، وهكذا سار الرجلان معاً حتى بلغا السرادق الملكى ،
وكانت أمامه جماعة من الخيالة نزلت عن ظهور الجياد ، وكان داخل الفسطاط
ضياء وحركة ، ولما دخل ثقيل وتابعه المتنكر ألقيا الملك وكثيراً من النبلاء
مشتغلين بالترحيب بالقادمين .

الفصل السادس والعشرون

« لأذرفن الدمع دهر الداهرين ،
 فإني ما أبكي عاشقاً غائباً ؛
 فقد يعيد الزمن ساعات الهناء ،
 ويلتقي بعد الفراق العاشقان .
 وما أبكي الموق الصامتين ؛
 فقد انقضت آلامهم ، وانتهت أحزانهم ،
 وسوف يتبعهم من أحب خطائم ،
 ويجمعهم الموت ، وما بعده من فراق . »
 ولكنها بكت شراً من الفراق وشراً من الموت ،
 بكت في حبيبها ذكرراً ملطخاً ،
 وبكت في الجندي اسمه الجريح ،
 وكرم أرومتها يشعلها ناراً موقدة .

من أغنية شمية

علا صوت رتشارد الجمهوري الصريح وهو يحيي القادمين مستبشراً مسروراً ،
 ويقول : « أي توماس دي فو ! يا توم جاز البدين ! أقسم برأس الملك هنري إنك
 لرغيب إلى نفسي كقدح النبيذ إلى مدمن الخمر المرح ! والله ما كان لي أن أعرف
 كيف أرتدى زي القتال إلا إن كان جسمك البدين ماثلاً أمام عيني أسترشد به
 في تنسيق هندامى ؛ وسوف نقتل عما قريب يا توماس إن جباناً القديسون بالرضا ،
 ولن يتم القتال في غيبتك إلا إن كنت معلقاً بشجر السيسبان . »

فقال توماس دي فو : « إذن لاحتملتُ الفشل بجلد المسيحي أكثر مما
 أحتمل لو أني مت ميتة المارق عن دينه ، ولكني أشكر جلالتك على ترحيبك بي ،
 وقد أسرفت فيه إكراماً لأنني أتيتك بشأن النزال - وأنت متأهب أبداً لأن
 تأخذ فيه بأكبر نصيب . ولكني أتيتك برجل أعرف أن جلالتك سوف توليه
 ترحيباً أحر مما أوليتني . »

وتقدم للخضوع إلى رتشارد رجل صغير السن ، قصير القامة نحيل القوام ، متواضع في زيه ، لا تؤثر في الرائي بزته ، ولكنه يلبس على قلنسوته مشبكاً من الذهب ، وجوهرة لا يباريها بريقاً إلا تألق العين التي كانت تظلمها القلنسوة ، وتلك العين كانت الملمح الوحيد الذي يلفت النظر في طلعه ؛ وما إن رآها الناظر مرة حتى أثرت فيه تأثيراً قويا متواصلا ؛ وكان يتعلق برقبته وشاح من الحرير في زرقه السماء ، عليه مفتاح من الذهب الخالص لإحكام النغم على القيثارة .

وكاد الرجل أن يجثو على ركبتيه إجلالا لرتشارد لولا أن رفعه الملك بمجلة وبشر ، وضمه إلى صدره بحرارة وقبلة في وجنتيه .

وصاح مسروراً : « مرحباً (يلندل دي نزل) الذي أنا من قبرص ، مرحباً بملك المنشدين ! على الرحب والسعة عند ملك إنجلترا الذي لا يرفع كرامته الشخصية فوق كرامتك . لقد أصابني المرض يارجل ، وبروحى ما كان مرضى إلا افتقارك ؛ فوالله لو أنى كنت في منتصف الطريق إلى أبواب السماء ، لردتني إلى الأرض أصوات أنغامك -- والآن ما وراءك من بلد القيثارة يا سيدى الكريم ؟ هل من جديد عن منشدى بروفنس ؟ هل من نبأ عن المغنين في بلد النورماندى الطروب ؟ وفوق هذا وذاك -- خبرنى هل كان وراءك ما يشغلك ؟ -- ولكن لا حاجة بى إلى سؤالك -- إنك لا تستطيع أن تلبث خاملاً حتى إن أردت -- إن صفاتك النبيلة كالنار ، تحترق في أحشائك وتكرهك على أن تخرجها من بين جنبيك غناء وموسيقى » .

فأجاب بلندل الشهير قائلاً : « هذا شيء تعلمته فقلته أيها الملك النبيل » . وتراجع تواضعاً ولم يستطع رتشارد -- بكل حماسه -- وإعجاب به بحذقه ، أن يزيل عنه الحياء .

وقال الملك : « سوف نستمع إليك أيها الرجل -- لنصغين إليك الآن » ثم لس كتف بلندل برفق وقال : « ذلك إن لم تسكن متعباً من السفر ، وإلا فوالله

إنه لأحب إلى نفسي أن أمتطى صهوة جوادى وأسير نحو الموت من أن أؤذى
نعمة من نغيات صوتك » .

فرد عليه بلندل وقال : « صوتى - كما كان أبدأ يا مولاي المليك - فى
خدمتك » ثم لمح بضعة أوراق على المائدة وقال : « ولكن يدولى أن جلاتك
مشتغل بما هو أهم ، ونحن فى ساعة متأخرة من النهار » .

« كلا يارجل ، كلا يا عزيزى بلندل ؛ إنما كنت أرسم زيا للقتال أرتديه حين
الاقى الأعراب ، ولن يشغلنى هذا أكثر من لحظة قصيرة ، وسوف لا يستغرق
أكثر مما تستغرق هزيمتهم » .

وقال توماس دى فو : « ولكنى أظن أنه كان من اللائق بجلاتك أن تستعلم
كذلك عن الجند الذين سوف تعدهم معك ، لقد أتيت نبأ فى هذا الشأن
من عسقلان » .

فقال الملك : « والله يا توماس إنك لجمار ، حمار فى غبائك وعنادك ! تعالوا
أيها النبلاء - افسحوا جميعا ، افسحوا ! التفوا حوله - أعطوا بلندل هذا
المقعد - أين حامل قيثاره ! أو - مهلا - أعيروه قيثارتى ، فربما أتلف
السفر قيثارته » .

وقال توماس دى فو : « وددت لو أن جلاتك استمعت إلى نبئى ؛ لقد
سافرت على مطيتى طويلا ، وأنا الآن إلى الفراش أشوق منى إلى العبث بأذنى » .
قال الملك : العبث بأذنيك ! إن هذا إنما يكون بربش الدجاج لا بحلو النعم ،
استمع إلى يا توماس ، هل تفرق أذناك بين غناء بلندل ونهيق الجمار ؟ » .

فأجابه توماس قائلا : « حقا مولاي أنى لا أستطيع الجواب ، ولكننا إن
أبعدنا عن دائرة الحديث بلندل ، وهو رجل كريم المولد وذو صفات عالية بغير
مراء ، فإنى من أجل صالح جلاتك لن أنظر إلى منشد إلا وكأنى أنظر إلى حمار » .
فقال رتشارد : « أفما كان من أدب اللياقة أن تستثنينى ، وأنا رجل كريم المولد
كبلندل ، وزميل مثله فى نقابة المطربين ؟ » .

فأجابه دى فو باسمًا وقال : « لتذكر جلالتك أنه من العيب أن تتطلب آداب اللياقة من حمار » .

فقال الملك : « لقد أصبت القول ، وإنك لحيوان زرى الهيئة . ولكن تعال هنا يا سيدي الحمار ، واطرح عنك عيبك حتى تستطيع أن تأوى إلى مخدعك دون أن نضيع فى سبيلك شيئًا من الموسيقى ؛ وأنت ، أخى صاحب سولزبرى ، إلى أن ينتهى دى فو من ذلك ، اذهب إلى فسطاط مليكتنا وقل لها إن بلندل قد أتانا وجعبته مفعمة بأحدث الأغاني ، ومررها أن تأتى توا إلى هنا ، وقم على حراستها ، ولا حظ أن ابنة عمنا أدبث بلا تاجت لا تتخلف عن الحضور » .
ثم رنا النبى هنيهة بنظره ، وفى بحياه معنى الشك والارتباب ، الذى يبدو على ملامحه عادة حينما يرمقه .

وقال : « أو قد عاد رسولنا الصامت الكتوم ؟ قف أيها العبد وراء ظهر دى شيل ، وسوف تطرق أذنيك عما قريب أنغام تحمد الله من أجلها على أنه قد أصابك بالبكم لا بالصمم » .

وما إن أتم حديثه حتى أشاح عن بقية الجماعة ، وقصد دى فو ، واسترسل معه فى الحين عن دقائق الشؤون العسكرية التى عرضها عليه هذا البارون .
وحينما أوشك اللورد جلزلاند أن ينتهى من حديثه ، دخل رسول يعلن أن الملكة ووصيفاتها دانيات من السراى الملكى - فقال الملك : « هيا ، وآتوني بقدر من التبيد ! آتوني بقدر الملك إسحق القديم ، ملك قبرص ، الذى عاش طويلا فى أمن وطمأنينة ، ذلك القدر الذى غنمناه حين اقتحمنا (نجمستا) ؛ املاؤا الكأس للورد جلزلاند البدين يا كرام الرجال ؛ تالله ما أحرز أمير خادما مثله أشد عناية وأكثر إخلاصا » .

وقال توماس دى فو : « يسرنى أن جلالتك قد ألفت فى الحمار عبدا نافعا ، وإن يكن صوته أقل فى موسيقاه من أنغام الأسلاك وشعر الخيل » .
فقال رتشارد : « ماذا تقول ؟ أفلم تقبل هذه النكتة عن الحمار ؟ إذن فلتمحها

« يارجل بكأس مفعمة حتى حافتها ، وإلا غصصت بها . عجباً ! أجل - لقد أجدت الاحتساء ! والآن استمع إلى ، إنك جندي مثلي ، وينبغي لنا أن نطيق ما بيننا من نكات في الإيوان كما نطيق الضراب في المباراة ، وأن نوثق ما بين قلوبنا من محبة كلما احتدم النزال ؛ تالله إن لم تردّ على نكاتي بمثل الشدة التي ضربتك بها حينما التقينا أخيراً ، إذن فلقد أسلمت كل ما بك من فطنة للطعان ؛ ولكن هنا الفارق بينك وبين بلندل ، ما أنت إلا زميلي - بل تلميذي - في فن القتال ، أما بلندل فأستاذي في فنون الغناء والموسيقى ؛ فلك أسمح بحريه الإخاء الحميم ، أماله فعلى الاحترام ، لأنه أرفع منى منزلة في فنه . تعال يارجل ، ولا تكن ضجورا ، والبث واستمع إلى جذلنا وجبورنا » .

فقال لورد جزلاند : « إن كان لا بد أن أشهد جلالتك وأنت في نشوتك ، فوالله لألبئن حتى يسرد بلندل قصة الملك آرثر الخيالية بأسرها ، وهي تستغرق ثلاثة أيام » .

فقال الملك : « كلا ، إنا لن نحملك مالا تطيق عليه صبراً ؛ ولكن انظر ، هنالك ترى وميض المشاعل خارج السرادق إيذاناً بمقدم مليكتنا - أخرج أيها الرجل واستقبلها ، وأصب لنفسك الرضا في أشد العيون بريقا في العالم المسيحي طراً - كلا ، لا تترث حتى تحكم عباةك ؛ انظر ! لقد سمحت لنفيل أن يحول بينك وبين أداء واجبك ! » .

ولم يرق لدى فو أن يسبقه كبير الحجاب - وهو (ثقيل) أوفر منه نشاطاً - فقال : « إنه لم يسبقني قط في ميدان القتال » .

فقال الملك : « كلا ، هنالك لم يسبقك لا هو ولا أحد غيره يا أخي العزيز . يوم جلز ، اللهم إلا أنا بين الحين والآخر » .

فأجاب دى فو وقال : « أجل مولاي ، ودعنا لا نعمط التمساء حقهم ؛ لقد سبقني كذلك مرة فارس النمر الشق ، لأنه خفيف على ظهر الجواد ، ولذا ... » .
فعارضه الملك بصيغة الجزم وقال : « صه ! لا تذكره بكلمة واحدة ! » ثم

تقدم في الحال لتحية زوجه الملكة ؛ وبعدما فعل ذلك ، قدم إليها (بلندل) باعتباره ملك الغناء وأستاذه في فن اللهو والمرح ، وكانت برنجاريا تعلم جيداً أن عشق زوجها الملك للشعر والموسيقى يكاد يوازي حبه للشهرة الحربية ، وأن بلندل هو عزيزه الحميم ، فعنيت واهتمت بلقائه لقاء فيه من اللق والإطراء ما يليق برجل يسر الملك أن يعلو شأنه ، ورد بلندل بما يليق على ما أمطرته به صاحبة الجمال الملكي من وابل الثناء ؛ ولكنه لا مرء في أنه تلقى التحية الساذجة النبيلة من أديث بإجلال من الأعماق ، وبالشكر والامثال ، وبدا له أن ترحيبها الرقيق ربما كان خالصاً رغم إيجازه وبساطته .

وكانت الملكة وزوجها الملك كلاهما يعلمان بهذه التفرقة ، ولما رأى رتشارد أن زوجه قد أغضبها ما خُصت به ابنة عمه من فضل ، لم يرض عنه هو نفسه كثيراً قال على مسمع منهما : « نحن المنشدين ، يا برنجاريا ، كما ترين من مسلك أستاذنا بلندل ، نحترم الحكم الصارم كقريبتنا هذه أكثر مما نحترم صديقاً متميزاً رقيقاً مثلك ، يطيب له أن يسلم بقدرنا جدلاً » .

فثارت نفس أديث لهذا التهمك من قريبها المليك ، وترددت في الجواب ، ولكنها قالت : « ما حكى الصارم الجازم بالصفة التي أتصف بها وحدي من بين أبناء بلانتاجنت جميعاً » .

وأديث فتاة عليها مسحة من مزاج ذلك الليث الذي يشتق اسمه وشعاره من عشب وضيع^(١) زعموا أنه شارة الذلة والخضوع ، ولكنه من البيوتات الشديدة الأنفة ، الشامخة ، التي حكمت أنجلترا ، ولذا فلربما تفوهت بأكثر مما قالت ، لولا أن عينها — وهي تتقد في جوابها — التقتا بفتة بعيني النبوي رغم محاولته التخفي وراء النبلاء الحاضرين ، فارتمت على مقعد ، وشجب لونها شحوباً اضطر الملكة أن تطلب الماء والمطور ، وأن تقوم بغير ذلك من الشعائر التي تليق بسيدة سقطت

(١) (بلانتاجنت) عشب تصنع منه الكاس .

مغشياً عليها؛ أما رتشارد، فكان يقدر قوى أدب العقلية خيراً من ذلك، فأوماً إلى بلندل أن يعود إلى مقعده ويشرع في النشيد، معلناً أن الغناء خير من كل دواء آخر لإعادة الرجل أو المرأة من بيت بلانتاجنت إلى الحياة — ثم قال: « غننا أنشودة (الثوب الدائم) التي حدثتني عنها مرة قبل أن أغادر قبرص، ولا بد وأن تكون الآن قد بلغت بها حد الإيقان، أو انكسرت قوسك — كما يقول العامة — » .

ولكن عيني المنشد الشفيقتين أتجهتا نحو أدب، ولم يطع أوامر الملك المتكررة إلا بعد أن رآها تسترد احمرار خديها، فأخذ حينئذ يتغنى — وكأنه يتلو قصة محفوظة — بإحدى مغامرات الحب والفروسية القديمة التي كانت أبدأ في قديم الزمان تملك على الناس قلوبهم، وصحب صوته بالضرب على القيثارة ضرباً يحلو معه معنى النشيد ولا يغيض الصوت. وما إن شرع في الديباجة حتى اختفى عن الرائي ظاهره الزرى، وتألقت ملامحه بالنشاط والوحى، وأطرب الأذان والقلوب بصوته العريض المسترجل اللين الذي كان مشبعاً كل التشعب بالدوق الرفيع، فابتهج رتشارد وتهلل كما تهلل بعد النصر، ونادى بالصمت نداءً يليق بالمقام وقال:

« أنصتوا يا كرام القوم في المخادع والأبهاء »

وبحس الحامى للفن والمتلمذ فيه صف الحاضرين في دائرة، وألزمهم الصمت وأسكنهم، وجلس هو نفسه وعلى محياه أمارات التسمع واللذة ممزوجة ببعض الشيء برزاقه الناقد الفنى، وحول رجال البلاط أبصارهم نحو الملك حتى يكونوا على استعداد لتقنى ما قد يبدو على ملامحه من عواطف ثم محاكاته، وتشاءب توماس دى فو طويلاً كأنه يستسلم — كارهاً — لكفارة شاقة، وكانت أنشودة بلندل بطبيعة الحال باللسان النورماندى، ولكننا فيما يلي نعرّبها معنى وأسلوباً .

الثوب الدامي

على مقربة من مدينة ، (بَنَّمَنْتْ) الجميلة ،
والشمس تغيب فوق الأغصان والثنايا ،
والفوارس تتأهب في المخادع والخيام
ليلة الاستباق إلى العاد ،
حينما أرسلت الأميرة غلاماً فتياً
يلبس حرير « لنكن » الأخضر اللامع ،
ويحكي بزيه الحاجب ،
فجاس خلال الخيام
باحثاً أنى سار عن الإنجليزى « توماس بن كنت »

فأمعن في الرحيل ، وسيمعن ويمعن ،
حتى يجد سرادقه ، وما هو بذى أمهة أو سناء —
وما هناك سوى الصلب والحديد إلا القليل ،
والفارس الكريم لا يملك المال يستأجر به صانع السلاح
كى يعنى له بسلاحه ؛
فبساعدين مفتولين ، إلى الكتفين عاريتين ،
انكب يصلح بالطرقة والمسحل
زردها سوف يراه الغد وهو يرتديه
إجلالا « لسنت چون » ولحجوبته الحسناء .

قال الرسول ، وأحنى له الفارس رأسه وركبته ،
« هذا ما تقول سيدتى : هى أميرة بنثنت عالية المقام ،

وأنت وضيع كأوضع الفرسان ؛
من يتسلق مثل هذه الشجرة العالية ،
أو يثب فوق مثل هذا الحاجز يفصل ما بينها وبينك ،
ينبغي أن يخاطر بعمل جليل
حتى يرى أطعاه الناس جميعاً
تؤيدها الفروسية العليا .

وقال الحاجب ، والفارس خافض الرأس واليدين ،
« ولنا هذا ما تقول سيدتي :
ألق عنك السلاح الكريم الذي ترتدى ،
والبس هذا العشب من رداؤها بديلا عنه ،
واستعض بثوبها الخيطى زرد الحديد ،
واخرج بهذا الزى إلى فزع السجال .
وقاتل كما ألفت حيث تجرى أكثر الدماء ،
وعد بالشرف أو البث مع الموقى . »

ثم بدا على الفارس في محياه الجزع ،
وما لعب في صدره القلق ،
والعشب استلم ، وباجلال ثم : —
« بارك الله في ذا الزمن ، وبارك الله في ذا الرسول !
ما أراى إن صدعت بأمر سيدتى العالى إلا عظيم الشرف ؛
قل لسيدتى إني بهذا اللباس العزيز
لئن أضن بشجاعتي على خير الأبطال المسلحين ؛
ولكنى إن حيت ، وأجدت القتال ،

فعلها تدور الدائرة وتؤدي الاختبار . »

وهنا ، كرام الرجال ، ينتهي من أنشودة الثوب الدامى نصفها الأول .

فقال الملك : « لقد غيرت لنا وزن النشيد في البيت الأخير يا عزيزى بلندل ونحن غافلون ! » .

فقال بلندل : « حقا مولاي ، فلقد نقلت الأبيات عن الإيطالية ، وكنت سمعتها من رجل هرم يضرب على القيثارة لاقبته في قبرص ، ولما كنت لا أجد من الوقت ما يكفي لنقلها نقلاً صحيحاً ، أو لحفظها عن ظهر قلب ، فإني أكتفي بأن أسد ما في الموسيقى والنظم من عجز بدهاءة على قدر ما أستطيع ، كما ترى أهل الريف وهم يصلحون بالحطب السياج على عجل » .

فقال الملك : « كلا وربى ، إني لأحب هذه الأبيات الطويلة ذات الرنين ، وأرى أنها أكثر اثلاً مع نغم الموسيقى من الأبيات القصيرة » .

فأجابه بلندل قائلاً : « لنا في كليهما حرية الوزن كما تعرف جلالتك جيداً » .
فقال رتشارد : « أجل إنهما لكذلك يا بلندل ، ولكنني أظن رغم هذا أن المنظر — إذا كان فيه احتمال القتال — يتسق خيراً تساق مع البحر الطويل والأبيات الزانة التي لها جرس كأنطلاق الفرسان ؛ أما الوزن الآخر فليس إلا كسير خيول الآنسات ليناً وانحرافاً » .

فرد عليه بلندل وقال : « لتكن إرادة جلالتك » وشرع يقدم للنشيد من جديد .

وقال الملك : « أجل ، ولكن هلا أرهفت خيالك أولاً بقدم من نبيذ (كيوس) ؛ أصغ إلى ، إني أريدك أن تطرح عنك هذه القيود الجديدة التي كبلت بها نفسك ، وهي انتهاؤك بقواف متشابهة محكمة ، فإني لا قيود لخيالك المتدفق تجعلك أشبه برجل يرقص في الأصفاة » .

فقال بلندل : « إن الأصفاة يتيسر على الأقل نزعها » ، وشرع يجيل أصابعه ثانية بين الأوتار كأن العزف أحب إليه من النقد .

وواصل الملك كلامه وقال : « لِمَ تكبل نفسك بها يا رجل ؟ لِمَ ترى
بنبوغك في سوار من حديد ؟ إني لأعجب لك كيف تقدمت ، وإني على يقين أني
ما كنت بمستطيع أن أنشد بيتاً واحداً في هذا البحر المقيد » .
فحسر بلندل بصره ، واشتغل بأوتار قيثارته كي يخفي بسمه ارتسمت على طلعتة
رغمًا عنه ، ولكنها لم تغب عن عين رتشارد .

فقال : « أقسم يا بلندل أنك لتضحك مني ، وحقاً إن كل من يزعم أنه
أستاذ - وهو لما يزل تلميذاً - لقمين بالسخرية . ولكننا نحن الملوك نكتسب
حسن الظن بالنفس ، وهي عادة ذميمة . هيا ، وشف آذاننا بفنائك يا عزيزي
بلندل ، وغننا كما شئت ، فإنه لخير مما نقترح ، وإن يكن لا بد لنا من التعليق » .
فعاود بلندل الغناء ، ولما كان يألف ارتجال النشيد فإنه لم يعجز عن أن
ينصاع لما أشار به الملك ، وربما سره أن يبين السهولة التي يستطيع أن يكيف بها
القصيد من جديد حتى وهو يلقيه .

الثوب الدامي

النصف الثاني

شهد صباح العمد الجميلُ جليلُ الفعّال -
فكان اكتساب للشرف ، وكان ضياع للمنازل ،
وكان ضرب بالسيوف ، وكان قرع بالعصى ،
وأحرز الظافرون مجداً ، وفاز بالقبور المنهزم .
كم من فارس استبسل وأجاد القتال ،
ولكن واحداً من بين أقرانه برّز وبرع ،
وذلك من لم يكن على جسمه وصدرة درع
سوى قميص فتاة ترديه حين تأوى إلى الفراش .

وكان من أصابه بمر الجراح وراى الكلوم ،
وأشفق لحاله الآخرون فكروا راجمين ،
وقالوا : « إنها يمين الشرف أقسمها ،
ومن النذالة أن نقتله وهو يبر باليمين . »
ثم من أجله أوقف الأمير النزال
ورمى بحارسه ، ونفخوا فى البوق بالسلم مؤذنين ،
وكان للقضاة الحكم ، وعلى المبارين التسليم ؛
وكان الفارس ، وترسه القميص ، فى الحلبة المجلى .

ودنت ساعة المأدبة واحتشد الجميع ،
وأمام الأميرة الحسناء انحنى الوصيف خاشعاً ،
وأسلمها قميصاً تعافه العيون
مزقته السيوف ، ووخزته الرماح ، وكله خروق وكله ثقوب ،
مهلهلا مشققاً ، بالدماء ملطخاً ،
عليه زبد الخيول وأثر الوحل والأديم ،
لو لمستة السيدة بطرف خنصرها
ما وقع الطرف على مكان نقي لم يلوّث .

« سيدى سير توماس كنتُ
إلى أميرة بنقت الحسناء يرد هذا الشعار ؛
من يصعد على الشجر ينل حقا منه الثمر ؛
من يثب فوق الحواجز ينجح فيما سعى ؛
استهدفتُ حياتى لأشد المخاطر فنلت الجزاء ،
والآن على سيدتى بيان الولاء .
من تحفز الفرسان لمثل هذا الخطر ،

تقر لهم بخالص الفعال أمام الشمس .

يقول سيدي : « إني أرد القميص الذي ارتديت ،
وإلى الأميرة أطلب ارتدائه بدورها ،
وليعل في عينها قدره لها به من خروق ،
فعار إن لم يلوث أو يصطبغ قرمزا ولو بخائر الدماء . »
فاحمرت الأميرة خجلا ،
ولثمت الثوب وقد تلطخ بالدماء ،
وعلى شفيتها وإلى صدرها ضمته .
إذهب وقل لفارسي الأمين لتظهرن الدولة والكنيسة
إن كنتُ أقدرُ أو لا أقدر ما على هذا القميص من دماء .

وحان الحين للنبلأ أن يسيروا
في موكب موقر إلى القس والقداس .
وسارت في المقدمة الأميرة في بساط الرحمة والأرجوان ،
وفوقها تلفعت برداء الليل الملطخ بالدماء ؛
بل وفي الردهة حيث التأم الجمع للغداء ،
وعلى ركبتها جثت لأبيها وقدمت البيذ ،
وفوق كل غالى الثياب ونمين الجواهر
لبست ذاك الوشاح المعبى المخضب بالدماء .

وحقا لقد همس للسيدات كرام الرجال ،
وبالإيماء والبسات وغمزات العيون أجاب السيدات ؛
وأطرق الأمير غضبا وخزيا ،

ثم التفت إلى ابنته أخيراً وكلهما مقطب الجبين :
« الآن وقد صدرت عنك الحماقة والذنوب ،
فلتكفري بيدك عما أرتقت من دماء ؛
ولتندمان كلاكما على القحة أشد الندم ،
وتهميان من بنفت الجميلة شريدين » .

وفي الردهة وقف توماس البدين ،
منهوكاً مخذولاً ولكن قلبه جسور مقدم ،
وبأعلى صوته صاح : « إن ما أرتقت من دماء في سبيل ابنتك
قذفت به راغباً ، كما يلفظ الوعاء النبيذ ؛
ولئن عانت من قبلي عقوبة أو عدلاً ،
فثق أني لأنجيها من العناء والعار ،
ولن تأبه بالإمارة أو ريعها إلا قليلاً ،
فلسوف أنادين بها في انجلترا أميرة كنت ! » .

فسرت بين الحاضرين دمدمة الاستحسان ، متابعين في ذلك رتشارد نفسه .
الذي أخذ يكيل لمنشده المحبوب الثناء كيلاً ، واختتم بتقديم خاتم عظيم القيمة إليه ،
وسارعت الملكة إلى التعطف على هذا المغنى العزيز بسوار نفيس ، وتبع كثير من
النبلاء الحاضرين هذه السابقة الملكية .

وقال الملك : « هل باتت ابنة عمنا أديث لا تستسيغ نعم القيثار الذي عشقته

يوماً ؟ »

فأجابت أديث قائلة : « إنها تشكر بلندل على أغنيته ، وتضاعف الشكر لرقعة

قربها الذي أشار بها . »

وقال الملك : « إنك لغاضبة يا ابنة عمي ، غاضبة لأنك سمعت بامرأة أشد

منك عناداً ، ولكنك لن تفلتي مني — سوف أسير معك بضع خطوات نحو

حييتك من سرادق الملكة - ينبني أن تتشاور معاً قبل أن يشحب ظلام الليل ويسطع نور النهار .

وكانت الملكة ووصيفاتها إذ ذاك قد نهضن على أقدامهن ، وانسحب الضيوف الآخرون من فسطاط الملك ، وكان ينتظر برنجاريا خارج السرادق رتل من الناس يحملون المشاعل الوهاجة ، وحرس من رماة السهام ، وسرعان ما كانت في طريقها إلى بيتها ؛ وسار رتشارد إلى جوار قريبته كما اقترح وأكرهها على أن تقبل ذراعه متكأً لها حتى يستطيعا أن يتحداثا دون أن يسمعهما أحد .

وقال رتشارد : « أى جواب إذن أرد به على السلطان النبيل ؟ إن الملوك والأمراء ينصرفون عني يا أديث ؛ وهذا النزاع الجديد قد باعدهم عني ثانية ، إنى قد أستطيع أن أقوم ببعض الواجب نحو القبر المقدس بالاتفاق إن لم يكن بالظفر ؛ وتتوقف - واحسرتاه ! - فرصة قيامي بهذا على امرأة ؛ والله خير لى أن أنزل بحربة واحدة عشرة من خيرة الرماحين في العالم المسيحي من أن أجادل امرأة عنيدة لا تعرف صالح نفسها . أى جواب يا ابنة العم أرد به على السلطان ؟ ينبني أن يكون الجواب حامياً . »

فقالت أديث : « قل له إن أفقر بنات بلانتاجنت خير لها أن تتزوج من البؤس والشقاء من أن تقترن بالشرك والكفران . »

فقال الملك « أو (بالرق) يا أديث ، والله ما أظن إلا أن هذا أقرب إلى ذهنك . » فأجابت أديث قائلة : « ليس هذا مجال الشك الذى تشير إليه بهذه الغلظة ؛ إن استرقاق الجسم قد يدعو إلى الإشفاق ، ولكن استرقاق الروح يستثير التحقير والازدراء ؛ عار عليك يا ملك انجلترا الطروبة ! لقد استعبدت فارساً جسماً وروحاً ، وكان يوماً يكاد لا يقل عنك صيتاً وذكراً . »

فرد عليها الملك وقال : « هلا ينبني لى أن أمنع قريبتي عن شرب السم ، فألوث الإناء الذى يحتويه ، إن لم أر وسيلة أخرى تقززها من الشراب القاتل ؟ »

فأجابت أدِيث وقالت : « إنما هو أنت الذى تدفع بى إلى شرب السم لأنه يقدّم إلىّ فى كأس من الذهب » .

وقال رتشارد : « أى أدِيث ، إني لا أستطيع أن أقسرك على البت قسراً ، ولكن حذار من إغلاق الباب الذى تفتحه السماء ؛ إن ناسك عين جدة ، الذى يعتبره البابا وتعتبره المجمع رسولا ، قد استطلع النجم ، ورأى أن قرانك سوف يصلح ما بينى وبين خصم قوى ، وأن زوجك سوف يكون مسيحياً ، ولذا فالأمل قوى فى أن زواجك من السلطان سوف يؤدي إلى اعتناقه المسيحية والإتيان بأبناء إسماعيل إلى حظيرة الكنيسة . هيا ، هيا ، إنما ينبغى أن تقدمى بعض الفداء ، ولا تقفى فى سبيل مثل هذا المطمح السعيد » .

فقال أدِيث : « قد يضحى الرجال بالأكباش والماعز ، لا بالشرف والضمير . وقد نما إلىّ أن الأعراب ما دخلوا أسبانيا إلا عن سبيل عار فتاة مسيحية ؛ وليس عار الأخرى بالسبيل التى يرجى منها إخراجهم من فلسطين » .

فقال الملك : « هل ترين من العار أن تبتى عاهلة ؟ »

« إنما عار وخزى أن تنتهك حرمة السر المسيحي المقدس بأن ندخل فيه مشركاً لا يرتبط به ؛ وأقول إنه عار وشنار أن أبيت — راضية — وأنا سليلة أميرة مسيحية ، على رأس حريم من الإماء المشركات » .

فسكت الملك قليلاً ثم قال : « إذن ينبغى لى يا قريبتى أن لا أشتبك معك فى الجدل ، وإن كنت أظن أن اعتمادك على كان ينبغى أن يلى عليك الطاعة أكثر من ذلك » .

فأجابت أدِيث قائلة : « مولاي ، إن جلالتك قد ورثت بحق كل ما كان لبيت بلا تاجت من ثروة وجاه وملك ، فلا تضنن على قريبتك المسكينة بنصيب زهيد من عزهم ونفارهم » .

فأجابها الملك وقال : « أقسم أيتها المرأة لقد أنزلتنى من عليائى بهذه الكلمة ! إذن فلنتصافح وليقبّل أحدنا الآخر ؛ سوف أبعث بجوابك قريباً إلى صلاح الدين .

ولكن بعد هذا كله ، ألم يكن خيراً يا ابنة العم أن تعلق جوابك حتى تربه ؟
فإن الرجال يقولون عنه إنه فائق الملاحظة والظرف » .
فقال أديث : « ليست هناك يا مولاي فرصة للقائنا » .

وقال الملك : « وحق القديس جورج إن اللقاء لا بد منه ، فإن صلاح الدين
لا مرء في أنه سوف يعطينا ميداناً طلقاً تقوم فيه بهذه المعركة الجديدة ، معركة
العلم ، وسوف يشهدنا بنفسه ، وإن برنجاريا لتتحرق شوقاً لرؤياها ؛ وأقسم
أنكن ، رفيقاتها ووصيفاتها ، سوف لا تتخلف منكن ريشة - أنت في
مقدمتهن جميعاً يا ابنة العم الحسنة ؛ ولكن دعينا من هذا وهيا بنا ، لقد بلغنا
السرادق وينبغي أن نفترق ، بل وأن نفترق على غير عداء - كلا بل يجب أن
تؤيدي يا أديث ، يا ذات الحسن ، مودتنا بشفتيك وبكأتي يديك - إنه من حق
كملك أن أقبل أتباعي من ذوات الحسن » .

وعانقها بإقبال ومحبة ، وعاد خلال المعسكر والقمر يسطع ، وهو يهمهم لنفسه
بضع فقرات مما يذكر من أنشودة بلندل .

ولما بلغ السرادق خف إلى إنشاء رسائله إلى صلاح الدين ، وأسلمها إلى النوبي ،
وأمره أن يرسل عند منبثق النهار عائداً إلى السلطان .

الفصل السابع والعشرون

طرق التكبير منا الأذان —
والتكبير ما يطلقه الأعراب على نداء المهجوم ،
حينما يهللون بصوت عال
يدعون الله أن ينصرهم —
حصار دمشق

وفي صباح اليوم التالي دعا فيليب ملك فرنسا رتشارد إلى لقائه ، ولما التقيا
أبلغ فيليب رتشارد بعد دياجة طويلة من التقدير السامى لأخيه ملك إنجلترا ،
وفي عبارة غاية في الرقة ، ولكنها جد صريحة لا يخطئ معناها السامع ، أبلغه
بعزمه المؤكد على عودته إلى أوروبا ، وإلى شؤون مملكته ، لأنه يؤس كل اليأس
من النجاح في الغاية مما شرعوا فيه بعد ما تضععت قواهم ودب النزاع بين
صفوفهم ، وعارضه رتشارد ولكن دون جدوى ؛ ولما انتهيا من المقابلة ، تلقى
رتشارد بغير دهشة إخطاراً من دوق النمسا وكثير غيره من الأمراء ، يعلنون فيه
عزماً كعزم فيليب ، وبعبارة ليس فيها شيء من التهور ، وقد عزوا ارتدادهم عن
قضية الصليب ، إلى أطماع رتشارد المفرطة وسيطرته وتحكمه ؛ فضاغ بعد هذا كل
رجاء في متابعة القتال مع الأمل في الفوز بالنصر آخر الأمر ، وتحدرد الدمع المرير
من رتشارد على خيبة آماله في الظفر والمجد ، ولكنه تعزى قليلاً حينما ذكر أن
الفشل يرجع بعضه إلى المزاي التي منحها خصومه بسجيته المتعجلة وقلة رويته .

فقال لدى فو : وهو في مראה غضبه وحنقه : « إنهم ما كانوا ليحسروا على
هجران أبي هكذا ، وما كان العالم المسيحي يصدق أنهم يلفظون هذا القذف في
وجه ملك حكيم مثله ؛ أما الآن — وما أشد غفاتي ! — فإنني لم أيسر لهم الحجة
لهجراني فحسب ، بل لقد أعطيتهم كذلك سبباً لا يسناد الملامة على هذا الشقاق إلى
نقائصي وعيوبي » .

وكانت هذه الخواطر شديدة الايلام على نفس الملك حتى أن دى ثو استبشر حينما وصل من صلاح الدين سفير حول تفكيره إلى مجرى آخر .
هذا الرسول الجديد كان أميراً له لدى السلطان احترام كبير ، واسمه عبد الله الحاج ، وهو ينتسب إلى أسرة كريمة ، وكان يلبس عمامة كبيرة خضراء إشارة إلى نسبه ، وقد أدى الحج إلى مكة ثلاث مرات فاتصف (بالحاج) ، ولكن عبد الله - رغم هذه المظاهر التي تدل على قداسته - كان في نظر الأعراب نديماً يحب القصص المرح ، وينزع عن نفسه الرزانه إلى حد يجترع معه كأس الخمر - وهو يطفح بشراً - إذا ما تخفى تخفياً يكفل له كتمان الفضيحة ؛ وكان إلى ذلك سياسياً أفاد صلاح الدين من كفاءته في مفاوضات عدة مع الأمراء المسيحيين ، وبخاصة مع رتشارد الذي كان يعرف (الحاج) معرفة شخصية ويستظرفه ، وما إن علم رتشارد من رسول السلطان بإذعانه عن طيب خاطر لتقديم ميدان للنزال على أرض محايدة ، ولقيادته كل من أراد أن يشهد المبارزة آمناً إلى هناك ، مقدماً نفسه ضماناً لصدقه ، حتى امتلأ بالحياة ، ونسى آماله المحطمة ، وإيدان العصبة المسيحية بالانحلال ، واسترسل في البحث الممتع الذي يسبق النزال في ميدان المبارزة .

وُضرب المكان الذي يعرف (بدرة الصحراء) ملتحق للنضال ، لأنه يكاد يتوسط بين معسكر المسيحيين ومعسكر الأعراب ، واتفق على أن يظهر كتراد منتسرا المتهم ومؤيدها أرشدوق النمسا وكبير رجال المعبد هناك في اليوم الذي حدد للمبارزة ، ومعهم مائة من الأتباع المسلحين ليس غير ، وأن يحضر رتشارد ملك إنجلترا وأخوه سولزبرى الذي يؤيد الاتهام ومعهما هذا العدد عينه من الرجال لحماية بطل الملك ، وأن يأتي السلطان ومعه حرس من خمسمائة من خيار الأتباع ، وهي فرقة لا ترجح - رغم عديدها - المائتي مسيحي من رماة الرماح ؛ أما ذوو المكانة من الرجال الذين يختارهم أي الفريقين للدعوة لمشاهدة النزال ، فكان عليهم ألا يصطحبوا سلاحاً غير سيوفهم ، وأن يأتوا بغير دروع للدفاع ؛ وتمهد السلطان بإعداد

الأماكن وشهى الطعام من كل لون لكل من يحضر هذا الحفل المهيب ؛ وقد عبر في رسائله بكل رقة عن السرور الذى يرتقبه من الأمل فى مقابلة الملك رتشارد مقابلة شخصية سلمية ، وعن رغبته الشديدة فى أن يجعل استقباله لائقاً بقدر ما يستطيع .

وبعد ما تم التمهيد ، وعلم بذلك التهم وأعوانه ، دخل عبد الله الحاج فى مقابلة خاصة استمع فيها لأغاني بلندل وانشرح لها صدره ؛ وقد أخفى عن الأبصار أول الأمر عمامته الخضراء بكل عناية ، واستبدلها بتقية إغريقية ، ثم رد على موسيقى النشد النورماندية بأغنية شراب فارسية ، واجترع كأساً من نبيذ قبرص حتى ثمالها كى يثبت أن فعالة تتفق ومبادئه ؛ وفى اليوم التالى ظهر بمظهر الرصانة والصحو كأنه « مرجلب » الذى لم يشرب سوى الماء ، وانحنى بجبينه إلى الأرض لدى موطنى قديمى صلاح الدين وسرد للسلطان بيانا عن سفارته .

وفى اليوم الذى كان يسبق اليوم المحدد للنزال فصل كتراد وصحابه عند مطلع النهار يقصدون المكان المعين ، وترك رتشارد المعسكر فى ذات الوقت ولنفس الغرض ، ولكنه سلك فى رحيله طريقاً أخرى كما اتفق من قبل ، وهى حيلة رؤيت ضرورتها لمنع إمكان شبوب النزاع بين أتباعهم المسلحين .

ولم يكن الملك الصالح نفسه على أهبة للقتال مع أى كان ؛ وما كان يزيد من سروره وتطلعه إلى المبارزة الدامية المستقلة فى ساحة النزال إلا أن يكون بشخصه الملكى أحد المتبارزين ؛ واسترد بعض رضا النفس ثانية ، وهدأت تأثيرته حتى نحو كتراد منتسراً ، وسار يترنح يميناً ويساراً ، خفيف السلاح ، نفيس اللباس ، منشرحاً كالعريس ليلة زفافه ، إلى جوار محفة الملكة برنجاريا ، مشيراً لها إلى المناظر العديدة التى كانا يتخللانها ، ومُدخلاً بالقصص والغناء بعض الهجة على صدر القفر المجدب القاحل ؛ وكانت الطريق التى سلكت الملكة من قبل فى حجها إلى عين جدة على الجانب الآخر من سلسلة الجبال ، فكان السيدات غريبات على هذا الجانب البادى من الصحراء ؛ وكانت برنجاريا تعلم ميل زوجها حق العلم ،

وتحاول أن تظهر حبها لما كان يسره من قول أو غناء ، إلا أنها — رغم ذلك — لم يسمعها إلا أن تسترسل في بعض مخاوف نسوية ، حينما ألفت نفسها في قفر بلقع مع قليل من الخفراء كانوا يبدون كذرة متحركة على صدر السهل ، وحينما أدركت كذلك أنهم على مقربة من معسكر صلاح الدين ، وأن هذا الوثني قد تبلغ به الخيانة أن ينتهز هذه الفرصة فيبعث بجيش قوى من فرسانه يخاف الحركة يباغتهم ويسحقهم في لحظة واحدة ؛ ولكنها ما إن ألمت إلى رتشارد بهذه الريب حتى درأها غضباً مزدرباً وقال : « إنه لشر من نكران الجميل أن ترتاب في صدق نية السلطان الكريم . »

ولكن هذه المخاوف والشكوك عادت أكثر من مرة لا إلى عقل الملكة الهيوب وحده ، ولكن إلى نفس أدِيث بلانتاجنت كذلك ، وهي أشد ثباتاً وأكثر صراحة ، ولم تبلغ بها الثقة في إخلاص المسلمين مبلغاً تطمئن معه إلى هذا الحد ، إن هي باتت في قبضتهم ؛ ولو كان ما حوالياً من أرض يباب يردد صدى النداء « بالله » على حين غرة ، ثم تنقض عليهم عصابة من فرسان العرب كما تنقض النور على الفريسة ، لكانت دهشتها من ذلك أقل من رعبها بكثير ؛ ولم تقتر هذه الشكوك حينما أقبل المساء ، ورأوا فارساً عربياً — يتميز بعلمته ورمحه الطويل — يحوم على حافة جبل ناتي كالصقر يحلق في الهواء ، وقد انطلق في الحال عند ما ظهر الملك وأتباعه انطلاق الطائر حينما يشق الريح ويختفي وراء الأفق .

فقال الملك رتشارد : « لا بد وأن نكون قد اقتربنا من المكان ، وذلك الفارس أحد طلائع صلاح الدين — يخيل لي أني أسمع أصوات الأبواق والصنوج المغربية ؛ رتبوا صفوفكم يا أجباء قلبي ، واصطفوا حول السيدات واثبتوا ثبات الجنود . » وفي خلال كلامه خف كل فارس وتابع ونبال على عجل إلى مكانه المعين ، وساروا في صفوف متلاصقة أشد التلاصق حتى بدا عديدهم قليلاً ، وحقاً إن لم يسر بينهم الخوف ، فقد تملكهم الجزع وحب التطلع وهم يتسمعون منصتين

إلى أنغام الموسيقى المغربية وهي تصدح ، وتبلغهم الحين بعد الآخر واضحة من الجهة التي اختفى فيها الخيال العربي .

وقال دى ثو همساً : « أما كان خير لنا يا مولاي أن نبعث برسول إلى قمة هذه الراهية الرملية ؟ أم هل تريدني أن أسبق إلى الأمام ؟ يخيل لي من كل هذا الضجيج وذاك الطنين أنه إن لم يكن هناك ما يربو على خمسمائة رجل وراء الكتبان الرملية ، فلا بد وأن يكون نصف حاشية السلطان من الطبالين واللاعبين بالصنوج — هل لي أن أسبق ؟ » .

وشد البارون على جواده بزمامه ، وأوشك أن يحفزه بمهمازه ، لولا أن صاح به الملك « كلا ، لو أعطيتُ ملك الدنيا ؛ إن مثل هذا الحذر يدل على الريبة ولن يحول دون انقضاضهم علينا ، وهو أمر لا أخشاه » .

وتقدم الجمع بعد هذا في نظام محكم متقارنين ، حتى تخطوا الكتبان الرملية المنخفضة ، وباتوا على مرأى من المكان المقصود ، فإذا بانتظارهم مشهد رائع جليل ، ولكنه يثير الرعب في النفوس .

كانت (درة الصحراء) إلى عهد قريب عينا منعزلة لا يميزها وسط القفار سوى عدد من أشجار النخيل المتباعدة ، ولكنها الآن محط لخيام عديدة مضروبة ، وعليها أعلام مزركشة وزينات من الذهب تتألق تألقاً شديداً وتعكس ألواناً من الألوان الزاهية ، والشمس تسطع عليها وهي مائلة للغروب . وكانت السراقات الضخمة مغطاة بأزهي الألوان ، من قرمزي إلى أصفر فاقع ، إلى أزرق شاحب ، وغير ذلك من الأصباغ ذات الرونق والسناء ، وأعلى عمدتها — أو قوائم الخيام — كانت محلاة برمان من الذهب ، وأعلام صغيرة من الحرير ؛ ولكن إلى هذه السراقات المتميزة كان هناك ، على ما رأى توماس دى ثو ، عدد كبير من خيام العرب المألوفة السوداء ، تكفي — على ظنه — لإيواء جيش من خمسة آلاف رجل على الطريقة الشرقية ؛ وكان هناك عدد من الأعراب والكرد يتناسب واتساع الخيم ، يتجمعون على عجل ، وكل منهم يقود جواده بيده ، ويصحب

حشدهم فجيح يكاد يصم الآذان ، يصدر عن آلاتهم الصخابة التي كانوا يضرّبون عليها موسيقاهم العسكرية ، والتي أشعلت في العرب طوال العصور حماس الحرب والقتال .

وسرعان ما تجمعوا أمام خيامهم في حشد مضطرب شديد الزحام من الفرسان المترجلين ، وما إن أشير إليهم بصيحة عالية تعلو رنين الموسيقى ، حتى خف كل فارس إلى ظهر جواده ، وثار النقع سحبا حيناً قاموا بهذه الحركة العسكرية ، فاخفى عن ناظر رتشارد وأتباعه المسكر والنخيل وحافة الجبل البعيدة ، كما اخفى الجنّد الذين أثاروا سحب التراب بحركتهم المباغتة ؛ وارتفع الغبار فوق رؤوسهم ، واتخذ أشكالاً عجيبية من عمد ملتوية وقباب ومآذن ، وارتفعت صيحة عالية أخرى منبعثة عن صدر هذا الهيكل المنشأ من سحب التراب ، وكانت هذه الصيحة إشارة للفرسان بأن يتقدموا ؛ وقد فعلوا ، راكضين بأقصى سرعة . وكلما ساروا إلى الأمام اصطفوا محيطين بالمقدمة والجناحين والمؤخرة من حراس رتشارد القليلين ، وقد باتوا محاصرين ، ويكادون يخنقون بسحب التراب الكثيفة التي تغشتهم من كل جانب ، والتي كانت تبين من خلالها حيناً وتختفي حيناً آخر جسوم الأعراب الكالحة ، ووجوههم البربرية ، وهم يلوحون برماحهم ، ويهزون بها في كل متجه مهللين هاتفين ، ولا يمسكون بزمام خيولهم إلا غراراً ، وذلك حيناً يبيتون على قيد رمح من المسيحيين ؛ بينما كانت مؤخرتهم تمطر على رؤوس الفريقين وابلا من السهام ، وقد أصاب أحدها الحفة التي كانت تجلس فيها الملكة ، فعلا صياحها واهجر جبين رتشارد في لمح البصر .

فصاح مذعوراً : « وحق القديس چورج ليكون لنا مع هذه الطغمة من الكفار شأن ! » .

أما أديث التي كانت محفها على كثر ، فقد أطلت برأسها ، وأمسكت بإحدى يديها نبلة وصاحت : « أي رتشارد المليك ، حذار مما أنت فاعل ! أنظر ، إن هذه السهام بغير رؤوس ! » .

فصاح بها رتشارد : « ما أنبلك وأحكمتك من امرأة ! والله إنك لتخجليننا جميعاً بسرعة خاطرک ونفاذ بصرك » — وصاح بأتباعه : « لا تتحركوا يا أعزاء قلبي من الإنجليز ، إن سهومهم ليس لها رؤوس ، وإن رماحهم كذلك تنقصها أطراف الحديد . إنما جاءونا مرجين ترحيباً وحشياً على طريقهم البربرية ، ولكنهم رغم هذا — لا مرء — يتهجون إذا رأونا مرتاعين أو مضطربين ؛ سيروا إلى الأمام بتؤدة وثبات » .

فسارت الكتبية الصغيرة قُدماً ، يصحبها الأعراب من كل جانب ، وهم يصيحون صياحاً نافذاً أجش ؛ وحمة القسي يعرضون حدقهم وخفقهم فيرمون بسهامهم على قيد شعرة من رؤوس المسيحيين دون أن يصيهم بأذى ، والرماحون يتقارعون بغلظة بأسلحتهم الكليية ، حتى كثر منهم من فقد سرجه وكاد يفقد حياته في هذا اللعب الهمجي ؛ وقد أرادوا بهذا كله إلى التعبير عن ترحابهم ، ولكن ظاهر الأمر كان مريباً في أعين أبناء أوروبا .

وما إن بلغوا منتصف الطريق نحو المعسكر ، والملك رتشارد وأتباعه يؤلفون النواة التي تجمع حولها هذا العدد الصخاب من الخيالة ، مهللين هاتفين ، ومناوشين ومهطعين ، وهم على صورة من الاضطراب لا يحيط بها وصف ، حتى انبعثت صيحة عالية أخرى ، كر لسمعها الجنود المحتلون ، الذين كانوا بالمقدمة وعند الجناحين من الكتبية الأوروبية الصغيرة ، وألفوا من أنفسهم صفاً طويلاً عريضاً ، وساروا في مؤخرة عسكر رتشارد ، وهم أكثر نظاماً وأزمت صمتاً ؛ وبدأ التراب الآن ينقش أمامهم حيناً تقدم للقائهم خلال ذلك الحجاب القاتم جماعة من الفرسان يختلفون عنهم هيئةً ويفوقونهم نظاماً ، مسلحين إلى الأطراف بأسلحة الدفاع والهجوم ، يليق بهم أن يكونوا حراساً لأكثر ملوك الشرق صلفاً وكبراً ؛ وهذه الفرقة الفاخرة كانت تتألف من خمسمائة رجل ، وكل جواد من جيادهم يليق فداء لرجل شريف ؛ والركبان رقيق من أهل جورجيا أو چراكسة في ريعان الشباب ، وخوذاتهم وقمصانهم المصنوعة من الزرد كلها من حلق الحديد ، شديدة البريق ،

تتألق كالفضة ، ونطقهم مجدولة بالحرير والذهب ، وعمائمهم الغالية مرصعة بالريش والجواهر ، وسيوفهم وخناجرهم من الصلب المحلى بالفضة ، مزينة بالذهب واللالى على مقابضها وأعمدتها .

تقدم هؤلاء الجند ذوو الأزياء الفاخرة على أنغام الموسيقى العسكرية ، ولما التقوا بفرقة المسيحيين فتحوا صفوفهم يمينا ويسارا ، وأدخلهم بينهم ، واتخذ رتشارد الآن مكانه فى طليعة جنده ، وهو يعلم أن صلاح الدين نفسه يدنو . ولم يمض زمن طويل حتى أقبل السلطان وسط حرسه ، وكأنه بملاحه وهيئته رجل كتبت الطبيعة على جبينه (هذا ملك) ، وأحاط به خدمه من الضباط وأولئك الزوج الديمين الذين يخفرون الحريم فى الشرق ، والدين زاد قبح أشكالهم رعبا نفاسة ملبسهم . وصلاح الدين بعامتة الناصعة البياض ، وصداره وسراويله الشرقية الفضفاضة ، ونطاقه الحريرى القرمزى ، دون أية زينة أخرى ، ربما كان أكثر من حرسه سداجة فى لباسه ؛ ولكنك إن دنوت منه وأمعنت فيه ، رأيت فى عمامتة تلك الجوهرة التى لا تقدر ، والتى سماها الشعراء (بحر النور) ؛ واللؤلؤة المنقوشة باسمه ، والتى كان يلبسها فى خاتمه ، ربما كانت تساوى فى قيمتها كل ما بالتاج الإنجليزى من جواهر ، والياقوت الذى ينتهى به مقبض سيفه لا يقل عنها فى قيمتها كثيرا ؛ وفوق ذلك كان السلطان يلبس نوعا من القناع يتصل بعامتة ، ويحجب عن الأنظار جانبا من ملاحه النبيلة ، وذلك إما وقاية له من التراب الذى يشبه فى جوار البحر الميت أدق الرمال ، أو ربما كان ضربا من الكبرياء الشرقى ؛ وكان يمتطى حصانا عربيا ناصع البياض ، يحمله وكأنه يحس ويفخر براكبه النبيل .

ولم تكن هناك حاجة إلى مقدمة جديدة ، فلقد نزل الملكان الشهبان — وحقا لقد كانا كذلك — عن ظهري جواديهما توا ، ووقف الجند ، وسكنت الموسيقى بفتة ، وتقدما للقاء فى صمت رهيب ، وبعدما انحى كل منهما مجاملة تعانقا كأخوين وندين ؛ ولم تعد الأهبة والمظهر لدى أيهما لتجتذب النظر ، إذ لم ير

أحد شيئاً غير رتشارد وصلاح الدين ، ولما ير أحدهما غير الآخر ، ولكن النظرة التي كان يرمق بها رتشارد صلاح الدين كانت أكثر إمعاناً وتطلعا من نظرات السلطان التي صوبها نحوه ؛ وكان السلطان كذلك أول من شق ما كان يسود من سكون .

وقال : « إن صلاح الدين يرحب بالملك رتشارد كما يرحب بالماء لهذه الصحراء ! وإنى على يقين من أنه لا يرتاب في هذا العدد العديد من الجنود ، فإذا استثنيت العبيد المسلحين من حاشيتي ، فإن أولئك الذين يحيطونك بنظرات من العجب والترحاب هم جميعاً — حتى أكثرهم خضوعاً — من النبلاء ذوى المسكنة في القبائل الألف التي تتبعني ؛ إذ من ذا الذي يكون له حق الثول ويلبث في بيته ، والأمير القادم رتشارد ، وهو الذي يخاف اسمه — حتى فوق رمال اليمن — تدلل المرزعة الوليد ويخضع العربي جواده الجموح ! »

فأجاب رتشارد وقال : « وكل هؤلاء نبلاء من الأعراب ؟ » وتلفت حواليه ، ووقع بصره على جسوم خشنة ، ورجال متلفعين بالثياب ، اسودت من حرارة الشمس ملامحهم ، وأسنانهم بيضاء كالعاج ، وعيونهم السود يتألق فيها بريق نافذ غير طبيعي تحت ظلال عمائمهم ، ولبامهم على الجملة ساذج بل وضيع .

فقال السلطان : « أجل إن لهم لهذه المرتبة ، وهم وإن يكونوا عديدين إلا أنهم يخضعون لشروط المعاهدة ، ولا يحملون سلاحا غير السيوف — وحتى حديد رماحهم فد خلفوه وراءهم » .

فتمتم دى فو بالإنجليزية قائلا : « إنى أخشى أن يكونوا قد خلفوه حيث يتيسر لهم إن أرادوه سريعا — إنى أقر بأنهم مجلس من الشيوخ جليل ، وربما ضاقت بهم قاعة وستمنستر » .

وقال رتشارد : « صه يا دى فو — إنى آمرك بالصمت » ثم قال : « أيها السلطان ، إنك والشك لا توجدان على أرض واحدة » وأشار إلى المحفات وقال : « ألا ترى أنى كذلك قد أتيت معي ببعض الأبطال ، ولكنهم مسلحين ؛ ولربما

كان في ذلك إخلال بالاتفاق ؛ ولكن العيون النجل ، والملاح الفاتنة ، أسلحة لا نستطيع أن نخلفها وراءنا » .

فالتفت السلطان نحو المحفات ، وطأطأ رأسه إجلالاً كأنه يولي وجهه شطر مكة ، وثم الرمال إشارة على الاحترام والتبجيل .

وقال رتشارد : « كلا ، إنهن يا أخي لا يخشين لقاء أقرب من هذا . هلا ركبت صوب محفاتهن ، وسترفع الستر بعد زمن وجيز ؟ » .

فقال صلاح الدين : « حرام على هذا ! وليس للعربي أن ينظر إلى النساء ، وعار على السيدات النبيلات أن يبدن وجوههن بغير قناع » .

فأجاب رتشارد : « إذن لتراهن في خلوة يا أخي المليك » .

فأجابه صلاح الدين محزوناً وقال : « لِمَ أراهن ؟ لقد كانت رسالتك الأخيرة لآمالى التى أشدت كالماء للنار ، فما لى بعد هذا أشعل لهيباً قد يحرق قلبى ولا يدخل السرور على نفسى ؟ — ولكن هلا سار أخى إلى القسطاط الذى أعده له خادمه ؟ إن عبدى الأسود الخاص قد تلقى الأمر للقاء الأميرات — وسوف يستقبل الضباط من حاشيتى تابعيك ، وسأقف بنفسى على خدمة رتشارد المليك » .

وعلى إثر هذا شق طريقه إلى سرادق نخم أعد به كل طريف من ترف الملوك ، وكان دى فو حاضراً فأزال عباءة الركوب الطويلة التى كان يلبسها رتشارد ، ووقف الملك أمام صلاح الدين فى لباسه الضيق الذى أبان عن متانة قوته وجمال اتساق جسمه ، وهو يباين كل التباين الثياب الفضفاضة التى كانت تستر جسم الملك الشرقى النحيل ؛ وكان أشد ما استرعى انتباه الملك العربى سيف رتشارد الطويل ذو المقبضين ، وظبانه العريضة المستقيمة التى يمتد طولها الفارط من كتف حامله إلى عقبه .

فقال السلطان : « والله لولا أنى رأيت هذا المهند يتألق فى طليعة المعركة كسيف عزرائيل لما كدت أصدق أن ذراعاً بشرية تستطيع أن تهز به ، وهل لى أن أتمس رؤية الملك رتشارد وهو يضرب به ضربة واحدة سلمية لمحض امتحان قوته ؟ » .

فأجاب رتشارد : « لك هذا منى راغباً أيها السلطان النبيل » ؛ وتلفت حواليه يبحث عن شيء يختبر به قوته ، فوقعت عينه على صولجان من الصلب يمسك به أحد الواقفين ، له مقبض كذلك من الصلب ، قطره نحو بوصة ونصف البوصة ، فأخذه ووضعها على كتلة من الخشب .

وأدى بدى فو جزعه على شرف سيده أن يهمس بالإجليزية قائلاً : « وحق العذراء البتول ، حذار مولاي مما أنت مقدم عليه ! إنك لم تسترد بعد كامل قواك . لا تشمت فيك هذا الكافر » .

فقال رتشارد وقد ثبت في مكانه ورننا حواليه بنظرة حادة : « أنصت أيها الغافل ، أفتظن أنى أحبط في حضرته ؟ » .

وأمسك مهنده العريض البراق بكلتا يديه ، ورفعها عالياً إلى كتفه اليسرى ، وأداره حول رأسه ، وهوى بقوة كأنه قوة آلة مروعة ، فتدحرج القضيب الصلب فوق الأديم وقد قصمه نصفين كما يبتتر الحاطب الشجيرة بفأسه .

فأخذ السلطان القضيب الصلب الذى انكسر شطرين ، وغضبه بدقة وإمعان ، وقال : « والله إنها لضربة عجبية ! » ، وكانت ظبابة السيف من اللين بحيث لم يبد عليها أقل إشارة إلى تأثرها بالعمل الجليل الذى أنجزته ؛ ثم تناول يد الملك وحدث في حجمها وقواها العضلية التى بدت عليها ، وضحك حينما وضعها بجانب يده الضامرة الهزيلة التى لا تدانيها قوة ولا عصباً .

وقال دى فو بالإجليزية : « أجل ، انظر وأمعن في النظر ، إن أصابعك التى تشبه أصابع القرد لن تستطيع أن تقوم بمثل هذا العمل الباهر بسيفك هذا الرقيق المموه بالذهب » .

فقال رتشارد : « ائزم الصمت يا دى فو ، أقسم بالعذراء إنه قد يدرك أو يتخرص بما تعنى - وإنى أرجوك أن لا تكون فظاً كذلك » .

وحقا لقد أسرع السلطان بقوله : « إنى أريد أن أحاول أمراً ، ورغم أن الضعيف ليس له أن يظهر ضعفه أمام القوى ، إلا أن لكل بلد ما ألف من مران ،

وقد يكون هذا جديداً على الملك رتشارد . وبعد ما أتم حديثه رفع عن الأديم وسادة من الحرير والزغب ، ووضعها مستقيمة على أحد أطرافها ، وقال للملك رتشارد : « هل تستطيع بسلاحك يا أخي أن تقصم هذه الوسادة ؟ » .

فأجاب الملك : « كلا ، وإيم الحق ، وما على الأرض سيف — حتى ولا حسام الملك أرثر — يستطيع أن يقطع شيئاً لا يثبت لوقع الضربة الراسخة » .

فقال صلاح الدين : « إذن فانظر إلى » وشمر عن ساعده ، فبدت منه ذراع نحيلة ، هزيلة حقاً ، ولكنها من أثر المران تصلبت وباتت كتلة ليس بها غير العظام والعضلات والأعصاب ؛ ثم جرد سيفه الأحذب من غمده ، وهو نصل منحني ضيق ليس له بريق سيوف الفرنجة ، وإنما لونه أزرق قاتم ، عليه عشرة ملايين من الخنوط اللتوية ، مما يدل على أن صانعه أحى المعدن بالنار وطرقه بكل عناية ؛ ووقف السلطان مرتكراً بثقله على قدمه اليسرى ، وقد قدمها إلى الأمام قليلاً ، وهز بسلاحه وظاهره الضعف إذا قيس بمهند رتشارد ، وآزن السلطان قليلاً كأنه يريد أن يتثبت من هدفه ، ثم خطا إلى الأمام بفتة وجذب الأحذب فوق الوسادة مطبقاً شفرته عليها بمحذق وبقليل من الجهد ، حتى لكان الوسادة قد انقصمت من تلقائها شطرين ولم يمزقها العنف والقوة .

فانطلق دى فو إلى الأمام ، واختطف نصف الوسادة التي انقصمت كأنه يريد أن يتثبت من صدق ما وقع ، وقال : « إن هذه إلاحيلة مشعوذ ، وإن في هذا لسحراً » . ويظهر أن السلطان قد أدرك قوله ، لأنه أزال ذلك الضرب من اللثام الذي كان يتلثم به حتى آتئذ ، ونزعه عن وجهه ، وعلقه بطرف سيفه ، ومد حسامه في الجو مستعرض الشفرتين ، وجذبه بفتة من خلال اللثام رغم تعلقه بالظباة مرسلاً غير موثوق ، فمزق اللثام كذلك نصفين ، وتطاير في ناحيتين مختلفتين في الفسطاق ، مبيناً كذلك عن لين السلاح وحدته الفائقة ، ومهارة حامله مهارة رائعة .

وقال رتشارد : « والآن وإيم الحق يا أخي إنك في حيل السيف لا تبارى ، وإنك لجد خطر لمن يلاقيك ! ولكني ما زلت رغم هذا أثق ببعض الثقة في الضربة

الإنجيزية القاصمة ، فإن ما لم نستطعه بالدهاء ندره بالقوة ، وعلى ذلك خفا إنك في ثلم الجروح لحاذق حذق حكيمي النظامي في ضمدها ؛ إني أعتقد أني سوف أرى الطبيب العالم — إن على له لشكراً جزيلاً ، وقد أتيت له بهدية صغيرة .

وبينا هو يتكلم ، استبدل صلاح الدين عمامته بتقية تترية ، وما إن فعل ذلك حتى فغردى فو في الحال فه المريض وعينيه الكبيرتين المستديرتين ، وحلق رتشارد بما لا يقل عن ذلك دهشة ، بينما أخذ السلطان يتكلم بصوت رزين متغير ويقول : « يقول الشاعر ما معناه : إن المريض ما دام عليلاً يعرف طبيبه بخطاه ، ولكنه إن عوفى لا يعرف منه حتى وجهه حينما ينظر إليه » .

فصاح رتشارد : « إنها لمعجزة ! — إنها لمعجزة ! »

وقال توماس دى فو : « معجزة من فعل محمد ولا مرء » .

وقال رتشارد : « كيف لي أن أفتقد حكيمي النظامي لمجرد غياب تقيته وثوبه ، ثم أجده ثانية في شخص أخى المليك صلاح الدين ! » .

فأجابه السلطان : « هذه حال الدنيا في كثير من الأحيان ؛ إن الثياب البالية لا تم عن الدرويش في كل حين » .

فقال رتشارد : « وإذن لقد كنت الوسيط في نجاة فارس النمر من الموت ، وبحيلتك كانت عودته إلى المعسكر متنكراً ؟ » .

قال صلاح الدين : « أجل ، لقد كان ذلك ؛ وقد علمني طبي أن جراح شرفه الدامى ، إن لم تلتئم ، فإن أيام حياته سوف لا تطول ؛ ولقد كان كشف تنكره أيسر مما توقعت لنجاح تنكرى » .

فقال الملك رتشارد : « إن حادثاً قد وقع حداً بي أول الأمر إلى أن أدرك أن بشرته كانت ملونة بلون مصطنع (وربما يشير بهذا إلى الظرف الذى دفعه إلى أن يطبق شفثيه على جرح النوبى المزعوم) ، وما إن أدركت هذه الإشارة حتى أصبح كشف الأمر سهلاً ميسوراً ، فإن هيئته وجسمه لا يغيبان عن الذكر ، وإني على ثقة من أنه سوف يتقدم للنزال في الغد » .

فقال السلطان : « إنه على تمام الأبهة وعلى أمل عظيم ، فلقد أعددت به بالسلح والحصان لأنى أحسن به الظن مما رأيت وأنا متخف فى مختلف الأزياء » .

فقال رتشارد : « وهل يعرف هو الآن لمن هو مدين ؟ » .

فأجاب العربى : « أجل فلقد اضطررت إلى الاعتراف له بشخصى حينما كسفت له عن غرضى » .

فقال ملك انجلترا : « وهل أقر لك بشىء ما ؟ »

فأجاب السلطان : « لم يقر بشىء صراحا ، ولكن من كثير مما دار بيننا ، أدركت أن حبه معقود بفتاة من بيت كريم أرفع من أن ينتهى وإياها إلى السعادة والرفاهية » .

فقال رتشارد : « وهل تعلم أن حبه هذا الوقح الجرىء يتعارض ورغبتك ؟ »

فقال صلاح الدين : « قد يبلغ بى الظن إلى هذا الحد ؛ ولكن حبه قد ظهر إلى حيز الوجود قبل أن تنشأ فى الرغبة — وينبغى أن أقول إن حبه أبقى على الزمن من حبى ، وإن شرفى لا يسمح لى بأن أنتقم لخيبتى ممن لم تكن له يد فيها ، ولئن كانت هذه الكريمة النسب تحبه أكثر مما يحببى فمن ذا الذى يقول إنها لم تنصف فارساً من دينها كله وشرف ونبلى ؟ » .

فقال رتشارد شامخاً بأنفه : « ولكنه من ذرية أوضع من أن تختلط بدم

بلانتاجت » .

فأجابه السلطان : « ربما كانت هذه مبادئكم فى بلاد الفرنجة ، أما نحن فشرارونا من أهل الشرق يقولون بأن الحادى المقدام جدير بتقبيل ثغر الملكة الحسناء ، أما الأمير النذل فليس قميئنا بأن يحبى أهداب ثيابها — ولكنى أستأذنك أخى النبيل فى أن أفارقك الآن ، كى أستقبل دوق النمسا وذلك الفارس النصرانى ، وهما أقل منك حقاً بالأكرام ، ولكننا ينبغى لنا أن نحسن لقاءهم ، لا إجلالاً لهم ، ولكن احتفاظاً بشرفى — ولقد قال فى ذلك الحكيم لقمان : (إن الطعام الذى تقدمه للغريب

لا يضيع ، فإن اشتد به جسمه وقوى ، ارتفع اسمك غزوة وشهرة » .
ثم فصل الملك العربي عن سرادق الملك رتشارد ، وبعد أن أوماً إليه بالإشارة
لا بالكلام عن المكان الذى ضرب به سرادق الملكة ووصيفاتها ، ذهب للقضاء
مر كيزمنتسرا وحاشيته الذين أعد لهم السلطان كذلك أماكن يستقرون فيها ، توازي
ما أعد لغيرها أبهة وعظمة ، ولكن بقلب أقل ترحيباً . وقُدّم الطعام الوفير على
الطريقة الشرقية وعلى النمط الغربى لضيوف صلاح الدين من الملوك والأمراء ، كل
فى سرادقه الخاص ؛ وكان السلطان شديد التنبه لعادات زأريه وأذواقهم ،
فأوقف رقيقاً من اليونان يقدمون لهم كؤوس الخمر ، وهى حرام على المسلمين ،
وقبل أن يفرغ رتشارد من طعامه دخل (عبد الله) الذى كان قد حمل رسالة
صلاح الدين إلى معسكر المسيحيين ، ومعه خطة الطقوس والرسوم التى سوف
تتبع فى اليوم الذى يلى يوم النزال ؛ وكان رتشارد يعرف هوى صاحبه القديم ،
فدعاه لأن يشاركه فى قدح من نبيذ (شيراز) ، ولكن (عبد الله) أوماً إليه —
وعلى وجهه سيما الحزن والأسى — بأن إنكار الذات فى الظرف الراهن أمر يتعلق
بجياته ، لأن صلاح الدين — رغم تسامحه فى كثير من الشؤون — كان يعى
شريعة النبي وينفذها بالعقوبة القاسية .

فقال رتشارد : « إذن إن كان لا يجب الخمر — وهى ذلك الشراب الذى يخفف
عن قلب الإنسان — فإن اعتناق المسيحية لا أمل فيه ، ولسوف تذهبن نبوءة
كاهن عين جدة المجنون أدراج الرياح » .

ثم شرع الملك يعد أدوات المبارزة ، واستغرق فى ذلك وقتاً طويلاً ، إذ كان
لزما عليه أن يتشاور فى بعض الأمور مع الفريق المنازل ومع السلطان .

وأخيراً تم بينهم الاتفاق فى كل شىء ، وسووا ما بينهم فى ميثاق بالفرنسية
والعربية ، وقع عليه صلاح الدين حكماً فى ميدان القتال ، ورتشارد وليوبولد كضامنين

لمتبارزين ؛ ودخل دى فو (عبدالله) يستأذن من الملك رتشارد بالانصراف نهائيا ذلك المساء .

وقال دى فو : « إن الفارس الكريم الذى سوف يشترك فى أنزال غداً يرجو أن يعرف إن كان يجوز له هذه الليلة أن يقدم ولاءه لمتبوعه المليك ؟ » .

فقال الملك باسمًا : « وهل رأيت يادى فو ؟ وهل عرفت فيه صديقاً قديماً ؟ » .

فأجابه دى فو « أقسم بسيدة (لازكست) إن بهذه البلاد من المفاجآت

والتغيرات الكثيرة ما يضطرب له عقلى الضعيف . والله ما كدت أن أعرف السر

كنت الاسكتلندى حتى جاءنى كلبه الصالح ، الذى لبث تحت رعايتى زمناً قصيراً ،

وتمسح بى ؛ وحتى حينئذ ما عرفت الكلب إلا باتساع صدره واستدارة قدمه

وأسلوب نباحه ، فلقد كان الكلب المسكين مصطبغاً بالألوان كماهرات البندقية » .

فقال الملك : « إنك فى معرفة الحيوان أحذق منك فى معرفة الرجال يادى فو » .

فقال دى فو : « لا أنكر أنى كثيراً ما ألفتهم أكثر الفريقين أمانة

وإخلاصاً ، وفوق ذلك فإن جلالتك قد يسرك أحياناً أن تدعونى بالوحش ، وفضلاً

عن هذا فإنى أخدم الأسد الذى يعترف له الرجال جميعاً بأنه ملك الوحوش » .

فقال الملك : « أقسم بالقديس جورج إنك حقاً هنا قد كسرت رحلك على

جيبى (أى غلبتنى) ، لقد كنت أبداً أقول إن لديك شيئاً من الفطنة يادى فو .

ولكن ينبغى للمرء أن يضربك بالمطرفة قبل أن يتطأير منها الشرر ، أما هذا

الترس ... قل لى هل الفارس الكريم كامل التسليح والعدة ؟ » .

فأجابه دى فو : « أجل ، مولاي ، وإنه لكامل النبل كذلك ؛ إنى أعرف

الدرقة جيداً ، إنها تلك التى قدمها إلى جلالتك رسول البندقية قبل مرضك بقليل

نظير خمسمائة بيزنطة » .

« وقيناً لقد باعها السلطان المشرك وريح فيها بضع دنانير وتسلم الثمن فوراً ؛

والله إن أهل البندقية هؤلاء ليبعن القبر المقدس ذاته ! » .

فقال دى فو « إن الدرقة لن تحمل فى أمر أنبل من هذا » .

وقال الملك : « والفضل في هذا لنبل العربي لا لجشع البندق » .
فقال دى فو وهو قلق : « إني لأرجو الله أن تكون جلالتك أشد حذراً ،
وها نحن وقد هجرنا أحلافنا لإساءة لحقت بهذا أو بذاك ؛ إنا لا أمل لنا في
النجاح برا ، وإذا اشتبكتنا مع الجمهورية البرية البحرية فسوف نفقد سبيل
التراجع بجرأ » .

فأجاب رتشارد جازعاً وقال : « سوف أحمز ، ولكن لا تقف منى موقف
المعلم بعد هذا ، وإنما قل لى هل لدى الفارس قسيس ؟ فإن هذا الأمر يهمنى » .
فأجاب دى فو قائلاً : « أجل ، وذلك هو ناسك عين جدة الذى قام له بهذه
الخدمة من قبل وهو يتأهب للموت ، وهو يقف بجانبه فى هذا الظرف ، وقد أتت
به إلى هنا شهرة المبارزة » .

فقال رتشارد : « نعم الخبر ، والآن ماذا يطلب الفارس ؟ قل له إن رتشارد
سوف يقابله بعد ما يقوم بواجبه بجانب (درة الصحراء) تكفيراً عن إثمه بجانب
جبل القديس جورج ؛ وإذا ما مررت بالمسكر فقل للملكة إني سوف أزور
سرادقها ، وقل لبلندل أن يلقانى هناك » .

وفصل دى فو ، وبعد نصف ساعة تلفع رتشارد بعباءته ، وأخذ بيده حسامه ،
وسار فى طريقه إلى سرادق الملكة ، ومر به كثير من الأعراب ، ولكنهم كانوا
دائماً ينصرفون عنه بوجههم ، ويعقدون بالأديم أبصارهم ؛ ومع ذلك فقد استطاع
أن يرى أنهم جميعاً كانوا يتبعونه بالنظر متطلعين ، بعد ما ينأى عنهم ؛ وقد حدا به
هذا إلى الظن حقاً بأن شخصه كان معروفاً لهم ، ولكنهم تحاشوا أن يبدو
عليهم أنهم يراقبون ملكاً أراد أن يتنكر ، إما لأمر من صلاح الدين أو
لأدابهم الشرقية .

ولما بلغ الملك سرادق الملكة ، ألفاه مخفوراً بأولئك الضباط الأشقياء الذين
توقفهم الغيرة الشرقية على حراسة الحرم ، وكان بلندل يسير لدى المدخل ، ويتغنى
بين الفينة والأخرى بأسلوب يجعل هؤلاء الإفريقيين يبرزون أسنانهم العاجية ،

ويقومون بحركاتهم الغريبة مهللين بأصواتهم المجلجلة العجيبة .

فقال الملك : « ماذا تريد من هذا القطيع من المشية السوداء يا بلندل ؟ ولماذا لا تدخل السرادق ؟ » .

فأجابه بلندل وقال : « لأن صناعتي لا تغنيني عن رأسي ولا عن أصابعي ، وهؤلاء المغاربة السود الأبناء هددوني بتقطيعي إرباً إرباً إن أنا تقدمت إلى الأمام . »
فقال الملك : « إذن فلتدخل معي وسوف أكون لك حارساً » .

ثم نكس هؤلاء السود حراهم وسيوفهم إجلالاً للملك رتشارد ، وطأوا رؤوسهم كأنهم لا يليق بهم أن ينظروا إليه . وفي داخل السرادق ألقى الملك توماس دى فو قائماً على خدمة الملكة ؛ وبينما برنجاريا ترحب ببلندل ، اتحى رتشارد وقريبتة الحسناء ناحية ، وأخذ يحادثها سرا فترة من الزمن .
وقال لها همساً « أو ما زلنا بعد هذا خصوصاً يا أديث الحسناء ؟ »

فقال أديث بصوت خافت لا يعارض الموسيقى : « كلا يا سيدي ، إن أحداً لن يسمعه أن يحمل في نفسه العداوة للملك رتشارد ، وهو يتعطف علينا بالكرم والنبيل ، وهما من شيمته حقا ، كما أنه رجل شهيم كريم » .

وما إن فرغت من حديثها حتى مدت يدها إليه ، فثمها الملك إيماء إلى التثام القلوب ثم قال :

« إنك تحبين يا ابنة عمي الحسناء أنى كنت أتكلف الغضب في هذا الأمر ؛ كلا ، لقد خدعتك نفسك ؛ إن العقوبة التي وقعت على هذا الفارس كانت عادلة ، ومهما بلغ به الإغراء يا ابنة عم الفاتنة فلقد خدعنا فيما وكلنا إليه من ثقة ؛ ولكن سرورى كسرورك عظيم بأن الغد سوف يهيئ له الفرصة ليكسب المعركة ويرد العار — الذى التصق به زمناً — إلى السارق والخائن الحق . كلا ؛ إن المستقبل قد يعدل رتشارد على تهوره وحمقه ، ولكنهم سوف يقولون إنه في حكمه كان يعدل حين تجب العدالة ، ويرحم حينما يجد إلى الرحمة سبيلاً » .

فقالت أديث : « لا تسبح بحمد نفسك يا ابن عمي ، فلربما رأوا في عدالتك القسوة ، وفي رحمتك الهوى » .

فقال لها الملك : « وأنت لا تفخرى بنفسك ، كأن فارسك الذي لم يمتشق سلاحه قد أخذ ينزعه بمد الظفر والانتصار — إن كتراد منتمرا معروف بمهارته في الضرب بالرمح ، فاذا لو خسر الأسكتلندي في النزال ؟ »

فأجابت أديث مؤكدة مثبتة وقالت : « هذا محال ! لقد شهدت بعيني رأسي كتراد هذا وهو يرتعد ويتغير لونه كاللص الدنيء . إنه آثم — وامتحانه بالمبارزة احتكام إلى عدالة السماء — لو كان لي أنا نفسي أن أنزله في مثل هذا الأمر لنازلته بغير وجل » .

فقال الملك : « وحق القداس إنى لأظنك تستطيعين ذلك أيتها المرأة ، ثم توقعين به الهزيمة ؟ فما تنفس من أبناء بلانتاجنت من هو أصدق منك قولاً » .
وسكت قليلاً ثم قال في نغمة الجد الصارم : « ولكني أوصيك أن تذكرى أبدأ ما يجب لكرم منبتك » .

فقالت أديث : « وماذا تعنى بهذا النصيح الذي تنصحني به في هذه اللحظة جادا ؟ هل أنا من خفة الطبع بحيث أنسى اسمي — وحالي ؟ »

فأجابها الملك قائلاً : « سوف أكلّمك صريحاً يا أديث ، وكما يكلم الصديق الصديق — ما شأن هذا الفارس بك لو أنه خرج من هذه المبارزة ظافراً ؟ »
فاشتد احمرار أديث خجلاً وغضباً وقالت : « شأنه بي ؟ ماذا عساه أن يكون لي أكثر من فارس كريم ، قين بما قد توليه الملكة برنجاريا من رضا وعطف ، لو أنه اختارها سيدة له بدلاً من انتقائه من هي أقل منها قدراً ؟ » ثم قالت وهي تفخر : « إن أدنى فارس قد يكرّس نفسه لخدمة العاهلة ، ويكفيه منها عظمتها جزاءً » .

فقال الملك : « ولكنه قد قام بخدمتك وعانى من أجلك كثيراً » .
فأجابه أديث بقولها : « ولقد جازيته على خدماته شرفاً وثناءً ، وعلى آلامه

دموعاً وبكاءً ؛ فلئن كان يطمح إلى غير هذا من ثواب فمن الحكمة أن يعقد حبه
بفتاة من مرتبته .

فقال لها الملك رتشارد : « إنك إذن لا تلبسين قميص الليل الدامى من أجله ؟ »
فأجابته أديث قائلة : « كلا ، وما كان لى أن أطلب إليه أن يستهدف بحياته
للخطر بعمل فيه من الجنون أكثر مما فيه من الشرف » .

فقال الملك : « هكذا أبدأ تتكلم العذارى ؛ وإذا ما تقدم العشيح المحبوب
يطلب يد فتاته تنهدت وقالت له إن نجمها يحكم بغير هذا » .

فأجابت أديث عزيزة النفس وقالت : « إن جلالتك الآن تهددنى للمرة الثانية
بتأثير طالعى ؛ صدقنى ، مولائى ، إنه مهما يكن من سلطان النجوم ، فإن قريبتك
المسكينة لن تقترن بكافر أو مغامر مجهول — إسمح لى أن أصنى إلى موسيقى بلندل ،
لأن نغم تخديرك الملكى لا يشنف الآذان » .

ولم يحدث بقية المساء ما يستحق الذكر .

الفصل الثامن والعشرون

هل سمعت ضجيج المعركة وضوضاءها
حينما يتكسر النصال على النصال ، ويلتقي بالجواد الجواد ؟
جراى

ورؤى نظراً لحرارة الجو أن تم المبارزة الحاسمة التى بعثت على اجتماع هذا الحشد من الأمم العديدة عند (درة الصحراء) بعد مشرق الشمس بساعة ، وكانت أرض النزال الفسيحة التى تم إعدادها تحت إشراف فارس النمر تضم مساحة من الرمل الصلب ، طولها مائة وعشرون ذراعاً وعرضها أربعون ، وكانت تمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب حتى تهبى للفريقين الارتفاع بإشراق الشمس على السواء ، وأقيم الكرسي الملكى لصالح الدين فى الجهة الغربية من الخطيرة فى قلب المكان ، حيث كان ينتظر من المتبارزين أن يلتقيا فى منتصف العراك ، وأقيم تجاه هذا رواق من حجرات مغلقة أنشئ بحيث تستطيع السيدات اللاتى أقيم لايوائهن أن يرين القتال دون أن يتعرضن للنظر ، وفى نهايتى أرض النزال أقيمت الحواجز التى يمكن فتحها أو إغلاقها حسبما يريد المرء ، وأقيمت كذلك العروش ، ولكن لما رأى الأرشدوق أن عرشه أسفل من عرش رتشارد أبى أن يشغله ؛ أما قلب الأسد الذى كان على أهبة لأن يسلم بالكثير حتى لا تقف الرسوم فى سبيل النزال فقد رضى لساعته أن يبقى الكفيلان - كما كان يطلق عليهما - على ظهري جواديهما أثناء القتال ؛ وفى طرف من أطراف الميدان وقف أتباع رتشارد تقابلهم صحبة كتراد ؛ وحول العرش الذى أعد للسلطان اصطف حرسه الفاخر من أهل جورجيا ، وشغل بقية الساحة النظارة من المسيحيين والمسلمين . وقبل منبثق النهار بوقت طويل أحاط بساحة النزال عدد من الأعراب أكثر مما رأى رتشارد فى المساء السالف ، ولما أشرقت فوق الصحراء من قرص الشمس البهى خيوط الشعاع الأولى ، قام السلطان نفسه ينادى : « حى على الصلاة ،

حتى على الصلاة ! » بصوته الجمهوري ، فأجابه الآخرون الذين تخول لهم مرتبتهم وتدفعهم حماسهم إلى النداء مؤذنين ، وكان مشهداً رائعاً أن تراهم جميعاً وقد خروا على الأرض سجداً يكررون دعواتهم مولين شطر مكة ، ولكنهم ما إن نهضوا من السجود حتى بدت أشعة الشمس — وسرعان ما اشتد اتقادها — وكأنها تؤيد مازعم اللورد جزلاند في الليلة السابقة ، فلقد انعكس ضياؤها من رؤوس الحراب العديدة ؛ ولا مريية في أن رماح الأمس الجرداء لم تعد كما كانت بغير سنان ، فأشار دى فو لسيدته إلى هذا ، وأجابه الملك جازعاً إنه يثق كل الثقة في إخلاص السلطان ونزاهته ، ولئن كان دى فو يرتاع لجسمه الضخم فلينسحب .

وسرعان ما علا بعد هذا صوت الدق على المزاهر ، وما إن طرق هزيمها أسمع الفرسان حتى نزلوا جميعاً عن ظهور خيولهم ، واستلقوا على وجوههم كأنهم يصلون الصبح ثانية ، وإنما كان ذلك لهيئة الفرصة للملكة وأديث ووصيفاتها كي يخرجن من السرادق إلى الرواق الذي أعد لهن ؛ وقد خفرهن خمسون حارساً من سراى صلاح الدين شاهري السلاح ، وقد أمروا أن يمزقوا إرباً إرباً كل من يجرؤ — أميراً كان أو حقيراً — على النظر إلى السيدات وهن سائرات ، أو يحاول أن يرفع رأسه ، حتى يعلن سكوت الموسيقى للرجال جميعاً أنهم قد أويئ إلى رواقهن حيث لا تراهن العيون المتطلعة .

هذه الرعاية الشرقية لاحترام الجنس اللطيف رعاية لا يتصورها العقل ، حدث بالملكة برنجارياً أن تنفوه ببعض النقد والقدح الشديد في صلاح الدين وبلده ، ولكن عرينهن — كما أطلقت على الرواق الملكة الحسناء — كان مغلقاً في أمن ، ووقف على حراسته أتباعهن السود ، فاضطرت إلى القناعة بأن ترى وتناست إلى حين جنبها لأن ترى ، وهو إلى نفسها أشهى .

وحينئذ ذهب كفيلا البطلين — كما يحتم عليهما الواجب — ليطمئنا على تمام تسليح رجلهما واستعدادهما للنزال ؛ ولم يسارع أرشدوق النمسا إلى تأدية هذا الجانب من طقوس الحفل إذ أنه كان قد أدمن في شراب نبيذ شيراز في الليلة

السالفة إيماناً شديداً لم يألفه ، ولكن كبير رجال المعبد ، وقد كان أكثر منه اهتماماً بنتيجة النزال ، بكر إلى خيمة كتراد منتسرا ، ولشدها كانت دهشته حينما أنكر عليه الأتباع الدخول .

فقال لهم كبير رجال المعبد وقد اشتد به الحنق : « ألا تعرفوني أيها الأوغاد ؟ » . فأجاب خادم كتراد وقال : « إنا نعرفك أيها الرجل الشجاع المبجل ، ولكن حتى أنت لا يجوز لك الدخول الآن — إن المركيز قد أوشك أن يقر بما في نفسه » .

فصاح رجل المعبد في نعم اختلط فيه الذعر بالدهشة والازدراء وقال : « كيف يقر بما في نفسه ؟ ولن ؟ ناشدتك الله إلا خبرتموني » .

فقال الخادم : « لقد أمرني سيدي أن أكتم السر » ؛ وما إن سمع كبير رجال المعبد هذا حتى دفعه وخلفه وراءه ودخل القسطاط عنوة .

فألقي مركيز منتسرا جاثياً لدى قدمي ناسك عين جدة وهو يوشك أن يعترف . فقال كبير رجال المعبد : « ما ذا تعنى بهذا أيها المركيز ، هيا وانهض واستح وإلا فإن كان لا بد لك من الاعتراف ، فهأنذا » .

فأجاب كتراد بوجه شاحب وصوت متهدج وقال : « لقد اعترفت لك كثيراً قبل الآن ، فناشدتك الله أيها الرئيس الأعظم أن تعزب ، ودعني أكشف عن مكنون نفسي لهذا الرجل الطاهر » .

فأجابه رئيس الفرسان وقال : « فيم هو أطهر مني ؟ أيها الناسك ، أيها المجنون — قل لي إن كنت تجسر على القول ، فيم أنت تفضلني ؟ » .

فأجابه الناسك قائلاً : « أيها الرجل الوقح الدنيء ، أعلم أني كالنافذة الشبكية ، ينفذ النور إلا آسهي خلالي لصالح الآخرين وليس لي — واحسرتاه — فيه خير ، وما أنت إلا كالعمامة الصلبة لا تتأني لنفسها النور ولا تبلغه غيرها » .

فقال كبير رجال المعبد : « لا تهذر لي بهذا ، إن المركيز لن يعترف هذا الصباح إلا إن كان الاعتراف لي لأني لن أفارق جانبه » .

فقال الناسك لكزاد : « هل هذه مشيئتك ؟ ولا تظن أنى سوف أصدع بأمر هذا الرجل المتكبر إن كنت ما زلت ترغب فى معونتي » .
فقال كزاد مترددا : « ياويلتى ! ماذا تريدنى أن أقول ؟ — استودعتك الله الآن ، فسوف نتحدث فى هذا الشأن بعد حين » .

فصاح الناسك : « قاتل الله التسويف ! إنه يقتل النفس ! — وداعا أيها الرجل التعس — وداعا ، لا إلى حين ، ولكن إلى أن يلتقى كلانا حينما كان ثم التفت إلى كبير رجال المعبد وقال : « أما أنت (فلترتجف) ! » .
فأجابه صاحب المعبد مزدريا وقال : « (أرتجف !) والله إن أردتُ هذا ما استطعته » .

ولكن الناسك كان قد فصل عن الفسطاط فلم يستمع إلى جوابه .
وقال الرئيس الأعظم : « تعال ! إلى هذا الترس على عجل ؛ وما دمت تريد أن تؤدي هذا العمل الطائش فاستمع إلى ؛ أظننى أعرف أكثر مواطن الضعف فى نفسك عن ظهر قلب ، وإذن فلنفض الطرف عن التفصيل فقد يطول ، ولنبدأ بالغفران ؛ لا طائل من سرد الآثام الدنسة ونحن نقدم على إزالتها من أيدنا » .
فقال كزاد : « إنك تعرف من أنت ، فمن الكفر بالله أن تتحدث عن مغفرة الآخرين » .

فقال صاحب المعبد : « إن هذا لا يتفق ونص الكتاب يا سيدى المركز ؛ إنك أكثر وسوسة من الأرثوذكس ؛ إن غفران القس اللئيم له من الأثر كما لو كان قديساً — وإلا فاللهم ارحم التائب المسكين ! من هذا الجريح الذى يسأل إن كان الجراح الذى يضمده جراحه طاهر اليدين ؟ — تعال وهيا بنا إلى هذا العيث » .
فقال كزاد : « كلا ، والله لخير لى أن أموت بغير اعتراف من أن أهزأ بالسرس المقدس » .

فقال صاحب المعبد : « تعال أيها المركز النبيل ، استنهض شجاعتك ، ولا تقل بهذا القول ، إنك سوف تقف بعد ساعة ظافراً فى ساحة النزال ، أو

تعترف وأنت في خودتك كما يعترف الفارس المقدام .
فأجاب كتراد قائلاً : « يا للويل أيها الرئيس الأعظم ؛ إن كل شيء في هذا الشأن كان مشئوماً ، وما اكتشف الكلب بغيريته عن الأمر هذا الكشف العجيب — وإعادة الفارس الاسكتلندي إلى الحياة ، ومجيئه إلى ساحة النزال كالطيف — ما هذا إلا من علامم الشر » .

فقال صاحب المبدد : « ما هذا الهراء ! لقد رأيتك وأنت تصوب رححك نحوه جسوراً وأنتما تلهوان ، وقد تعادلتما في الظفر — فاحسب أنك في مباراة ، ومن ذا الذي يقف في ميدان الطعان خيراً من وقفك ؟ تعالوا أيها الحشم وخدام السلاح ؛ إن سيدكم ينبغي أن يتأهب لميدان القتال » .

فدخل الخدم على إثر ذلك وشرعوا في تسليح المريكز .

وقال كتراد : « كيف جو الصباح في الخارج ! » .

فأجابه أحد الخدم قائلاً : « لقد أشرقت الشمس معتمة » .

فقال كتراد : « ها أنت ذا ترى أيها الرئيس الأعظم أن لا شيء يبسم لي » .

فأجابه صاحب المبدد وقال : « لسوف يكون قتالك أكثر جرأة يا بني ،

واحمد الله الذي خفف من حدة شمس فلسطين كي توائم ما أنت مقبل عليه » .

وهكذا كان يمزح الرئيس الأعظم ، ولكن نكاته فقدت تأثيرها على عقل

المريكز المضطرب ، ورغم أنه حاول أن يظهر بالابتهاج ، إلا أن صاحب المبدد قد

أدرك كآبته .

ففكر في نفسه : « إن هذا النذل سوف يخسر المعركة لمحض وهنه ، وخور

قلبه الذي يسميه رقة الضمير . كان ينبغي لي أنا — وأنا لا يهزني خيال ولا طيرة ،

ثابت في مرماي ثبوت الصخر — أن أقاتل في المعركة بنفسى ؛ وددت والله لو

أن الأستلندي ضربته الضربة القاضية وقضى عليه في حينه ؛ فما بعد فوزه بالنصر

ما هو خير من هذا ، ولكن مهما يكن من شيء ، فينبغي أن لا يكون له قس

غيري يعترف له ، فإن إثمي شديد الاشتباك بإثمه ، وقد يقر بذنبي في إثر ذنبه » .

وبينا هذه الخواطر تلعب برأسه ، كان يواصل معونة المركز على التسليح وهو صامت .

وأخيراً حانت الساعة ونفخ في الأبواق ، ونزل الفارسان في ساحة النزال راكبين مسلحين إلى الأطراف ، وكانا على ظهري جواديهما أشبه برجلين أوشكا أن يشتبكا في معركة في سبيل شرف أمة بأسرها ، ورفعا خوذتيهما وطوفا بالميدان ثلاثاً عرضاً للناظرين ، وكان كلاهما جميل الحيا ، ولكن الاسكتلندي كانت على جبينه مسحة من ثقة الرجولة — أمل مشرق تكاد تبتهج له النفس ؛ بينما كانت تخيم على جبين كزاد سحابة من اليأس المشثوم ، رغم أن كبرياءه وتكلفه قد أعادا إليه كثيراً من شجاعته الطبيعية ، وحتى جواده كان يسير على صوت البوق وهو أقل نشوة ومروراً من الحصان العربي النبيل الذي كان يمتطي صهوته السر كنه ؛ وهز المحدث برأسه حينما رأى أن المدعي يطوف بميدان النزال مع مسير الشمس — أي من اليمين إلى اليسار — بينما كان المتهم يدور الدورة نفسها ولكن من اليسار إلى اليمين ؛ وهو مسير مشثوم في عقيدة كثير من البلدان .

وأقيم تحت الرواق الذي تشغله الملكة مباشرة محراب مؤقت ، وقف الناسك إلى جانبه في زى طائفته كقس من كرمل ، وكان بين الحاضرين كذلك غيره من رجال الكنيسة ؛ وإلى هذا المحراب سيق المدعي والمتهم كلاهما ، متتابعين ، يتقدم كلا منهما كفيله . ولما بلغا المحراب ترجلا ، وأقر كل منهما بعدالة قضيته ، وأقسم بأصحاب الإنجيل يمينا مغلظة ، ودعا ربه أن يصيب من النجاح بمقدار ما في قسمه من حق أو باطل ، وأقسما كذلك أنهما أتيا للقتال في لباس الفروسية وبالأسلحة المعتادة ، وأنكر كل منهما استخدام الرق والتمايم والحيل السحرية لاستمالة النصر إلى جانبه ؛ ونطق المدعي اليمين بصوت ثابت مسترجل ، وطلعت عليها سيما الجرأة والبهجة ؛ ولما فرغا من هذه الطقوس ، تطلع الفارس الاسكتلندي إلى الرواق ، وطأ رأسه نحو الأرض إجلالا لتلك الجمال المستتر الذي كان محتجبا في الداخل ، ثم وثب وهو مثقل بالسلاح على ظهر جواده دون أن يستخدم الركاب ، واستحث

الحصان على أن يسير به تارة عن يمين وطوراً عن شمال ، حتى يبلغ به موقفه في الطرف الشرق من الميدان ؛ وتقدم كتراد كذلك نحو المحراب وفيه من الإقدام الكفاية ، ولكن صوته وهو يقسم اليمين كان أجوف كأنه يسيخ في خوذته ، ودعا الله أن يحكم بالنصر للقضية العادلة بشفتين أخذتا تشجان وهما تلفظان بهذه السخرية الكافرة ؛ ولما أن عطف على جواده يركبه ، دنا منه الرئيس الأعظم واقترب كأنه يريد أن يصلح شيئاً في وضع درعه وهمس في أذنه : « ما أنذلك وما أغفلك ! استجمع حواسك وأدلى هذه المبارزة بشجاعة ، وإلا فوالله لو نجوت منه لما نجوت مني ! » .

وربما كان في النعمة القاسية التي همس بها الرئيس في أذن المركز تمة اضطراب أعصابه ، إذ أنه زل وهو يمتطي الحصان . وحقا لقد أعاد قدميه إلى الثبوت ، ووثب على ظهر الجواد برشاقتة المهودة ، وأبدى حذقه في ركوب الخيل وهو يتخذ مكانه أمام المدعى ، إلا أن الزلة لم تنب عن أعين أولئك الذين وقفوا يترقبون الطيرة التي قد تتكهن بقضاء ذلك اليوم .

ودعا القساوسة ربهم خاشعين أن يحصص الحق في النزاع ، ثم فصلوا عن الميدان ؛ ونفخ في بوق المهاجم عالياً ، ونادى مناد مدجج بالسلاح في الطرف الشرق من الحلبة وقال : « هنا يقف فارس كريم ، هو السر كنت الإسكتلندي ، بطل نائب عن الملك العظيم رتشارد ملك إنجلترا ، الذي يتهم كتراد مر كيز منتسرا بالخيانة الشنعاء ويجرح عزته . »

ولما ذكر النداء « كنت الإسكتلندي » فأعلن بذلك اسم البطل وصفته — وما كانت العامة تعرفهما حتى ذاك — انبعت عن أتباع الملك رتشارد هتاف عال مرح ، وما كادوا يطيقون سماع جواب التهم رغم الأوامر المتكررة بالتزام الصمت ؛ أما التهم فقد أعلن بطبيعة الحال براءته وتقدم للقتال ؛ ثم دنا أتباع المتبارزين وقدم كل فريق لسيدة درعه ورمحه ، معينا إياه على تعليق الدرع برقبته بحيث تبقى كلتا يديه طليقتين ، إحداهما لتمسك بالزمام ، والأخرى لتضرب بالرمح .

وكان يظهر على درع الاسكتلندي « النمر » شعاره القديم ، مزيد عليه طوق
وسلسلة محطمة إشارة إلى أسره في الأيام الأخيرة ؛ أما درع المركز فكان يحمل
صورة جبل صخري نأى إيماء إلى لقبه [منت = جبل ، سرا = نأى] ، وهز
كل منهما برمحه فوق رأسه كأنه يريد أن يتثبت من وزن السلاح الضخم وصلابته ،
ثم أقره في غمده ثانية ، وتراجع الكفيلان والمنادون والأتباع بعدئذ إلى الحواجز ،
وجلس المتضاربان متقابلين وجهاً لوجه برماح منكسة وخوذات مسترخية ، وجسداهما
مستتران كل التستر ، حتى لقد كانا إلى تماثيل من الحديد المسبوك أقرب منهما إلى
مخلوقين من اللحم والدم ، وساد بين الحشد صمت الانتظار — وغلظت أنفاس
الرجال ، وباتت أرواحهم وكأنها في عيونهم جامئة ، ولم يعمل صوت غير نفخ الجوادين
الكريمين بالمنخرين ونبشهما بالحوافر ، وقد أحس الجوادان بما أوشك أن يقع ،
فكانا على قلق لأن يندفعا إلى العراك ؛ ووقفنا كذلك نحواً من ثلاث دقائق إلى
أن صدرت عن صلاح الدين إشارة ما ، فشق الهواء مئين الآلات بجلبتها النحاسية ،
وحفز كل بطل حصانه بالهماز وأرخی الزمام ، وعدا الجوادان عدوا سريعاً ،
والتقى الفارسان وسط الميدان يهزان الأرض كالرعد القاصف ؛ وما كان في
الظفر رية — كلا ، ولم يكن ثمة لحظة من شك ، فلقد كان يبدو على كتراد
حقاً أنه مقاتل مدرب ، إذ أنه ضرب خصمه ضربة الفارس وسط درعه ،
وهو يحمل رمحه مستقيماً مسدداً ، حتى لقد سقط الرمح محطماً من رأسه الصلب
إلى طرف القفاز ؛ وكر حصان السر كنه متراجماً ذراعين أو ثلاث ، وسقط
على عجزه ، ولكن راكبه خف إلى إنهاضه بيده وعنانه ؛ أما كتراد فنزل ولم ينهض ،
لأن السر كنه طعنه برمحه فاخترق الدرع ثم زرداً موهماً من صلب « ميلان »
ثم ستره من حلق الحديد تحت الزرد ، وجرحه في صدره جرحاً بليغاً ، ثم رفعه
عن ظهر جواده تاركاً قناة الرمح في الجرح راسخة ؛ وحينئذ احتشد حول الجريح
الكفيلان والمنادون وصلاح الدين نفسه بعد أن نزل عن عرشه ؛ أما السر كنه
فقد جرد سيفه ، قبل أن يدرك أن خصمه قد بات عاجزاً كل العجز ، وأمره

حينئذ أن يقر بإثمه ، فرفع الرجل الجريح خوذته على عجل ، وحدق ببصره في السماء وأجاب : « ماذا تريد مني أكثر من ذلك ؟ لقد حكم الله بالعدل — أنا آثم ؛ ولكن بالمعسكر من هم شر مني خيانة — آتوني بالقس إشفاقاً على روحي ! » .

وعادت إليه الحياة وهو ينبس بهذه الكلمات .

فقال الملك رتشارد لصلاح الدين : « بالتميمة — بذلك العلاج الناجع ،

يا أخي المليك ! » .

فأجاب السلطان قائلاً : « إنما أخلقُ بالخان أن يُجذب من عقبه ويُبعد عن الميدان إلى المقصلة ، لا أن ينتفع بمزاياها » . ثم قال بعد ما حدق ببصره في الرجل الجريح : « وإن في نظرتَه لمثل هذا القضاء ، لأن جرمه قد يشفى ، ولكن عزرائيل قد ختم على جبين اللثيم » .

فقال رتشارد : « ورغم هذا ، فإني أتوسل إليك أن تقوم له بما تستطيع ، حتى يتسع له الوقت للاعتراف على الأقل ؛ لا تقتل فيه الروح والجسد ! إن نصف ساعة من الزمن قد تعادل حياة أكبر البطارقة سنًا عشرة آلاف مرة » .

فقال صلاح الدين : « سأطيع إرادة أخي المليك . أيها العبيد ، احمولوا هذا

الرجل الجريح إلى سرادقنا » .

وكان صاحب المعبد حتى آتئذ واقفاً مكتئباً ينظر في صمت فقال : « لا تفعلوا

ذلك ، إني ودوق النمسا المللكي لا تقبل أن يأخذ العرب هذا الأمير المسيحي التمس ، ويختبروا فيه تمامهم ؛ نحن المتكفلين به نطلب إيداعه تحت رعايتنا » .

فقال رتشارد : « أي أنكما تأبيان هذه الوسيلة بعينها التي تقدم لشفائه ؟ » .

فقال الرئيس الأعظم وقد استجمع نفسه : « كلا ، ليس الأمر كذلك . إذا

كان السلطان يستخدم أدوية شرعية فإنه يستطيع أن يعنى بالبريض في خيمتي » .

فقال رتشارد للسلطان : « أتوسل إليك يا أخي الكريم أن تفعل ذلك ، وإن

يكن الإذن قد صدر بفظاظة وخشونة — والآن هلم بنا إلى عمل أجل من هذا —

انفخوا في الأبواق — واهتفوا يا أبناء الإنجليز — إجلالاً لبطل إنجلترا ! » .

فدقت الطبول ونفخ في الأبواق ، وضربت الصنوج في الحال ، وعلت الأصوات بالهتاف المتواصل ، وهو طريقة التهليل الانجليزية التي ألفوها دهوراً ، وذلك وسط صياح الأعراب المجلجل الذي لا يسير على ترتيب ، كما ترن أنغام الأرغن وسط عويل العواصف ، وأخيراً ساد الصمت بين الحاشدين .

وواصل قلب الأسد حديثه وقال : « أي فارس النمر الشجاع ، لقد بينت لنا أن الأتيوبي قد يبدل جلدأ غير جلده ، والنمر الأرقط سمات غير سماته ، وذلك رغم أن الكهنة لا يعرفون من المستحيلات إلا ماجاء في الكتاب المقدس ، ولكني أريد أن أحدثك حديثاً آخر حينما أسير بك إلى حضرة السيدات وهن خير حكم وخير من يجازى أعمال الفروسية » .

فانحنى فارس النمر انحناء القبول .

« وأنت أيها الأمير صلاح الدين سوف تمثل لديهن كذلك ، وإنى أؤكد لك أن ملكتنا لن تحسب أنها على الرحب إلا إذا تهيأت لها الفرصة لتشكر مضيفها الملك لاستقبالها هذا الاستقبال الفاخر » .

فطأطأ صلاح الدين رأسه برشاقة ولكنه رفض الدعوة .

وقال : « إنما يجب أن أعنى بالرجل الجريح ، إن الطبيب لا يترك مريضه إلا كما يترك البطل ساحة الوغى ، حتى وإن دُعي إلى مخدع كخداع الفردوس . وفوق هذا ، أيها الملك رتشارد ، لتعلمن أن دم الشرق لا يتدفق هادئاً في حضرة الجمال كدم أبناء بلادكم ، ولقد قيل : (إن عيني المرأة كظباءة السيف ، فمن ذا الذي يستطيع أن يحرق فيهما ؟) . من أراد أن لا يحترق ، فليتنجب أن يسير على النار الحامية . إن عقلاء الرجال لا ينشرون الكتان أمام الهييب المتقد ، ويقول الحكماء : « من أضع كنزاً ، فليس من الحكمة أن يتطلع إلى الخلف كي يملأ منه ناظره » .

ونعتقد أن رتشارد قدر هذه الدوافع الرقيقة التي انبعثت عن خلقٍ يختلف عن خلقه ، ولم يلح في مطلبه بعد ذلك .

وهم السلطان بالرحيل وهو يقول : « أملئ أن تقبلوا جميعاً دعوتي إياكم إلى الطعام في منتصف النهار تحت الخيمة السوداء المصنوعة من جلد الجمل ، وهي خيمة زعيم من زعماء كردستان » .

وأذيعت هذه الدعوة بين المسيحيين ، وشملت كل من كانت له من المكانة ما يكفيها لأن يجلس على مائدة أعدت للأمراء .

وقال رتشارد : « أنصتوا ! إن المظاهر تعلن أن ملكتنا ووصيفاتها خارجات من رواقهن ؛ وانظر إلى العمام ترها وقد غاصت في الأرض كأن ملكاً من ملائكة الهلاك قد ضرب فوقها ؛ لقد انكبوا جميعاً على وجوههم كأن نظرة واحدة من عين العربي تطفى بريق حدود السيدات ! هيا بنا إلى السرادق ، وسيروا برجلنا الظافر إلى هناك منتصراً — والله إنى لأشفق على هذا السلطان النبيل الذي لا يعرف عن الحب إلا كما يعرف من هم أدناً منه طبعاً ! » .

وضرب (بلندل) على قيثارته أعلى أنغامها ترحيباً بمقدم الظافر إلى سرادق الملكة برنجاريا ، وقد دخل مستنداً يميناً ويساراً على ضامنيه رتشارد وتوماس لنجسورد ، ثم جثا خاشعاً أمام الملكة ، ولكن أكثر من نصف الولاء كان موجهاً في صمت إلى أديث التي كانت تجلس إلى يمينها .

وظفحت نفس الملك بشراً ، وأراد أن يقوم بتقاليد الفروسية فقال : « جردوه عن سلاحه ، سيداتي ، وليشرف الجمالُ الشهامة ! انزعى عنه مهمازيه يا برنجاريا ؛ إنك ملكة ، ولكنك تدينين له بكل شارة من شارات الرضا بوسعك أن تمنحها إياه . حلّ رباط خوذته يا أديث — حلّ يديك حتى وإن كنت أشد ذرية بلانتاجنت كبراً ، وكان هو أفقر فارس على وجه البسيطة ! » .

وصدع السيدتان بالأمر الملكي — وشرعت برنجاريا تعمل بمشاربة واهتمام ، حريصة على أن تشبع رغبات زوجها ، وأديث تتنابها حمرة الحياء حيناً والشحوب المتزايد حيناً آخر ، وهي تفك بتؤدة واضطراب — يعاونها لنجسورد — الروابط التي كانت توثق الخوذة بالزرد .

ولما نزع الخوذة عن السركنث بدت للعيان طلعتة ، ووجهه ينبض بالجهد الذى بذل حديثاً ، كما ينبض - بما لا يقل عن ذلك شدة - بالعاطفة الثائرة فى نفسه إذ ذاك ، فقال رتشارد : « ماذا تنتظرون من وراء هذا الرداء الحديدى ؟ ماذا ترون فيه أيها الشجعان وأيتها الحسان ؟ » ثم قال : « هل هو يشبه العبد الأتيوبى ، أم هل يبدي وجه مغامر مجهول غير ذائع الصيت ؟ كلا ومهندي الكريم ! - هنا نهاية تنكره على ضروبه المختلفة ، لقد جثا أمامك وما تعرفين عنه غير فضله ، ولينهض كذلك مميزاً بكرم أرومته وبحسن طالعه ، لينهض الفارس الجرىء (كنث) باسم (دافيد إيرل هنتنجدن) أمير اسكتلندا الملكى ! » .

فساد بين الجميع العجب والدهشة ، وسقطت من يد أديث الخوذة التى أمسكت بها منذ حين .

وقال الملك : « أجل ، سادتى ، إنه لكذلك . إنكم تعرفون كيف أن اسكتلندا قد خدعتنا حينما ارتأت أن تبعث إلينا بهذا (الايرل) الجسور بصحبه جماعة من الشجعان من خيار أبنائها ونبلائهم ليعاونوا جيوشنا فى هذه الحملة على فلسطين ، ثم أخلت بوعدها ؛ ولكن هذا الشاب النبيل ، الذى كان على الصليبيين الاسكتلنديين أن يسيروا تحت لوائه ، أدرك أن من فحش العار أن يمسك سلاحه عن الحرب المقدسة ، فانضم إلينا فى صقلية ومعه ثلة صغيرة من الأتباع الفيورين المخلصين ، انضم إليها الكثير من مواطنيه ، الذين كانوا يجهلون مرتبة قائدهم ؛ وقد حصد الموت كل من يثق فيهم الأمير الملكى سوى تابع واحد مسن ، فى وقت كادسره المحتبى فى طي الكتمان أن يدفعنى إلى أن أقطع - فى شخص مغامر اسكتلندى - أملاً من أنبل آمال أوروبا . لم أكم تذكر مرتبتك يا هنتنجدن النبيل ، وأنت محفوف بخطر أحكامى العاجلة الشديدة الانفعال ؟ هل كنت تحسب رتشارد بمستطيع أن يسىء استخدام ماله من فضل على وريث ملك كثيراً ما ألفاه معادياً له ! » .

فأجاب (إيرل هنتنجدن) وقال : « إني لم أصمك بهذا العسف أيها الملك رتشارد ، ولكنني لم أطق أن أقر بأن أمير اسكتلندا كى أنجو بحياتي — وقد استهدفت للخطر لتقصيري في واجب في الولاء — وفوق ذلك فإني كنت قد أقسمت أن أبقى مرتبتي مجهولة حتى تنتهي الحرب الصليبية ، وما ذكرتها إلا وأنا أتأهب للموت وأعترف لهذا الناسك الواقف هناك » .

فقال رتشارد : « إذن فلقد كانت معرفة هذا السر هي التي حدثت بالرجل الكريم أن يتمجلني في الرجوع عن حكمي الشديد الذي حكمت ؟ ما كان أجدره أن يقول لي إن هذا الفارس الكريم لو سقط من جراء حكمي لوددت فيما بعد لو أن الحادث لم يقع حتى وإن كلفني ذلك شلواً من أشلائي — شلواً ! كلا بل لوددت أن لم يقع حتى وإن كلفني حياتي — مادام العالم لا بد قائل إن رتشارد قد أساء إلى مآل وريث اسكتلندا — وقد وثق الرجل في كرمه » .

فقال الملكة برنجاريا : « ومع ذلك فهل لنا أن نعرف من جلالتك بأية صدفه عجيبه سعيدة انحل هذا اللغز بعد لأي ؟ » .

فقال الملك : « وردت إلينا الرسائل من إنجلترا ، وعلمنا منها من خلال ما حملت من أبناء أخرى غير سارة أن ملك اسكتلندا قد ألقى القبض على ثلاثة أو أربعة من نبلائنا وهم يحجون إلى القديس « ننيان » ، وذريعته في ذلك أن وريثه الذي ظن الناس أنه يقاتل في صفوف الفرسان التوتون ضد المنافقين في « بروسه » هو في الحقيقة في معسكرنا وتحت سلطاننا ؛ ولذا فقد رأى وليم أن يقبض على هؤلاء النبلاء رهناً لسلامته ، فرمى لي هذا الحادث الشعاع الأول على مرتبة فارس النمر الحق ، وأيد شكوكي دي فو ، الذي عاد من عسقلان ومعه خادم إيرل هنتنجدن الأوحد ، وهو رقيق صلب الرأي ، سار مع دي فو ثلاثين ميلاً كي يفشو له سرا كان ينبغي له أن يبوح لي به » .

فقال لورد جزلاند : « التمسوا المذرة « لستروخان » العجوز ، فلقد علمته التجارب أن قلبي أشد ليناً من قلوب بلاتناجت » .

فصاح به رتشارد : « قلبك لين ؛ كيف هذا وأنت سلعة من الصلب العتيق ،
أو حجر من صوان (كمبرلاند) ! » . ثم التفت إلى ابنة عمه وتكلم بأسلوب
صعد منه الدم في وجنتيها ، وقال : « إنما نحن ، يا أديث ، أبناء بلا تاجنت ، الذين
نفخر بالقلوب اللينة الحساسة ؛ هات يدك يا ابنة عمي الحسنة ، وأعطني يدك
يا أمير أسكتلندا » .

فتراجعت أديث وجاهدت أن تحفي اضطرابها ، وهي تزعم أنها تحاول المزاح
بسلامة طوية قريبها المليك ، وقالت : « أفلح عن هذا مولاي ؛ ألا تذكر أن يدي
قد كتب عليها أن تهدي صلاح الدين المسلم العربي — وكل جيوشه من ذوى
العالم — إلى الدين المسيحي ؟ » .

فاجابها رتشارد قائلاً : « أجل ، ولكن ربح التنبؤ قد انقلبت ، وهي الآن
تهب من ركن آخر » .

فتقدم الناسك وقال : « لا تسخر وإلا اشتد إثمك ؛ إن ملائكة السماء
لا تكتب غير الحق في سجلها المنير ؛ إنما هو بصر الإنسان الذى بلغ به الوهن
أن لا يقرأ ما سطوروا صواباً ؛ اعلم أنى حينما هجع صلاح الدين العربي وكنت في
مفارتي ، طالعت النجم وعلمت أن تحت سقيفتي أميراً ، هو عدو رتشارد الطبيعي ،
وأن حياة أديث بلا تاجنت معقودة بحياته ، فما كان لى أن أشك في أن ذلك هو
صلاح الدين الذى كنت بمكاته عليا ، لأنه كثيراً ما أتى لزيارتي بالكهف يحدثنى
في دورات الأجسام السماوية ؛ ثم هدتنى بعد ذلك أنوار الكون إلى أن الأمير ،
زوج أديث بلا تاجنت ، سوف يكون مسيحياً ، وأنا في تأويل النجوم ضعيف
ساذج ، فاستنبطت إذ ذاك اعتناق السلطان النبيل للمسيحية ، وهو رجل كثيراً
ما مالت به صفاته الكريمة نحو الحق . إن إحساسى بضعفى قد أذل أنقى
إلى الرغام ، ولكنى في الرغام وجدت راحة الضمير ! إنى لم أصب مطالعة أقدار
الآخرين — ومن يدرينى لعلى كنت أخطى حساب نجمى أنا نفسى ؟ إن الله
لا يريدنا أن نسطو على حقوق الملائكة أو نستطلع أسراره الخفية . إنما واجبنا أن

ننتظر يوم الدين ساهرين خاشعين يعمر قلوبنا الخوف والأمل . لقد أتيت إلى هنا رسولا متقشفاً ، ونيباً شامخاً ، أجيدهم — حسب ظني — إرشاد الأمراء ، وقد وهبني الله قوى غير طبيعية ، وأثقلني بحمل حسبت أن لا يطيقه غير عاتق ، ولكن موثيق قد تقطعت ! فلأعودن من هنا متواضعاً في جهالتي ، نادماً ، ولكنني لست قانطاً بغير أمل .

وبعد ما أتم هذا الحديث انسحب من الجمع ؛ ويسجل التاريخ أن نوبات الجنون قل أن عاودته من منذ ذلك الحين ، وأن كفارته باتت من الضرب الخفيف ، مصحوبة بأمل في المستقبل خير من أمله السالف ؛ وكان لديه من الاعتداد بالرأى — حتى في جنونه — الشيء الكثير ، حتى إنه لما أيقن أنه كان يرحب بنبوءة لا أساس لها — بل ويبشر بها بحماسة شديدة — كان لذلك على نفسه أثر كأثر الدم يفيض من جسم الإنسان فيلطف من حرارة الذهن ويخفف عنها .

ولا حاجة بنا إلى أن نتبع بالبيان المفصل مؤتمرات السرادق الملوكي ، أو أن نعرف هل « داويد إيرل هنتنجدن » كان في حضرة أديث بلاتاجنت صامتاً صمته حينما كانت مضطراً إلى العمل وهو متنكر في شخص مغامر مجهول لا اسم له ؛ ويجوز لنا أن نعتقد صواباً أنه كان في هذا المقام يعبر بالحماسة اللاتفة عن عاطفته التي كثيراً ما تعسر عليه من قبل أن يلبسها ثوب الكلام .

واقتربت الظهيرة ، ولبث صلاح الدين ينتظر أمراء العالم المسيحي في خيمة لا تختلف كثيراً عن الخيام المألوفة بين عامة الكرد والعرب ، اللهم إلا في ضخامة حجمها ؛ ومع ذلك فقد أعدت تحت طرفها الأسود الفسيح مادة على أنغر طراز في الشرق ، ومُدت على بسط من أنفاس الأنواع ، نثرت عليها الوسائد للزائرين ؛ ولكننا لانستطيع أن نقف بالقارى ونصف له صحائف الذهب والفضة — والتفويف الفاخر بالنقوش العربية — وشملات الكشمير — وحرير الهند ، التي كانت منشورة هناك بكل جلالها وجمالها ؛ كما أنا لا نستطيع ألبتة أن نتحدث عن أصناف الحلوى العديدة ، والطعام المحفوف بالأرز الملون على أشكال عدة ، وكل ما لده وطاب

من غير ذلك من ألوان الطهي الشرقى ، من خراف مشوية بأسرها ، وصيد وطير
وطهى بالأرز واللحم والتوابل ، مكدياً فى أوان من ذهب ومن فضة وخزف ،
ومختلطا بأقداح من حلو الشراب المبرد بالثلج والجليد من كهوف جبل لبنان ؛
وكان على رأس المادة كدس عظيم من الوسائد كأنه أعد لصاحب الوليمة ، ولمن
يدعوهم من أصحاب المقام الرفيع لأن يتخذوا مكانهم فى ذلك الموضع المميز ؛ وكم
من راية وعلم ، وكم من شارة من شارات الظفر فى الحروب وقهر المالك والدول
كانت ترفرف فوق الخيمة فى كل ناحية ، وبخاصة فوق هذا المقعد الرفيع الشأن .
ولكن بين هذا كله ، وفوق هذا كله ، كان هناك رمح طويل يتعلق به كفن ،
هو علم الموت ، وقد كتبت عليه هذه العبارة القوية : « صلاح الدين ملك الملوك
— صلاح الدين قاهر القاهرين — صلاح الدين يجب أن يموت » ووسط هذا
الإعداد ، وقف العبيد — الذين أعدوا ألوان الطعام — برؤوس منكسة وسواعد
مطبوقة ، صامتين لا حراك بهم كأنهم تماثيل للذكرى ، أو شخصيات آلية تنتظر
مسّ الفنان لتتحرك .

وكان السلطان يعتمد — كغيره — فى الكثير من خرافات زمانه ، فوقف —
وهو ينتظر اقتراب زائريه الأمراء — يستطلع بروج السماء ويديه كتاب مسطور
بعث به إليه ناسك عين جدة حينما فصل عن المعسكر .

وتتم لنفسه قائلاً : « ما أعجب هذا العلم وما أغمضه ! إنه يزعم أنه يكشف
عن المستقبل الحجاب ، ولكنه يضل أولئك الذين يتظاهرون بإرشادهم ، ويظلم
المنظر الذى يزعم إضاءته ! من ذا الذى كان لا يقول أنى كنت ألد خصوم رتشارد
وأشدهم عليه خطراً ، وأن عداوته سوف تنتهى بالزواج من قريبته ؟ ولكن الآن
يظهر أن اقتران ذلك (الإيرل) الشهم بالسيدة ، سوف يودى إلى الصداقة بين
رتشارد واسكتلندا ، وهى بلد أشد منى عداوة وخطراً ، فعلى كالقط الوحشى فى
الغرفة يُحشى بأسه أكثر من الليث فى الصحراء النائبة ... » ، ثم وسوس
لنفسه قائلاً : « ولكن النجم كان يشير إلى أن هذا الزوج سوف يكون مسيحياً

وسكت قليلا وكرر الكلمة وقال : « أجل ، مسيحيا ؛ ولقد بعث ذلك في المنجم المهوس المجنون الأمل في احتمال ارتدادى عن ديني ! ولكن ما كان هذا ليخدعنى أنا ، أنا ذلك التابع المخلص للنبي » ، ثم رمى بالمكتوب تحت أكداس الوسائد وقال : « البث هنا أيها المكتوب الخفى الغامض ، ما أعجب ما نبأت به ، وما أشده على النفوس وقعا ، ما دمت — حتى إن صدقت فيما جاء بك — لن تصيب من يحاول حل رموز معانيك إلا بكل أثر من آثار الباطل — ماذا يقصد هذا القادم ؟ » .

وقد وجه عبارته الأخيرة هذه إلى القزم نكتبانس الذى اندفع إلى داخل الخيمة وهو يرتعد اضطرابا ، وكل لحظة من ملاحظه العجيبة ، التى لا نسق فيها ، قد التوت فزعا ورعبا ، حتى صار شديد القبح ، فارط الكآبة — وفمه فاجر ، وعيناه مملقتان ، ويداه ممدودتان زعرا ، وأصابه ممسوخة مجمدة .

فقال السلطان عابسا : « ما وراءك ؟ » .

فأجابه القزم متأوها وقال : « خذ هذه » .

فقال صلاح الدين : « ماذا تقول ؟ » .

فأجابه هذا المخلوق المذعور قائلا : « خذ هذه » ، وربما كان لا يدرك أنه إنما يكرر اللفظ بعينه .

فقال العاهل : « عنى ، إن أعصابى الآن لا تحتمل الهزل » .

فقال القزم : « وما أنا الآن بهازل ، إلا إن كان هزلى يعاون فطنتى على كسب القوت ، وأنا ذلك اليأس البائس ! استمع إلى ، واصغ لى أيها السلطان الأعظم ! » .

فقال صلاح الدين : « إن كان لديك مظلمة عادلة تشكوها — جادا كنت أم هازلا — فلك الحق فى بثها إلى أذنى ملك ؛ تراجع معى إلى هنا » وسار به إلى الفسطاط الداخلى .

ومهما يكن الأمر الذى تباحثا فيه ، فلقد ارفض اجتماعهما على عجل حينما

نمت إليهما أصوات الأبواق التي أعلنت مقدم الأمراء المسيحيين العديدين ، الذين رحب بهم صلاح الدين إلى فسطاطه بملاطفة ملكية تليق بمكانتهم ومكاته ؛ ولكنه حيا (إيرل هنتنجدن) الشاب تحية خاصة وأسرف له في التهنئة بالأمانى التي أحرزها ، والتي تقف في سبيل آماله السالفة وتخيّم عليها .

وقال السلطان : « ولكن لا تحسبن أيها الشاب النبيل أن أمير اسكتلندا أكثر قبولا لدى صلاح الدين من (كنث) لدى (الضريم) حينما التقيا في الصحراء ، أو من الأتيوبي المنكود لدى الحكيم (أدنك) ؛ إن طبيعته سمحة مقدامة — كطبيعتك — لها قيمة مستقلة عن الحسب والنسب ، كما أن هذا الشراب البارد الذي أقدم إليك الآن لذيذ المذاق من قدح الخرف كما هو من كأس الذهب » .

فأجابه (إيرل هنتنجدن) بما يليق ، واعتترف شاكرآ بالخدمات العديدة التي أداها له السلطان الكريم ، ولكنه لما تناول كأس الشراب السائغ التي قدم إليه السلطان ، وهم بأن يشرب نخبه ، لم يسهه إلا أن يقول مبتسما : « إن الفارس الشجاع (الضريم) لم يعرف كيف يتكون الجليد ، ولكن السلطان السخي يبرد رحيقه بالثلج » .

فقال السلطان : « أفتريد أن يكون العربي أو الكردي عاقلا كالحكيم ؟ من يعمل متنكرآ ينبغي له أن يوفق بين ما في قلبه من هوى وما في عقله من علم ، وبين الزى الذي يرتدى ؛ لقد أردت أن أعرف ماذا يصنع الفارس الفرنجى الجسور الخالص الطوية في الجدل مع زعيم من الزعماء ، كما كان يدل ظاهرى ؛ وقد أثرت الشك في صدق حقيقة ذائعة معروفة ، كي أعرف بأى الحجج أنت تؤيد مزاعمك » .
وبينما هما يتحدان سمع أرشدوق النمسا — وكان قريبا منهما — ذكر الشراب السائغ المثلج ، فدهش لذلك ، وتناول الكأس المترعة معتبطآ مقبلا وإيرل هنتنجدن يوشك أن يردها إلى مكانها .

وبعد ما احتسى جرعة كبيرة ، ضاعفت من لذة مذاقها حرارة الجو والحجى التي عقبته دعارة اليوم السابق ، صاح قائلا : « ما ألذها ؟ » وتهد وهو يناول

الكأس رئيس رجال المعبد الأعظم ، وأشار صلاح الدين إلى القزم ، فتقدم وقال بصوت أجش : « خذ هذه » ، ففزع صاحب المعبد ، كالحصان يرى لينا تحت شجيرة على جانب الطريق ، ولكن سرعان ما تاب إلى ثباته ، وربما أراد أن يخفى اضطرابه فرفع كأس إلى شفثيه — ولكنهما لم يحسا حافة كأس ، ووجد صلاح الدين سيفه عن غمده وسله كما يُسل البرق من السحاب ، وهزبه في الهواء — ثم تطوح رأس الرئيس الأعظم إلى أقصى الخيمة ، بينما بقي الجذع مكانه لحظة ، والكأس ما تزال مثبتة في قبضته ، ثم سقطت كأس ، واختلط الشراب بالدماء التي كانت تندفق من العروق .

فعم الصياح بالخيانة والغدر ، وتقهقر مذعوراً دوق النمسا ، وكان صلاح الدين يقف على مقربة منه ، والسيف في يده يقطر دماً ، وكأن الدوق كان يخشى أن تدور عليه الدائرة ، ووضع رتشارد والآخرون أيديهم على سيوفهم .

وقال السلطان مطمئناً كأن لم يحدث شيء : « لا تخف شيئاً يا دوق النمسا النبيل ، ولا تغضب يا ملك الإنجليز مما شهدت ؛ ما لتكرار الخيانة منه ، ولا من أجل المؤامرة التي دبر للقضاء على حياة الملك رتشارد — كما يقر بذلك خادمه الخاص — ولا لأنه طاردني وأمير اسكتلندا في الصحراء ، وما أبقى لنا من سبيل للنجاة بحياتنا إلا خفة جوادينا — ولا لأنه حث (المارونيين) على مهاجمتنا في هذا الظرف عينه ، لولا أني أتيت عفواً بكثير من الأعراب حتى ماتت الحيلة في مهدها — ما من إحدى هذه الجرائم ولا من أجلها جميعاً ترويه هناك مجندلا ، وإن تكن كل واحدة منها تستحق هذا القضاء — وإنما لأنه منذ أقل من نصف ساعة — قبل أن يفسد علينا حفلنا بمقدمه كما تسم السموم الجو — طعن بخنجره زميله وصاحبه كزاد منتسرا خشية أن يعترف بالمؤامرات التي اشتغلا بها معا » .

فصاح رتشارد . « كيف هذا ! أقتل كزاد ؟ — وييد الرئيس الأعظم ، وليه وصديقه ! أيها السلطان النبيل ، إنى لا أشك فيما تقول ، ولكن هذا الخبر يجب إثباته ، وإلا . . . » .

فقال صلاح الدين وقد أشار إلى القزم المذعور: « هنالك يقف الشاهد والدليل »
إن الله الذي يرسل الجبابرة كي تضيء بالليل ، يستطيع أن يكشف عن خفي
الجرائم بأحقر الوسائل وأدناها .

ثم أخذ السلطان يقص قصة القزم ومؤداها ما يلي : — اشتد بنكتبانس حب
الاستطلاع الطائش أو — كما أقر تنويرها — فكر في النهب والاختلاس ، فنسل
إلى خيمة كتراد بعد أن هجرها أتباعه ، وقد خلف بعضهم المعسكر ليحملوا
خبر انكساره إلى أخيه ، وأخذ بعضهم الآخر يفتم ما أعد صلاح الدين للقصف
والمرح ؛ واستغرق الرجل الجريح في النوم تحت تأثير تيممة صلاح الدين العجيبة ،
فسنحت للقزم الفرصة أن يتجسس كما يشاء ، حتى سمع خطى ثقيلة فارتاب واختفى ،
وتوارى خلف ستار بحيث يستطيع أن يرقب حركات الرئيس الأعظم ويتسمع
إلى كلماته ، وقد دخل الرئيس وأسدل غطاء السرادق خلفه بجرص وحذر ،
فهبت من النوم فريسته ، ويظهر أن الرجل ارتاب في الحال في أغراض صاحبه
القديم ، فسأله وفي صوته نغمة الذعر لماذا جاء يزعمه ؟

فأجابه الرئيس الأعظم قائلاً : « جئت لتعترف لي وأنيحك » .

ولم يذكر القزم الخائف من حديثهم بعد هذا كثيراً ، سوى أن كتراد
توسل إلى الرئيس الأعظم ألا يقضى على رجل جريح ، وأن صاحب المبد طعنه
في قلبه بخنجر تركي وقال له : « خذ هذه » وهما كلمتان أخذتا بعد هذا مدة تتنابان
الخيال المرتاع ، خيال الشاهد المتوارى .

ثم قال صلاح الدين : « ولقد أمرت بفحص الجثة ، وتحققت من صدق
القصة ؛ وجعلت هذا المخلوق البائس ، الذي بعثه الله ليكشف عن الجريمة ، يكرر
في حضر تكلم الكلمات التي لفظها القاتل ، ولقد شهدت بأنفسكم الأثر الذي
تركت على فؤاده » .

وسكت السلطان قليلاً ثم شق ملك أنجلترا الصمت السائد وقال :
« إن كان هذا صدقاً — وهو ما لا أشك فيه — فلقد شهدنا عملاً جليلاً من

أعمال العدل ، وإن يكن إلى الموت لا إلى الحياة ، ولكن لم كان ذلك في هذا الحفل ولم كان بيدك ؟ » .

فقال صلاح الدين : « كنت رسمت لنفسى خطة أخرى ، ولكن لو أننى ما سارعت إلى قتله لا نقلبت نهايته كل منقلب ، لأنى لو كنت سمحت له بارتشاف كأسى — كما أوشك أن يفعل — فكيف كان يسعنى ، دون أن أصم نفسى بوصمة الخيانة للضيف في إقرائه ، أن أنزل به الموت الذى يستحق ؟ لو أنه قتل أبى ثم شاركنى بعد ذلك في طعامى وشرابى ، ما كان لى أن أؤذى شعرة من شعرات رأسه ، ولكن دعونا منه — ولنبعد من بيننا جثته وذكره » .

فنقلت جثته ومحيت علامات القتل أو ووريت بمذق وعلى عجل ، مما كان يدل على أن أمثال هذا الحادث كانت مألوفة معهودة ، حتى أن أعوان صلاح الدين والضباط من حاشيته لم يصعق منهم أحد .

ولكن الأمراء المسيحيين أحسوا بأن المنظر الذى شهدوا كان شديد الوقع على نفوسهم ، وقد اتخذوا مقاعدهم فى المأدبة نزولا عند دعوة السلطان وبجاملته لهم ، إلا أن ذلك قد تم فى صمت الشك والدهشة ؛ ولم تعمل على كل أسباب الريبة والارتباك نفس غير نفس رتشارد وحده ، ومع ذلك فقد بدا عليه كأن خاطراً طراً له يجب أن يسوقه فى أسلوب مقبول شديد الإيحاء على قدر ما يستطيع ، وأخيراً احتسى قدحاً كبيراً من النبيذ حتى ثمأته ، ووجه الخطاب إلى السلطان ، وأراد أن يعرف إن كان حقاً أن (إيرل هنتنجدن) قد تشرف بمنزلته .

فأجاب صلاح الدين باسماً وقال : إنه امتحن حصانه وسلاحه مع وريث اسكتلندا ، كما يفعل الفرسان عادة فيما بينهم حينما يلاقى فى الصحراء بعضهم بعضاً ؛ ثم قال متواضعاً إن الضراب لم يكن حاسماً قاطعاً ، إلا أنه من ناحية ليس لديه سبب قوى يحمله على أن يفخر بنفسه فى هذا الحادث ؛ وأنكر الاسكتلندى من ناحية أخرى هذا الفضل الذى نسب إليه ، وأراد أن يعزوه إلى السلطان .

فقال رتشارد : « حسبك ما نلت من شرف في هذا النزال ، وإني لأحسدك على هذا أكثر مما أحسدك على بسماة أديث بلاتاجنت ، وإن كان أحد الأمرين يكفي جزاء على جهد يوم دام — ولكن ماذا أنتم قائلون أيها الأمراء الأشراف ؛ هل يليق بملقمة ملكية من الفرسان كهذه أن تنفض دون أن تعمل شيئاً لمستقبل الأيام تتحدث به ؟ ما نبذ خائن ، وما قتله ، لهذه الجماعة الشريفة النبيلة الحاشدة في هذا المكان ، والتي ينبغي أن لا تتفرق دون أن تشهد شيئاً جديراً باعتبارها ؟ ماذا تقول أيها السلطان المليك — ماذا لو فصلنا الآن أمام هذه الجماعة الطيبة في الإشكال الذي طال عليه النزاع ، إشكال هذه الأرض ، أرض فلسطين ، فنختم في الحال هذه الحروب الشاقة ؟ ها هي ذى الرحبة على استعداد ، ولن يطمح الإسلام إلى بطل خير منك ، ولسوف أرمين بقفازي نياحة عن العالم المسيحي ، إلا إن تقدم من هو أجدر مني ، وفي محبة الشرف نعتك عمرا كفاصلا لحيازة بيت المقدس » .

وساد صمت عميق ارتقابا لجواب السلطان ، وعلت الحمرة الشديدة جبينه وخديه ، وظن الكثير من الحاضرين أنه تردد في قبول المبارزة ، وأخيراً قال : « إن أنا قاتلت في سبيل المدينة المقدسة ، في وجه من تراهم من الوثنيين وعبدة الأخشاب والحجارة والتماثيل المنحوتة — وإني على يقين من أن الله سوف يشد أزرى — ولئن سقطت تحت حسام الملك رتشارد ، فإنني لن أنتقل إلى الفردوس بميتة أشرف من هذه ، ولكن الله قد أعطى بيت المقدس للمسلمين المؤمنين ؛ وإنه لن الكفر برب النبي أن أسوق إلى المخاطر — رهنا بقوتي وحذقي — ما أملك مطمئناً بتفوق جيوشي » .

فقال رتشارد بنعمة من يطلب الرضا من صديق حميم : « إن لم يكن من أجل بيت المقدس ، إذن فلتبارز حبا للشرف ثلاث مرات على الأقل برماح مسنونة » .

فايتسم صلاح الدين قليلاً لهذا الشغف القوي بالنزال عند قلب الأسد وقال :

« وحتى هذا ليس لي شرعا أن أفعله ؛ إن السيد يضع الراعي على رأس القطيع ، لا من أجل الراعي ، ولكن من أجل الغنم ؛ لو كان لي ابن يحمل الصولجان بعد سقوطي لكانت لي الحرية — كما أن لي الإرادة — في مجابهة هذا النزال الجريء ، ولكن لقد جاء في إنجيلكم ذاته أنه إذا ضرب الراعي تشتتت الرعية » .

فالتفت رتشارد إلى (إيرل هنتنجدن) وتنهّد وقال : « لقد فزت بكل توفيق ، والله إنني لأعطي خير سني حياتي لنصف ساعة بجوار (درة الصحراء) ! » .

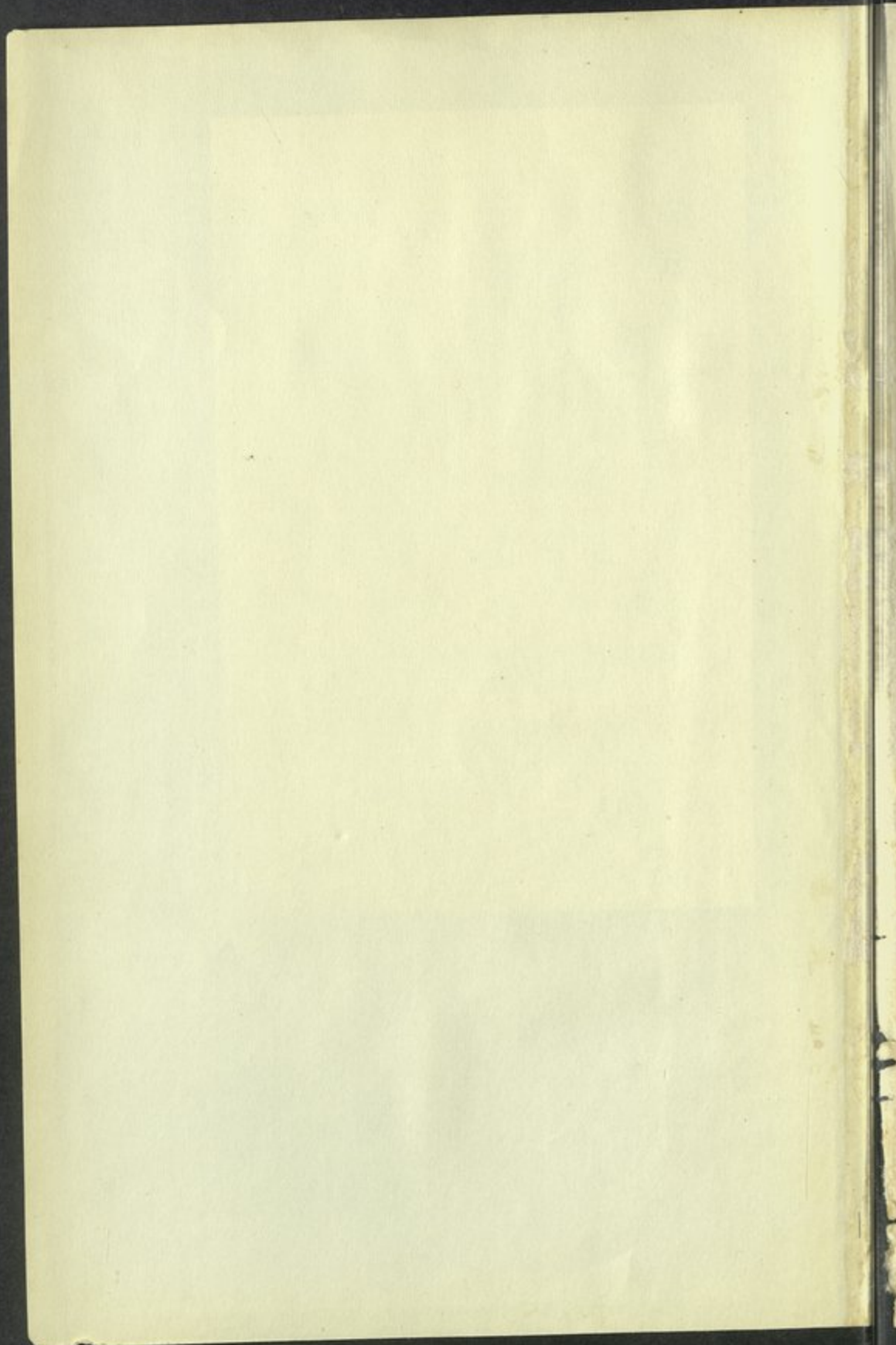
وحرك فرط الفروسية في رتشارد نفوس الحالفين ، ولما نهض أخيراً للرحيل تقدم صلاح الدين ، وأمسك قلب الأسد من يده .

وقال : « أي ملك أنجلترا النبيل ، إنا نفترق الآن على غير لقاء ، وإنني أعرف جيداً — كما تعرف أنت — أن عصابتك قد تفككت عراها ولن تلتئم ، وأن جيوش بلدك قليل عديدها ، ولا تتمكنك من مواصلة ما شرعت فيه ؛ إنني لا أستطيع أن أسلم لك بيت المقدس هذا الذي تتحرق شوقاً إلى حيازته ، فهو لنا — كما هو لكم — بلد مقدس ، ولكن أية شروط أخرى يطلب رتشارد إلى صلاح الدين أسلم لك فيها راغباً كما تتدفق المياه من تلك العين ؛ أجل ، ولسوف يهب صلاح الدين كما تهب العين ، بغير مواربة ، حتى وإن وقف رتشارد في الصحراء ، وما يتبعه غير اثنين من رماة السهام ! » .

وشهد اليوم الثاني عودة رتشارد إلى معسكره ، وبعد فترة وجيزة تزوج (إيرل هنتنجدن) الشاب من (أديث بلاتاجنت) ، وبعث السلطان (بالطلمس) الشهير هدية بمناسبة القران ؛ ولقد تم به شفاء الكثيرين في أوروبا ، غير أنه لم ينجح في أيهم ، ولم يشتهر أمره ، نجاحه وشهرته فيما أنجز صلاح الدين ؛ وهو ما يزال على قيد البقاء ، فلقد ورثه (إيرل هنتنجدن) فارساً شجاعاً من أبناء اسكتلندا ، هو (السر سيمن لي) ، وما تزال أسرته العريقة ، صاحبة الشرف

الرفيع ، تحتفظ به ، ورغم أن الحجارة المسحورة قد بُيِّدَت من علم الصيدلة الحديث ، إلا أن فضائل هذا الطلسم ما زالت تستخدم في إيقاف الدم ، وفي حالات الجنون الكلبى .

١٨٢ / وهنا تنتهى قصتنا ، إذ أن الشروط التى كف من أجلها رتشارد عن غزواته مبسوطه فى كل كتاب من كتب التاريخ عن ذلك العهد .



823:Sc431A:c.1

سكوت، السير وولتر
الطلسم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031959



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

